شَرحُ الأَربَعِينَ النَّوَوِيَّةِ

مَــعَ

زِيَادَةِ ابْنِ رَجَب الحَنْبَلِي

شرحها الشيخ:

مُصْطَفى بْن محمَّد مَبرَم

حفظه الله تعالى

من تفريغ إدارة حساب:

Fawaidmbrm

فوائد ش/مصطفى مبرم

قال شيخنا مصطفى مبرم حفظه الله :

لو دَرس هذا الكتاب طالب العلم دراسةً مُتمحِّصة فإنَّه يستفيد فيه خيرًا كثيرًا في فهم الأحاديث وطريقة شرحها ، لأنَّ هذا المتن بمثابة التَّدرُّج لمعرفة كيفية التَّعامل مع كتب الحديث.

Fawaidmbrm

فهرس

❁ شرح الأربعين النَّووية 5
مقدمة 6
الحديث الأول 27
الحديث الثَّاني 41
الحديث الثَّالث 59
الحديث الرابع 68
الحديث الخامس 76
الحديث السادس 81
الحديث السابع 91
الحديث الثامن 100
الحديث التاسع 106
الحديث العاشر 113
الحديث الحادي عشر 122
الحديث الثاني عشر 129
الحديث الثالث عشر 133
الحديث الرابع عشر 140
الحديث الخامس عشر 147
الحديث السادس عشر 151
الحديث السابع عشر 161
الحديث الثامن عشر 167

الحديث التاسع عشر 171
الحديث العشرون 179
الحديث الحادي والعشرون 183
الحديث الثاني والعشرون 187
الحديث الثالث والعشرون 190
الحديث الرابع والعشرون 203
الحديث الخامس والعشرون 217
الحديث السادس والعشرون 225
الحديث السابع والعشرون 230
الحديث الثامن والعشرون 236
الحديث التاسع العشرون 251
الحديث الثلاثون 261
الحديث الحادي والثلاثون 265
الحديث الثاني والثلاثون 268
الحديث الثالث والثلاثون 272
الحديث الرابع والثلاثون 277
الحديث الخامس والثلاثون 284
الحديث السادس والثلاثون 294
الحديث السابع والثلاثون 302
الحديث الثامن والثلاثون 309
الحديث التاسع والثلاثون 315
الحديث الأربعون 321
الحديث الحادي والأربعون 326
الحديث الثاني والأربعون 329

❁ شرح زيادة ابن رجب الحنبلي 334
مقدمة 335
الحديث الثالث والأربعون 336
الحديث الرابع والأربعون 343
الحديث الخامس والأربعون 347
الحديث السادس والأربعون 351
الحديث السابع والأربعون 357
الحديث الثامن والأربعون 361
الحديث التاسع والأربعون 366
الحديث الخمسون 371
❁ خاتمة 379

شرح

الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله وسلَّم وبـارك على عبـده ورسـوله نبيِّنـا محمَّـد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الأوَّل من مجالس الشَّرح والتَّعليق على متن "الأربعين النَّوويَّـة" لمصـنِّفها أبي زكرياء يحيي بن شرف النَّووي -رحمه الله تعالى-.

وهذه الرِّسالة الموسومة بـ"الأربعين" حظِيَت بعناية أهل العلم أكبر حظوةٍ فيما هو في مثلها من الكُتب والمصنَّفات، وقد ذكر الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في شرحه أنَّ ذلك راجعٌ إلى نيَّته وقصده الحسن، وهذا أمرٌ بينه وبين الله -تبارك وتعالى-.

جرت العادة عند أهل التَّصنيف والدُّروس أن يبدأوا بتعريجٍ على التَّعريـف بالمصـنِّف والتَّعريف بالمصنَّف، وتلك سُنَّتهم في الغالب.

* أمَّا التَّعريف بالمصنِّف فإنَّ ذلك من حقوقه.
* وأمَّا التَّعريف بالمصنَّف فإنَّه ممَّا يُعين على فهم الكتاب كمـا ذكـر العلَّامـة العنقـري -رحمه الله تعالى- في "الدُّرر السَّنِية" لهُ[1].

[1] قال الشَّيخ عبد الله العنقري رحمه الله: (فَمَعْرِفَةُ سَبَبِ التَّصْنِيفِ مِمَّا يُعِينُ عَلَى فَهْمِ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ) ["الدرر السنية" ج9،ص158]

۞ التَّعريف بالمصنِّف:

ترجم كثيرٌ من العلماء للنَّووي -رحمه الله- وصُنِّفت الكتب المستقلة في ترجمته وما كان عليه، ولن نُطيل في ذكر ذلك لأنَّ الوقوف عليه أيضًا أمرٌ متيسِّر.

- فهو يحي بن شرف النَّووي، يحي بن شرف بن حسن بن حُسين بن جُمعة بن حزام الحازمي.
- يُلقَّب بـ:"مُحيي الدِّين".
- ويُكنى بأبي زكرياء.
- ويُنسبُ إلى النَّووي أو النَّواوي وهو القياس الدِّمشقي، -رحمه الله-.

- كان شافعيّ المذهب -رحمه الله وغفر له-، وهذا أمرٌ معلومٌ؛ بل هو من كبار فقهاء المذهب عند الشَّافعيَّة -رحمهم الله- وعلى كتابه "المنهاج" عوَّلوا فيما بعده وجعلوا أصول المذهب مُنطلقة منه.
- وُلد بِنَوى سنة إحدى وثلاثين وستِّمائة.
- وتوفي سنة ستٍّ وسبعين وستِّمائة، ولم يُجاوز الخمسين من عمره؛ بل تُوفي وهو في السَّادسة والأربعين من عمره.
- ومعلومٌ أنَّه لم يتزوَّج.

- ترك المصنَّفات الكثيرة الَّتي رغب فيها النَّاس وعوَّلوا عليها وعكفوا عليها؛ ومن أشهرها: هذا الكتاب العظيم ألا وهو "الأربعين النَّووية".

ومنها كتابه:"رياض الصَّالحين" الَّذي لا يكاد يخلو منه بيتٌ ولا مسجد فضلًا عن المكتبات.

ومنها شرحه على صحيح الإمام مُسلم المُسمَّى بـ:"المنهاج".

ومنها شرحه على المهذَّب للشيرازي وإن كان لم يكمله؛ والمسمَّى بـ:"المجموع".

ومنها "مختصر الرَّوضة".

إلى غير ذلك من كتبه الَّتي هي معلومة.

۞ التَّعرِيفُ بِالمصنِّف:

قدَّم المصنِّف -رحمه الله تعالى- لكتابه بمقدِّمة سنجعلها هي التَّعريف بالمصنَّف؛ فلا نذكر شيئًا مُستقلًّا، فالتَّعريف بالمصنَّف الَّذي هو الكتاب سنجعله هو الَّذي يُعرِّف به لأنَّه ذكر مقدِّمة طيِّبة ضافية فيما يتعلَّقُ بكُتب "الأربعين" وما قصده من تصنيف هذا المتن.

❁ وقبل ذلك ينبغي أن يُعلم أنَّ العلماء -رحمهم الله- قد أَوْلَوْا هذا الكتاب اعتناءً بالغًا -كما ذكرتُ إشارة سابقًا- حفظًا ودرسًا وشرحًا وتخريجًا وما شابه ذلك من وجوه العناية، ولا يكاد زمان من الأزمنة بعد مصنّفه أن يخلو من شرح أو تقرير أو حاشية على شرح لهذا الكتاب، وإن كان من أشهرها وأجلِّها وأوسعها شرح الحافظ أبي الفرج ابن رجب الحنبلي الَّذي سمَّاه بـ "جامع العلوم والحِكم" وله من اسمه نصيب؛ فإنَّه لم يُخْلِه من فوائد حديثية ولُغويَّة وأصولية -رحمه الله وجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين-.

✱ قبل الشُّروع في مقدِّمة المصنِّف ننبِّه على أنَّ النَّووي -رحمه الله تعالى- قد ذكر في كتابه "بستان العارفين" في الصَّفحة الخامسة عشر إلى السَّادسة عشر أنَّ أصل كتابه هذا مجلس إملاءٍ لأبي عمرو عثمان بن عبدالرَّحمن بن الصَّلاح، وهذا حتَّى قال النَّووي: (وَمِنَ النَّصِيحَةِ: أَنْ تُضَافَ الْفَائِدَةُ الَّتِي تُسْتَغْرَبُ إِلَى قَائِلِهَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بُورِكَ لَهُ فِي عِلْمِهِ)[2] فهو لمَّا ذكر هذه الفائدة ذكرها بعد أن ذكر أنَّ أصل كتابه "الأربعين" -الَّذي هو هذا بحوزتنا نقرأه- أنَّ أصل كتابه هو مجلسُ إملاءٍ لأبي عمرو بن الصَّلاح.

_ ما هذا المجلس ؟!

عقد أبو عمرو بن الصَّلاح -رحمه الله- مجلسًا أملى فيه الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام، فجمع ستَّة وعشرين حديثًا، ذكرها النَّووي وزاد عليها في "بستان العارفين"، ثمَّ ذكر أيضًا زيادة عليها في هذا المتن، ونقل عن ابن الصَّلاح أنَّه قال؛ -قال النَّووي-: (قَالَ الشَّيْخُ أَبُو

[2] "بستان العارفين"، ص:47

عَمْرو بن الصَّلَاح -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَعْدَ أَنْ حَكَى أَقْوَالَ الأَئِمَّةِ فِي تَعْيِينِ الأَحَادِيثِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الإِسْلَامِ وَاخْتِلَافهمْ فِي أَعْيَانِهَا وَعَدَدِهَا فَبَلَغَتْ سِتَّةً وَعِشْرِينَ حَدِيثًا)[3].

فإذًا عرفنا أنَّ أصل هذا الكتاب الَّذي هو "الأربعين" للنَّووي؛ هو مجلس إملاءٍ لأبي عمرو بن الصَّلاح -رحمه الله تعالى- كما ذكرتُ لك ذلك آنفًا عن "بستان العارفين".

❁ ومن قواعد اللُّغة العربية وما قرَّره الأصوليون أنَّ العرب في الغالب يُلغون الكَسْر، فلا يذكرونه، لأنَّ من نظر إلى هذه الأربعين المسمَّاه بهذا الاسم للنَّووي رأى أنَّه قد جمع اثنين وأربعين حديثًا، فهم لا يذكرون الكسر، فألغى الكسر ولم يقل: (الاثنان والأربعون) مثلًا، وإنَّما قال: (الأربعون النَّووية).

آخر تنبيهٍ يتعلَّق بهذا: أنَّ الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- لمَّا شرح هذه الأربعين زاد عليها ثمانية أحاديث فأبلغها الخمسين؛ يعني ممَّا اجتهد ورأى أنَّه مندرجٌ تحت مقصد ابن الصَّلاح.

✱ لماذا قلنا هذا ؟

_ لأنَّ ابن الصَّلاح لمَّا اجتهد فجمع الأحاديث -الَّتي أُشير إليها سابقًا- جمع ستَّة وعشرين حديثًا.

_ جاء النَّووي فكمَّلها وأبلغها إلى اثنين وأربعين حديثًا.

_ فجاء ابن رجب وزاد ثمانية أحاديث فأبلغها خمسين حديثًا.

وكلُّها ولله الحمد عليها مدار العلم ومدار الإسلام، والمنتقَدُ منها شيءٌ يسير بالنِّسبة لها؛ هذا أمرٌ.

والأمر الثَّاني: أنَّ المنتقد لم يُتَّفق على نقده، بمعنى أنَّ ما ضُعِّف من أحاديثها فإنَّهم لم يُجمعوا على ضعفه أو ضعَّفه غالبهم، بل هم بين اجتهادٍ في التَّصحيح والتَّضعيف لهذه الأحاديث الَّتي

[3] "بستان العارفين" ص: 49

انتُقدت على النَّووي -رحمه الله- في هذا المتن، وقد ذكرها وعلَّق على جُملتها الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في كتابه المشار إليه آنفًا.

نشرع في الكلام على مقدِّمة النَّووي -رحمه الله تعالى-.

حيث قال:

الْحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِين، قَيُّومِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِين

سأُعلِّق على بعض المواضع وأرجو أن تكون بين أيديكم النُّسخ لتعرفوا الفواصل الَّتي سنعلِّق عليها.

قال -رحمه الله-:

الْحَمْدُ للهِ ربِّ الْعَالَمِينَ

وبعض النُّسخ فيها:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

* والكلام على البسملة والحمدلة كثيرٌ مشهور:

فالبسملة من حيث الجُملة: استعانةٌ وبركة، كما يقول الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب -رحمه الله-، لأنَّ الباء فيها للاستعانة، والبركة مأخوذة من ذكر الله تعالى.

وجُملة الجار والمجرور متعلِّقة بمحذوف مؤخَّر مختصٍّ كما قدَّره الكوفيُّون، وقدَّره البصريُّون اسمًا، يعني أن يكون مؤخَّرًا مناسبًا مختصًّا، فالقارئ يُقدِّر "بسم الله أقرأ"، "بسم الله أكتب"، وهكذا.

و"اسم" هنا: مفردٌ مضاف فيعُمّ كلَّ اسم لله -تبارك وتعالى-، فتقع البركة بكلِّ أسمائه -جلَّ في علاه-.

و"الحمد": ذكر صفات المحمود مع محبّته وتعظيمه، كما قرّر ذلك ابن التيمية -رحمه الله- في "الرِّسالة الأكملية فيما يجب لله من صفات الكمال"، وكذلك تلميذه ابن القيِّم في "البدائع" وفي "الوابل الصيِّب"، وهذا خلاف ما هو مشهور من تعريف الحمد بالثَّناء، لأنَّ الثَّناء تكرار مأخوذ من الثَّني، وقد استدلَّ الحافظ ابن القيِّم على تقرير هذا بحديث أبي هريرة الَّذي رواه مسلم عن النَّبي صلّى الله عليه وسلَّم فيما يرويه عن ربِّه: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي**» -أي ذكرني بالمحاسن-، «**وَإِذَا قَالَ:** ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي**»[4]

_ فالحمد ذكرٌ.

_ فإذا كُرِّر كان ثناء.

_ فإذا ذُكرت صفات الجلال والعظمة والكبرياء كان تمجيدًا[5].

قـــــال:

قَيُّومِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ

الأرضين: يعني السَّبع، والسَّماوات السَّبع، والله -عزَّ وجل- هو القيُّوم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[6]، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾[7].

---

4 رواه مسلم.

5 نَظَمَهَا شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِه:

الْحَمْدُ ذِكْرٌ لِصِفَاتِ الْخَالِقِ ... بِالْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ لَا تُفَارِقِ

إِنْ كُرِّرَ الْحَمْدُ فَذَا الثَّنَاءُ ... أَوْ زِيدَ فَالتَّمْجِيدُ فَالدُّعَاءُ

دَلِيلُ مَا قُلْتُ رَوَاهُ مُسْلِمُ ... قَسْمَ الصَّلَاةِ وَالْمُفِيدُ الْقَيِّمُ

6 سورة البقرة: 255

7 سورة الرَّعد: 33

مُدَبِّرِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينِ، بَاعِثِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِم إِلَى الْمُكَلَّفِينَ، لِهِدَايَتِهِمْ وَبَيَانِ شَرَائِعِ الدِّينِ، بِالدَّلَائِلِ الْقَطْعِيَّةِ

وهنا وقفةٌ عند قوله:[الْمُكَلَّفِينَ] نشير إليها؛ لأنَّ هذا اصطلاح قد اشتهر عند الأصوليّين، وإلَّا فإنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- له مأخذٌ عليه لأنَّه راجعٌ إلى أصول المعتزلة، لأنَّهم يقولون بأنَّ الشَّرائع تكليف.

* والشَّرائع هي قُرَّة العين وراحة النَّفس وهدَأَةُ البال.

فإذا أُطلق التَّكليف أو أُطلق لفظ "المكلَّفين" في كتب أهل العلم فإنَّما يتماشون مع ما اصطُلِح عليه.

قـــــال:

لِهِدَايَتِهِمْ

اللَّام لام التَّعليل، أي: لأجل هدايتهم، فمِنْ مقاصد إرسال الرُّسل وإنزال الكتب: هداية الخلق.

وَبَيَانِ شَرَائِعِ الدِّينِ، بِالدَّلَائِلِ الْقَطْعِيَّةِ وَوَاضِحَاتِ الْبَرَاهِين

والدَّلائل القطعيَّة: هذا عامٌّ شامل لكلِّ الدَّلائل الَّتي جاءت في الكتاب وفي السُّنَّة، وإن كان أهل الكلام لا يرتضون أن تكون أحاديث الآحاد من جهة الدَّلالة قطعيَّة.

وَوَاضِحَاتِ الْبَرَاهِينِ، أَحْمَدُهُ عَلَى جميع نِعَمِهِ

كرَّر الحمد لأهميَّته.

وأسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ، وَأَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ القَهَّارُ، الْكَرِيمُ الغَفَّارُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَحَبِيبُهُ وَخَلِيلُهُ أَفْضَلُ الْمَخْلُوقِينَ

ولفظ «حبيب» هذا معلومٌ أنَّه لم يرد كخصوصه بعكس خليله، والخُلَّة أعظم درجات الحبِّ ومراتبها العشر[8] الَّتي ذكرها الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله- في "روضة المحبين"؛ ذكر أنَّ مراتب أو ألقاب الحبِّ عشرة.

أَفْضَلُ الْمَخْلُوقِينَ، المُكَرَّمِ بِالْقُرْآنِ الْعَزِيزِ الْمُعْجِزَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ عَلَى تعاقُبِ السِّنِين

فهو أعظم المعجزات كما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة.

وَبِالْسُّنَنِ الْمُسْتَنِيرَةِ للمُسْتَرْشِدِينَ، الْمَخْصُوصِ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ وَسَمَاحَةِ الدِّينِ

«بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[9].

---

[8] نَظَمَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم -حَفِظَهُ اللهُ- مَرَاتِبَ الْمَحَبَّةِ، وَمَا يَثْبُتُ مِنْهَا للهِ وَمَا لَا يَثْبُت؛ فَقَالَ:

مَرَاتبُ المحبَّة احْفظْها وَهِــي ... عَشْرٌ عَلَى التَّرتِيبِ ذِكْرهَا يَلِــي
عَــلَاقَــةٌ، إِرَادَةٌ، صَبــابَــهْ ... كَذا الْغَرامُ فَــادْرِ مَا أَصابــهْ
مَوَدَّةٌ، وَسَادسٌ منْهَا الشَّغَفْ، ... عشْقٌ ومَن يُصيبُه العشْقُ ارْتجفْ
تتيُّــمٌ، تَعَبُّــدٌ، وَالْخُلَّــهْ ... ثَابتَةٌ للهِ فَــادْرِ الْملــهْ
إِرَادَةٌ، مَــوَدَّةٌ كَــذَلــكْ ... لَا تُثْبت الْبَاقِي فَأَنْتَ هَالــكْ
مِــن روْضةِ ابْن قيِّم نَظَمْتُ ذَا ... مَع ابْن عزّ فَاعْرِضَن عَن الْقــذَا

[9] قال الإمام الألباني رحمه الله في "النَّصيحة": صحيحٌ لغيره.

صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ، وآلِ كُلٍّ وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ

هنا ذكر الصَّلاة على النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، وكثيرٌ من الشُّرَّاح والمفسِّرين يجعلون الصَّلاة بمعنى الرّحمة من الله، ولكن قد أخرج البخاري عن أبي العالية معلَّقًا ووصله أبو إسحاق القاضي أنَّ صلاة الله على رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ثَناؤُهُ عليهِ فِي الملَإِ الأعلَى، والأثر هذا وُصل من طريق أبي جعفر الرَّازي عن عيسى بن مهان عن الرَّبيع البكري، وفيه علَّتان، لكن العلماء يتجوَّزون في مثل هذه الآثار.

وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّين

لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «**صَلُّوا عَلَى النَّبِيِّينَ إِذَا ذَكَرْتُمُونِي، فَإِنَّهُمْ بُعِثُوا كَمَا بُعِثْتُ**»[10] والحديث الحسَّنه الشَّيخ ناصر -رحمة الله عليه-[11].

وَآلِ كُلٍّ وَسَائِرِ الصَّالِحِين

فدلَّ على أنَّه إنَّما أراد بـ:[آلِ كُلٍّ] المؤمنين.

أَمَّـا بَعْـدُ :

وهذه كلمة يُؤتى بها للانتقال من غرض إلى غرض؛ بمعنى: مهما يكن من شيءٍ بعد.

---

[10] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق وائل بن حجر رضي الله عنه.

[11] "صحيح الجامع" رقم (3781)

فَقَدْ رَوَيْنَا

هذا اصطلاحٌ يستعمله المحدِّثون في لفظ الإجازة؛ ويصحُّ فيه الوجهان:

_ يصحُّ: (فقد رَوَيْنَا).

_ أو: (رُوِّينَا).

- وكلُّ هذا راجحٌ لا مانعَ منه.

قـــال:

فَقَدْ رَوَيْنا

بمعنى أنَّه روى هذا عن عليِّ ابن أبي طالب رضي الله عنه.

❋ وهذا ممَّا يدلُّك أنَّ الرِّواية وزمن الرِّواية لم ينقطع كما يقوله بعض الأفاضل -وفَّقهم الله-، ولو أنَّهم تأملُّوا طريقة أهل الحديث ما أطلقوا مثل هذا، حتَّى قالوا بأنَّ زمن الجرح والتَّعديل قد انتهى، وهذا غلط، النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «**تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ**»[12] ومازال العلماء في كلِّ طبقةٍ يُخرِّجون لأنفسهم الأحاديث بأسانيديهم إمَّا بالإجازة المعتبرة عند أهل الحديث أو بالسَّماع لبعض الكتب الَّتي بقيت في الأمَّة مسموعة متداولة كموطَّأ مالك والصَّحيحين -وما شابه ذلك- فإنَّ أسانيدها متَّصلة بالسَّماع في غالبها أو كلِّها أو في بعضها أو في أوائلها؛ ولا أريد أن أتخوَّض في هذا الباب، ومن نظر إلى تراجم الأمَّة بل يكفي طالب العلم أن يتأمَّل مع هذا الحديث: «**تَسْمَعُونَ يُسْمَعَ مِنْكُمْ**» مع صنيع الأئمَّة كـ: الذَّهبي -رحمه الله- لمَّا صنَّف كتابه "من يُعتمد قوله في الجرح والتَّعديل" فإنَّه ذكر أئمَّة الجرح والتَّعديل والرُّواة إلى زمانه، ثمَّ جاء السَّخاوي بعده لمَّا صنَّف كتابه "الإعلان بالتَّوبيخ" ذكر أيضًا من صنَّفوا، وقد وقع لابن العطار العشاريات، ووقع للسيوطي التُّساعيات، وكان العلماء يخرِّجون لأنفسهم فكانوا في القديم يعتنون بالعلوِّ ممَّا

[12] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود"، من طريق عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما.

يُسمَّى بالثُّلاثيات ثمَّ الرُّباعيات ثمَّ الخماسيات وثمَّ السُّداسيات، فمازالت الأسانيد تتنازل حتَّى صنَّفُوا التُّساعيات والعشاريات ومازالت الأسانيد تتنازل، وهو من العلم الَّذي قلَّ في هذه الأُمَّة.

والكلام عليه يطول، وإنَّما أشرتُ بهذه الإشارة لأنبِّه إلى أنَّ من يُطلقون بأنَّ زمن الرِّواية قد انقطع لم يُصيبوا بهذا؛ ولو تأمَّلوه لوجدوا أنَّهم قد أخطأوا، وما الَّذي يُنهيه؟ وما الَّذي ينسخه؟ فكونه يضعُف في زمن أو يقلُّ في زمن أو يقلُّ عند عالم من العلماء أو طائفة من أهل العلم ليس معنى هذا أنَّه قد ذهب وإلَّا فإنَّا نحتاج إلى دليل على ذهابه.

وكون الأسانيد أيضًا تكثر وتطول ليس هذا دليلًا على أنَّها غير صحيحة أو أنَّها غير موجودة ولكن لابدَّ من التَّحرِّي، ولهذا مازال علماؤنا وأشياخنا لهم من السَّماعات والإجازات على الأقل الإجازة في باب الرِّواية وإن كان قد تُسمِّح فيها كثيرًا ولها درجات ولها مراتب عند أهل الحديث وأعلاها وأجلّها: الإجازة في معيَّن من مُعيَّن لمعيَّن.

على كلِّ حال هذا الَّذي حملني على ذكر هذا هو قول النَّووي:[فَقَدْ رَوَيْنَا] فإذا كانوا يستعملون هذا في باب الإجازة أو باب المناولة أو باب السَّماع كما عُقد لابن الحجَّار المجالس الَّتي حضرها كبار الأئمَّة في زمانه كشيخ الإسلام والمزي والبِرْزَالي وابن كثير والذَّهبي، كلُّهم سمعوا من ابن الحجَّار مع أنَّه كان عامِّيًا لأنَّ له سماعًا لصحيح الإمام البخاري

قـال:

فَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عَلِيّ اِبْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعبْد اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَمُعَاذ بن جَبَلٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاء، وَابْنِ عُمَر، وَابْنِ عبَّاس، وَأَنَس بن مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَأَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ رَضي اللهُ عَنهُمْ، مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَاتٍ، بِرِوَايَاتٍ مُتَنَوِّعَاتٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ:«**مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنْ أَمْرِ دِينِهَا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ**» وَفِي رِوَايَةٍ: «**بَعَثَهُ اللَّهُ**

فَقِيهًا عَالِمًا» وَفِي رِوَايَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «وَكُنْتُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَافِعًا وَشَهِيدًا» وَفِي رِوَايَةِ اِبْنِ مَسْعُودٍ: «قِيلَ لَهُ: ادْخُل مِنْ أَيِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ» وَفِي رِوَايَةِ اِبْنِ عُمَرَ: «كُتِبَ فِي زُمْرَةِ الْعُلَمَاءِ، وَحُشِرَ فِي زُمْرَةِ الشُّهَدَاءِ» وَاتَّفَقَ الْحُفَّاظ عَلَى أَنَّهُ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ وَإِنْ كَثُرَتْ طُرُقُهُ.

فالنَّووي -رحمه الله تعالى- لمَّا ساق هذه الرِّوايات وتكلَّم عليها بيَّن أنَّها جميعها لاتصح، وقد بيَّن هذا الضَّعف كثيرٌ من أهل العلم والأئمَّة؛ بيَّنوا ضعف هذه الرِّوايات وأنَّها لم تصح، وقد رواه جماعةٌ من أهل العلم -رحمهم الله تعالى-، حتَّى قال ابن عساكر في "الأربعين": (فِيهَا كُلُّهَا مَقَالٌ، لَيْسَ فِيهَا وَلَا فِيمَا تَقَدَّمَهَا للتَّصْحِيحِ مجَال، لَكِنِ الأَحَادِيثَ الضَّعِيفَةَ إِذَا ضُمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ أَخَذَتْ قُوَّةً؛ لَا سِيمَا مَا لَيْسَ فِيهِ إِثْبَاتُ فَرْضٍ)[13]، وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: (جَمَعْتُ طُرُقَهُ فِي جُزْءٍ، لَيْسَ فِيهَا طَرِيقٌ تَسْلَمُ مِنْ عِلَّةٍ قَادِحَةٍ)[14]

❁ إذًا فالأحاديث الَّتي جاءت في فضل حفظ أربعين حديثًا أو فضل التَّصنيف فيها كلّها لا يصح منها شيءٌ عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم.

قـــال:

وَقَدْ صَنَّفَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْمُصَنَّفَاتِ، فَأَوَّلُ مَنْ عَلِمْتُهُ صَنَّفَ

طبعًا كلام النَّووي هنا سأقرأه كاملًا في هذا الموضع وأحيل على مصدره.

[13] "الأربعون البلدانية" لابن عساكر رحمه الله، ص:44
[14] "تلخيص الحبير" لابن حجر رحمه الله (1428)، ج3 ص202

فَأَوَّلُ مَنْ عَلِمْتُهُ صَنَّفَ فِيهِ: عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، ثُمَّ مُحَمَّـدُ بْـنُ أَسْـلَمَ الطُّوسِيّ الْعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ، ثُمَّ الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَان النَّسَائِيُّ، وَأَبُو بَكْـرٍ الْآجُـرِّيُّ، وَأَبُـو بَكْرٍ مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيمَ الْأَصْفَهَانِي، وَالدَّارَقُطْنِيّ، وَالْحَاكِم، وَأَبُو نُعَيْم، وَأَبُو عَبْـد الرَّحْمَن السُّلَمِيّ، وَأَبُو سَعِيد الْمَالِينِي، وَأَبُو عُثْمَان الصَّابُونِيّ، وَعَبْد اللَّه بـن مُحَمَّـد الْأَنْصَارِيّ، وَأَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيّ؛ وَخَلَائِقُ لَا يُحْصَوْنَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ

أكثر هذه الإفادة الَّتي ذكرها النَّووي رحمه الله -في التَّصنيف في "الأربعين" وأوَّل من صنَّف في ذلك- نصَّ عليها العلَّامة الرَّحالة أبو طاهر محمَّد بن أحمد السّلفي؛ نصَّ على هـذه المقدِّمـة في أوَّل كتابه الَّذي صنَّفه في هذا الباب وسمَّاه بـ"الأربعـين"، وسيُشـير النَّـووي -رحمـه الله- إلى أغراض المصنِّفين فيها.

قــــال:

وَقَدِ اِسْتَخَرْتُ اللهَ تَعَالَى

أي طلبتُ خيرته، لأنَّ السِّين والتَّاء إذا دخلت على الفعل دلَّت على الطَّلب.

قــــال:

وَقَـد اسْتَخَرْتُ اللهَ تَعَالَى فِـي جَمْعِ أَرْبَعِـينَ حَـدِيثًا اقْتِـدَاءً بِهَـؤُلَاءِ الْأَئِمَّـةِ الْأَعْلَامِ وَحُفَّاظِ الْإِسْلَامِ

وذكرتُ لك آنفًا أنَّ أصل هذا التَّصنيف راجعٌ إلى إملاءات أبي عمرو بن الصَّلاح.

قـــــــال:

وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ الْعَمَلِ بِالْحَدِيثِ الضَّعِيفِ فِي فَضَائِلِ الأَعْمَالِ

وهذا القول من النَّووي وهذا الإطلاق فيه نظر؛ لأنَّ المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، وتعرَّض هو لها نفسه، وتعرَّض لها كثيرٌ من أهل العلم في كتب المصطلح، وصُنِّفت فيها الكتب المستقلة -في العمل بالحديث الضعيف والخلاف فيه-:

_ ومنهم من اِشترط شُروطًا تتعلَّق بالعمل بالحديث الضَّعيف.

_ ومنهم من أطلق القول فيه؛ وهذا من أضعف الأقوال.

_ ومنهم من ردَّه -أي ردَّ العمل بالحديث الضَّعيف مُطلقًا-.

❁ والَّذي يترجَّح أنَّ الحديث الضَّعيف عند من قام في نفسه أنَّه ضعيفٌ لا يجوز له العمل به، ويتأكَّد ذلك إذا خالف شيئًا من أمر الله ورسوله أو من أصول الدِّين -أو ما أشبه ذلك- أو اِعتقد الإنسان ما فيه من الثُّبوت والفضل، لأنَّ هذه الأحاديث الضَّعيفة لا يُبنى عليها شيء من الأحكام.

قال المصنِّف -رحمه الله تعالى-:

وَقَدْ اِتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ الْعَمَلِ بِالْحَدِيثِ الضَّعِيفِ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ، وَمَعَ هَذَا فَلَيْسَ اِعْتِمَادِي عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، بَلْ عَلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَة:**«لِيبلغ الشَّاهِدُ مِنكُمْ الْغَائِبَ»**

وهذا الحديث أخرجه البخاري -رحمه الله- في صحيحه من حديث أبي شُريح العدوي.

وَقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَضرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا»

وهذا الحديث رواه التِّرمذي من حديث ابن مسعود وجاء من حديث زيد بن ثابت وأنس وجُبير بن مطعم وعائشة وسعد بن أبي وقَّاص وابن عمر وأبي هريرة وعمير بن قتادة والنُّعمان وزيد بن خالد وعُبادة رضي الله عنهم وأرضاهم جميعًا.

وقوله: «نضَر» أو «نضَّر» هذا ضُبط عند بعض أهل العلم بالوجهين كما قال الهروي في "الغريبين" أنَّ الأصمعي رواه بالتَّشديد: «نضَّر»، وأنَّ أبا عُبيد القاسم -يعني ابن سلَّام- رواه بالتَّخفيف، وقد نبَّه الرَّامهُرْمُزي -رحمه الله- على أنَّ الصَّواب فيه التَّخفيف؛ فقال -رحمه الله-: (وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَضَرَ اللهُ امْرَأً» مُخفَّف، وَأَكْثَرُ المُحَدِّثِينَ يَقُولُهُ بِالتَّثْقِيلِ إِلَّا مَنْ ضَبَطَ مِنْهُمْ، وَالصَّوَابُ التَّخْفِيفُ، وَيَحْتَمِلُ مَعْنَاهُ وَجْهَيْنِ)[15] إلى آخر كلامه ممَّا ذكره في "المحدِّث الفاصل" للرَّامهُرمُزيّ -عليه رحمة الله-، قرَّر هذا.

فالنَّووي -رحمه الله- يُحيل إلى أنَّ مرجعه في هذا الباب في جمع هذه الأحاديث ومن قبله ومن بعده من العلماء أنَّه راجع إلى هذا المعنى.

قـــال:

ثُمَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ جَمَعَ الأَرْبَعِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْفُرُوعِ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْجِهَادِ، وَبَعْضُهُمْ فِي الزُّهْدِ

هذه تُسمَّى بأغراض المصنِّفين، أغراض المصنِّفين في "الأربعين" ذكر منها حاجي خليفة في "كشف الظُّنون" طرفًا كثيرًا من الَّذين لهم مقاصد في التَّصنيف في "الأربعين".

[15] "المحدِّث الفاصل" للرَّامهرمزي رحمه الله، ص:167

والنَّووي هنا -رحمه الله- يُتحفنا بطائفةٍ من هذه المقاصد؛ قـال -رحمـه الله- هنـا مبيِّنًـا هـذا الموضع، قـــــال:

ثُمَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ جَمَعَ الأَرْبَعِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ

يعني مسائل العقائد.

وَبَعْضُهُمْ فِي الْفُرُوعِ

يعني العمليَّات.

وَبَعْضُـهُمْ فِي الْجِهَـادِ، وَبَعْضُـهُمْ فِي الزُّهْـدِ، وَبَعْضُـهُمْ فِي الْآدَابِ، وَبَعْضُـهُمْ فِي الْخُطَبِ، وَكُلُّهَا مَقَاصِدُ صَالحَة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْ قَاصِدِيهَا

وكما ذكرتُ لك إذا رجعت إلى كتاب "كشف الظُّنُون" لحاجي خليفـة رأيـت طرفًـا مـن هـذه المقاصد الَّتي ذكروها.

قـــــال:

رضي اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَاصِدِيهَا، وَقَدْ رَأَيْتُ جَمْعَ أَرْبَعِـينَ أَهَـمَّ مِـنْ هَـذَا كُلِّـهِ، وَهِيَ أَرْبَعُونَ حَدِيثًا.

هذا الآن الكلام على المصنَّف الَّذي قلتُ لكم بأنَّنـا سـنتكلم عنـه، ووَكَلْنَـا الـكلام عنـه إلى مصنِّفه فإنَّ صاحب الدَّار أدرى بما فيه، ما مقصده من هـذا الكتـاب حـتَّى يكـون حـافزًا لطالب العلم لمعرفته؛ يقـــول:

وَهِي أَرْبَعُونَ حَدِيثًا مُشْتَمِلَةً عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ

يعني على جميع مقاصد المصنِّفين في "الأربعين"، فلم يُخْله من مسائل العقيدة ولا الجهاد ولا الخُطب ولا الآداب ولا الأحكام -وما شابه ذلك-.

مُشْتَمِلَة عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ، وَكُلُّ حَدِيثٍ مِنْهَا قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ، وَقَدْ وَصَفَهُ الْعُلَمَاءُ بِأَنَّ مَدَارَ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ، أَوْ هُوَ نِصْفُ الْإِسْلَامُ أَوْ ثُلُثُه، أَوْ نَحْو ذَلِكَ؛ ثُمَّ أَلْتَزِمُ

إذًا هذا مقصده من هذا التَّصيف، وهذه فضائل الأحاديث الَّتي ذكرها.

❁ وهذه الأحاديث إذا كانت بهذه المنزلة والعلماء الَّذين اعتنوا بهذا الكتاب يا إخوان لأنَّ كثيرين من طلبة العلم للأسف لمَّا أرادوا أن يبدأوا من حيث انتهى العلماء انقطعوا ولم يصلوا إلى منازل العلماء؛ فإذا جئتَ اليوم بين طلبة العلم وقلتَ:(نَدْرُس الأربعين النَّووية)، قالوا: (الأربعين النَّوويَّة هذه للصِّغار، للأطفال المبتدئين) -وماشابه ذلك-، انظروا كم عكف عليها العلماء.

حتَّى وصل بهم الأمر إلى التَّزهيد في مثل "الثَّلاثة الأصول" و "القواعد الأربع"، فصار قدر العلم في نفوسهم بقدر أعداد أوراقه، فإذا عظُم الكتاب وكثُرت صفحاته ومجلَّداته فهذا هو الكتاب الَّذي حوى العلوم كلَّها؛ وهذا خطأ ينبغي على طلبة العلم أن يتنبَّهوا له في جميع فنون العلم: في حديثه، ونحوه، ومصطلحه، وعقيدته، وفقهه، لابدَّ، هذا المتن متن قويّ عُمدة لك في الباب، فمن أراد الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام والمشتملة على فهم الإسلام الَّذي جاء به النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فعليه بهذا الكتاب، ومازال علماؤنا يُقرِئونه ويدرِّسونه، حضرناه على شيخنا العلَّامة صالح بن فوزان الفوزان كاملًا ولله الحمد، وشرْحه مطبوعٌ متداولٌ في مجلَّد، حضرناه على شيخنا ابن عقيل -رحمه الله-، وقُرئ على عدَّة من المشايخ.

هذا الكتاب العلماء لهم به عنايـة، انظـروا إلى المكتبـات وإلى "كشـف الظُّنـون" وإلى كتـب المخطوطات، كـم الَّذين شرحوا الكتاب في القديم والحديث -أعني كتاب النَّووي رحمـه الله، هذا الأربعين فضلًا عن غيره-.

قـــــال:

وَقَدْ وَصَفَهُ الْعُلَمَاءُ بِأَنَّ مَدَارَ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ، أَوْ هُوَ نِصْفُ الْإِسْلَامُ أَوْ ثُلُثُـهُ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ ثُمَّ أَلْتَزِمُ فِي هَذِهِ الأَرْبَعِينَ أَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً

فقوله هذا:[أَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً] والنَّوويّ من أهل الحديث والتَّحقيق وإن كان كغيره من أهل العلم يُخْطِئهُ الاجتهاد -أو يُخطئه الصَّواب بالأصح- فإنَّ هـذه الأحاديـث صـحيحة عنـده في حكمه، في نظره، في اجتهاده الَّذي جنح إليه.

قـــــال:

وَمُعْظَمُهَا فِي صَحِيحَيْ الْبُخَارِيّ وَمُسْلِم

يعني إمَّا أن يكونا قد اتَّفقا عليها أو قد انفرد بها أحدهما.

وَأَذْكُرُهَا مَحْذُوفَةَ الأَسَانِيد لِيَسْهُلَ حِفْظُهَا وَيَعُمَّ الانْتِفَاعُ بِهَا

وأقول: ليته ساقها بأسانيدها، وخصوصًا أسانيد الكتب الَّتي صارت مفقودة

* ولهذا سمعتُ شيخنا مقبل -رحمة الله عليه- في درس كتاب "التَّفسير" لابن كثـير وهو يُثني على ابن كثير -رحمه الله تعالى- لأنَّه كان يسوق طائفة من الأحاديث بأسـانيدها وإن

كانت في المسند أو في الصَّحيحين؛ فحفظ الله بتفسير ابن كثير الكثير من الأسانيد في الكتب المفقودة كتفسير ابن مَرْدَوَيْه وتفسير ابن المنذر -وغيرها- بسبب أنَّه كان يسوق الأسانيد.

فلو اقتصر على أسانيد المصنِّفين لكان هذا أولى وأرجى وأكثر فائدةً وحذَفَ أسانيده إلى المصنِّف لكان هذا أسهل، مع أنَّ أسانيده إلى مصنِّفه لا تخلو في فائدة من جهة الرِّواية وسياقها، ولكن هذا شيء اجتهد فيه -رحمه الله تعالى- والله يكتب له أجره.

قـــــال:

لِيَسْهُلَ حِفْظُهَا وَيَعُمَّ الاِنْتِفَاعُ بِهَا

فمن مقاصده أنَّه صنَّف هذا الكتاب ليكون محفوظًا مُستظهرًا.

إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ أُتْبِعُهَا بِبَابٍ فِي ضَبْطِ خَفِيِّ أَلْفَاظِهَا

وهذا الباب سنأخذه إن شاء الله في كلام النَّووي -رحمه الله-.

وَسَنُلْحِقُهُ فِي كُلِّ حَدِيثٍ لِمَوْضِعِهِ

النَّووي -رحمه الله- سلك مسلك أنَّه ذكر الأحاديث مجرَّدة عن الضَّبط والشَّرح ثـمَّ رجع إلى بيان ما فيها من الألفاظ والغرائب في مبحثٍ مُستقلٍّ طُبع في مواضع في آخر كتابه الَّذي هو "الأربعين".

قـــــال:

وَيَنْبَغِي لِكُلِّ رَاغِبٍ فِي الآخِرَةِ

انظر؛ لأنَّنا سمعنا مثل هذا من بعض طلبة العلم -للأسف الشَّديد- ومن لم نسمعه رأينا زُهده في مثل هذا الكتاب من جهة أنَّهم يقولون: (هذه كتب صغيرة)، و(هذا كتاب للصَّغير، ممكن تقرأه في جلسة) -أو في ما أشبه ذلك-، نعم هناك كتب يمكن أن تُقرأ في جلسة أو في نصف جلسة؛ لكن معرفة ما فيها من العلوم ودقائق الفهوم هذا يحتاج إلى أزمان.

لكن على كلِّ حال ننظر ماذا قال النَّووي لأنَّنا إذا لم نسلك مسالك العلم الَّذي سلكوه فإنَّه يحصل الانقطاع بيننا وبينهم؛ قال:

وَيَنْبَغِي لِكُلِّ راغِبٍ فِي الْآخِرَةِ أَنْ يَعْرِفَ هَذِهِ الْأَحَادِيث لِمَا اِشْتَمَلَتْ عَلَيهِ مِنَ الْمُهِمَّاتِ، وَاحْتَوَتْ عَلَيهِ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى جَمِيعِ الطَّاعَاتِ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ

يعني من تدبَّر هذا الكتاب ووقف عند معانيه واستنبط ما فيه من الأحكام فإنَّه سيحصِّل خيرًا كثيرًا.

قال:

وَعَلَى اللَّهِ اِعْتِمَادِي، وَإِلَيْهِ تَفْوِيضِي وَاسْتِنَادِي، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالنِّعْمَةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

ختم بالحمد كما به بدأ.

هذا ما يتعلَّق بمقدِّمة النَّووي -رحمه الله-، وقد أحببتُ أن نقرأها وأن نُعلِّق عليها لما فيها من الفوائد الَّتي سبق الكلام عليها آنفًا.

ونشرع إن شاء الله تعالى في الدَّرس القادم في الكلام على الأحاديث، وستكون طريقة الشَّرح بالتَّعليق على أهمِّ مواضعه وبيان أهمِّ فوائده وذكر أكبر أو أعظم مسائله، يعني سنأخذ الفوائد

الَّتي فيه سواء كانت فوائد نحوية أو لُغويَّة أو عَقدية أو فقهية أو مسلكية، ونمشي معه، لأنَّـه حديث من قال فيه ربُّه:﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[16].

ولو دَرس هذا الكتاب طالب العلم دراسةً مُتمحِّصة فإنَّه يستفيد فيه خـيرًا كثـيرًا في فهم الأحاديث وطريقة شرحها، لأنَّ هذا المتن بمثابة التَّدرُّج لمعرفة كيفية التَّعامل مع كتـب الحديث.

[16] سورة النَّجم: 3-4

۞ الحديث الأول ۞

عَنْ أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، ومَنْ كَانَتْ هجرتُه لدُنيا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»

رَوَاهُ إِمَامَا الْمُحَدِّثِينَ: أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ بَرْدِزْبَهْ البُخَارِيُّ، وَأَبُو الْحُسَيْنِ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ بْنِ مُسْلِمٍ القُشَيْرِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ؛ فِي صَحِيحَيْهِما اللَّذيْنِ هُمَا أَصَحُّ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ.

هذا كلام النَّوويّ -رحمه الله تعالى-، [سنتكلَّم][17] على هذا بمقتضى ما يفتح الله -تبارك وتعالى- به من الكلام على أهمِّ فوائده ومسائله؛ لأنَّ أحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تحوي العلم كلَّه، فالنَّحويُّ يأخذ منها مسائل النَّحو، والأُصوليُّ يأخذ منها مسائل الأصول، والبيانيُّ الَّذي له عناية بالبلاغة والبيان يأخذ منها حظَّه ونصيبه، ناهيك عن المقصد الأسمى والأعظم وهو ما دلَّت عليه من أمور الشَّريعة من جهةِ العلم بما فيها من مسائل الاعتقاد والتَّوحيد وما فيها من مسائل الفقه والأحكام، وكلُّ هذا موردٌ عذبٌ -أعني حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم- كيف وقد قال عن نفسه: **((أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ))**[18]، وقال: **((اختُصِر**

---

[17] انقطاع يسير في الصَّوت.

[18] متَّفق عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ لمسلم]

لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَارًا))[19] فالنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم في أحاديثه العلم كلُّه، ولن يستطيع أحدٌ أن يزعُم أنَّه يقف عند جميع مقاصد أحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

فإذا تقرَّر هذا فإنَّ الحديث أو الكلام عن هذه الأحاديث سيكون على مُقتضى ما يُناسبها من جهةِ العبد ومن جهةِ مقامه -والله يفتح على من يشاء من عباده-.
وبعض الأحاديث تحتاج منَّا إلى مجالس وبعضها ربَّما تُؤخذ جُملةً في مجلسٍ واحد.

على كلِّ حال نحن في الحديث الأوَّل؛ وهو أوَّل حديث استفتح به المصنِّف -رحمه الله تعالى- كتابه، وهو على شرطه؛ لأنَّ النَّووي -رحمه الله تعالى- وغيره ممَّن قصد جمع الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام اشترطوا أن يذكروا الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام وهذا الحديثُ على شرطه، لأنَّ العلماء -رحمهم الله- منهم من عدَّه ثلث العلم كما جاء ذلك عن الشَّافعي فيما ذكره عنه البيهقي في "معرفة السُّنن والآثار"[20]، وجاء عنه أيضًا أنَّه قال: (يَدْخُلُ هَذَا الْحَدِيث فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْفِقْهِ)[21] [...][22] يرجع إليه الحديث وتُستفتح به الكُتب كما نصَّ على هذا عبد الرَّحمن بن مهدي -رحمه الله- وقال: (مَنْ أَرَادَ أَنْ يُصَنِّفَ كِتَابًا فَلْيَبْدَأْ بِحَدِيثِ الأَعْمَالِ بِالنِّيَّاتِ)[23]، بل إنَّه قال: (لَوْ صَنَّفْتُ كِتَابًا فِي الْأَبْوَابِ، لَجَعَلْتُ حَدِيثَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي «الْأَعْمَالِ بِالنِّيَّاتِ» فِي كُلِّ بَابٍ)[24] ومن العلماء من جعله أحدَ خمسةِ أحاديث هي أصول الإسلام كما جاء ذلك عن أبي داود السِّجستاني -رحمه الله تعالى-[25] وأمَّا شيخه الإمام أحمد فإنَّه يقول بأنَّه ثلثها[26] -يعني أنَّ ثُلث الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام هذا الحديث-.

---

19 ضعَّفه الألباني رحمه الله في "ضعيف الجامع" (949)
20 "معرفة السّنن والآثار" ج1، ص263، قال الشَّافعي: (يَدْخُلُ فِي حَدِيثِ الأَعْمَال بِالنِّيَّات ثُلث العِلْمِ)
21 "البدر المنير" لابن الملقن، ج1، ص663
22 انقطاع يسير في الصَّوت.
23 "جامع العلوم والحكم" لابن رجب رحمه الله، ص:56
24 "جامع العلوم والحكم"، ص:56
25 قَالَ أَبُو دَاوُد: (الْفِقْهُ يَدُورُ عَلَى خَمْسَةِ أَحَادِيث: ((الأَعْمَالُ بالنِّيَّات، وَالْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بيِّنٌ، وَمَانَهَيْتُكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا وَمَا أَمَرْتُكُم بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَلَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَار)) ["المنهج المبين" للفاكهاني رحمه الله، ص:35]
26 قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد بْن حَنْبَل: (أُصُول الإِسْلَامِ ثَلَاثَةُ أَحَادِيث: ((الأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ، وَالْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بيِّنٌ، وَمَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ ردٌّ) ["المنهج المبين" للفاكهاني رحمه الله، ص:36]

إذًا حاصل هذا أنَّه على شرط المصنِّف؛ لأنَّه شَرَط أن يذكر الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام.

وقوله رضي الله عنه في هذا الحديث -يعني عُمر-، أو قول المصنِّف قبل ذلك:[عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ] هذا اللَّقب أوَّل من لُقِّب به من حيث العموم: هو عمر رضي الله عنه وأرضاه، فإنَّه أوَّل من لُقِّب بـ:"أمير المؤمنين المؤمنين" رضي الله عنه وأرضاه، كما هو معلومٌ، وإن كان قد لُقِّب به على الخصوص بعض الصَّحابة في بعض الغزوات.

وقوله:[عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ] هذه كنيتُه، واسمه: عُمر -كما هو معلومٌ-؛ ابن الخطَّاب رضي الله عنه وأرضاه.
ويُلقَّب بـ:"الفاروق" رضي الله عنه، وهو ثاني الخلفاء الرَّاشدين، وهو أفضل الصَّحابة بعد أبي بكرٍ -رضي الله عن الجميع-.

قال رضي الله عنه:[سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ]؛ [سَمِعْتُ]: هذه هي أرفع درجات التَّحمُّل والأداء عند أهل الحديث أو عند جماهير أهل الحديث، يقولون بأنَّ لفظ السَّماع في تحمُّل المحدِّث للحديث والأداء أرفع الدَّرجات فيها: (سمعتُ).

وقوله رضي الله عنه:[سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]
_ من أهل العلم من منع في باب الرِّواية أن يُستبدل الرَّسول بالنَّبي حيث وردت الرِّواية والعكس.
_ ومنهم من أجاز ذلك؛ فقال بجواز أن يُقال في مكان الرَّسول النَّبي؛ ومكان النَّبي الرَّسول، إلَّا أنَّهم لم يُجوِّزوا ذلك في الأذكار كما في حديث البراء بن عازب الَّذي خرَّجاه في الصَّحيحين: (آمَنْتُ بِرَسُولكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ) قال: ((**قُلْ: آمَنْتُ بِنَبِيِّك الَّذِي أَرْسَلْتَ**))[27] لأنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم منعه من ذلك.

[27] عَنِ الْبَرَاءِ بْنُ عَازِب أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلَاة ثُمَّ اضْطَجعْ عَلَى شقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا منْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذي أَرْسَلْتَ، وَاجْعَلْهُنَّ

[يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»] ((إنَّما)) هذه مركَّبة مِن "إنَّ" العاملة في الجملة الاسميَّة و"ما" النَّافية، وإذا دخلت "ما" على "إنَّ" وأخواتها -إلَّا في بعض المواضع- فإنَّها تكفُّها عن العمل وتُزيل اختصاصها عن الجُملة الاسميَّة فتدخلُ على الجملة الفعليّة أيضًا.

و ((إنَّما)) للحصر، إذا تركَّبت هكذا فإنَّها للحصر، والحصر:

_ إمَّا أن يكون مطلقًا لا يُستثنى منه شيءٌ.

_ وإمَّا أن يُستثنى منه ما دلَّت عليه القرينة؛ ومن الثَّاني قوله -تبارك وتعالى-:﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾[28] فإنَّ الله -جلَّ وعلا- حصره في الإنذار، لكن قالوا هذا لمن كان عاتيًّا عن الرِّسالة، ومع هذا وصفه بالبشير:﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[29].

_ وما الدَّليل على أنَّ ((إنَّما)) للحصر؟

قالوا لأنَّ العرب عرفت هذا، ولو كانت لغير الحصر لردَّ الصَّحابة رضي الله عنهم من جهة اللُّغة على ابن عبَّاس عندما قال: (إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ)[30] فإنَّهم لم يعترضوا عليه من جهة الفهم اللُّغوي، وإنَّما اعترضوا عليه من جهة الرِّواية، لأنَّهم عارضوه بدليل آخر وهو ما جاء في حديث أبي سعيد في ربا الفضل.

ثمَّ إنَّها أيضًا مركَّبة من النَّفي والإثبات، فإمَّا أن تُفيد نفي المذكور وإثبات غيره أو العكس؛ والثَّاني هو الأقرب، ولهذا قالوا: معنى الحصر بأن تحصر الشَّيء في المذكور وتنفيَه عمَّا سواه.

* وأساليب الحصر كثيرة كما أفاده الشَّوكاني -رحمه الله-، لكنَّ ابن القيِّم يقول بأنَّ أكثرها استعمالًا أربعة، ما هي؟

_ هذا أوَّلها: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)).

_ والثَّاني: النَّفي مع الإثبات: (لَا إِلَهَ إِلَّا الله) وهذا أقواها وأشدُّها.

مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ)) قَالَ: فَرَدَّدْتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: ((قُلْ: آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)) [متَّفقٌ عليه، واللفظ لمسلم]

[28] سورة الرَّعد: 7

[29] سورة الأعراف:188

[30] "المجموع" ج10، ص53

_ والثَّالث: التَّعريف للجُزئين، يعني تعريف المبتدأ والخبر ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾[31]، ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))[32].

_ والرَّابع: تقديم ما حقُّه التَّأخير، يعني تقديم المعمول على العامل؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[33].

هذه أهمُّ أساليب الحصر.

والحصر من أنفع أبواب اللُّغة والأصول والبلاغة الَّتي ينبغي على طالب العلم أن يعتني بها في مسائل التَّوحيد والاعتقاد.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا:((الأَعْمَالُ)) الأعمال: جمع عمل، ويُطلق عند طائفةٍ على الفعل، وقالوا بأنَّه مرادفٌ له، لكن الصَّواب أنَّه لا يُوجد ترادفٌ مُطلقٌ بين لفظين من كلِّ جهة، ولا بدَّ وأن يكون هناك قدرٌ زائد.

_ والأعمال يدخل فيها الأقوال حقيقة لا مجازًا -كما قاله بعضهم-، وممَّا يدل على أنَّ القول يدخل في العمل؛ قوله -تبارك وتعالى-:﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[34] ما هو الَّذي ما فعلوه؟ ما فعلوا القول، وما جاء في الصَّحيحين من حديث عمَّار رضي الله عنه لمَّا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا**)) (ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الأَرْضَ)[35] فسمَّى الفعل قولًا.

---

[31] سورة المنافقون: 4
[32] رواه مسلم.
[33] سورة الفاتحة: 5
[34] سورة الأنعام: 112
[35] متَّفقٌ عليه واللفظ لمسلم.

_ ويدخُل في العمل: التَّرك، عند المحقّقين من الأصوليّين؛ ودليله قوله -تبارك وتعالى-: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[36] ما الَّذي كانوا يفعلونه؟ التَّرك؛ فكانوا يتركون الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وسمَّى تركهم: فعلًا، وهناك مبحثٌ نفيسٌ للحافظ ابن القيِّم -رحمه الله- في "الإعلام"، ولشيخ مشايخنا العلَّامة الشّنقيطي -رحمه الله تعالى- في "المذكِّرة" -مذكِّرة أصول الفقه-.

يقول:((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) النِّيات: جمع نيَّة؛ بالتَّشديد للتَّحتيَّة، هذا هو الأفصح والأشهر، ويُقال أيضًا بالتَّخفيف: (بالنِّيَة)، لكن الأوَّل هو الأشهر والأفصح كما نصَّ عليه طائفة من أهل العلم.

جاء في بعض روايات الحديث أنَّه قال:((**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ**)) فعلى الرِّواية الَّتي هي بالإفراد تكون مصدرًا وجُمعت لاختلاف أنواعها ومعانيها؛ قالوا: لأنَّ المصادر إذا اختلفت أنواعُها جُمعت، ومن هذا على الصَّحيح من أقوال أهل العلم جمعُ الموازين ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[37] وجاء: ((**أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ: الْخُلُقُ الْحَسَنُ**))[38]، ((**ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ**))[39] فجاء بلفظ الجمع وجاء بلفظ الإفراد، فالجمع لكثرة الموزونات، وإلَّا فإنَّ المرجَّح الصَّحيح أنَّ الميزان واحدٌ وليست موازين متعدِّدَة.

والنِّيَّة في أصل اللُّغة: القصد والإرادة، تقول العرب: (نواك الله بخير) أي: قصدك.

وهنا سندور مع مسائل النِّيَّة:

_ والنِّيَّة محلُّها القلب لأنَّها قصد القلب وإرادته، ومن ثمَّة قال طائفة من أهل العلم بأنَّ النِّيَّة محلّها القلب ولا يجوز التَّلفُّظ بها بل ذلك بدعة.

[36] سورة المائدة: 79
[37] سورة الأنبياء: 47
[38] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (134) من طريق أبي الدَّرداء رضي الله عنه.
[39] مُتَّفق عليه.

وإنَّما حُكِيَ عن الشَّافعي -رحمه الله تعالى- كما حكاه بعض أصحابه، ولكنَّ شيخ الإسلام -رحمه الله- وتلميذهُ ابن القيِّم يُخطِّئان هذا النَّقل، مع أنَّ هذا النَّقل ثابتٌ عن الشَّافعي -رحمه الله- في كلامٍ قديمٍ له وهو الَّذي عليه عامَّة أصحابه حتَّى قال بعضهم بوجوب التَّلفُّظ، ولكن الَّذي قرَّرهُ المُحقِّقون منهم أنَّه لا يجب التَّلفُّظ بها.

وكذلك نَقل التِّلْمِسَانِيّ من المالكيَّة عن صاحب "الاستلحاق" استحباب النُّطق، قال الفاكهاني: (وَهُوَ غَيْرُ الْمَعْرُوفِ مِنَ الْمَذْهَبِ)[40]، فهناك من المالكيَّة أيضًا من قال باستحباب التَّلفُّظ بالنِّية؛ والمحقِّقون منهم على أنَّه لا يُستحبُّ التَّلفُّظ بها وخطَّأوا التّلمِساني وابن فتحُون في قولهم باستحباب التَّلفُّظ بها.

_ وفائدة النِّيَّة في فعل العبد عظيمة؛ حتَّى قال ابن قُدامة في "ذمِّ الموسوسين" بأنَّ الله عزَّ وجلَّ -وهذا أيضًا يُكرِّره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه- بأنَّ الله -عزَّ وجل- لو أمرنا بالأعمال بدون نيَّة لكلَّفنا بما لا يُطاق.

* والنِّيَّة فائدتُها وثمرتها بالنِّسبة للأعمال يُتحدَّث عنها من جهات:

_ الجهة الأولى: تَمْييزها بين العبادات والعادات، فإنَّ النِّيَّة هي الفَيصل أو الحدّ الفاصل بين الفعل الَّذي هو عبادة وبين الفعل الَّذي هو عادة؛ مثاله: الاغتسال -على سبيل المثال-، فإنَّ صفة الاغتسال قد تكون من جهةِ الأمر المجزئ أو الواجب هي نفس الصِّفة الَّتي يفعلها من أراد التَّبريد أو التَّرويش أو التَّنظيف، فيصُبُّ على رأسه الماء، هذا يصبُّه على رأسه بنيَّة رفع حدث الجنابة وهذا يصبُّه لمجرَّد التَّبريد أو التَّرويش أو التَّنظيف؛ ما الَّذي ميَّز هذين العملين؟ النِّيَّة والقصد لهذا العمل.

_ والجهة الثَّانيَّة: أنَّ النيَّة يُنظر إليها من جهةِ أنَّها تُميِّز العبادات بعضها عن بعض، فأنتَ إذا نظرتَ إلى الصَّلاة مثلًا رأيتَ أنَّ صلاة العصر كصلاة الظُّهر من جهةِ الصِّفة ومن جهةِ العدد ومن جهةِ قُرب الوقت، فما الَّذي يُميِّز صلاة الظُّهر عن صلاة العصر؟ إنَّما يُميِّزها النِّيَّة، فإذا دخلت النِّيَّة ميَّزت صلاة الظُّهر عن صلاة العصر.

---

40 "المنهج المبين" للفاكهاني رحمه الله، ص90

_ ويُنظر إلى النِّيَّة من جهة ثالثة: من جهة أنَّها يُـراد بهـا الـكلام على ترتُّـب أثـر الفعـل وقبوله وهو ما يُسمَّى بالإخلاص وأن يكون العمل لله -تبارك وتعالى-؛ وهذا مبحثٌ مشروطٌ في هذه الشَّريعة لأنَّ النِّيَّة شرطٌ لصحَّة الأعمال كُلِّها من هذه النَّاحيَّـة، فالعمـل لا يصـحُّ ولا يُثاب عليه صاحبه إلَّا أن يكون ناويًّا له.

نِيَّتُنا شَرْطٌ لِسَائِرِ الْعَمَلْ　　　بِهَا الصَّلاحُ وَالفَسَادُ لِلْعَمَلْ[41]

_ ومن جهةٍ أخرى: يُنظر إليها من جهةِ اشتراطها لإجزاء الفعل، هل هو مجـزئ أو غـير مجزئٍ؟ وهذا يُنظر إليه من جهة أنَّها شرطٌ للوضـوء، شرط للغسـل؛ أن ينـوي أن يغتسـل، أن ينوي أن يتوضَّأ، أن ينوي أن يتيمَّم، أن ينوي أن يُصلِّيَ، وهذا من هـذه الجهـة فيهـا خلافـات كثيرة بين أهل العلم لن نتخوَّض في كثيرٍ منها.

● لكنَّهم أجمعوا على أنَّ النِّيَّة شرطٌ في المقاصد فهي شرطٌ في الصَّلاة وفي الحجِّ وفي الصِّيام -وما شابه ذلك-.

● واختلفوا فيما هو وسيلة لهـذا الفعـل، فـاختلفوا في التَّـيمُّم وفي الوضـوء وفي الغسـل، والخلاف بين الجمهور وبين الحنفيَّة وزُفر من الشَّافعيَّة؛ والَّذي عليه جمـاهير أهـل العلـم أنَّ النِّيَّة شرطٌ [...][42]

[...][43] في بعض الصُّور كالتُّروك، فإنَّه لا يُشترط لإزالة النَّجاسة النِّية، فمن وضع ثوبه في مـكانٍ وجاء المطر فغسله حتَّى أُزيلت النَّجاسة فلم يبقَ أثرٌ لريح أو طعمٍ أو لونٍ فقد زالت النَّجاسـة ووقع التَّطهير ولا يُشترط عليه أن ينويَ إزالتها.
كما أنَّها لا تُشترط في إجزاء فعل الزَّكاة إذا فعلها أو أُخذت منه عنوة لأنَّه منعها، فإنَّها تُسقط عنه الفعل لكنَّه لا يُؤجر عليه لحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه: ((**فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشَطْرَ**

[41] منظومة القواعد الفقهية للعلامة السعدي رحمه الله.
[42] انقطاع يسير في الصَّوت.
[43] انقطاع يسير في الصَّوت.

مَالِهِ))[44] فلو كانت لا تجزئه لما أُخذت عنه، لكنَّه لا يُثاب عليها لتخلُّف المعنى الأوَّل وهو إخلاص العمل لله تعالى.

ومن ذلك أنَّها لا تُشترط في ردِّ الغصوب والودائع والأمانات -وما شابه ذلك-، من هذه النَّاحيَّة؛ أرجو أن يكون الكلام مفهومًا من أنَّها إذا نظرنا إلى النِّيَّة من جهةِ صحَّة العبادة وإجزائها فإنَّها لا تُشترط في هذه المواضع، وإذا نظرنا إلى النِّيَّة من جهة ترتُّب الثَّواب والأجر عليها فإنَّها تُشترط لذلك.

هذا أهمُّ -أو لعلَّه أهمّ- ما يتعلَّق بهذا الموضع من الحديث.

بعض النَّاس -وذكرتُ الآن فيما يتعلَّق بالتَّلفظ بالنِّيَّة-: بعض النَّاس يستشكل مثل التَّلفُّظ في الحجِّ والعمرة: (لَبَّيكَ اللَّهُمَّ عُمْرَةً)، (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ حَجَّةً) أو أن يقرنهما في القِران أو التَّمتُّع أو ما شابه ذلك، فمن أهل العلم من قال إنَّ هذا قد استُثنِيَ.

وكذلك ما جاء في التَّلفُّظ في النُّسك -بمعنى الأضاحي-: **((هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي))**[45] الحديث المعروف، فمن أهل العلم من قال إنَّ هذه الصُّور مستثناه، والصَّحيح أنَّها ليست مستثناة، وأنَّ هذا ليس من التَّلفُّظ بالنِّيَّة وإنَّما هو تلفُّظ بالمنْوِيِّ، وهذا ورد به لأنَّه ما قال مثلًا: (نويتُ أن أحجَّ) [...][46] فهذا الصَّحيح فيه أنَّه راجعٌ إلى أيِّ شيء؟ أنَّه راجعٌ إلى الفعل لا إلى نيَّته؛ فهو تلفُّظٌ بالفعل، ولهذا قالوا: لا يصح الطَّلاق بمجرَّد النِّيَّة مع عدم التَّلفُّظ بالمنْوِيِّ، فإذا طلَّق بمجرَّد فعل القلب لم يصح منه.

النِّيَّة لها مباحث كثيرة حتَّى قال -فيما أذكر- عبد الله ابن أبي جَمْرة: (وَدِدْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ مَنْ لَيْسَ لَهُ شُغْلٌ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ مَقَاصِدَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ وَيَقْعُدَ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي أَعْمَالِ النِّيَّاتِ لَيْسَ إِلَّا)[47] وهذا شيءٌ كان معروفًا عند العلماء في أنَّهم يُخصِّصون شيئًا من

---

[44] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود".

[45] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود" (2810) من طريق جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

[46] انقطاع يسير في الصَّوت.

[47] "المدخل" لابن الحاج العبدري، ج1، ص3.

العلم بمزيد من الاهتمام حتَّى كان كما ذكر -أظنُّ ابن العماد في "الشَّذرات"[48]- أو غيره: كان هناك رجل في القديم يُسمَّى بـ:"شيخ المطاهر" وشيخ المطاهر هو أنَّه كان يجلس حيث يتوضَّأ النَّاس فينظر إلى وضوئهم فإذا أصاب أحد صوَّبه وزاده علمًا، وإذا أخطأ صحَّح له خطأه -وما أشبه ذلك-، لما لهذه الأمور من الأهميَّة.

قال رضي الله عنه في هذا الحديث:[سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»] تكلَّمنا على ما تيسَّر من مسائل النِّيَّة؛ والكلام عليها كثير:

_ ومن جهة وقتها: هل هو مقارنٌ للفعل؟ -وهذا هو الصَّحيح-، أو هو بعده؟ والصَّحيح أنَّه مقارنٌ للفعل مسبوق له بشيءٍ يسير.

_ ومنها أنَّه لابدَّ وأن تكون مستصحَبةً في الفعل؛ فمن قطعها جازمًا قطعها بطل عمله كالصَّائم والمتوضِّئ -وما شابه ذلك-.

وهذا محلُّه كتب الفقه، إنَّما هي إشارات لهذه المعاني.

قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) هذه جملة ثانيَّة، فهاتان جملتان: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))، ((وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) هذه جملة مستقلَّة.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَا نَوَى)) "ما" هنا اسمٌ موصول بمعنى: الَّذي، أي: الَّذي نواه؛ لأنَّ العائد محذوف، أي: الَّذي نواه؛ هذا هو الصَّحيح فيها، ومن أهل العلم من قال بأنَّها مصدريَّة، يعني على هكذا يكون المعنى أنَّ تقدير الكلام: (لكلِّ امرئ نيَّتُه).

((وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) أي: نواه، على أنَّها اسمٌ موصول: (وإنَّما لكلِّ امرئ ما نواهُ)، ومن أهل العلم -مَن قلتُ لكم- مَن قال بإنَّها مصدريَّة، لكن الصَّحيح الأوَّل.

قال: ((وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) أي ترتُّب ثوابه وحصول أجره على قدر نيَّته، فإنَّ الإنسان يُؤجر على حسب وقدر نيَّته، فيحرص العبد على استحضار النِّيَّة.

---

[48] قَالَ ابنُ العمَاد الحَنْبَليّ: (شَمْس الدِّين مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم بْن يَعْقُوب، شَيْخ الْوضُوء الشَّافِعِيّ، كَانَ يُقْرِئ بِالسَّبْع، وَيُشَارِكُ فِي الْفَضَائِلِ، وَقِيلَ لَهُ: شَيْخُ الْوُضُوءِ؛ لأَنَّهُ كَانَ يَطُوفُ عَلَى الْمَطَاهِرِ فَيُعَلِّمَ الْعَامَّةَ الْوُضُوءَ) [كتابه " شذرات الذَّهب" ج8، ص538]

والنِّيَّة أمرها عظيمٌ في العلم، ولهذا كان الإمام مالك -إمام دار الهجرة- رحمه الله يقول: (مَا تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ إِلَّا لِنَفْسِي، وَمَا تَعَلَّمْتُ لِيَحْتَاجَ النَّاسُ إِلَيَّ، وَكَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ)[49]، وقال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: (طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ، قِيلَ: فَأَيُّ شَيْءٍ تَصْحِيحُ النِّيَّةِ؟ قَالَ يَنْوِي أَنْ يَتَوَاضَعَ فِيهِ وَيَنْفِي عَنْهُ الْجَهْلَ)[50].

فليست النِّيَّة في العلم أن تنويَ أن تكون عالمًا أو أن تكون مؤلِّفًا أو أن تكون مُحقِّقًا أو أن تكون مُشارًا إليه بالبنان، لا؛ الأصل أن تنويَ رفع الجهل عن نفسك في متعلَّقات فِعلك مع الرَّب -تبارك وتعالى- ما الَّذي أمركَ به؟ وما الَّذي نهاكَ عنه؟ فإن حُمِّلت علمًا فتح الله عليك، كما قال الألبيري -رحمه الله-:

وَإِنْ أُعْطِيتَ فِيهِ طُولَ بَاعٍ	وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَا
فَلَا تَأْمَنْ سُؤَالَ اللهِ عَنْهُ	بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ، فَهَلْ عَمِلْتَا؟

ولهذا نرجع إلى أوَّل ما بدأنا به -لأنَّني ذكرتُه الآن-: العلماء حرصوا على أن يذكروا حديث الأعمال بالنِّيات في أوائل كتب العلم المهمَّة؛ البخاريّ -رحمه الله- ذكره في أوَّل صحيحه بل هو أوَّل حديث ذكرهُ في صحيحه، صاحب العُمدة ذكره أيضًا أوَّل حديث، كذلك النَّووي -رحمه الله- هنا ذكره كحديث أوَّل أو الحديث الأوَّل من أحاديث الأربعين: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)).

فطالب العلم يعلم أثر النِّيَّة في العلم ومكانتها ومنزلتها، ولهذا لمَّا سُئل شيخنا العلَّامة النَّجمي -رحمه الله- في ترجمته -وهي مُسجَّلة بصوته- عن مسألة التَّأليف؛ قال: (لَمْ تَكُنْ لَنَا نِيَّةٌ لِلتَّأْلِيفِ، وَإِنَّمَا جَاءَ التَّأْلِيفُ تَبَعًا، فَحَصَلَتْ بَعْضُ الأَخْطَاءِ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ هُنَا وَهُنَاكَ؛ فَقُمْنَا بِالرَّدِّ عَلَيْهَا، وَبَعْضُ الدُّرُوسِ الَّتِي كَانَتْ تُدَرَّسُ كَانَ الطُّلَابُ يُفَرِّغُونَهَا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُطْبَعُ وَتُنْشَرُ، وَإِلَّا فَلَمْ يَكُنْ لَنَا غَرَضٌ وَلَا قَصْدٌ إِلَى التَّأْلِيفِ) لأنَّ هذا ليس من شأن طالب العلم في ابتداء الطَّلب، وكذلك في ترجمة شيخنا العلَّامة الفوزان -وهي مُسجَّلة أيضًا بصوته- لمَّا عُقد له مجلسٌ في ترجمته فسُئل عن التَّأليف؛ فقال: (لَمْ يَكُنْ لَنَا قَصْدٌ فِي التَّأْلِيفِ وَلَكِنْ كُنَّا نُلْقِي بَعْضَ الدُّرُوسِ فِي إِذَاعَةِ الْقُرْآنِ وَبَعْضَ الدُّرُوسِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَنَا، فَكَانَ بَعْضُ

---

[49] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج8، ص:66.

[50] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ ج2، ص:519.

الطُّلَابِ وَالْحَرِيصِينَ) -وأنا أحكي كلامهما بمعناه- (يَأْتِي فَيَأْخُذُ هَذِهِ الدُّرُوسَ فَيُفَرِّغُهَا وَبَعْدَ ذَلِكَ طُبِعَتْ).

فطالب العلم تكون همَّته في أوَّل الطَّلب مُنصبَّةً على أن يُعالج نفسه، بل هذا ممَّا يُعينه على الإخلاص، إذا لم يكن له في العلم نظر إلَّا إلى نفسه فإنَّه سيُخلص نيته إن شاء الله تعالى، لماذا تتعلَّم؟ لأتعرَّف كيف أعبد الله -جلَّ وعلا-؛ كيف أُصلِّي، كيف أصوم، كيف أحجّ إن يسَّر الله ليَ الحج، كيف أزكِّي إن اجتمع نصاب المال، كيف أتطهَّر، كيف أبَرُّ بوالديّ -وما شابه ذلك-، ومن قرأ كتاب "أخلاق حملة القرآن" للآجريّ عَلم ذلك على الحقيقة.

يقول عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ)) الهجرة في أصل اللُّغة: التَّرك، والمراد بها: الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وتعلمون أنَّ الهجرة فيها كلامٌ كثيرٌ عند أهل العلم.

✽ والهجـرة هجرتـان:

_ هجرة حسِّية؛ وهي الَّتي سبق الكلام عليها، وهي بمعنى الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وليست منسوخة كما زعمهُ بعضهم بل هي باقيّة ما بقيَ اللَّيل والنَّهار، وكما قال عليه الصَّلاة والسَّلام -كما عند أبي داود-: ((**لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ**))[51].

وأمَّا قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ**))[52] فإنَّ الهجرة معلومٌ أنَّها كانت أو أنَّها فرضٌ على أهل مكَّة من أشدِّ الفروض أن يُهاجروا، كما تعلمون في آيات سورة النِّساء: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[53] سمَّاهم ظالمين لتركهم للهجرة مع القدرة عليها، فقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**لَا هِجْرَةَ**)) ما قال: (مطلقًا) قال: ((**بَعْدَ الْفَتْحِ**)) يعني بعد فتح مكَّة مِن مكَّة؛ لأنَّ مكَّة صارت دار إسلام، ولهذا لم يُهاجر مُسلمة الفتح، الَّذين أسلموا عام الفتح لم يُهاجروا رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

[51] ((لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود" (2479)]

[52] رواه البخاري، ومسلم واللَّفظ له.

[53] سورة النِّساء: 97

قال: ((فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ)) بمعنى أنَّ من قصد الهجرة إلى الله تعالى إخلاصًا وتوحيدًا وإلى رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم اتِّباعًا وطاعةً فهجرته إلى الله ورسوله، وهذان هما شرطا العبادة.

شَرْطُ قَبُولِ السَّعْيِ أَنْ يَجْتَمِعَا	فِيهِ إِصَابَةٌ وَإِخْلَاصٌ مَعَا
للهِ رَبِّ العَرْشِ لَا سِوَاهُ	مُوَافِقَ الشَّرْعِ الَّذِي ارْتَضَاهُ[54]

((ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا)) وفي الرِّواية الثَّانية: ((يَتَزَوَّجُهَا))، صنَّف بعض العلماء نوعًا من علوم الحديث اسمه:"أسباب ورود الحديث"، وهو مُقابلٌ لما يتكلَّم فيه علماء علوم القرآن في "أسباب النُّزول"، وأوَّل من صنَّف في هذا -فيما نعلم-: ابن الجوزي، وصنَّف فيه الخطيب، ثمَّ جاء السّيوطي وجمع ما تفرَّق في كتابه "أسباب ورود الحديث"، وصُنِّفَت فيه كتب أُخرى -أعني أسباب ورود الحديث- بمعنى أنَّهم يتكلَّمون عن سبب هذا الحديث كيف قاله النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام، مثل حديث: ((**لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ**))[55]، وهكذا بعض الأحاديث لها أسباب مذكورة في هذه الكتب.

هنا بعض العلماء يذكرون قصَّة "مهاجر أمِّ قيس" وقد رواها الطَّبراني بسند قال عنه الحافظ ابن رجب -فيما أذكر- والحافظ ابن حجر[56]: (روَّاته ثقات)[57] وقد صحَّحه جمع من أهل العلم، يعني أنَّ رجُلًا هاجر ليتزوَّج امرأة كنيتُها:"أمّ قيس"، فقال بعض أهل العلم إنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام قال هذا الحديث لهذا السَّبب، وهذا ليس بصحيح؛ كما قال المحقِّقُون من أهل العلم بأنَّه لا علاقة بين حديث مُهاجر أمِّ قيس وحديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه الَّذي نحن بصدده، بل تلك قصَّة مُختلفة ولم يقل النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم هذا الحديث بسببها، فإذا عُلم هذا فإنَّ الحديث وإن قيل بأنَّه في سبب مُهاجر أمِّ قيس فمِن المعلوم المتقرِّر عند الأصوليِّين أنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب كما هو قول جماهيرهم وقول

54 منظومة سلم الوصول، للعلامة حافظ الحكمي رحمه الله
55 مُتَّفقٌ عليه، من طريق جابر رضي الله عنه [واللَّفظ للبخاري].
56 قال ابن حجر رحمه الله: (هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ) ["فتح الباري" ج1، ص32]
57 (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ) "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" للقاري رحمه الله، ج1، ص102]

المحقِّقين منهم، لأنَّ بعض أسباب ورود الحديث ادُّعِيَ فيها أنَّها حادثة عينٍ أو أنَّها خاصَّة بهذا المقام -وما أشبه ذلك-.

فإذا عُلم هذا فقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا)) أو ((يَتَزَوَّجُهَا)) فإنَّ هذا أيضًا عامٌّ في كلِّ هجرة، فالحديث يتناول جميع الأعمال، جميع المهاجرين.

وهذا الحديث كما تعلمون يُقال بأنَّه ثلث الإسلام أو ثلث العلم، والكلام عليه كثيرٌ وكثيرٌ وكثيرٌ، لكن فيما حصل من الإشارة -أو الإشارات- إلى بعض معانيه وما تضمَّنه إن شاء الله تعالى كفاية.

الحديث الثاني

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْ تَشْهَدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»

قَالَ: صَدَقْتَ. -فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!-

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ.

قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ.

قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ.

قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟»

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ

هذا الحديث ذكره المصنِّف -رحمه الله تعالى- في هذا المتن المختصر الَّذي تقدَّم معنا بأنَّه اشترط أن يذكر فيه الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام والَّتي اشتملت على معانٍ عِظام، وهذا الحديث على شرط المصنِّف -رحمه الله تعالى- لما اشتمل عليه مِن المسائل العظيمة المتعلِّقة بأمر الظَّاهر وأمر الباطن؛ بل إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم جعله الدِّين كُلَّه لأنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال في آخره: ((فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)) فجعل هذه المسائل الَّتي تساءل فيها معه جبريل عليه السَّلام جعلها الدِّين فقال: ((يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)) هذان أمران.

والأمر الثَّالث: أنَّ طائفةً من أهل العلم قد نصُّوا على أنَّ هذا الحديث يُلقَّب بـ"أُمِّ السُّنَّة" كما ذكر ذلك القرطبي[58] -رحمه الله تعالى-، والحافظ ابن رجب في شرحه على "صحيح البخاري" وكذلك في شرحه على هذا المتن -متن الأربعين النَّووية-، فقال عليه رحمة الله -أعني ابن رجب-: (وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ يَصْلحُ أَنْ يُسمَّى "أُمَّ السُّنَّةِ" لِرُجُوعِها كُلّهَا إِلَيْهِ، كَمَا تُسَمَّى الْفَاتِحَةُ "أُمَّ الْكِتَابِ" وَ "أُمَّ الْقُرْآنِ" لِمَرْجِعِهِ إِلَيْهَا)[59] انتهى كلام الحافظ ابن رجب -رحمه الله-، وقد ذكرتُ لك بأنَّه مسبوق بالقرطبي -رحم الله الجميع-، وكذلك ذكر هذا الكلام في شرحه على صحيح الإمام البخاري.

فهم يُلقِّبون هذا الحديث بهذا اللَّقب بأنَّه:"أمَّ السُّنَّة"، وأمُّ الشَّيء مرجعه الَّذي يرجع إليه، فمرجع السُّنَّة ومرجعُ معانيها إلى هذا الحديث.

وهذا الحديث كما ذكر المصنِّف -رحمه الله تعالى- رواه مسلم -يعني من حديث عمر رضي الله عنه وأرضاه-، وقد جاء عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة مع اختلافٍ يسير.

وهذا الحديث فيه معانٍ عظيمة؛ سنذكر ما يسَّره الله -جلَّ وعلا- وفتح به من العلوم الَّتي تضمَّنها هذا الحديث.

وراويه هو عمر، وهو راوي الحديث الأوَّل الَّذي تقدَّم.

وقوله هنا:[بَيْنَمَا] هذه:[بَيْنَمَا] ظرفيَّة، تُفيد الفُجاءة، أحيانًا يستعملونها بدون الميم فيقولون: (بين نحن كذا) بهذا المعنى، والبين معلومٌ أنَّها من الظُّروف الملازمة للإضافة، لكن إذا دخلت عليها الميم:[بَيْنَمَا] فإنَّها تكفُّها عن الإضافة، بمعنى أنَّها لا تجرُّ ما بعدها، ولهذا جاء بعدها:[نَحْنُ] وهذا الضَّمير لا يكون في العربيَّة في محلِّ جرٍّ، على كلِّ حال هي ظرفيَّة مُفيدة للفُجاءة، كما سبق بيانه.

---

58 قَالَ الْقُرْطُبِيّ رَحِمَهُ الله: (هَذَا الْحَدِيث يَصْلحُ أَنْ يُقَالَ لَهُ أُمّ السُّنَّة لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ جُمَلِ عِلْمِ السُّنَّةِ) ["فتح الباري" لابن حجر رحمه الله، ج1، ص125]

59 "فتح الباري" لابن رجب رحمه الله، ج1، ص222.

وقوله رضي الله عنه:[عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ] يعني في يومٍ من الأيَّام.

* وهذا فيه ما كان عليه الصَّحابة رضي الله عنهم من الحرص على مُجالسة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

_ ففيه مُجالسة أهل العلم.

_ وفيه الحرص على مُجالسة أهل العلم والاستفادة منهم وأخذ العلم منهم.

_ وأيضًا أخذ الأدب والسَّمت منهم.

فالصَّحابة رضي الله عنهم كانوا يحرصون على ملازمة مجالس النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وهذا أمر ينبغي أن يتنبَّه له طالب العلم؛ فإنَّه يحرص على المجالس الَّتي تنفعه.

لِقَاءُ النَّاس لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا ... سِوَى الإِكْثَارِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ
فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا ... لِأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالِ[60]

كما قاله الحميدي -رحمه الله تعالى-.

وقول عمر ضي الله عنه هنا:[ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ] هذا وصفٌ دقيقٌ للحالة الَّتي دخل فيها جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام على النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلماء الحديث يقولون بأنَّ هذا فيه ضبط الرَّاوي لما يرويه؛ فإنَّ الرَّاوي إذا روى بمثل هذه الصِّفة وحافظ على الوصف القائم في حال الحادثة فإنَّ هذا يدلُّ على ضبطه.

عمر رضي الله عنه قال هنا:[شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ].

[شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ]: جاء في رواية ابن حبَّان في "صحيحه": ((شَدِيدُ سَوَادِ اللِّحْيَةِ)).

* قال العلماء:

_ فيه الحرص على حُسن الهيئة في مجالس العلم.

60 "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج19، ص:127.

_ والتَّنظُّف لها.

_ والتَّطيُّب.

وهذا ما كان عليه السَّلف -رحمهم الله تعالى- كمالك والشَّافعي -وغيرهم-؛ فإنَّهم كانوا يحرصون على أن يكون المجلس نظيفًا، وأن يكونوا في هيئة حسنة، وأن يستعملوا الطِّيب، وهذا مذكورٌ في ترجمة مالك وفي ترجمة الإمام الشَّافعي -رحمه الله-، حتَّى ذكر الخطَّابي في "العزلة" -فيما أذكر- قصَّةً فيها طُرفة من أنَّ الشَّافعي -رحمه الله- كان إذا جلس وُضع له الطِّيب فيجلس النَّاس حوله فجاء يومًا رجل من الصُّوفية فلمَّا رأى مجلس الشَّافعي قال: (بطَّال، بطال)، ثمَّ جاء في المجلس الثَّاني ووضع -أكرمكم الله- الأذى على شاربه، وجلس في مجلس الشَّافعيّ، فلمَّا جلس الشَّافعي -رحمه لله- وجد هذه الرِّيح، فقال: (فَتِّشُوا نِعَالَكُمْ) فنظروا في أنفسهم فلم يجدوا شيئًا، فقال بعد ذلك: (فَلْيُفَتِّشْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) ففتَّشوا بعضهم بعضًا فوجدوا هذا الرَّجل، فقال للشَّافعي -رحمه الله-: (أردتُ أن أعلِّمك التَّواضع) فأمر به الشَّافعي وجُلد وسُجن وبعد ذلك أمره بإعادة الصَّلاة لأنَّه صلَّى بالنَّجاسة وهو عالمٌ بها[61]، الشَّاهد أنَّ أهل العلم كانوا يحرصون على أن يكونوا في أعظم وأحسن هيئة لأخذ حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقول عمر رضي الله عنه هنا:[لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ] بمعنى أنَّه استغرب لأنَّ الهيئة الَّتي يكون عليها المسافر في تلك الأيَّام بسبب طول السَّفر والعناء الَّذي يجده المسافر والبعد عن أهله وعن مواطن نظافته -وما شابه ذلك- تُحيل أن يكون على هذه الهيئة.

ثمَّ هو مع هذا كلِّه:[لَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ] يعني أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم لا يعرفونه، وقد جاء في روايةٍ لهذا الحديث: ((**فَنَظَرَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: مَا نَعْرِفُ هَذَا!**))[62].

---

[61] قَالَ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى الْوَرَّاقُ: (كَانَ الشَّافِعِيُّ -رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ- رَجُلًا عَطِرًا، وَكَانَ يَجِيءُ غُلَامُهُ كُلَّ غَدَاةٍ بِغَالِيَةٍ فَيَمْسَحُ بِهَا الْأُسْطُوَانَةَ الَّتِي يَجْلِسُ إِلَيْهَا، وَكَانَ إِلَى جَنْبِهِ إِنْسَانٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَكَانَ يُسَمِّي الشَّافِعِيَّ الْبَطَّالَ؛ يَقُولُ: هَذَا الْبَطَّالُ، وَهَذَا الْبَطَّالُ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ عَمَدَ إِلَى شَارِبِهِ فَوَضَعَ فِيهِ قَذَرًا ثُمَّ جَاءَ إِلَى حَلْقَةِ الشَّافِعِيِّ، فَلَمَّا شَمَّ الشَّافِعِيُّ الرَّائِحَةَ أَنْكَرَهَا وَقَالَ: فَتِّشُوا نِعَالَكُمْ، فَقَالُوا: مَا نَرَى شَيْئًا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: فَلْيُفَتِّشْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَوَجَدُوا ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَذَا، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: رَأَيْتُ تَجَبُّرَكَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَوَاضَعَ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- قَالَ: خُذُوهُ فَاذْهَبُوا بِهِ إِلَى عَبْدِ الْوَاحِدِ، -وَكَانَ عَلَى الشُّرْطَةِ-، فَقُولُوا لَهُ: قَالَ لَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ اعْتَقِلْ هَذَا إِلَى وَقْتِ نَنْصَرِفُ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ الشَّافِعِيُّ دَخَلَ إِلَيْهِ فَدَعَا بِهِ فَضَرَبَهُ ثَلَاثِينَ دِرَّةً أَوْ أَرْبَعِينَ دِرَّةً قَالَ: هَذَا بِمَا تَخَطَّيْتَ الْمَسْجِدَ بِالْقَذَرَةِ، وَصَلَّيْتَ عَلَى غَيْرِ الطَّهَارَةِ) ["العزلة" للخطابي رحمه الله، ص223]

[62] "المسند" للإمام أحمد رحمه الله، رقم:(184)، ج2، ص242.

* قـال العلمـاء:

_ فيه ما كان عليه الصَّحابة رضي الله عنهم مـن التَّعـارف فيمـا بيـنهم، وعـدم خفـاء بعضهم على بعض، وأنَّهم كانوا يتعارفون رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقوله رضي الله عنه:[حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ] يعـني أنَّهـم رأوه على هـذه الهيئة وظلَّ ماشيًّا [حتَّى] لأنَّ "حتَّى" هنا تُفيد الغاية، أي أنَّه انتهى به المقـام حـتَّى جلـس إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لماذا؟ لأنَّ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم هو المقدَّم فـيهم، فـأراد أن يجلس إليه.

_ ففيه إكرام ذي الفضل والعلم والمقدَّم في المجلس.

ومن ثمَّة قال بعض أهل العلم -وقد جاء هذا عن عليِّ بن أبي طالب- بأنَّ الطالب إذا دخل في مجلس العلم فإنَّه يبدأ بالسَّلام على الشَّيخ أوَّلًا ثمَّ يُسلِّم على الحاضرين.

انتهى إلى النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم؛ قال:[حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْـنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ] يعني أنَّ جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام أسند ركبتيه إلى ركبتي النَّبيِّ صـلَّى الله عليه وسلَّم.

_ وهذا ممَّا يدلُّ على القُرب من المتعلِّم، وأنَّ طالب العلم ينبغي له أن يكـون قريبًا من مُعلِّمه لا كما يحصل في كثيرٍ من مجالس العلم بين الشَّباب -أصلحهم الله- كلُّ واحـدٍ مـنهم باحثٌ عن المتَّكأ والمكان المريح، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام كان يحثُّ على القُـرب مـن الإمام والدُّنوِّ منه، وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يقول: ((**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**))[63] حتَّى اجتمعوا بين يديه عليه الصَّلاة والسَّلام.

فالسُّنَّة في العلم أن يكـون طالب العلم قريبًا من العـالم، لا القُـرب الَّذي يُضـيره أو يُضـيِّق عليه أو يُؤثِّر عليه؛ وإنَّما يكـون قريبًا منه لأنَّ هذا فيه الانتفاع بهذا العالم.

[63] (كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ)) فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، حَتَّى يُقَالَ: لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود"، من طريق أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه].

وقوله:[فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ] يعني أسند جبريل ركبتيه إلى ركبتي النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم.

[وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ] الضَّمير في:[كَفَّيْهِ] عائدٌ على جبريل، أيضًا هذا لا إشكال فيه.
لكن قوله:[عَلَى فَخِذَيْهِ] على فخذي مَن؟ هذا فيه خلافٌ:

_ أوضع كفَّيه على فخذي نفسه -يعني على فخذي جبريل نفسه-؟

_ ومنهم من قال إنَّه وضع كفَّيه على فخذي النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا هو الَّذي جاء في الرِّواية عند الإمام النَّسائي؛ فقد ورد عند الإمام النَّسائي في روايته أنَّه قال: **((حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))**[64] وهذه الرِّواية تُزيل وترفع ذلك الإشكال وذلك الخلاف، فجبريل عليه الصَّلاة والسَّلام وضع كفَّيه على فخذي النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا فيه مزيدٌ من القُرب إليه -عليه الصَّلاة والسَّلام- ليُبيِّن أنَّه في غايةٍ من الانتباه والاصغاء.

وقال بعدها: ((يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ)) نادى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام باسمه، والصَّحابة يعلمون أنَّ الله -جلَّ وعلا- قد نهاهم عن أن يُنادوه باسمه:﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[65] فيُقال: إنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا يعلمون هذا [...][66]، وقد ورد في حديث أبي هريرة الَّذي سبقت الإشارة إليه أنَّه قال: **((يَا رَسُولَ اللهِ))**، وجاء في روايةٍ عند النَّسائي أنَّه سلَّم على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

_ **فما الجواب على هذا الإشكال؟**

قالوا: إنَّه أراد مزيدًا من التَّعمية، كأنَّه يُريد أن يُبيِّن أنَّ هذا صنيع الأعراب حتَّى لا يتفطَّنوا إلى أنَّه جبريل، وهذا قد يكون فيه نوعٌ من الظُّهور على أنَّه أراد التَّأكيد أو مزيدًا من التَّعمية فلم يقل: (يا رسول الله).

[64] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح النَّسائي".
[65] سورة النور: 63
[66] انقطاع يسير في الصَّوت.

وقوله رضي الله عنه أنَّه قال: ((يَا مُحَمَّدُ)) يعني أنَّ جبريل قال: ((يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ))، في رواية التِّرمذي قال أخبرني عن الإيمان أوَّلًا[67]، هذه الرِّواية الَّتي اختارها [...][68] والرَّواة اختلفوا في تأديَّتها فبعضهم يُقدِّم وبعضهم يُؤخِّر، وليس في السِّياق ترتيب؛ يعني أنَّه لا يلزم أن يكون هذا هو التَّرتيب المروي في الحديث.

وقوله رضي الله عنه: ((قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ)) يعني علِّمني وأعلمني الإسلام.

قال: ((أَنْ تَشْهَدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)) أنتم تعلمون أنَّ المصنِّف -رحمه الله تعالى- ذكر الحديث الثَّالث من الأحاديث الَّتي اختارها ألا وهو حديث ابن عُمر في بيان أركان الإسلام ومبانيه: ((بُنِي الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ)) وهو أيضًا ما تضمَّنته هذه الرِّواية، وعلى هذا فإنَّنا سنُرجئ الكلام على أركان الإسلام بشيء من الاختصار لتكون هي الكلام في الحديث الَّذي يليه، حتَّى لا يُفرغ الحديث من شيءٍ من الكلام عنه ويُحال عليه هنا، بدل من أن يُحال إليه هنا، فنقول: يأتي شرح أركان الإسلام في حديث ابن عمر وهو الحديث الثَّالث لأنَّه أنسب في هذا المقام.

وربَّما يُشكل على بعضكم قوله:[طَلَعَ عَلَيْنَا] في أوَّل الحديث، [طَلَعَ] هنا بمعنى ظهر، وليس هو بمعنى الطُّلوع والصُّعود، وإنَّما هنا بمعنى ظهر.

و [أَثَرُ السَّفَرِ] علاماته -كما هو معلوم-.

وقول عمر رضي الله عنه وأرضاه بعد ذلك:[فَقَالَ:«صَدَقْتَ» فَعَجِبْنَا لَهُ] معنى [فَعَجِبْنَا لَهُ] أي عجبنا منه أو عجبنا لأجله؛ كيف يسأل النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإسلام ثمَّ يقول له: ((صَدَقْتَ)) !

67 ((...حتَّى أتى النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ فألزق رُكبتَه برُكبتِه ثمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ ما الإيمَانُ؟)) الحديث [صحَّحه الألبانِي رحمه الله في "صحيح التِّرمذي"].

68 انقطاع يسير في الصَّوت.

لأنَّ الأصل في المتعلِّم والسَّائل أن يكون متعلِّمًا لشيء يجهله، وهذا الرَّجل الَّذي دخل على الصَّحابة رضي الله عنهم قال: ((صَدَقْتَ)) فالصَّحابة تعجَّبوا [فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!] الصَّحابة رضي الله عنهم عَجبوا لهذا الأمر ولكنَّهم بين يدي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يُريدوا مقاطعة الحوار الدَّائر بينه وبين السَّائل.

ثمَّ قال: ((فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ)) وهنا لم يقل عمر رضي الله عنه:[فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ] لأنَّ المقام الأوَّل كافٍ عنه -كافٍ عن هذا المقام-.

والإيمان هذه أركانه، وقد ذكر الحافظ ابن رجب بأنَّ ما تضمَّنه حديث جبريل من مسائل الإيمان والإسلام والإحسان أجمعت عليها ديانات الرُّسل كلِّهم، فإنَّ الرُّسُل كلَّهم دعوا إلى ما دعا إليه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو ما تضمَّنه حديثُ جبريل، مع اختلافٍ في بعض جُزئيات وأفراد الشَّرائع محلُّها أنَّ ما جاء في شريعتنا فإنَّه ناسخٌ لسابقه.

والإيمان في أصل اللُّغة: تصديقٌ مع إقرار، كما قرَّر ذلك شيخ الإسلام -رحمه الله- في كتاب "الإيمان" وردَّ على من فسَّر الإيمان بمجرَّد أو بمُطلق (التَّصديق) وأنَّ المعنى اللُّغوي للإيمان هو تصديقٌ مع إقرارٍ جازم، هذا المعنى في اللُّغة.
وأمَّا المعنى الشَّرعي للإيمان: فإنَّه قول القلب، ونُطق اللِّسان، وعمل الجوارح، أو قل: هو قولٌ وعملٌ، والقول يدخل فيه قول القلب وقول اللِّسان، والعمل يدخل فيه عمل القلب وعمل الجوارح، هذا ما قرَّره أهل السُّنَّة؛ وأنَّ الإيمان مركَّبٌ من هذه الثَّلاثة الأمور لا ينفكُّ عنها بحالٍ من الأحوال.

قال هنا: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ)) والإيمان بالله يتضمَّن:
_ الإيمان بربوبيَّته، وأنَّه الخالق الرَّازق الملك المدبِّر، وهو إفراد الله في أفعاله.
_ والإيمان بأُلوهية، وأنَّه الإله المعبود بحقٍّ، وهو إفراد الله في أفعال عباده.

_ والإيمان بالأسماء والصِّفات، وأنَّه -تبارك وتعالى- له الأسماء الحسنى والصِّفات العُلا.

هذا ما يتضمَّنه الإيمان بالله -تبارك وتعالى-، فنُؤمن بكلِّ ما جاء عن الله -تبارك وتعالى- نُؤمن بما وصف به نفسه في كتابه العزيز ووصفه به رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم في سنَّته.

قال: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ)) والملائكة جمع مَلَك، وهم خلقٌ خُلقوا من نور، والإيمان بالملائكة قسمان:

_ إيمانٌ إجماليٌّ؛ وهو الإيمان بكلِّ مَلكٍ خلقه الله -تبارك وتعالى- علِمْنا اسمه أو لم نعلمه، علِمْنا وصفه أو لم نعلمه، عَلِمنا عمله أو لم نعلمه.

_ والقسم الثَّاني: إيمانٌ تفصيليّ، والإيمان التَّفصيلي يدخل فيه الإيمان باسم المَلَك، والإيمان بعمله، والإيمان بوصفه، فلا نصف الملائكة لأنَّهم غيبٌ إلَّا بمقتضى الدَّليل، ولا أيضًا ننسب إليهم أعمالًا إلَّا بمقتضى الدَّليل، ولا نُسمِّيهم بأسماءَ إلَّا بمقتضى الدَّليل، مثال ذلك:

- وصفهم الله -جلَّ وعلا- بالقلوب؛ فقال:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾[69] فنؤمن بهذا، وصفهم الله -جلَّ وعلا- بالأجنحة؛ فقال:﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾[70] ووصف النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم جبريل في سُنَّته بأنَّ له ستمائة جناح، إلى غير ذلك من الأوصاف.
- والأسماء: مثلما جاء في القرآن: جبريل، وميكال، ومالِك، وهكذا سائر الأسماء إذا ثبت عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أو ثبت في القرآن -من باب أولى- فإنَّنا نُؤمن بهذا.
- وأمَّا وظائفهم أيضًا: فإنَّنا نُؤمن بالوظائف الَّتي ذكرها الله -عزَّ وجلَّ- كنزول جبريل عليه السَّلام بالوحي، وميكال بالقطر، وأنَّ مالِك خازن النَّار، وغير ذلك ممَّا هو مبحوثٌ ومُقرَّرٌ في كتب الاعتقاد عند أهل العلم؛ ومن أوسعها الَّتي جمعت معاني هذا الحديث: شرح شيخ مشايخنا العلَّامة حكمي -رحمه الله- على نظمه الَّذي سمَّاه بـ"معارج القَبول"، فمن رام مزيد تقرير لهذه المسائل فعليه به فإنَّ فيه ما يُثلج صدر طالب العلم.

[69] سورة سبأ: 23
[70] سورة فاطر: 1

قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ)) وكذلك الكتب: جمع كتاب، تُؤمن بكتبه، بمعنى الإيمان بكتب الله الَّتي أنزلها على رُسله:﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[71]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[72]، والإيمان بالكتب ينقسم إلى قسمين:

_ إيمانٌ إجمالي: بأن نُؤمن بكلِّ كتاب أنزله الله -تبارك وتعالى- وأنَّ الله -جلَّ وعلا- أرسل الرُّسل وأنزل معكم كتبًا وصحفًا وما أشبه ذلك.

_ وإيمانٌ تفصيليّ: بأن نُؤمن بكلِّ كتابٍ وعلى مَن أُنزل هذا الكتاب؛ كالتَّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزَّبور على داود، وهذا القرآن على نبيِّنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، ونؤمن بصحف إبراهيم وموسى، وهذا كلُّه لابدَّ أن يكون راجعًا إلى دلالة الكتاب والسُّنَّة.

وقوله: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)) أيضًا الإيمان بالرُّسل يَنقسم إلى قسمين:

_ إيمان إجماليّ: وهو الإيمان بكلِّ رسول أرسله الله وإن لم نعلمه كما سبق في الآية:﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وكما قال -جلَّ في علاه- أيضًا في كتابه [...][73]

_ والقسم الثَّاني: الإيمان بالرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام الَّذين ذكرهم الله -جلَّ وعلا- بأسمائهم أو ذكرهم نبيُّه عليه الصَّلاة والسَّلام، إلى مَن أُرسلوا، فإنَّنا نؤمن بأسمائهم، ونؤمن بأنَّ من الأنبياء من سمَّاهم الله -جلَّ وعلا- بأولي العزم من الرُّسل وهم عند جماهير أهل العلم خمسة:

نوحٌ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمَّد -عليهم الصَّلاة والسَّلام جميعًا-؛ فهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الرُّسل.

❁ وقد نظمتهم في ثلاثة أبيات:

أُولُوا الْعَزْمِ خَيْرُ الرُّسْلِ أَعْنِي مُحَمَّدَا ... وَيَتْلُوهُ إِبْرَاهِيمُ مُوسَى المكَلَّمُ
وَعِيسَى وَنُوحٌ فِيهُمُ الخُلْفُ حَرَّرُوا ... عَلَى جِهَةِ التَّقْدِيمِ وَالْعَزْمُ مُحْتَمُ
عَلَى الرَّاجِحِ المشْهُورِ فِي الرُّسْلِ كُلِّهِمْ ... وَقَدْ قَرَّرَ الجُمْهُورُ هَذَا وَسَلَّمُوا

---

[71] سورة فاطر: 24

[72] سورة إبراهيم: 4

[73] انقطاع يسير في الصوت.

فالإيمان بالرُّسل إيمانٌ على هذا النَّحو.

قال: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)) تقدَّم معنا ذلك، ((وَالْيَوْمِ الآخِرِ)) كذلك الإيمان باليوم الآخر:

_ نؤمن بأنَّه آخر أيَّام الدُّنيا.

_ وبأنَّ فيه من الأهوال والشَّدائد والأمور العظيمة ما لا يعلمه إلَّا الله -تبارك وتعالى-.

_ ونُؤمن بما جاء فيه من الأحداث العظيمة الَّتي ذكرها ربُّنا -تبارك وتعالى- في كتابه وذكرها نبيُّنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وكلُّ هذا الوقوف عليه ليس أمرًا مشكلًا.

ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) يعني أنَّ الإيمان بالقدر لابدَّ وأن يكون من مجموع هذين الأمرين وأنَّ كلَّ شيءٍ بقدر كما جاء في صحيح مسلم: ((حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ))[74] كما بيَّنه النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

❁ والإيمان بالقدر يتضمَّن أربعة مراتب لابدَّ من الإيمان فيها:

الإيمان بعلم الله السَّابق، الإيمان بكتابته للأشياء، الإيمان بخلقه أو مشيئته لها وخلقه لها، ونُسب إلى الشَّافعي أنَّه نظمها بقوله:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ ... وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

والإيمان بالقدر كما جاء عن علي رضي الله عنه وإن كنَّا لم نقف على إسناده حتَّى السَّاعة أنَّه قال: (الْقَدَرُ: سِرُّ اللهِ فِي خَلْقِهِ)[75] وكان الإمام أحمد يقول: (الْقَدَرُ قُدْرَةُ اللهِ، فَمُنْكِرُ الْقَدَرِ مُنْكِرٌ لِلْقُدْرَةِ)[76].

---

74 ((كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْس)) رواه مسلم من طريق ابن عمر رضي الله عنهما.

75 "أضواء البيان"، ج 8، ص337

76 مِنْ خلَالِ بَحْثِي القَاصِر: تَعذَّر الوُقُوفُ عَلَى اللَّفْظ المَذْكُور، ووَجَدْتُه جاءَ عَنْ أَحْمَد بلَفْظ: (الْقَدَرُ قُدْرَةُ الله عَلَى الْعِبَادِ) ["الإبانة" لابن بطة رحمه الله، ج2 ص262]. وَجاءَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِلَفْظ: (الْقَدَرُ قُدْرَةُ الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فَمَنْ كَذَّبَ بِالْقَدَرِ فَقَدْ جَحَدَ قُدْرَةَ الله -عَزَّ وَجلّ-) ["الإبانة" لابن بطة، ج2 ص131]. وَجاءَ عَنْ زَيْد بْن أَسْلَم: (الْقَدَرُ قُدْرَةُ الله، فَمَنْ كَذَّبَ بِالْقَدَرِ فَقَدْ جَحَدَ قُدْرَةَ الله -عَزَّ وَجلَّ-) ["الإبانة" لابن بطة، ج2، ص222]

وفهمُ القدر لمن بصَّره الله -جلَّ وعلا- وأنار طريقة أمره ميسورٌ وسهل، ولو تأمَّل طالب العلم حديث عمر رضي الله عنه الَّذي خرَّجه الشَّيخان في صحيحيهما في قصَّة طاعون عمواس لمَّا قال للمهاجرين والأنصار طلب منهم مشورتهم فمنهم من أشار بالدُّخول ومنهم من أشار بالخروج وعدم الدُّخول إلى بلاد الشَّام؛ قال بعد ذلك عُمر نرجع إذًا، فقال أبو عبيدة بن الجراح: (أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ)[77] فقال عمر رضي الله عنه: (نَعَمْ؛ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ)[78] وقال له فيها: (لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا)[79] ثمَّ جاء عبد الرَّحمن بن عوف وأخبر بأنَّه سمع الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: ((**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**))[80] ثمَّ بيَّن عمر أنَّه لو نزل في وادٍ فيه زرعٌ وقد وجد أرضًا خصبة وأرضًا قد رُعِيَ فيها، فإن رعى في الخصبة؛ رعى بقدر الله، وإن رعى في الجدبة؛ رعى بقدر الله[81].

فكلُّ شيءٍ بقدر، والعبد له اختيارٌ وفعلٌ؛ ويُنسب إليه فعله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[82].

هذا شيءٌ من الاختصار مُتضمِّنٌ لمعنى الإيمان أو أركان الإيمان على مُقتضى ما ذكرها حديث جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام.

وفي الحديث أيضًا ممَّا تقدَّم من الفوائد:

_ أنَّ الله -جلَّ وعلا- أقدر الملائكة على أن يتشكَّلوا على هيئة البشر؛ فقد قال الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله-: (وَهَذَا جِبْرِيل صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ رَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلَهُ سِتُّمائَةِ جناح، مِنْهَا جَنَاحَانِ قَدْ سَدَّ بِهِمَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَكَانَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَضَعَ رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ وَيَدَيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَمَا أَظُنُّكَ يَتَّسِعُ بِطَانُكَ أَنَّهُ كَانَ حِينَئِذٍ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى فَوْقَ السَّمَاوَاتِ -حَيْثُ هُوَ مُسْتَقَرُّهُ- وَقَدْ دَنَا مِنَ النَّبِيِّ

[77] متَّفقٌ عليه، من طريق ابن عباس رضي الله عنهما.
[78] متَّفقٌ عليه، من طريق ابن عباس رضي الله عنهما.
[79] متَّفقٌ عليه، من طريق ابن عباس رضي الله عنهما.
[80] متَّفقٌ عليه، من طريق ابن عباس رضي الله عنهما.
[81] قَالَ عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ؛ أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ) متَّفقٌ عليه؛ واللفظ للبخاري.
[82] سورة التكوير: 29

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الدُّنُو، فَإِنَّ التَّصْدِيقَ بِهَذَا لَهُ قُلُوبٌ خُلِقَتْ لَهُ وَأُهِّلَتْ لِمَعْرِفَتِهِ)[83] إلى آخر كلامه -رحمه الله وغفر له-، الشَّاهد أنَّ الملائكة أقدرهم الله -تبارك وتعالى- على أن يتشكَّلوا.

قال بعد ذلك جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ)) لاحظ أنَّه بعد أن انتهى من الكلام على مسائل الإيمان وما يتعلَّق بها سأل النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإحسان؛ قال: ((فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»)) وهذا ركنٌ واحد لكنَّه على درجتين:

_ درجةُ وجوبٍ؛ لا يجوز أن تخلُوَ من قلب العبد، وهي مرتبة الإيمان بأنَّ الله يرى العبد، كما قال -تبارك وتعالى-:﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[84]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[85] فهذا الإيمان واجبٌ بأنَّ الله -تبارك وتعالى- يرانا، فالعبد يراه ربُّه -جلَّ وعلا-، هذه المرتبة وهذه الدَّرجة واجبة.

_ ومرتبةُ الكمال: أن يعْبُدَ العبدُ ربَّه كأنَّه يراه.

* فهذان مقامان:

_ أحدهما: مقام المراقبة وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه واطّلاعه عليه فيتخايل أنَّه لا يزال بين يدي الله فيراقبه في حركاته وسكناته وسرِّه وعلانيَّته، فهذا مقام المراقبين المخلصين، وهو أدنى مقام الإحسان.

_ والثَّاني: أن يشهد العبد بقلبه ذلك شهادة فيصير كأنَّه يرى الله ويُشاهده، فهذا نهاية مقام الإحسان وهو مقام العارفين كما عبَّر بذلك الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى وغفر له-.

---

[83] "الرُّوح" لابن القيِّم رحمه الله، ص308\309.
[84] سورة يونس: 61
[85] سورة النِّساء: 1

فهذا معنى الإحسان، والإحسان كما سبق: ركنٌ واحد؛ لا كما يظنُّه بعض النَّاس أنَّه على رُكنين.

قال: ((فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ)) يعني لا عن قيامها ولكن أخبرني عن وقتها؛ فهذا الَّذي أراده من السُّؤال، وإلَّا فإنَّ المعلوم أنَّهم يعلمون أنَّ السَّاعة آتية ولهذا قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ))، فسأل عن السَّاعة بمعنى الوقت الَّذي تقوم فيه القيامة لأنَّ المراد بها هنا (القيامة)، فأراد: أخبرني عن زمن قيام السَّاعة.

فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)) يعني أنَّك أنت لا تعلمها وأنا أيضًا لا أعلمها، لماذا؟ لأنَّها من الأمور الَّتي استأثر الله -جلَّ وعلا- بعلمها.

* في هذا:

_ أنَّ الأنبياء والملائكة لا يعلمون الغيب الَّذي اختصَّ الله -تبارك وتعالى- به نفسه، بل لا يعلمون من الغيب إلَّا ما علَّمهم الله -جلَّ وعلا-.

_ وفي هذا الحديث أيضًا ردٌّ على غلاة المتصوِّفة الَّذين يزعمون أنَّ أولياءهم يعلمون الغيب ومكانين الأمور ويعلمون ما في نفس وسرِّ المريد -كما يقولونه-، وهذا ضلال مبين.

فإنَّ سادة الأولياء بعد الأنبياء: صحابةُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومع هذا لم يعلموا مَن هو هذا الدَّاخل الَّذي دخل عليهم -رضي الله عنهم-، وهو جبريل؛ وفيهم أبو بكر وفيهم عمر وفيهم خيرة الصَّحابة ولم يعلموا بأنَّ هذا الدَّاخل هو جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام، في هذا ردٌّ على من يزعمون أنَّ الأولياء يعلمون الغيب، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ**))[86] فذكر منها أيضًا قيام السَّاعة، وقد قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[87].

[86] ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ)) رواه البخاري، من طريق ابن عمر رضي الله عنهما.

[87] سورة لقمان: 34

فلمَّا قال جبريل؛ قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام لجبريل: ((«مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا)) والأمارات جمعُ أمارة وهي العلامة، وجاء في رواية أخرى: ((وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا))[88] فالأمارات والأشراط شيءٌ واحدٌ؛ ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[89] أي جاءت أماراتها، بمعنى أنَّه يريد أن يُخبره عن الأشراط المتقدِّمة لقيام السَّاعة، وهذا شيءٌ ممَّا أعْلَمَهُ الله -جلَّ وعلا- لنبيِّه محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

فقال: ((أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا)) ذكر له بعض العلامات، أوَّلها هذه: ((أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا)) وورد في الرِّوايات الأخرى: ((بَعْلَهَا))[90] ومعنى: ((رَبَّتَهَا)) أو ((بَعْلَهَا)) أي سيِّدها.

✽ والعلماء -رحمهم الله- اِختلفوا في معنى هذا وما هو المراد منه:

_ فقيل: إنَّ المراد اِخباره عليه الصَّلاة والسَّلام بأنَّ السَّراري الَّتي يتسرَّى بها السَّادة تكثر في آخر الزَّمان بسبب الغزو والفتوحات فتكون أُمَّ ولد، فتلد ويكون ولدها هو سيِّدها أو بمنزلة سيِّدها؛ ولا سيما عند عدم وُجود البرِّ والإحسان، فتكون قد ولدت سيِّدها.
_ وقال بعض أهل العلم: إنَّ الحديث دليل على أنَّ الإماء يلدن الملوك في آخر الزَّمان؛ فتكون أمّ المَلِك أَمَةً، وهذا حصل في بعض دُويلات وخلافات المسلمين.
_ ومنهم من قال: إنَّ المراد ما يكثر من العقوق بين الأبناء.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام -وهذه علامة أخرى-: ((وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)) وهذه علامة من العلامات.
و ((الْحُفَاة)): معلومٌ أنَّهم جمع حافٍ؛ وهو الَّذي لا ينتعل أو لا نعل له أو لا نعل عليه.
و ((العُرَاة)): جمع عارٍ؛ وهو الَّذي لا ثياب له.
و ((الْعَالَةَ)): جمع عائل؛ وهو الَّذي يعيل مع فقرٍ، أي أنَّه فقيرٌ.

---
[88] متَّفقٌ عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ للبخاري]
[89] سورة محمَّد: 18
[90] ((إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ بَعْلَهَا)) رواه مسلم.

و ((رِعَاء الشَّاء)) -بكسر الرَّاء-: كما هو معلوم هم الرُّعاء الَّذين يرعونها، وخصَّهم هنا لأنَّهم أضعف الرُّعاة، فإنَّ رُعاة الإبل فيهم أنَفة، إلى غير ذلك من الأمور الَّتي ذكرها أهل العلم.

وقد جاء في صحيح الإمام البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((وَإِذَا كَانَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا))[91]، وعند مسلم: ((وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا))[92].

هذه بعض أشراط السَّاعة الَّتي ذكرها، وأشراط السَّاعة كثيرة.

قال رضي الله عنه:[ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا] يعني أنَّ جبريل مضى، فلبث الصَّحابة رضي الله عنهم مليًّا ينظرون، يعني أنَّها فترة من الزَّمن، جاء في رواية عند النَّسائي قال: ((فَلَبِثْتُ ثَلاثًا))[93].

فقال بعد ذلك النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم:[«يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ] فعمر رضي الله عنه لم يكن يعلم، وهذا دليلٌ على الَّذي يقولون بأنَّ الأولياء يعلمون الغيب.

[«يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ] ولو كان عندهُ علمٌ ما أخفاه على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

قال:[قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ] قال العُلماء: فيه اِستحباب أن يَقول هذا من لا عِلم له بما سُئل عنه.

_ فمنهم من عمَّمَه في أُمور الدِّين والدُّنيا في حياته.
_ ومنهم من خصَّصه بأُمور الدِّين بعد موته.
_ ومنهم من عمَّمه بعد موته أيضًا في أمور الدِّين والدُّنيا.

---

[91] اللفظ للبخاري.
[92] اللفظ لمسلم.
[93] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح النَّسائي".

ثلاثة أقوال؛ والأحوط أنَّه إذا كان من أُمور الدُّنيا أن لا يُقال فيه: (اللهُ ورسُوله أعلم).

ثمَّ قال: ((فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ))

_ فيه الرُّجوع إلى أهل العلم.

_ وأنَّ العلم يُؤخذ بالتَّعلُّم، وكما قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ))[94]

وقد قال النَّاظم:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ   وَالْحِفْظِ والإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّمِ[95]

هذا حقيقة العلم لأنَّ جبريل جاء معلِّمًا لأصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال له: ((فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)) ونسب إليهم الدِّين لأنَّهم هم المحتاجون إلى تعلُّمه ومعرفته.

فهذا الحديث حديثٌ عظيم، وكان التَّعليق عليه مختصر لمناسبة هذا المتن ومناسبة هذا الكتاب، وما وقع فيه من بيانٍ أو ما وقع فيه من خفى فإنَّ العلماء -رحمهم الله- قد اعتنوا بهذا الحديث اعتناءً كثيرًا؛ وقد رواه الشَّيخان في صحيحهما كما سبق من حديث أبي هُريرة، وانفرد مسلم بروايته من حديث عمر، فيطلب طالب العلم مزيدًا من معانيه.

وينبغي أن يُعلَّم هذا الحديث لأهل الإسلام في الخطب وفي المنابر وفي المجالس، وقد شرحه طوائف من أهل العلم بشروحٍ مُستقلَّة.

94 حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

95 "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله، ص578؛ وقال: (أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ فِي آدَابِ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ مِنَ النَّظْمِ مَا يُنْسَبُ إِلَى اللُّؤْلُؤِيِّ مِنَ الرَّجَزِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْسِبُهُ إِلَى الْمَأْمُونِ).

۞ الحديث الثالث ۞

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ»

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما صحابيٌّ بن صحابيٍّ، وهو من المكثرين في رواية حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقوله رضي الله عنه هنا:[سَمِعْتُ] تقدَّم الكلام على هذه اللَّفظة، وأنَّها عند جماهير أهل الحديث تُفيد أرفع درجات أو أنَّها من أرفع أو أرفع درجات التَّحمُّل والأداء للحديث؛ وهي لفظ السَّماع.

قال:[سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «بُنِيَ»] هناك بناءٌ حسِّيٌ وبناءٌ معنوي، البناء قسمان: بناء حسِّيٌ وبناءٌ معنويٌّ.

_ والبناء الحسِّي: بناءُ لبنة على لبنة، وهذا هو المعهود المعروف.

_ والبناء المعنويّ: بناءُ شيءٍ من المعاني على شيءٍ آخر كبناء الآباء أو الأبناء على الأباء -وما شاكل ذلك-؛ ومنه هذا المعنى، فإنَّ المراد ببناء الإسلام هاهنا: الأمر المعنويّ، فإنَّ المراد ببناء الإسلام هنا: ((بُنِيَ الْإِسْلَامُ)) البناء المعنويُّ.

والإسلام: هو الاستسلام لله بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبَرَاءَة مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِه، هكذا عرَّفهُ الأئمَّة ومنهم شيخُ الإسلام الإمام المجدِّد إمام الدَّعوة محمَّد بن عبد الوهَّاب -رحمه الله تعالى- كما في "الثَّلاثة الأصول" وفي غيرها أيضًا من كُتبه، وقد تضمَّن هذا التَّعريف أمورًا منها: أنَّ الإسلام الاستسلام لله بالتَّوحيد وهو إسلام الوجه والقلب، والانقياد له بالطَّاعة والبراءة من الشِّركِ وأهله، ومجموع هذه الأمور هو الإسلام الظَّاهر الَّذي أمر الله -تبارك وتعالى- به.

وقوله: ((عَلَى خَمْسٍ)) معلومٌ أنَّ هذا جار ومجرور.

وقوله: ((شَهَادَةُ)) أو ((شَهَادَةِ)):

_ ((شهادةِ)) هنا على أنَّه بدل وما بعده، إلَّا أنَّ بعض النَّحويين اعترض على هذا المعنى بأنَّ المراد مجموع هذه الأشياء.

_ والوجه الثَّاني -على الرَّفع-: على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أحدها ((شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله)) ثمَّ ما بعدها مرفوعٌ على العطف: ((وَإِقَامُ))، ((وَإِيتَاءُ))، ((وَحَجُّ))، ((وَصَوْمُ)) لأنَّ الواو عاطفة؛ والمعطوف حكمه حكمُ المعطوف عليه.

والشَّهادة لفظها يدلُّ على العلم والإقرار والإخبار وحضور الشَّيء، هذه معانيها، أي: أَعلم وأُقِرُّ وأُعلم بهذا الَّذي سأذكُره، هذا لفظ الشَّهادة.

((شَهَادَةُ أَن)) (أن) هذه كما هو معلومٌ هي المُخفَّفة من الثَّقيلة، ولها أنواع ولها اعتبارات عند النَّحويين ليس هذا محلُّها، لأنَّ (أنَّ) الَّتي هي الحرف المشبَّه بالفعل تطلب اسمًا وخبرًا واسمها ضمير الشَّأن وهو المستتر؛ بمعنى: أشهد أنَّه.

و (لا) هنا: ((شَهَادَةُ أَن لَا)) (أن) هذه كما قلتُ لك المُخفَّفة من الثَّقيلة من جهة الصَّوت ومن جهة الإدغام اللُّغوي فإنَّها تُدغم في لا النَّافية.

❋ ويُخطِئ حتَّى بعض طلبة العلم عندما يقرأ هذه اللَّفظة فيقرأ: (أنْ) ويقول بعضهم: (وأشهد أنَّ لا إلٰه إلَّا الله) وهذا غلط![96]

وهنا قال: ((شَهَادَةُ أَن لَا)) (لا) هذه هي النَّافية العاملة عمل (إنَّ)، نافية للجنس، العاملة عمل إنَّ في النَّكرات.

عَمَلُ إِنَّ اجْعَلْ لِلا فِي نَكِرَهْ   مُفْرَدَةً جَاءَتْكَ أَوْ مُكَرَّرَهْ[97]

وشرطها أن يكون اسمها نكرة؛ هذا عند النَّحويِّين، وإذا جاءت لا النَّافية بعدها نكرة فإنَّها عند البيانيين تُفيد العموم -كما هو معلومٌ-.

و ((إِلَه)) فِعال، بمعنى مفعول أي: معبود، لأنَّه مُشتقٌّ مِن: (أَلَهَ، يأله، إلهةً، وأُلوهيَّة) بمعنى: عَبَدَ، وهذا هو الَّذي بُعثت الرُّسل من أجل تقريره، فدلَّت هذه على نفي كلِّ معبودٍ سوى الله -جلَّ وعلا- لأنَّها نفيٌ، وهذا النَّفيُ جاء في سياق الإثبات، والنَّفي مع الإثبات أقوى مراتب الحصر عند البيانيين.

❋ والحصر له أساليب كثيرة ذكرها العلماء -رحمهم الله-، وأشهرها أربعة، ذكرتُها فيما أذكر -أو لم نذكرها في حديث: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))-.

_ إنَّما.
_ والنَّفي مع الإثبات.
_ وتقديم ما حقُّه التَّأخير.
- وتعريف الجُزئين -المبتدأ والخبر-.

هذه أشهرها استعمالاً[98].

---

[96] منْ بَاب مَزِيد فَائِدَة -بخُصُوصِ شَهَادَة أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله-: قَالَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفِظَهُ الله: (إِذَا كَتَبْتَهَا فَاكْتُبْهَا مَفْصُولَةً (أَن) عَنْ (لَا) حَيْثُمَا وُجِدَتْ، عَمَلًا بِقَاعِدَةِ الْمُتَأخِّرِينَ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمُتقدِّمِينَ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ يَأبَوْنَ هَذَا وَيَقُولُونَ بِأَنَّهَا تُدْغَمُ مَعَ اللَّام) اهـ. فتُفصل كتابةً وتُدْغَمُ نُطْقًا.

[97] "ألفية ابن مالك"

[98] نَظَمَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى أَسَاليبَ الحَصْرِ الأَرْبَع المَشْهُورَةَ بِقَوْلِهِ:

بِإِنَّمَا وَالنَّفي مَعْ إِثْبَاتِ   مُعَرَّفُ الجُزْأيْنِ حَصْرٌ يَاتِي
كَذَاك تقْدِيمٌ لعَاملٍ فُهِمْ   وَذي هِيَ المَشْهُور مِنْها يَا فَهِمْ.

وقوله هنا: ((أن لَا إِلَهَ إِلَّا)) هذه حرفُ استثناء، أو يقولون: أداة استثناء، فهو حرف حصر أو استثناء، وهو المفرَّغ من أعمِّ الأحوال.

و ((اللهُ)) بدل إمَّا أن نقول بأنَّه مِن لا واسمها، أو نقول بدل من خبرها المرفوع، والخبر في باب لا النَّافية الشَّائع فيه في كلام العرب: أن يكون محذوفًا كما قال في "الخلاصة":

وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ إِسْقَاطُ الخَبَرْ ... إِذِ الْمُرَادُ مَع سُقُوطِهِ ظَهَرْ[99]

_ لماذا ذكرنا هذا؟!

ذكرنا هذا لأنَّ مفاد كلمة التَّوحيد لا يُفهم إلَّا بمعرفة وجوه إعرابها وما دلَّت عليه من جهةٍ نحويَّة ومن جهةٍ بيانيَّة، وقد عرفنا من جهة بيانية أنَّها مشتملة على فائدتين عظيمتين؛ الأولى: الحصر، لأنَّ الجُملة في مقام النَّفي والإثبات، والنَّفي مع الإثبات حصر، وفي مقام النَّكرة مع النَّفي.

وَالنَّكِراتُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ... تُعْطِي الْعُمُومَ أَوْ سِياقِ النَّهْيِ[100]

وعرفنا من جهةٍ نحويَّة أنَّ لا النَّافية للجنس تطلب خبرًا وأنَّ الغالب في خبرها أن يكون محذوفًا كما في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ))[101] يعني: لا عدوى كائنة، لا عدوى مؤثِّرة -أو ما أشبه ذلك-.

وقوله هنا: ((شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)) لمَّا عرفنا أنَّ ((إِلَه)) هنا بمعنى: معبود، فإنَّ ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)) جاءت لتُقرِّر معنى العبودية.

* فمعناها والحالة هذه: (لا معبود حقٌّ إلَّا الله) أو قُل: (لا معبود بحقٍّ إلَّا الله) والأوَّل أرجح.

---

[99] ألفية ابن مالك

[100] "منظومة القواعد الفقهية" للعلامة السعدي رحمه الله.

[101] متَّفقٌ عليه.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((وَأَنَّ مُحَمَّدًا)) هذا أحد أسمائه لكثرة محامده وللمقام المحمود الَّذي يختصّه الله -جلَّ وعلا- به يوم القيامة:﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[102]، وهو أشهر أسمائه الدَّالة عليه.

ومن أسمائه: أحمد، وله أسماء كثيرة أبلغها بعضهم إلى ألف اسم -ولا دليل عليها-، وأشهرها ما جاء في حديث: أَنَا مُحَمَّد، وَأَحْمَد، والحاشر، والماحي، والعاقب[103].

وقوله هنا: ((عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)) مقتضى شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلَّا بما شرع، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام أبو العبَّاس في كتابه "قاعدة جليلة في التَّوسُّل والوسيلة".

وقوله هنا: ((عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)) ردٌّ على طائفتَي الغلُّو والجفاء، والإفراط والتَّفريط، لأنَّ الإسلام بجميع ما فيه وسطٌ بين الغلوِّ والجفاء، والإفراط والتَّفريط، وهو حقٌّ بين باطلين، وهُدى بين ضلالتين.

فقوله هنا: ((عَبْدُهُ)) ردٌّ على الغلاة الَّذين يَغلون فيه ويُنزلونه منزلة الرُّبوبيَّة أو الألوهية؛ وكما قال قائلهم:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِم   وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ واحْتَكِمِ

حتَّى قال:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا   وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

---

102 سورة الإسراء: 79

103 عَنْ جُبَيْر بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ)) [متَّفقٌ عليه، واللَّفظ للبخاري]

إلى آخر أبياته الَّتي تنزف شركًا -عياذًا بالله-، ولذلك قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام كما في البخاري في حديث عُمر رضي الله عنه: **((لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ))**[104].

وقوله: ((وَرَسُولُهُ)) ردٌّ على الجفاة أهل التَّفريط الَّذين كذَّبوه أو رأوا أنَّ رسالته ليست كاملةً شاملةً لما يحتاجُه النَّاس، أو رأوا أنَّ رسالته أو أنَّ بيانه ليس كافيًا ولم يَحْصُل برسالته البيان والبلاغ.

وبهذا يسلم للمسلم دينه؛ إذا أَنْزَل النَّبي صلَّى الله عليه وسلم المنزلة الَّتي أنزلَهُ الله إيَّاها، ولهذا من روائع كلمات شيخ الإسلام الإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهَّاب قوله في تفسير قوله: ((عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)) قال: (عَبْدٌ لَا يُعْبَدُ، وَرَسُولٌ لَا يُكَذَّبُ)[105].

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((وَإِقَامُ الصَّلَاةِ)) إقامتها: المحافظةُ عليها وليس مجرَّد أدائها ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[106]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[107]، والنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال كما في سنن ابن ماجه كما في حديث أبي أمامة[108] ومن حديث ثوبان: **((وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاة، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ))**[109].

❋ والصَّلاة هي وصيَّة الله لأنبيائه ورسله أجمعين: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[110]، وقال في إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[111]، وقال عن نبيِّه محمَّد

---

104 رواه البخاري، من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

105 "شروط الصَّلاة وأركانها وواجباتها" للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

106 سورة المعارج: 23

107 سورة المؤمنون: 1-2

108 من طريق أبي أمامة رضي الله عنه بلفظ: ((اِسْتَقِيمُوا، وَنِعِما إِنِ اِسْتَقَمْتُمْ،وَخَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاة، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)) ["سنن ابن ماجه" رقم:179، ج1، ص102] وصحَّحه الألباني رحمه الله.

109 ((اِسْتَقِمُوا وَلَنْ تُحصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)) ["سنن ابن ماجه" رقم:177، ج1، ص101] من طريق ثوبان رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني رحمه الله.

110 سورة يونس: 87

111 سورة مريم: 55

عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[112].

ولمَّا حُصر أمير المؤمنين عثمانُ بن عفَّان رضي الله عنه، دخل عليه رجلٌ -كما في البخاري- فقال: (إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّةٍ وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ وَنَتَحَرَّجُ) فقال رضي الله عنه وأرضاه: (الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ)[113].

وهذه الصَّلاة فضلُها وفضائلها عظيمةٌ، وليس المحلُّ محل الكلام على جميع فضائلها وإنَّما المراد الإشارة.

والصَّلاة في أصل اللُّغة: الدُّعاء، عند الجماهير على حدِّ قول العلَّامة النَّووي والحافظ ابن القيِّم؛ على أنَّ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- ذكر مبحثًا نفيسًا للسُّهيلي في كتابه "بدائع الفوائد" واستحسن مبحثه وفيه أنَّ أصل الصَّلاة في لُغة العرب: العطف والحنُوُ، وقد استحسن هذا ابن القيِّم -رحمه الله وغفر له-.

وهي أقوالٌ وأفعالٌ مخصوصةٌ، مُفتتحة بالتَّكبير، ومُختتمة بالتَّسليم، عند الفقهاء.

وقوله ((وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ)) الإيتاء: الإعطاء، بمعنى إعطائِها لمستحقِّيها.
والزَّكاة في أصل اللُّغة: النَّماء والطُّهر.

وقوله هنا: ((وَحَجُّ الْبَيْتِ)) المراد بالبيت: الكعبة.
والحجُّ في أصل اللُّغة: القصد إلى الشَّيء المعظَّم.

((وَحَجُّ الْبَيْتِ)) قلنا المراد بالبيت: بيتُ الله الحرام، لأنَّ "أل" هذه لها معانٍ كثيرة؛ ومن معانيها: الغلبة، يعني أنَّها تأتي لتُبيِّن شيئًا أغلبيًّا، لا تُريد العموم، بمعنى آخر: أنَّ الأصل في دخولها على الاسم المفرد أن تُفيد العموم.

---

112 سورة طه: 132
113 رواه البخاري.

وَ(أَلْ) تُفِيدُ الْكُلَّ فِي الْعُمُومِ   فِي الجَمْعِ وَالإِفْرادِ كَالْعَلِيمِ[114]

لكنَّها تأتي أحيانًا ويُراد بها الغلبة لا العموم، فمثلًا عندما تقول: (المدينة) المدينة إذا أُطلقت هكذا ليس المراد كلَّ مدينة وإنَّما المراد مدينة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وهكذا عندما قال: ((وَحَجُّ الْبَيْتِ)) المراد بالبيت: البيت الحرام ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[115].

وقوله: ((وَصَوْمُ رَمَضَانَ)) أصل الصيَّام: الحبس؛ ومنه قوله تعالى:﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[116].

خَيلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ   تَحْتَ العَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلكُ اللُّجُمَا[117]

((وَصَوْمُ رَمَضَانَ))، فإن قُلتَ: فأين باقي شعائر الإسلام وشرائعه في هذا الحديث؟!
وقبل هذا أنَّ قوله: ((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ)) هذا العدد له مفهوم، وهذا المفهوم مُراد؛ يُراد به الحصر لا أنَّه من قبيل ما يُقال فيه: هذا العدد لا مفهوم له، بل هذا العدد مفهومه أنَّ أركان الإسلام خمسة لا سادس لها.
بهذا الَّذي نُقرِّره الآن نردُّ على من يقول بأنَّ الرُّكن السَّادس من أركان الإسلام: (الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر) وهذا غلط وليس بصحيح، والحديث يردُّه ويأباه.

_ فإن قلتَ فأين باقي شرائع وشعائر الإسلام -ومع بيان هذه الدَّعائم وهذه الأركان-؟
فيُقال بأنَّ بقيَّة خصال الإسلام كبقيَّة البنيان، فهذه دعائمه الَّتي يرتكز عليها وما عداها هي باقي البناء، فينقص من دين الإنسان بقدر ما ينقص في هذا البناء.

---

114 "منظومة القواعد الفقهية" للعلامة السعدي رحمه الله.
115 سورة المائدة: 97
116 سورة مريم: 26
117 النابغة الذبياني ["لسان العرب"، ج 10، ص258]

۞ فوائد الحديث:[118]

_ هذا الحديث دلَّ على فضل الإسلام ومكانته وعِظم شأنه.

_ ودلَّ على أنَّ هذه الأركان هي دعائمه الَّتي يقوم عليها ويُبنى عليها.

_ وفي الحديث أيضًا: أنَّ هذه الأركان الخمسة هي الفرائض الَّتي يجبُ أداؤها.

_ ودلَّ هذا الحديث على وُجوب الاعتناء بهذه الأركان الخمسة.

_ ودلَّ الحديث على إحكام بناءِ الإسلام لأنَّ له دعائم وله بواقي البناء.

_ وفي هذا الحديث دليلٌ لجمهور أهل العلم من الشَّافعيَّة والحنابلة والحنفيَّة واختيار الإمام البُخاري والنَّوويّ من الشَّافعية وابن الملقِّن على جواز إطلاق رمضان على شهر الصِّيام دون قيد الشَّهر.
وكره ذلك المالكية وبعض الحنابلة وبعض الشَّافعية؛ وقالوا بأنَّه يُكره أن يُقال: (رمضان) بدون لفظ شهر.

هذا ما يتعلَّق بالحديث الثَّالث من أحاديث هذا المتن.

[118] الجملة من إضافتي.

۞ الحديث الرابع ۞

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ-:

«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ.

ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ.

فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا.

وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وهذا الحديث من الأحاديثِ العظيمةِ الَّتي اتَّفق الشَّيخان على إخراجها في الصَّحيحين، فاتَّفقا عليه.

ولاحظ أنَّ ابن مسعود رضي الله عنهما بيَّن في هذا الحديث في باب الرِّواية بعض الأوصاف المتعلِّقة بالنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم الَّتي يُتأكَّد الاعتناء بها في هذا المقام، وهذا من توفيق الله -تبارك وتعالى- له في حكايته لهذا الحديث؛ لأنَّ القدرية -وعلى رأسهم عمرو بن عُبيد- لمَّا سمع هذا الحديث أنكره، وقال كلماتٍ عظيمةٍ -نسأل الله العافية والسَّلامة- في هذا الحديث، وردَّهُ ردًّا فاحشًا -عياذًا بالله-، كما ذكر ذلك الأئمَّة، وفيما أذكر أنَّ الذَّهبيَّ -رحمه الله تعالى- في "الميزان" روى هذه القصَّة عن عمرو بن عُبَيد إلى أن قال في آخرها: (وَلَوْ سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ هَذَا لَقُلْتُ: لَيْسَ عَلَى هَذَا أَخَذْتَ مِيثَاقَنَا)[119] يعني ما تضمَّنه هذا الحديث الَّذي هو حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه.

فإذا عُلم هذا فإنَّ ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه قال:[حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ].

هذه الكلمة:[حَدَّثَنَا] استدلَّ البخاريّ بنحو هذا الحديث -وما شابهه- ومَن معه من أهل العلم على أنَّه لا فرق بين حدَّثنا وأخبرنا وأنبأنا؛ وأنَّها بمعنى واحد، يعني أنَّ هذه الكلمات عندهم في التَّحمُّل والأداء بمعنى واحد لا فرق بينها، -خلافًا لمُسلم ومن معه من أهل العلم-.

وقوله رضي الله عنه هنا:[حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ] هذا ما عنيتُه من الكلام على قصَّة عمرو بن عُبيد؛ فإنَّ ابن مسعود وصف النَّبي صلَّى الله عليه وسلم بالصِّدق فقال:[وَهُوَ] هنا يقول:[الصَّادِقُ] يعني في أقواله وفي أفعاله وفيما يُخبِر به، صادقٌ في الظَّاهر وصادقٌ، الَّذي يُصدَّق فيما يقول لأنَّ هذا هو لازم الإيمان كما قال الله -تبارك وتعالى-:﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[120] فهذا يُبيِّن ضرورة تصديقه عليه الصَّلاة والسَّلام، كما قدَّمنا في الحديث الماضي أنَّ هذا هو مقتضى شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله: (تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ) فلا يُردُّ شيءٌ من سُنَّته وما صحَّ منها.

[119] قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (عن عُبَيد الله بْن مُعَاذ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ عَمْرو بْن عُبَيْد يَقُولُ -وَذَكَرَ حَديثَ الصَّادق الْمَصْدُوق-: لَوْ سَمِعْتُ الأَعْمَشَ يَقُولُ هَذَا لَكَذَّبْتُهُ، وَلَوْ سَمِعْتُهُ مِنْ زَيْد بْن وَهب لَمَا صَدَّقْتُهُ، وَلَوْ سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُود يَقُولُهُ مَا قَبِلْتُهُ، وَلَوْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا لَرَدَدْتُهُ، وَلَوْ سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ هَذَا لَقُلْتُ: لَيْسَ عَلَى هَذَا أَخَذْتَ مِيثَاقَنَا) ["ميزان الاعتدال" ج3، ص178]

[120] سورة الزمر: 33

وقوله هنا: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ)) هذا هو الضَّبط الصَّحيح لها -بالكسر- لأنَّ فيها معنى القول، كُسرت الهمزة لأنَّه على حكاية لفظه عليه الصَّلاة والسَّلام، وإلَّا فإنَّ الأصل أنَّه يتعيَّن فتحها، لكن لمَّا أراد حكاية لفظ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام كسرها: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ)) كما هو معلوم في مواضع كسر "إنَّ" وفتحها.

((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ)) عبَّر بالجمع، لماذا؟ لأنَّ خلق الإنسان مختلطٌ من ماء الذَّكر ومن ماء الأنثى كما في قوله تعالى:﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾[121] الأمشاج هو الشَّيء المختلط، ولهذا قال -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم:﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[122] على قول الجماهير من المفسِّرين على أنَّ المراد: صُلب الرَّجُل وترائب المرأة، ولهذا عبَّر هنا بالجمع: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ)) وهذا معنى الجمع لأنَّه حاصلٌ -كما ذكرنا-: من ماء الذَّكر ومن ماء الأُنثى -صُلب الرَّجل كما تقدَّم وترائب المرأة-، فالمولود يُخلق منَ الماءَين: مِن ماء الرَّجل ومِن ماء المرأة.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((نُطْفَةً)) المراد بالنُّطفة هي الماء الصَّافي -قلَّ أو كثُر-، وتُجمع على: نطاف، والمراد بها هنا: مَنيّ الرَّجل.

وقوله: ((عَلَقَةً)) هذه العلقة هي تحوُّل المنيّ إلى دمٍ، فإذا تحوَّل المنيُّ إلى دمٍ فإنَّه يُقال فيه: علقة، وهي قطعةٌ من دمٍ غليظٍ، -القطعة من الدَّم الغليظ-.

وقوله: ((مُضْغَةً)) هي قطعة من لَحمٍ بقدر ما يمضُغُه الإنسان في فمه، فهي قطعة لحم، في مُدَّة أربعين ثالثة هنا، هذه مائة وعشرون يومًا وهو في طور المضغة، وفي طور المُضغة تُخلق أعضاؤه ويتبيَّن أنَّه جنين.

---

121 سورة الإنسان: 2
122 سورة الطَّارق: 7

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ)) هذا دليل على أنَّ من الملائكة من هو مُوكَّل بالرَّحم في هذه المسألة بعينها، كما أنَّ الملائكة لهم أعمال ولهم وظائف معلومة.

((ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ)) لماذا؟ يُرسل إليه الملك أي بعد مائة وعشرين يومًا وهو الموكَّل بالأجنَّة، يدخل عليه في بطن أمِّه -الله على كلِّ شيء قدير-.

قال: ((فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ)) الرُّوح الَّتي يتحرَّك بها، وهي روح الحياة والنَّماء، وهي الحقيقة العظمى الَّتي يُؤمن بها البشر ويعجزون عن معرفتها؛ كما قال الرَّب -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[123] ها هم اليوم قد وصلوا إلى مراحل مما يُسمُّونه بالتَّقنية والاكتشافات والعلوم ومع هذا يموت الواحد منهم لو افتدوه بملء الأرض -لمكانته عندهم- لفعلوا، ولو كشفوا عن بدنه وقطعوه قطعةً قطعةً ظاهرًا وباطنًا ما وجدوا أنَّه قد اختفى أو نقص منه شيء، فالشَّيء المعروف الَّذي في جسم الإنسان ممَّا يُجرون عليه الاختبارات والفحوصات هو بين أيديهم لم يتخلَّف منه شيءٌ، فما الَّذي نقص منه؟ قال الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[124] مع أنَّها مخلوقٌ يُقبل ويُدبر، ويأتي ويذهب، ويلتصق بالإنسان وينفصل عنه، هذا ممَّا يُؤمنُ به أهل السُّنَّة كما ذكر ذلك أبو العبَّاس ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه "التَّدمرية"، وهذه صفاتها -صفات هذه الرُّوح-، فإذا سُلبت من الإنسان صار جثَّة هامدة لا حقيقة له.

ومعلوم أنَّ الرُّوح تخرج بالنَّوم الَّذي هو الوفاة الصُّغرى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾[125] أي كسبتم، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[126] وتخرج هذه الرُّوح، وهذا موتٌ صغير، وتخرج هذه الرُّوح بالموت الكبير كما قال -عزَّ وجل-: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[127].

[123] سورة الإسراء: 85
[124] سورة الإسراء: 85
[125] سورة الأنعام: 60
[126] سورة الزمر: 42
[127] سورة الأنعام: 61

قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ)) وهذه آية وبيِّنة عظيمة، فإنَّ الله -جلَّ وعلا- خلق هذا الإنسان بقدرته وعلمه، وهذا الإنسان العاجز كما قال -جلَّ وعلا-:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[128] -وإن كان ذكر طوائف من أهل العلم بأنَّ لفظ الإنسان إذا جاء في الآيات المكيَّة فإنَّ المراد به الكافر-.

فالإنسان هذا حاله، وكما قال -جلَّ وعلا-:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[129]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[130] لأنَّه يُستلُّ من غيره، السُّلالة مِن السَّل وهو إخراج شيءٍ من شيءٍ، وهكذا خلق هذا الإنسان، ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾[131] يعني دمًا، ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾[132] وهي قطعةُ لحم -كما سبق-، قال تعالى في بيان هذا الأمر:﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[133] وهذه هي الأطوار الَّتي تأتي على الجنين في بطن أمِّه.

قال هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ)) وهذا الفعل المغيَّر الصِّيغة، الَّذي [...][134] لِما لَم يُسمَّ فاعله، [...][135] الرَّب -تبارك وتعالى- فإنَّ المراد به: الله ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[136] من الَّذي خلقه؟ الله، أُمر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم [...][137] الآمر هو الله، وهنا قال: ((وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ)) فالآمر هو الله -جلَّ وعلا-.

قال بعد ذلك: ((وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ)) فلا تخرج هذه الأشياء عمَّا كتبه المَلَك بأمر الله تعالى لهذا الإنسان.

---

[128] سورة البلد: 4
[129] سورة التِّين: 4
[130] سورة المؤمنون: 12
[131] سورة المؤمنون: 14
[132] سورة المؤمنون: 14
[133] سورة نوح: 14
[134] انقطاع يسير في الصوت.
[135] انقطاع يسير في الصوت
[136] سورة الأنبياء: 37
[137] انقطاع يسير في الصَّوت.

✿ ولا يُعلم حقيقة هذا الجنين وهذا المخلوق إلَّا بعد هذه المرحلة -فيما يُسمَّى بالأجهزة الفوق الضَّوئيَّة الَّتي يفحصون بها عن نوع الجنين-، فإنَّ الجنين لا يُعلم إلَّا بعد هذه المرحلة لأنَّه قد خرج عن علم الغيب المطلق، وأمَّا هذا الغيب الَّذي هو بالنِّسبة لنا فإنَّه غيبٌ نسبيٌّ؛ فكما عَلِمَهُ المَلَك بسبب إخبارك الرَّب -تبارك وتعالى- له فإنَّه قد يعلمه بعض النَّاس بالأسباب الَّتي جعلها الله -تبارك وتعالى- فيهم.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ)) النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يُقسم، وإذا أقسم فإنَّما يُقسم على أمرٍ عظيم، لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام -كما هو معلومٌ- كان يتحاشا الحلف والقَسَم وإنَّما يُقسم على شيءٍ معظَّم، فهو يقول -صلَّى الله عليه وسلَّم- في هذا المقام: ((فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ)) ومعلوم أنَّه [...][138] يمين النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا الظَّاهر من [...][139] الَّذي قال عنه ابن مسعود في أوَّل الحديث:[الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ].
وقيل إنَّ المقسِم من الرَّاوي -الَّذي هو ابن مسعودٍ رضي الله عنه-، لكن الصَّحيح أنَّ الَّذي أقسم [هو النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم][140].

قال هنا: ((فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ)) ما الَّذي أقسم عليه النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام؟ لأنَّ [...][141] مُقسَم عليه، ما المقسَم عليه؟ قال: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا))
[...][142] لأنَّ الظَّواهر والسَّلامة وهذا الأمر خطيرٌ جدًّا وينبغي على المسلم أن يشتدَّ فيه خوفه.
[بوَّب البخاري -رحمه الله- في صحيحه]:[143] (بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ)[144]، (وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وَيُذْكَرُ عَنْ

[138] انقطاع يسير في الصَّوت.
[139] انقطاع يسير في الصَّوت.
[140] الجملة غير واضحة في التَّسجيل، بسبب بعض التَّقطُّعات.
[141] انقطاع يسير في الصَّوت.
[142] انقطاع يسير في الصَّوت.
[143] الجملة من إضافتي، بسبب انقطاع في الصَّوت.
[144] صحيح البخاري (كتاب الإيمان)

الْحَسَنِ: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ)[145]، ولهذا قال إبراهيم التَّيمي: (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذَّبًا)[146] أو قال (مُكَذِّبًا) [...][147] ما أمن أحد على إيمانه إلَّا وقع في خلاف ما أمن عليه -أو بهذا المعنى-.

[قال ابن رجب -رحمه الله-][148]: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا أَبْكَى الْعُيُونَ مَا أَبْكَاهَا الْكِتَابُ السَّابِقُ؛ وَقَالَ سُفْيَانُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ: هَلْ أَبْكَاكَ قَطُّ عِلْمُ اللهِ فِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ: تَرَكْتَنِي لَا أَفْرَحُ أَبَدًا، وَكَانَ سُفْيَانُ يَشْتَدُّ قَلَقُهُ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْخَوَاتِيمِ، فَكَانَ يَبْكِي وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أَكُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ شَقِيًّا، وَيَبْكِي، وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَكَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ يَقُومُ طُولَ لَيْلِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ عَلِمْتَ سَاكِنَ الْجَنَّةِ مِنْ سَاكِنِ النَّارِ، فَفِي أَيِّ الدَّارَيْنِ مَنْزِلُ مَالِكٍ؟)[149] وهذا كثيرٌ في كلام السَّلف -رحمهم الله تعالى-.

والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قد قال: **((الْقُلُوب بَيْنَ أُصْبعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))**[150].

[الهداية فضلٌ من الله][151] والغواية والضَّلالة عدلٌ من الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[152]، وكما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[153]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[154] إلى غير ذلك من الآيات الدَّالة على [ذلك][155].

فإذا عَلم العبد ذلك فإنَّه يتَّخذ أسباب للوصول إليها والحصول عليها، وهذا أمرٌ يجب على المسلم أن يحرص عليه وخصوصًا في هذه الأيَّام -أيَّام الفتن- فلئن هربت من فتن الشَّهوات وعصمك الله -جلَّ وعلا- بدينك وبُعدك عن مواطن الشَّهوات والفسوق؛ فإنَّ أمامك فتن

---

145 المصدر السَّابق.
146 المصدر السَّابق.
147 انقطاع يسير في الصوت.
148 من إضافتي بسبب بعض التَّقطعات في التَّسجيل.
149 "جامع العلوم والحكم"؛ ج1، ص:180
150 قال الألباني رحمه الله في "تخريج مشكاة المصابيح": حسن على شرط مسلم.
151 من إضافتي بسبب بعض التَّقطعات في التَّسجيل.
152 سورة التوبة: 115
153 سورة آل عمران: 86
154 سورة الصف: 5
155 من إضافتي بسبب بعض التَّقطعات في التَّسجيل.

الشُّبهات الَّتي رُبَّما تأتيك وأنتَ في مسجدك وأنت في الصَّفِّ الأوَّل وأنت على المنبر، هذه الفتن -فتن التَّحزُّبات والطَّائفيات- ما أكثرها لا كثَّر [...][156]، للإمامة في الدِّين، وَعلَّة هذا يحميه من الشَّهوات، فالحذر الحذر من هذا كلِّه.

وقال بعد ذلك: ((وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا)) وهذا ظاهرُ المعنى، بيِّنٌ، واضحٌ، جليٌّ، ولأنَّه راجعٌ إلى محض فضل الله -تبارك وتعالى-، فهذا فضلٌ من الله -جلَّ في علاه- يمُنُّ به على من شاء من عباده، وتعرفون قصَّة الرَّجل الَّذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ولم يسجد لله سجدةً، وحصل في الصَّحابة شيءٌ كثيرٌ من هذا، والمسلم يحرص على مواطن الخير والصَّلاح.

أسأل الله -تبارك وتعالى- لي ولكم التَّوفيق والسَّداد والهدى والرَّشاد، وأن يجعلنا وإيَّاكم على الحقِّ والإسلام والسُّنة حتَّى نلقاه، فهو وليُّ ذلك والقادر عليه.

[156] انقطاع يسير في الصوت.

۞ الحديث الخامس ۞

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللهِ عَائِشَةَ رضي اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ:
قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

قول المصنِّف -رحمه الله تعالى-:[عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ] هذا اللَّقب لقبٌ مُشتركٌ بين أزواج النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقد لقَّبهُنَّ الله -عزَّ وجلَّ- بهذه وأعطاهنَّ هذه المنزلة، وأعطى المؤمنين هذه المنزلة من جِهةِ الحُرمة لا من جِهةِ التَّحريم، كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[157].

۞ وقوله:[أُمِّ عَبْدِ اللهِ عَائِشَةَ] اختُلف في هذه الكنية اختلافًا كثيرًا، وجاءت في سببها أحاديث لا يصح منها شيء.

_ فمنهم من قال بأنَّ عائشة رضي الله عنها وُلد لها ولد وسمَّته عبد الله ثمَّ مات، -وهذا القول هو أضْعَفُها-.

_ ومنهم من قال بأنَّها تكنَّت بهذا الاسم بدون مُوجبٍ ولا سببٍ.

_ ومنهم من قال بأنَّها تكنَّت بهذا لمنزلة أو مكان عبد الله بن الزُّبير وهو ابن أُختها أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عن الجميع-.

[157] سورة الأحزاب: 6

وقوله هنا:[قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»]، ((مَنْ)) هذه من الأسماء المبهمة الدَّالة على العموم في منزلة (كلّ).

وَ (أَلْ) تُفِيدُ الْكُلَّ فِي الْعُمُومِ

إلـى قولـه:

كَذَاكَ (مَنْ) وَ (مَا) تُفِيدَانِ مَعَا   كُـلَّ الْعُمُومِ يَـا أُخَـيَّ فَاسْمَعَـا[158]

فـ (مَنْ) في قُوَّة (كلّ) من جهة أنَّها من الأسماء المُبهمة الدَّالة على العموم غير المُختصّ.

وقوله هنا: ((أَحْدَثَ)) بمعنى اخترع، وهو بمعنى أيضًا البدعة.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فِي أَمْرِنَا)) أراد: في ديننا، لأنَّ هذا هو الأمر الَّذي إذا أُطلِق في مثل هذه المقامات فإنَّما يُراد به الدِّين.

وقوله هنا: ((هَذَا)) هنا المشار إليه غير مذكور من جهة التَّصريح بـه، ولكـن لمَّا عُلـم أنَّ الأمر الَّذي بُعث به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم هـو الدِّيـن أشـار إليـه لبيـان مزيَّتـه ورفعتـه وتعظيمه وجلالة قدره.

فقوله هنا: ((مَا لَيْسَ)) (ما) هذه أيضًا مـن الأسـماء المبهمـة؛ اسـمٌ موصـول بمعـنى: الَّذي، والأسماء الموصولة تُفيد العموم أيضًا.

كَذَاكَ (مَنْ) وَ (مَا) تُفِيدَانِ مَعَا   كُـلَّ الْعُمُومِ يَـا أُخَـيَّ فَاسْمَعَـا

فتُفيد قُوَّة (كلّ)، وعندنا هنا عمومان -وأرجو أن تتنبَّه لهما-:

_ العموم الأوَّل: عمومٌ في المحدِث، وهو مَن أحدَث هذا الحدَث.

_ والعموم الثَّاني: عُموم في المحدَث، وهو الحدَث أو العمل الَّذي عمِله.

---

[158] منظومة القواعد الفقهية، للعلامة السعدي رحمه الله.

فهذا ردٌّ لما أحدثَهُ كلُّ مُحدِثٍ، وردٌّ لكُلِّ حدَثٍ أحدَثَهُ، فهما عُمومان مأخوذان من هذا الحديث، فلا يخرج عن لفظ هذا الحديث شيءٌ من البِدع الحادثة، ولا يخرج من هذا الحديث أحدٌ أحْدَثها.

هذا ما يدُلُّ عليه الحديث من جهة العموم، وقد جاء في حديثِ العرباض بن ساريَة رضي الله عنه -الَّذي سيذكره المصنِّف في هذا المتن-:[وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً] وفي هذا الحديث قوله: ((وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَة)) والبدعةُ هنا هي الأمر المُحدَث.

وهذا الحديث هنا قال: ((مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) هذا من إطلاقِ المصدر وإرادة اسم المفعول، يعني أنَّه أراد باستعمال المصدر أراد به اسم المفعول، والمعنى: (فهو مردودٌ)، وصيغة: فَعْل ((رَدٌّ)) هذه تأتي ويُراد بها اسم المفعول كما سبق؛ كما تقول:﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾[159] يعني مخلوق الله، وكذلك قول النَّحويِّين: (الكَلَامُ هُوَ اللَّفْظُ) يعني هو الملفوظ، فأراد بهذا اسم المفعول.

* والمعنى العام للحديث: أنَّ كلَّ حَدَثٍ في الدِّين فهو مردودٌ، والمردودُ مُقابلٌ للمقبول، بمعنى أنَّه مردودٌ لا يُقبل أيًّا كانت نيَّة فاعله وأيًّا كانت مصلحتُه، هذا ظاهرٌ من جهة ما نبَّهتُك عليه من العموم المأخوذ منه في قوله: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)).

وجاء عند أبي بكر الشَّافعيّ في "الغيلانيات"[160] هذا الحديث بلفظ: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ)) وإسناد هذه الرِّواية صحيح، كما صحَّحها طائفة من أهل العلم.

هذا الحديث قاعدةٌ عظيمةٌ وأصلٌ جليلُ القدْرِ من أُصول الشَّريعة، قال الحافظ ابن رجب: (هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ عظيمٌ مِن أُصولِ الإِسْلامِ، وَهُوَ كَالْمِيزَانِ لِلأَعْمَالِ فِي ظَاهِرِهَا، كَمَا أَنَّ حَدِيثَ: «الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ» مِيزَانٌ للأَعْمَالِ فِي بَاطِنِهَا)[161]، وهكذا قال العلَّامة ابن المُلقن: (هَذَا الْحَدِيثُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَأَعَمِّهَا نَفْعًا، وَيَنْبَغِي حِفْظُهُ وَإِشَاعَتُهُ وَاسْتِعْمَالُهُ فِي إِبْطَالِ الْمُنْكَرَاتِ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ الَّذِي أُوتِيَهَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ

[159] سورة لقمان: 11
[160] "الغيلانيات" ص727، رقم: (1002\1003)
[161] "جامع العلوم والحِكم"، ص155

وَالسَّلَام وَذَلِكَ أَنَّهُ صَرِيحٌ فِي رَدِّ كُلِّ بِدْعَةٍ وَكُلِّ مُخْتَرِعٍ مِمَّا لَا يُوَافِقُ قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ)[162] وكلام الحافظ ابن رجب في شرحه على "الأربعين"، وكلام ابن الملقن أيضًا في شرحه على "الأربعين" المسمَّى بـ "المعين".

وهذا شيءٌ ظاهر، ولهذا لمَّا تكلَّم الحافظ ابن رجب على حديث العرباض بن سارية: ((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَة)) أَرجَع الكلام على حديث عائشة؛ فقال: (فَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ لَا يَخْرُجُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَهُوَ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» فَكُلُّ مَنْ أَحْدَثَ شَيْئًا وَنَسَبَهُ إِلَى الدِّينِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الدِّينِ يرْجعُ إِلَيْهِ فَهُوَ ضَلَالَةٌ، وَالدِّينُ بَرِيءٌ مِنْهُ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَسَائِلُ الِاعْتِقَادَاتِ، أَوِ الْأَعْمَالُ، أَوِ الْأَقْوَالُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ)[163] هكذا قال ابن رجب -رحمه الله تعالى- في شرحه على "الأربعين" الموسوم بـ"جامع العلوم والحِكم"؛ وهو كتاب كثير الفوائد عظيم النَّفع.

۞ من فوائد هذا الحديث:

_ أنَّ جميع البدع والمحدَثات مردودةٌ على صاحبها وإن حسُنت نيَّتُه، وإن رأى أنَّ هذا العمل فيه مصلحة للإسلام والمسلمين.

_ ومنها: أنَّ كلَّ عملٍ خالف الشَّريعة الَّتي جاء بها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يكن منها فإنَّه مردودٌ لا يُقبل أيًّا كان هذا العمل وأيًّا كان من أتى به، واستدلَّ البخاري -رحمه الله تعالى- بهذا الحديث في "كتاب الشُّروط" بأنَّ كلَّ عملٍ أو بأنَّ كلَّ قضاءٍ قضاهُ الحاكم مُخالفٌ للأمر الباطن فإنَّه مردودٌ، واستدلَّ الحنابلة والشَّافعية وغيرهم بهذا الحديث إلى أنَّ النَّهي

[162] "المعين على تفهم الأربعين" ص153
[163] "جامع العلوم والحِكم" ص597.

يقتضي الفساد -أي فساد المنهي عنه-، وصنَّف في ذلك العلائي كتابًا مستقلًّا يُقرِّر فيه هذه المسألة[164].

هذا أهمُّ الأمور الظَّاهرة في هذا الحديث.

والبدع قد نهى الله -تبارك وتعالى- عنها، ونهى عنها رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، وسيأتي الكلام على البدعة وعلى الموقف منها والموقف من أصحابها عند الكلام على حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وأرضاه.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: بيان كمال هذه الشَّريعة وأنَّها لا تحتاج إلى أيِّ حَدَثٍ كائن ما كان، وكائن ما كان أيضًا المُحدِث له، لأنَّ الإحداث فيها والزِّيادة فيها يلزم منه أنَّها ليست كاملة، وقد قال الرَّبُّ -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم:﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[165] وهكذا قال ربُّنا -تبارك وتعالى-:﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[166].

[164] إشارة إلى كتاب "تحقيق المراد في أنَّ النَّهي يقتضي الفساد" للعلائي رحمه الله.
[165] سورة المائدة: 3
[166] سورة الشورى: 21

۞ الحديث السادس ۞

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ:
سَمِعْت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:
«إنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.
فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقْدِ اسْتَبْرَأَ لدينِهِ وَعِرْضِهِ.
وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ.
أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ.
أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كله؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وهذا الحديث أيضًا من الأحاديث العظيمة والقواعد الجسيمة في هذه الشَّريعة والَّتي عليها مدار الإسلام كما قرَّر ذلك طوائف من أهل العلم فيما تقدَّم معنا في حديث: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) وأنَّ هذا واحدٌ من الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام.

قال الحافظ النَّووي -رحمه الله-: (أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى عِظَمِ وَقْعِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ، وَأَنَّهُ أَحَدُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْإِسْلَامِ)[167]، وكذلك قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-: (هَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَحَدُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي مَدَارُ الدِّينِ عَلَيْهَا، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ ثُلُثُ الْعِلْمِ أَوْ رُبُعُهُ)[168].

هذا حديثٌ عظيمٌ؛ جليلُ القدْرِ، وينبغي على المسلم أن يتفطَّن له وأن يتفقَّه في كلِّ شاردة وواردة منه لما فيه من الفوائدِ العظيمةِ.

قال المصنِّف -رحمه الله-:[عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ] وقد تقدَّم معنا لفظ السَّماع وأنَّه أعلى مراتب الأداء.

[يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ»]، ((بَيِّنٌ)) بمعنى ظاهرٌ وجليٌّ، لأنَّ الله -تبارك وتعالى- أنزل هذا القرآن تِبيانًا لكلِّ شيء، فهذه الأمور ظاهرة وبيِّنة -أُمور الحلال وأُمور الحرام ظاهرة وبيِّنة-، ولهذا قال الله -جلَّ وعلا-:﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[169]، وقال -جلَّ وعلا-:﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[170]، وقال -جلَّ وعلا-:﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[171] فالحلال ظاهرٌ في الشَّريعة والحرام بيِّنٌ في الشَّريعة.

والحلال هو بمعنى المباح المستوي الطَّرفين، إذا استوى طرفاه فإنَّه هو الحلال وهو المباح، والحلال والمباح والجواز هذه من الصِّيَغ الَّتي يُعرف بها الإباحة.

[167] "شرح صحيح مسلم" ج11، ص27
[168] "فتح الباري" لابن رجب رحمه الله، ج1، ص204
[169] سورة النَّحل: 116
[170] سورة الأعراف: 32
[171] سوة يونس: 59

((وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ)) هذا الحرام أحد الصِّيغ الَّتي يُعرف بها الحرام:

_ فإنَّ الحرام يُعرف بهذا اللَّفظ.

_ ويُعرف بالزَّجر: زَجَر.

_ ويُعرف باقتران اللَّام النَّاهية بالفعل المضارع: (لا تفعلوا).

أو ما أشبه ذلك من الصِّيغ المعروفة في معرفة الحرام، قد أَوْصَلها بعضهم إلى خمسين صيغةً يُعرف بها الحرام.

قال: ((وَبَيْنَهُمَا)) الضَّمير هنا عائدٌ إلى الحلال والحرام، يعني أنَّ (بَيْن) هذه معلومٌ أنَّها ظرفيَّة، فهناك منزلة واقعةٌ بين الحلال وبين الحرام يتجاذبها الحِلُّ والحُرمة، يعني لا يُقال إنَّها حرام كما سيأتي، وعبَّر عنها عليه الصَّلاة والسَّلام بقوله: ((مُشْتَبِهَاتٌ)) أي أنَّها فيها نوعٌ من الاشتباه، ليست ظاهرةً لا في حلِّها ولا في حُرمتها، ليس فيها ظهور من جهة الحلِّ وليس فيها ظهور من جهة الحُرمة؛ ولكنَّها أمورٌ مشتبهة.

فقال: ((وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ)) يعني أنَّ هناك أمورًا مشتبهات بين الحلال والحرام، لا يُدرى هل هي حلال أو هي حرام؟ قيل لأنَّه قد تنازعتها الأدلَّة، وقيل لأنَّه قد تنازع فيها العلماء بسبب تنازع هذه الأدلَّة فاختلفوا فيها فبعضهم أفتى بجوازها وبعضهم أفتى بتحريمها، فإذا كانت الحالة هذه فإنَّهم يُنزِّلونها منزلة الشُّبهة ويُخرِّجونها على الاحتياط والتَّورُّع لأنَّه قال في آخر الحديث: ((اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ)) ولهذا قال في حديث الحسن -كما سيأتي-: ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ)) وقالوا: هذان الحديثان يدلَّان على قاعدة الاحتياط في الشَّريعة، وأنَّ المسلم يجب أن يكون محتاطًا وأن يكون متورِّعًا، يقول الحافظ ابن حجر: (إِنَّ الشَّيْءَ إِمَّا أَنْ يُنَصَّ عَلَى طَلَبِهِ مَعَ الْوَعِيدِ عَلَى تَرْكِهِ، أَوْ يُنَصَّ عَلَى تَرْكِهِ مَعَ الْوَعِيدِ عَلَى فِعْلِهِ، أَوْ لَا يُنَصّ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَالْأَوَّلُ: الْحَلَالُ الْبَيِّنُ، وَالثَّانِي: الْحَرَامُ الْبَيِّنُ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ**» أَيْ: لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِهِ وَيَشْتَرِكُ فِي مَعْرِفَتِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَالثَّالِثُ: مُشْتَبِهٌ لِخَفَائِهِ فَلَا يُدْرَى هَلْ هُوَ حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ؟ وَمَا كَانَ هَذَا سَبِيلَهُ يَنْبَغِي اجْتِنَابُهُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَرَامًا فَقَدْ بَرِئَ مِنْ

تَبِعَتِهَا وَإِنْ كَانَ حَلَالًا فَقَدْ أُجِرَ عَلَى تَرْكِهَا بِهَذَا الْقَصْدِ)[172] انتهى كلام الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-.

كلام أهل العلم في هذا الحديث كلامٌ طويلٌ، لكن الَّذي ينبغي أن يُتنبَّه له هنا منَّا -نحن وإخواني طلبة العلم-: أنَّك قد تأتي إلى العالم فتستفتيه في المسألة؛ فيُفتيك بالمنع أو التَّرك أو عدم الغشيان لها، لكنَّه لا يجد موردًا يوردك عليه من جهة الاستدلال عليها، حتَّى لا يستطيعُ أن يُعبِّر عن الدَّليل أو التَّعليل الموجب لقوله بالتَّرك، ففي مثل هذه الحالة ينبغي للمسلم أن يحتاط وأن يتركها ويترك العمل بها.

_ ما الدَّليل على هذا؟!

الدَّليل على هذا قوله: ((لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)) ولم يقل: (لا يعلمهنَّ كلُّ النَّاس)، بمعنى أنَّ العالِم بما أوتيَ من نُور العلم والاحتياط وعدم وُرود موارد الشُّبهة ربَّما يظهر له من عواقب هذا الفعل أنَّه موردٌ من موارد المنهيِّ عنه، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ)) والعالِم أحيانًا قد لا يتأتَّى له أن يُبيِّن جهة الدَّليل أو جهة التَّعليل في بعض المسائل المُشكلة أو المُعضلة أو النَّازلة؛ فإنَّه والحالة هذه الوَرِعُ في دينه والمُحتاط لأمر دينه يأخذ بقول العالِم لأنَّه يُنزِّل نفسه منزلة الأكثر، النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)) أي لا يتأتَّى لكثيرٍ من النَّاس أن يعلموا هذه الشُّبهة أو مأخذ هذا الأمر المُشتبه.

هذا الحديث -إخواني في الله- حديثٌ عظيم، جليلُ القدر، ولو أنَّ طالب العلم أعطاه حقَّه من الفهم والفقه لأخذ عليه عمرًا ودهرًا في التَّفقُّه فيه.

وينبغي أن يُعلم أنَّ قوله هنا -عليه الصَّلاة والسَّلام-: ((أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ)) ليس المراد بها المتشابه، المشتبه ليس هو المتشابه، الوارد في الحديث ليس المراد بها ما جاء في لفظ القرآن.

هنا في هذا الحديث قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ)) ليس ظاهرها الحِلُّ ولا الحُرمة.

[172] "فتح الباري"، ج4، ص291

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)) نبَّهتك على هذا المعنى الواقع في هذا الحديث وأنَّ هذا النَّفيَ ليس المقصود به كلّ النَّاس وإنَّما المقصود به طائفة من النَّاس لا يعلمونهُنَّ، فربَّما يُواقعون هذه الشُّبهات بغير علم.

هنا قال: ((فَمَن)) هذا كما نبَّهتك من قبل أنَّها من الأسماء المبهمة.

((فَمَنِ اتَّقَى)) أي ترك وتجنَّب وابتعد عن مَوْرد هذه الشُّبه، ((فَقَدِ اسْتَبْرَأ)) بمعنى أنَّه أخذ البراءة في دينه، فبرَّأ دينه من النَّقص وما يُعرِّضه إلى المعايب، لأنَّ العِرْض ما هو؟ العِرض هو جانب المدح والذَّم من الإنسان، فحيثُ وَضَع الإنسان نفسه في موضع المدح أو الذَّم فإنَّ هذا هو عِرْضه، فمن أعرض عن المشتبهات؛ هذا استبرأ لدينه من جهةِ أنَّه طلب البراءة لدينه فبرَّأه من الوقوع في المعايب والنَّقص، وتبرَّأ أيضًا أو استبرأ لِعرضه من جهة أنَّه جنَّبها ما تُذمُّ به وتُعاب، على هذا يُنزَّل ما يُقال -فيما يَقول فيه أهل الحديث- بـ:"خوارم المروءة" وما أشبه ذلك.

فقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ)) عرفنا المراد منه.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((الْحِمَى)) هذه بكسر الحاء وفتحِ الميم: المكان المحْمِيّ، لهذا يُسمُّونها: المحميَّات (هذه محميَّة) بمعنى أنَّه لا يُصطاد فيها، والمَلِك يجعل له محميَّات يرعى فيها هو ماشيته، أو يصيد فيها -أو ما أشبه ذلك- ويمنعها عن الغير.

فقال: ((وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى)) يعني حمى يحميه عن الآخرين ولا يَرِدُون إليه، أو لا يقصدونه، ويمنع الغير منه.

وقوله هنا: ((أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ)) لأنَّ من مقاصد الشَّريعة ترك المحرَّمات.

❀ وترك المحرَّمات والمنهيات أقوى من جانب المفعولات والواجبات، كما هو الرَّاجح في كلام أهل العلم، وسيأتي معنا الكلام عليه إن شاء الله في حديث أبي هريرة: ((وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)).

وقال: ((وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ)) أي المحارم الَّتي حرَّمها، ونهى عنها، ونهى عن غشيانها، ((وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ)).

((كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ))، ((يُوشِكُ)) هذه يعني يقرب ويكاد، ولذلك تُسمَّى "كاد" وأخواتها بأفعال الشُّروع؛ يعني أنَّه شرع وأوشك على أن يقع في هذا الحرام بسبب وقوعه في الشُّبهات ((يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ)).

((أَلَا)) هنا هذه حرفُ استفتاح تُفيد الاهتمام لما يُقال بعدها، للتَّنبيه على ما يُلقيه المتكلِّم ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[173].

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مُضْغَةً)) تقدَّم معنا الكلام على المُضغة في حديث ابن مسعود وأنَّ المراد بها: القطعة من اللَّحم، والمراد بها هنا ما بيَّنه النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بأنَّها القلب.

((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ)) و ((صَلَحَتْ)) الفتح فيها أشهر: ((إِذَا صَلَحَتْ))، وبعضهم يضبطُها: ((إِذَا صَلُحَتْ)).

((إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ)) استدلَّ بهذا الحديث طوائف من أهل العلم مع ما جاء في نُصوص القرآن بأنَّ العقل في القلب لا في الرأس، وفيه خلافٌ مشهور بين أهل العلم.

173 سورة يونس: 55

❁ والرَّاجح أنَّ العقل في القلب وأنَّ له صلةٌ بالدِّماغ وما يتعلَّق بالمؤشّرات الحاصلة في الإنسان، وهذا المذهب هو مذهب الشَّافعية وغيرهم من المحقِّقين، ومن أدلَّتهم في القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[174]، وقوله -جلَّ وعلا-:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[175] ولأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام جعل صلاح الإنسان وفساده في هذا القلب، ومعلوم أنَّ مناط التَّكليف والتَّعبُّد راجعٌ إلى العقل، ولهذا قال بعضهم:

مَحَلُّهُ الْقَلْبُ عَلَى الْمَشْهُورِ ... لِلْوَحْيِ وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ[176]

وكما قال الآخر:

وَالْعَقْلُ فِي الْقَلْبِ كَمَا فِي (الاعْرَافِ) ... وَسُورَةِ (الْحَجِّ) مَعًا وَفِي (ق)

فالشَّاهد من هذا أنَّ القلب هو أفضل الجوارح وأهمُّها وأعظمها وهو بمنزلة الملِك للرعيَّة، وقد تكلَّم الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- كلامًا نافعًا ماتعًا جليلَ القدْرِ في كتابه "إغاثة اللَّهفان" في أوَّل فصوله وأبوابه على أهميَّة القلب وصلاحه، وقد قال ربُّنا -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[177] والقلب السَّليم كما يقول الحافظ ابن القيِّم هو القلب الَّذي قد سلم من كلِّ شهوةٍ تُخالف أمر الله ونهيه، ومن كلِّ شُبهة تُعارض خبره[178].

❁ الحديث فيه فوائد كثيرة وعظيمة:

_ أهمُّها: أنَّ الله -تبارك وتعالى- قد منَّ على عباده بالحلال الَّذي يُغنيهم عن الحرام، وبيَّنه حتَّى اشتركوا في معرفته ولا يُحتاج في معرفته إلى كثير علمٍ ولا اجتهاد.

[174] سورة الحج: 46
[175] سورة ق: 37
[176] منظومة "محصل المقاصد" لابن زكري.
[177] سورة الشعراء: 88-89
[178] قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَقَد اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ النَّاسِ فِي مَعْنَى الْقَلْبِ السَّلِيمِ، وَالأَمْرُ الْجَامِعُ لِذَلِكَ: أَنَّهُ الَّذِي قَدْ سَلِمَ مِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُخَالِفُ أَمْرَ اللهِ وَنَهْيَهُ، وَمِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ) ["إغاثة اللهفان" ص15]

_ ومنها: أنَّ الحرام أيضًا بيِّنٌ، وأنَّ على المسلم أن يتجنَّب مواطن الحرام ومواطن الشُّبهات -كما سيأتي معنا-.

_ ومن فوائد الحديث: أنَّه دليلٌ على قاعدةٍ شرعيَّة عامَّة عند الفقهاء وهي قاعدة الاحتياط والاستبراء للدِّين، هذا مع حديث الحسن لمَّا قال: ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ)).

_ ومن فوائد الحديث: أنَّ النَّاس لا يستوُون في العلم كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[179] لأنَّه قال: ((لَا يَعْلَمهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)) فإنَّ كثيرين مِن النَّاس يجهلون حقيقة هذه الشُّبَه.

_ ومنها: أنَّ اجتناب مواطن الشُّبهات ومواطن الرِّيب سبيلٌ إلى الاستبراء للدِّين من النَّقص وللعِرْض من التُّهمة، وقد كان الحسن البصري -رحمه الله تعالى- يقول: (مَازَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ حَتَّى تَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَلَالِ مَخَافَةَ الْحَرَامِ)[180]، وكان عُمر بن عبد العزيز -رحمه الله ورضي عنه- يقول: (التَّقِيُّ مُلْجَمٌ لَا يَفْعَل كُلَّ مَا يُرِيد)[181].

_ ومن فوائد الحديث أيضًا: أنَّ من واقع الشُّبهات فإنَّه يُوشك أن يقع في الحرام، لا أنَّ المراد أنَّ من أتى الشُّبهة الَّتي لم يتبيَّن حُرمها أنَّه وقع في الحرام، لا؛ ولكنَّ الوقوع في الشُّبهة سبيلٌ إلى الوقوع في الحرام، لا أنَّ من أتى الشُّبهة أتى الحرام.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المسلم ينبغي ويجب عليه أن يعرف محارم الله الَّتي لا يجوز انتهاكها ((وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا)) -كما سيأتي معنا في الحديث في هذه الأربعين أيضًا-، وكذلك أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قال:﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[182].

---

[179] سورة يوسف: 76

[180] "جامع العلوم والحكم" لابن رجب رحمه الله، ص187.

[181] "شرح السُّنَّة" للإمام البغوي رحمه الله؛ الجزء:14، ص:341

[182] سورة البقرة: 229

_ ومن فوائد الحديث: استعمال التَّمثيل للتَّقريب في العلم، فإنَّ المثال يُوضِّح العلم ويُزيل الإشكال، وهذا الأسلوبُ أسلوبٌ نبويٌّ أَكْثَرَ مِنْهُ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام؛ أحيانًا يُمثِّل للمؤمن، أحيانًا يُمثِّلُ في الأشياء المخلوقة الأخرى، ومن هذه الأدلَّة ونحوها استدلَّ طوائف من الأصوليّين -وهم الجمهور- على استعمال القياس كحديث: **((هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟))**[183] لمَّا قال: (لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ)[184] فمثَّل له بهذا المثال، وهنا مثَّل النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام محارم الله وحُدوده الَّتي حماها بـ: حِمى المَلِك؛ فقال: ((كَالرَّاعِي)) الكاف هنا للتَّشبيه، ((يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ)).

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الله -جلَّ وعلا- حَمى هذه الشَّريعة وحمَى الأعراض أيضًا في بيان ما يُنقصها ويُفسدها -كما تقدَّم معنا-، وأنَّ حِمى الله -جلَّ وعلا- محارمه، وكما جاء في حديث سعد بن أبي وقَّاص: **((أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ فَوَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي))**[185]، وكذلك جاء في حديث عائشة أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال -في حديث الكسوف-: **((وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ))**[186].

_ ومن فوائد الحديث: أنَّ مناط صلاح المرء على صلاح قلبه، وأنَّ تحديد صلاح العبد بصلاح قلبه، فإذا صلح القلب وكان مَوْردًا للصَّلاح فإنَّ الجوارح تصلح بصلاحه، كما مرَّ معنا في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[187] فالقلب السَّليم هو الَّذي سَلِم من كلِّ شُبهةٍ تُعارض خبر الله فلا يتطرَّق إليه اشتباه، وسلِم من كلِّ شهوةٍ تُعارض أمر الله.

فَالْقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... حُبًّا وَتَعْظِيمًا مَعَ الإِحْسَانِ[188]

ولهذا النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال كما في صحيح مسلم في حديث أبي هريرة: **((إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))**[189].

---

183 متَّفقٌ عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

184 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، وُلِدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ، فَقَالَ: ((هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟)) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ((مَا أَلْوَانُهَا؟)) قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: ((هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟)) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ((فَأَنَّى ذَلِكَ؟)) قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: ((فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ)) متَّفق عليه، واللَّفظ للبخاري.

185 متَّفقٌ عليه، واللفظ لمسلم.

186 متَّفقٌ عليه، من طريق عائشة رضي الله عنها [واللفظ للبخاري].

187 سورة الشعراء: 89

188 نونية ابن القيِّم رحمه الله.

_ ومن فوائد الحديث: أنَّ فساد الباطن دليلٌ على فساد الظَّاهر، وعلى التَّلازم بين الظَّاهر والباطن -كما هو ظاهر هذا الحديث-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المسلم يجتنب مواطن الشُّبهات ومواردها وإن كان في ذلك عليه من ذهاب بعض المصالح.

_ ومنها أيضًا: أنَّ المسلم ينبغي له أن يطلب مراتب الكمال في العلم لأنَّ النَّاس يتفاوتون فيه ولا يستوون فيه، هذا ظاهرٌ في هذا الحديث لأنَّه قال: ((لَا يَعْلَمهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)).

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: حِفظ الدِّين ومراعاته، وحفظ العِرض ومراعاته، وأنَّ هذا من المقاصد الشَّرعيَّة العظيمة.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ ابن القيِّم -رحمه الله- لمَّا ساق أدلَّة سدِّ الذَّرائع ذكره، فهو دليل أيضًا على قاعدة سدِّ الذَّرائع المُفضية أو الموصلة إلى شيء من الباطل.

وفوائد هذا الحديث كثيرةٌ جدًّا.

[189] رواه مسلم من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ الحديث السابع ۞

عَنْ أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رضي الله عَنْـهُ أَنَّ النَّـبِيَّ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

قُلْنَا: لِمَنْ؟

قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

هكذا قال المصنِّف -رحمه الله تعالى-، فهو من أفراد مُسلم على البخاري -رحم الله الجميع-، وقد بوَّب به البخاري -رحمه الله- في صحيحه فقال: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)[190] لأنَّ البخاري لم يُخرِّج هذا الحديث وذلك لأنَّه ليس على شرطه -رحمه الله وغفر له-.

❀ وهذا الحديث ليس لأبي رُقيَّة تميم بن أوسٍ الدَّاري في صحيح الإمام مُسلم إلَّا هو، وأمَّا حديث الجسَّاسة فإنَّه في مسند فاطمة بنت قيس على الصَّحيح المرجَّح الَّذي تدلُّ عليه قواعد الحديث، فإنَّه من مُسند فاطمة بنت قيس وهي ترويه عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، حدَّث به النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن أبي رُقيَّة في قصَّة الدَّجَّال والجسَّاسة.

وهذا الحديث جاء في مسند الإمام أحمد مُكرَّرًا مرَّتين: ((**الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ**))[191]، وجاء أيضًا عند أبي داود مكرَّرًا ثلاثًا: ((**إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ**

[190] صحيح البخاري.
[191] "المسند" رقم: 16499

النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ))[192] وكلُّ هذه الألفاظ صحيحةٌ ثابتةٌ، والتَّكرار مُفيد للتَّوكيد، فهذا الحديث في لفظ التّكرار يُؤكِّد فيه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم هذا الأمر وهو أنَّ الدِّين النَّصيحة.

وأذكر أنَّه قد تقدَّم معنا في حديث عمر رضي الله عنه -وهو الحديث الأوَّل- أنَّ أساليب القصر أو الحصر عند البلاغيين والبيانيين أشهرها أربعة، وذكرناها في ذلك الوقت:

_ النَّفي والإثبات (لا إله إلَّا الله).

_ تقديم ما حقُّه التَّأخير؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[193].

_ إنَّما (إن) مع (ما)؛ ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)).

_ وتعريف المبتدأ والخبر، فإذا عُرِّف الجزءان -عُرِّف المبتدأ والخبر- فإنَّ هذا يُفيد القصر أو الحصر، إذا عُرِّف المبتدأ والخبر.

المبتدأ والخبر ما هما؟!

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) فلمَّا عرَّفهما أفاد قصر الدِّين في النَّصيحة.

القصر عند البيانيين له قسمان: هناك قصر كمال إذا كان المقصور صفةً كما تقول: (أنت العاقل)، وقد يكون من النَّوع الآخر وليس المراد به الكمال فيُعرَّف الجُزءان -يُعرَّف المبتدأ والخبر-.

على كلِّ حال إذا عُرِّف المبتدأ والخبر فإنَّه يُفيد القصر أو الحصر؛ ومنه قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((الْحَجُّ عَرَفَةُ))[194]، وأذكر أنَّنا ذكرنا أيضًا قوله -تبارك وتعالى-:﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[195] فتأخذ هذه القاعدة معك: على أنَّ العرب إذا عرَّفت المبتدأ والخبر فإنَّها تُريد إفادة القصر.

---

[192] صحَّحه الألباني رحمه في "صحيح أبي داود".
[193] سورة الفاتحة: 5
[194] صحَّحه الألباني في "صحيح الجامع".
[195] سورة المنافقون: 4

هذا الحديث قال فيه نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) ونحن نحتاج إلى أن نُعرِّف هذه الألفاظ لأهمِّيتها والحاجة الماسَّة إليها، ثمَّ بعد ذلك نذكر ما يتعلَّق بهذا الحديث.

_ لفظ ((الدِّين)) تكرَّر في كثير من نصوص الشَّريعة، والدِّين لا يُطلق إلَّا إذا كان ملتزَمًا مُكرَّرًا على الدَّوام، وأمَّا إن كان مفعولًا للمرَّة أو نحوها فإنَّ هذا لا يُسمَّى دينًا على ما قرَّره شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-.

والدِّين -كما يقول شيخ الإسلام أيضًا- قد يكون دينًا صالحًا وقد يكون دينًا فاسدًا، فإنَّ الدِّين هو من الأعمال الباطنة والظَّاهرة، وتعرفون أنَّ الله -عزَّ وجل- قال في سورة يوسف:﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[196] مع أنَّ دين الملك هذا كان دينًا باطلًا، وهكذا تُسمَّى الدِّيانات بأفرادها بأنَّ هذا دين، وأمَّا دين جميع الرُّسل فإنَّه دينٌ واحد، فالرُّسل على دين واحد كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**))[197] فالدِّين واحد.

❀ فلا يُقال: (ديانات الأنبياء) ولا يُقال: (الدِّيانات السَّماويَّة) هذا لفظٌ خاطئ ولا يجوز للمسلمين أن يتداولوه، بل يجب إنكاره إن كان قائله قاصدًا لما يتضمَّنه؛ لأنَّ الدِّين لا يكون إلَّا واحدًا كما قال -عزَّ وجلَّ-:﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[198]، كذلك قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[199] وسمَّى إبراهيم مسلمًا، وسمَّى نوحًا مسلمًا، وسمَّى جميع الأنبياء مُسلمين، فلا يُقال بأنَّ هناك ديانات سماويَّة.

وقد قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: (إنَّ الدِّينَ هُوَ الطَّاعَةُ الْمُعْتَادَةُ الَّتِي صَارَتْ خُلُقًا)[200] وهذا ما عنيناه قبل بأنَّ الدِّين لا يكون دينًا إلَّا إذا كان أمرًا مُلتزمًا.

---

[196] سورة يوسف: 76

[197] متَّفقٌ عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ للبخاري].

[198] سورة آل عمران: 19

[199] سورة آل عمران: 85

[200] "قاعدة في المحبة" ص37.

والدِّين الحقّ هو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسوله، قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: (وَهُوَ الدِّينُ الْحَقّ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَطَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ هُوَ الإِسْلَامُ العَامُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ دِينًا غَيْرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[201]، وَقَالَ تَعَالَى:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[202]، وَقَالَ تَعَالَى:﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[203]، وقال تعالَى:﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[204]، وَقَالَ تَعَالَى:﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[205])[206] فهذا الإسلام العام أو الدِّين العام.

وأمّا الشَّرائع فإنَّها مُختلفة، كلُّ نبيٍّ أو كلّ رسولٍ يعمل بمقتضى ما شرعه الله -تبارك وتعالى- له:﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[207].

هذا معنى الدِّين على جهة الإجمال.

_ وأمّا ((النَّصِيحَة)) فإنَّها مأخوذة من النَّصح وهو التَّخليص والتَّصفية، تقول: (نَصَحتُ اللَّبن) إذَا صفَّيتَهُ وخلَّصته من شوائبه، وهكذا يُقال: (نَصَح العسل) إذَا صفَّاه، فالنَّصيحة على هذا المعنى إذا أردنا أن نُقرِّر معنى اصطلاحيًا أو معنى شرعيًّا على ما قرَّره أهل العلم أنَّ النَّصيحة كلمة يُعبَّر بها عن جُملة: هي إرادة الخير للمنصوح له، لأنَّها خلوصٌ من الشَّوائب، وهذا اللَّفظ -يعني خلوص النَّصيحة للمنصوح- من الأمور الَّتي أكَّد عليها الرَّب -تبارك وتعالى- بين المسلمين، وأكَّد عليها النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم في مواضع كثيرة وبيَّن في هذا

201 سورة آل عمران: 19
202 سورة آل عمران: 85
203 سورة آل عمران: 83
204 سورة الشورى: 13
205 سورة الأنعام: 159
206 "قاعدة في المحبة" ص39.
207 سورة المائدة: 48

الحديث المواضع الَّتي تتأكَّد فيها النَّصيحة، -ومعلومٌ نحن لا نريد أن نذكر كثيرًا من الأحاديث المتعلِّقة بهذا الكتاب لأنَّه سيطول به الكلام-.

معلومٌ أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أخذ البيعة على أصحابه، وممَّا بايعهم عليه -في حديث جرير وغيره-: ((**عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**))[208] وكان السَّلف يهتمُّون اهتمامًا بالغًا بهذا الأمر وقد قال بعضهم: (مَنْ نَاصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ، وَمَنْ دَاهَنَكَ فَقَدْ غَشَّكَ)، ولهذا قال الزَّعفراني -رحمه الله-: (قَالَ الشَّافِعِيّ: مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا إِلَّا عَلَى النَّصِيحَةِ)[209] يعني أنَّه ما ناظر أو جادل أحدًا إلَّا وهو ناصحٌ له يُريده أن يصل إلى الحقِّ، ولهذا قال العلَّامة البربهاري -رحمه الله-: (الْمُجَالَسَةُ لِلْمُنَاصَحَةِ فَتْحُ بَابِ الْفَائِدَةِ، وَالْمُجَالَسَةُ لِلْمُنَاظَرَةِ غَلْقُ بَابِ الْفَائِدَةِ)[210]، وجعفر بن برْقان -رحمه الله- قال: (قَالَ لِي مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: يَا جَعْفَرُ قُلْ لِي فِي وَجْهِي مَا أَكْرَهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَنْصَحُ أَخَاهُ حَتَّى يَقُولَ لَهُ فِي وَجْهِهِ مَا يَكْرَهُ)[211].

والصَّحابة رضي الله عنهم لمَّا سمعوا هذا اللَّفظ من النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) أخذتهم الرَّغبة في أن يَعْلَموا ما هي النَّصيحة الَّتي جعلها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الدِّين كلَّه، فقالوا:[قُلْنَا لِمَنْ؟] أي: لمن تكون هذه النَّصيحة؟ فقال: ((لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)).

هنا قال: ((لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ)) ولم يُكرِّر اللَّام مع ((عَامَّتِهِمْ)) لأنَّهم داخلون في المعنى العام الَّذي يدلُّ عليه هذا اللَّفظ.

وقد أخبر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم في هذا الحديث أنَّ الدِّين النَّصيحة؛ وهذا يدلُّ على أنَّ النَّصيحة تجمع خصال الإسلام والإيمان والإحسان الَّتي ذُكرت في حديث جبريل وسُمِّي ذلك كلُّه دينًا -كما قرَّر ذلك الحافظ ابن رجب رحمه الله-، لماذا؟ لأنَّك إذا كرَّرت أو ربطت قول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((فَإِنَّه جِبْرِيل أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)) وذكر فيه أركان

---

[208] مُتَّفقٌ عليه، واللَّفظ لمسلم.
[209] "تاريخ دمشق" لابن عساكر؛ ج51، ص384، "سير أعلام النبلاء" ج10، ص29.
[210] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله، ج15، ص91.
[211] "سير أعلام النُّبلاء" للذَّهبي رحمه الله، ج5، ص75.

الإسلام والإيمان والإحسان، وهنا يقول: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) أفادك على أنَّ الدِّين هذا كلَّه -بما فيه أركان الإسلام وأركان الإيمان وأركان الإحسان- مبني على النَّصيحة ((لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)).

وذكرتُ لك قبل قليل أنَّه لم يُكرِّر اللَّام في قوله: ((وَعَامَّتِهِمْ)) لأنَّه قال: ((لِلَّهِ)) مع اللَّام، ((وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ)) لماذا؟ لأنَّ عامَّة المسلمين هم تبع لأئمَّتهم، والنُّصح بينهم أمرٌ مرتبطٌ بمعنى الشَّيء الواحد أو كالشَّيء الواحد.

النَّصيحة لله هنا قالها ابتداءً لأنَّ حقَّ الله -جلَّ وعلا- لا يُقدَّم عليه شيء، فقال: ((لِلَّهِ))

❀ ما المراد بالنَّصيحة لله -تبارك وتعالى-؟!

النَّصيحة لله -جلَّ وعلا-: بالإيمان به، وطاعته، وعبادته، بأن تعبده حقَّ عبادته، وتُؤمن به إيمانًا كاملًا؛ فتُؤمن بتوحيده في ربوبيَّته، وفي إلهيَّته، وفي أسمائه وصفاته، وتُؤمن أيضًا بأقداره وأفعاله، وأنَّه لا أحد يستحقُّ العبادة غيره -جلَّ في علاه-، ولهذا جاء في صحيح مسلم من حديث العبَّاس بن عبد المطلب أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ رضي بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**))[212] فهذه النَّصيحة لله.

_ فلَمْ ينصح لله -جلَّ وعلا- مَن عَبَدَ غيره مِن القبور والأضرحة وما أشبه ذلك.

_ وما نصح لله -تبارك وتعالى- من حرَّف في أسمائه وصفاته أو أَلْحد فيها أو تأوَّلها وحرَّفها على غير مُراد الله -تبارك وتعالى- فيها.

_ وما نَصح لله -عزَّ وجلّ- مَن لم يُؤمن بقدره، ومَن لم يتَّبع شرعه.

فالإيمان بالله -تبارك وتعالى- يتضمَّن الإيمان بكلِّ ما فرضه على عباده.

ثمَّ ثنَّى بالنَّصيحة لكتابه -تبارك وتعالى- الَّذي هو كلامه، وهو القرآن الَّذي بين أيدينا، كلام الله -جلَّ وعلا- الَّذي تكلَّم به على الحقيقة، فيُؤمن بأنَّه كلامه -تبارك وتعالى-، وأنَّه مُنزَّل

---

[212] رواه مسلم.

على الحقيقة من عِنده ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[213]، وأنَّه كما قُلنا مُنزَّل غير مخلوق.

ومن النُّصح له: تعلُّمه، وتعليمه، والإكثار من تلاوته، ومِن تدبُّره، وتأمُّل معانيه، وفهمها، وتطلُّب ما تضمَّنته من الأحكام، والعمل به، والاِستغناء به عن غيره؛ فإنَّ فيه كلّ خير.

❀ وسمعت شيخنا العلَّامة الفوزان -حفظه الله- في شرحه يُقرِّر أنَّ النُّصح لكتاب الله تعالى يتضمَّن خمسة أمور:

_ أوَّلها: أن تعتقد أنَّه كلام الله حقيقة.
_ وثانيها: أن تتعلَّمه.
_ وثالثها: أن تُكثر مِن تلاوته.
_ ورابعها: أن تتدبَّره؛ فلا يكفي أن تقرأه دون معرفة معانيه وتفسيره.
_ وخامسها: أن تعمل به.

ثمَّ ذكر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم النَّصيحة لرسوله، والنَّصيحة لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم بأن تشهد أنَّه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم شهادةَ حقٍّ استيقَنَ بها قلبك، شَهِدتَ بها ظاهرًا وباطنًا، تُطيعه فيما أمر، تُصدِّقه فيما أخبر، وتجتنب ما عنه نهى وزجر، وتعبد الله تعالى بما شرع، فإنَّ هذا هو مقتضى ما جاءت به شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، فلا تُقدِّم على محبَّته ولا على طاعته ولا على اتِّباعه شيء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[214].

ومن النُّصح له -عليه الصَّلاة والسَّلام-: تعلُّم سُنَّته، وحِفظ أحاديثه، وبيان صحيحها من ضعيفها، والذَّب عن سُنَّته عليه الصَّلاة والسَّلام، فقد قال يحي بن يحي: (الذَّبُّ عَنِ السُّنَّةِ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ)[215] وهي نوعٌ من الجهاد عظيم.

[213] سورة الشُّعراء: 193 – 194
[214] سورة الحجرات: 1
[215] "مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ ج4، ص13

فهذا شيءٌ مِن النُّصح للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، اِلْتِزامُ سُنَّته أيضًا -كما سبق- بردِّ البدع والأهواء والخُرافات ونفي الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة والباطلة وكشفها وبيانها للنَّاس، كلُّ هذا مِن النَّصيحة لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

ثمَّ بعد ذلك قال: ((وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ)) والمراد بأئمَّة المسلمين: ولاة الأمور، ويدخل فيهم العلماء لأنَّ الله -عزَّ وجل- قال:﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[216]، قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: (وَمِنْ جُمْلَةِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ أَئِمَّة الاجْتِهَادِ)[217].

- وتقع النَّصيحة لهم: ببثِّ عُلومهم، ونشر مناقبهم، وتحسين الظَّنِّ بهم.

ثمَّ ذكر النَّصيحة لعامَّة المسلمين، إذًا ولاة أو أئمَّة المسلمين يتضمَّن طائفتين:

_ يتضمَّن طائفة وُلاة الأمر: في اعتقاد ولايتهم، والسَّمع والطَّاعة لهم بالمعروف، والقيام بما يُوكل إليك من الوظائف والأعمال الَّتي تتعلَّق بهم، وكذلك جمعُ كلمة النَّاس عليهم، وعدم التَّحريض عليهم، وعدم نشر أخطائهم وما يقع منهم من السُّوء -إن كان يقع- وإنَّما تستر ذلك، والنُّصح لهم لا يُبدى علانيَّة كما جاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: **((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لذي سُلْطَانٍ فِي أمْرٍ فَلَا يُبْدِهِ عَلَانِيةً، وَلَكِنْ ليأخُذْ بِيَدِهِ فيَخْلُوَ بِهِ؛ فَإِنْ قبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ))**[218].

ومن النَّصيحة لولاة الأمر: الدُّعاء لهم بالصَّلاح في غيبتهم وفي حضورهم، وفي الأمر الخاصِّ وفي الأمر العامِّ، سواء كنتَ في صلاتك، في سجودك أو في قنوت أو على المنبر، فقد كان بعض السَّلف يقول -كما ذكر البربهاري وغيره-: (إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُوا عَلَى السُّلْطَان فَاعْلَم أَنَّهُ صَاحِبُ هَوَى، وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو للسُّلْطَانِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ)[219]، وكان بعض

---

[216] سورة النِّساء: 83

[217] "فتح الباري" لابن حجر رحمه الله، ج1، ص138.

[218] صحَّحه الألباني رحمه الله في "تخريج كتاب السنة".

[219] "شرح السنة" للبربهاري رحمه الله، ص116

السَّلف يقول: (لَوْ أَنَّ لِي دَعْوَةٌ مُجَابَة لَجَعَلْتُهَا فِي الإِمَام)[220] لماذا؟ لأنَّ صلاح السُّلطان صلاحٌ له ولغيره.

ثمَّ ختم النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: ((وَعَامَّتِهِمْ)) أي وعامَّة المسلمين، وعامَّة المسلمين يعني عُمومهم، ليس المراد العوامّ فقط، يدخل فيها كُلُّ مسلم من عدا الطَّائفتين.

فالنَّصيحة لعامَّة المسلمين مهمَّة جدًّا، قال الحافظ [ابن حجر][221]: (النَّصِيحَةُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ: الشَّفَقَةُ عَلَيْهِمْ، وَالسَّعْيُ فِيمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِمْ، وَتَعْلِيمِهِمْ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَكَفّ وُجُوهِ الأَذَى عَنْهُمْ، وَأَنْ يُحِبَّ لَهُمْ مَا يُحِبّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لنفْسِهِ)[222] إلى غير ذلك، وهو كثير في كلام أهل العلم في بيان ما يتعلَّق بالنَّصيحة لعامَّة المسلمين، ومن أعظمها: رعاية الحقوق المشتركة بين المسلمين كما أخبر النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **((حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ))**[223]، وكما بيَّن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بنفي الغش عنهم: **((مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا))**[224].

ومن النَّصيحة لعامَّة المسلمين -وهي أعظمها وأجلُّها-: دعوتهم إلى الدِّين الصَّحيح، دعوتهم إلى التَّوحيد الَّذي افترضه الله -تبارك وتعالى- لهم، وهذا أيضًا من حبِّ الخير لهم.

هذا ما يتعلَّق بحديث أبي رُقية تميم بن أوس الدَّاري.

---

220 "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله، ص641، عن الفضيل بن عياض رحمه الله.

221 من إضافتي.

222 "فتح الباري" ج1، ص138.

223 مُتَّفقٌ عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

224 رواه مسلم.

۞ الحديث الثامن ۞

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ؛ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

لكن نبَّه الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- أنَّ لفظة: ((إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ)) تفرَّد بها البخاري دون مسلم، وجاءت عند مسلم بلفظ: ((إِلَّا بِحَقِّهَا))[225] يعني كلمة التَّوحيد؛ الضَّمير عائدٌ عليها، وهي الإسلام.

وهذا الحديث كما ذكر المصنِّف -رحمه الله تعالى- اتَّفق عليه الشَّيخان -رحمهما الله-.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أُمِرْتُ)) هذا ممَّا يُسمَّى بالمفعول الَّذي لم يُسمَّ فاعله، والأصل أنَّ الأمر إذا جاء إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّ الآمر له هو الله -تبارك وتعالى-، هذا هو القاعدة المضطردة والأصل الَّذي لا يُناقضه شيء، كما أنَّ الصحابة إذا قالوا: (أُمرنا) فإنَّ هذا يحتمل أن يكون الآمر هو الرَّبُّ -تبارك وتعالى- بما أوحاه على رسوله في القرآن، أو أن يكون الآمر هو الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم بما يُخبرهم أو يأمرهم به.

[225] رواه مسلم.

ومعلومٌ عند البلاغيين أنَّهم يذكرون أسباب حذف الفاعل: إمَّا لأنَّه معلوم، أو لتعظيمه -أو ما أشبه ذلك-، فللتَّعظيم للرَّب -جلَّ وعلا- حُذف هنا الفاعل؛ قال: ((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ)).

و ((النَّاس)) هنا (أل) فيه للجنس.

وَ (أَلْ) تُفِيدُ الْكُلَّ فِي الْعُمُومِ   فِي الجَمْعِ وَالإِفْرادِ كَالْعَلِيمِ

إلَّا أنَّ هذا العموم قد يتأخَّر لعلَّة ظاهرة من السِّياق، كما في قوله -تبارك وتعالى-:﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[226] وإنَّما القائل واحد -كما هو معلوم-.

فالمراد بـ: ((النَّاس)) هاهنا ليس عموم النَّاس وإنَّما هم خصوص المشركين لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قال:﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[227] الآيات، وكذلك قوله -جلَّ وعلا-:﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[228] فـ: ((النَّاس)) هنا وإن كان اللَّفظ لفظ عام فإنَّه [أُريدَ به][229] الخصوص.

((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى)) (حتَّى) هذه:

_ عند طائفةٍ من الشُّرَّاح تُفيد الغاية؛ أي: أُمرتُ أن أقاتلهم إلى أن يشهدوا.

_ وقال بعض الشُّرَّاح بأنَّها ربَّما أفادت التَّعليل؛ يعني: أُمرتُ أن أقاتل النَّاس ليشهدوا.

والمعنى الأوَّل أظهر وأبعد عن الإشكال.

((حَتَّى يَشْهَدُوا)) ولفظ الشَّهادة تقدَّم معنا الكلام عليه في حديث ابن عمر رضي الله عنها، وكذلك: ((أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) تقدَّم الكلام عليها وعلى وجه إعرابها وما يتعلَّق بذلك، وكذلك: ((وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ))، وتكلَّمنا على ما يتعلَّق بالصَّلاة والزَّكاة.

226 سورة آل عمران: 173
227 سورة التوبة: 29
228 سورة التوبة: 36
229 غير واضحة في التَّسجيل بسبب بعض التَّقطُّعات.

ثمَّ بيَّن عليه الصَّلاة والسَّلام هنا أنَّه مأمورٌ بأن يُقاتل النَّاس.

- القِتال غير القَتْل -كما هو معلوم-:

_ القتال نوعٌ من المدافعة، مُقاتلة.

_ والقَتل دونه.

وينبغي أن يُعلم أنَّه لا تلازم بين القتال والكفر، فقد يُقاتَل من ليس كافرًا، وقد ذكر طوائف من الأصوليين والفقهاء أنَّ أهل المحلَّة لو اجتمعوا على ترك شيء من شعائر الدِّين الظَّاهرة فإنَّهم يُقاتَلون، حتَّى نصَّ بعض الأصوليين على أنَّهم لو اجتمعوا جميعًا على ترك سُنَّة الفجر فإنَّ السُّلطان له أن يُقاتلهم.

لكن هنا القِتال المراد به قتال الكفَّار كما بيَّنتُ لك ذلك في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ)) ولهذا قال: ((حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)) لأنَّها الكلمة الَّتي بها يُدخل في الإسلام ((وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)) فإذا فعلوها قال: ((فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ)) وأمر القتال فيه تفاصيل كثيرة في كتب أهل العلم من الفقهاء وغيرهم والمحدِّثين من أنَّه لا يبدأ بقتال إلَّا بعد الدَّعوة إلى الإسلام أو فرض الجزية -على تفاصيل عند الفقهاء ليس هذا محلُّها-.

_ فإنَّهم منهم من يرى جواز أخذ الجزية عن كلِّ كافر أو من كلِّ كافرٍ سواءً كان من اليهود أو النَّصارى أو من المجوس فإنَّها تُؤخذ منهم، وهذا مذهب مالك -رحمه الله- والأوزاعي وابن تيمية وابن القيِّم والصَّنعاني، وجماعة من أهل العلم.

_ ومنهم من يرى أنَّ الجزية لا تُؤخذ إلَّا من أهل الكتاب والمجوس كما هو المذهب عند الشَّافعية والحنابلة.

ولابدَّ من بدء الدَّعوة أيضًا -الدَّعوة إلى الإسلام-، لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((حَتَّى يَشْهَدُوا)) معناه أنَّهم يُدعَون إلى الإسلام، ولهذا قال: ((فَإِذَا فَعَلُوا)) أي الدُّخول في الإسلام بشهادة أن لا إله إلَّا الله، وكذلك افتراض الجزية على أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى والمجوس فإنَّ هذا ينفي عنهم القتال، فإذا شهدوا أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول

الله وأقاموا الصَّلاة وأتوا الزَّكاة فإنَّهم قد عصموا دماءهم، والعصمة معناها المنع، فمعنى قوله: ((عَصَمُوا)) أي منعوا.

و (حَقُّ الإسلام) هذا ما المراد به؟ يعني أنَّهم إذا دخلوا في الإسلام انتفى عنهم القتال، لكن إذا ارتكبوا شيئًا في الإسلام يُوجب القتل فإنَّهم يُقتلون كما جاء في حديث ابن مسعود المتَّفق عليه -وسيأتي معنا-: ((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ؛ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ)).

ثمَّ بعد ذلك: ((وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ)) هو الَّذي يُحاسبهم على ما في سرائرهم إن كانوا قد أظهروا الإسلام نفاقًا.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام في التَّفريق هنا بين الصَّلاة والزَّكاة: ((وَيُقِيمُوا)) بمعنى أنَّهم يأتوا بها ويُؤدُّوها على الوجه المطلوب ويُؤْتُوا الزَّكاة [...][230] -رحمهم الله تعالى-، وقد أطال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في الكلام على مَن يُقاتَل ممَّن يترك المباني الخمسة أو من يترك شيئًا منها وما اختلف فيه أهل العلم في ذلك.

❁ ودلَّ الحديث على ما أفاده الفاكهاني -رحمه الله- على استضعاف القول بوجوب معرفة الله تعالى بالبراهين القطعية، فقال: (وَهَذَا يُضْعِفُ الْقَوْلَ بِوُجُوبِ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى بِالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا)[231] وهذا لاشكَّ، وهو اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة خلافًا للمتكلِّمين الَّذي يوجبون النَّظر أو القصد إلى النَّظر أو الشَّك، ووصلت أقوالهم إلى اثني عشر قولًا وهذا من شدَّة باطلها؛ وأشهرها ثلاثة أقوال -وبعضها أخفُّ من بعض-:

_ النَّظر.
_ ثمَّ القصد إلى النَّظر -وهذا أشدُّها-.
_ ثمَّ الشَّك -الَّذي هو أخو الكفر-، وهذا الضَّلال المبين.

---

[230] انقطاع في الصَّوت.
[231] "المنهج المبين" للفاكهاني رحمه الله، ص263.

وجميع الأحاديث الَّتي جاءت في أمر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم بالإسلام والدُّخول فيه -وما أشبه ذلك- كلُّها من هذا المعنى، فما قال: (حتَّى يَنظروا) أو (يتأمَّلوا) أو (يشكُّوا) أو (يقصدوا إلى النَّظر)؛ قال: ((حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) هذا فيه ردٌّ على هذا الباطل الَّذي يقوله المتكلِّمون.

والحديث أيضًا فيه ردٌّ على هؤلاء المتكلِّمين -مِن هذه الجهة-، وفيه -كما أفاده الحافظ ابن حجر- الرَّدّ على المرجئة لأنَّهم زعموا أنَّ الأعمال لا تدخل في مسمَّى الإيمان.

وسبق معنا أيضًا أنَّ القول قد يُطلق على الفعل، وهذا منه، -كما مرَّ معنا في حديث عمر رضي الله عنه وأرضاه-، لأنَّه قال: ((فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ)) والشَّهادتان قول، فعبَّر عنهما بالفعل كما أفاده الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-.

وبهذا الحديث استدلَّ الصِّديق رضي الله عنه وأرضاه على قِتال أهل الرِّدَّة، وهو الحديث الَّذي خَفي على عُمر رضي الله عنه وأرضاه، ثمَّ شرح الله صدره لما قاله أبو بكر -رضي الله عنهم جميعًا-؛ فإنَّ أبا بكر رضي الله عنه لمَّا مَنَعَتْ طوائف وقبائل من العرب الزَّكاة، قال: (وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ)[232] وبيَّن أنَّ الزَّكاة من حقِّ الإسلام فقاتلهم رضي الله عنه وأرضاه.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام -كما بيَّنا ذلك-: ((عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)) ليست العِصمة هاهنا مُختصَّة بمن دخل في الإسلام كما أشرتُ إلى ذلك سابقًا، لأنَّ العصمة قد تكون أيضًا لغير المسلم -الدِّماء المعصومة-، فالدَّم المعصوم يدخل فيه المسلم ويدخل فيه الذِّمِّي ويدخل فيه المُعاهَد ويَدخل فيه المستأمن، هؤلاء كلُّهم يدخلون في العِصْمة، فمن لم يدخل في الإسلام لكنَّه رضي بالجزية فإنَّ دمه يكون معصومًا، لا لإسلامه ولكن لأنَّه اِلْتزم ما فرضه عليه الإسلام، وهذا ممَّا يدلُّك على أنَّ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام أيضًا: ((أُمِرْتُ أَنْ

232 "جامع العلوم والحكم" ج1، ص244، "مجموع فتاوى ابن تيمية" ج11، ص79

أُقَاتِلَ النَّاسَ)) وإن كانت (أل) جنسيَّة هنا إلَّا أنَّ المراد بها العهد، أي المشركين دون غيرهم، وليس عامَّة المشركين، بمعنى: أنَّ من أدَّى الجزية فإنَّه لا يُقاتَل.

واستدلَّ بعض العلماء كالحنابلة وغيرهم بهذا الحديث على كفر تارك الصَّلاة.

قال شيخنا -حفظه الله-[233]: (قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عَنْهُ فِئَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ، الأُولَى: الْمُرْتَدُّونَ وَالَّذِينَ ادَّعَوا النُّبُوَّةَ كَمُسَيْلِمَةَ وَالأَسْوَد الْعَنْسِيّ، والثَّانيَّة: الَّذِينَ مَنَعُوا الزَّكَاةَ، قَاتَلَهُمْ حَتَّى أَدَّوا الزَّكَاةَ، وَاسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ لَمَّا قَالَ لَهُ الصَّحَابَةُ رضي الله عَنْهُم: لِمَاذَا نُقَاتِلُهُمْ وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُصَلُّونَ؟ قَالَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ**» وَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا، وَاللهِ لَوْ مَنَعُوا عِقَالًا، وَفِي رِوَايَةٍ: (عَنَاقًا، يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ) انتهى كلامه -حفظه الله-، وهذه المعاني ظاهرة من هذا الحديث.

233 الشَّيخ الفوزان حفظه الله.

۞ الحديث التاسع ۞

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْـنِ صَـخْرٍ رضي اللهُ عَنْـهُ قَـالَ: سَـمِعْت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:
«مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَـأْتُوا مِنْـهُ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وهذا اللَّفظ الَّذي ذكره المصنِّف -رحمه الله تعالى- هو لفظ الإمـام مسـلم -رحمـه الله تعالى-.

وهذا الحديث له قصَّةٌ أو له سببٌ في الوُرود، ومن الأنواع الَّتي صنَّف علماء الحديث فيها أنَّهم ذكروا نوعًا من أنواع علوم الحديث وهو «أسباب ورود الحديث»، ولمَّا صنَّف طائفةٌ من أئمَّـة التَّفسير في علوم التَّفسير وأصوله ذكروا أنَّه يُقابل «علوم أسباب النُّزول» يُقابله: «علم أسباب ورود الحديث»، وقد صنَّف في هذا العلم طائفة من أهل العلم من المتقدِّمين والمتأخِّرين.

وسبب ورود هذا الحديث جاء من طريق الرَّبيع بن مُسلم عن محمَّد بن زيـاد عـن أبي هريـرة قال: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَـيْكُمُ الْحَـجَّ فَحُجُّوا**» فقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ» ثُمَّ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[234] وهذا السَّبب إنَّما ورد عند الإمام مُسلم -رحمه الله تعالى-.

وقوله -في هذه الرِّواية الَّتي ذكرها المصنِّف-: ((فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) أو ((أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ))

((وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)): هذه ضُبطت بوجهين، لأنَّ الواو عاطفة لمفرد على مفرد.

- فهل العطف في قوله: ((وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)) هل هو عطفٌ على قوله: ((كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ)) أو هو عطفٌ على قوله: ((مَسَائِلِهِمْ))؟

_ فعلى الأوَّل: لابدَّ من رفع الفاء فيكون: ((كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)).

_ وعلى الثَّاني: ((كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)).

❁ ولكلِّ واحدٍ منهما معنى:

_ على الرَّفع فإنَّ المعنى: كثرةُ مسائِلهم سببٌ لهلاكهم، واختلافُهم سبب لهلاكهم.

_ ولو عطفناه على ((مَسَائِلِهِمْ)) -أي بالجر- لكان المعنى: كثرةُ مسائِلهم وكثرةُ اختلافِهم على أنبيائهم، فيكون الهلاك على هذا المعنى مُقترنًا بكثرة الاختلاف.

- أمَّا في العطف الَّذي به الرِّواية: فإنَّ الفعل ((أَهْلَكَ)) يتعلَّق بمُطلق الاختلاف لا بكثرته، وقد قال طائفةٌ من أهل العلم بصحَّة الوجهين، على أنَّ المرجَّح هو الرَّفع، ابن الملقِّن -رحمه الله تعالى- يقول: (هُوَ بِضَمِّ الْفَاءِ لَا بِكَسْرِهَا، كَمَا ضَبَطَهُ النَّوَوِيّ فِي "نُكَتِهِ" عَطْفًا عَلَى «كَثْرَةِ» لَا عَلَى «مَسَائِلِهِم»، أَيْ: أَهْلَكَتْهُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَأَهْلَكَهُم اخْتِلَافُهُمْ، وَهُوَ أَبْلَغ؛ لِأَنَّ الْهَلَاكَ نَشَأَ عَنِ الاخْتِلَافِ)[235]، ويقول العلَّامة ابن عُثيمين -عليه رحمة الله- في شرحه: (الْأَوَّل) -أي الضم- (يَقْتَضِي أَنَّ مُجَرَّدَ الاخْتِلَافِ سَبَبٌ لِلْهَلَاكِ، وَأَمَّا عَلَى الاحْتِمَال الثَّانِي) -أي

234 رواه مسلم.
235 "المعين على تفهم الأربعين" لابن الملقن رحمه الله، ص180.

كَسر الْفاءِ- (فَإِنَّه يَـقْضِي أَنَّ سَـبَبَ الْهَـلَاكِ هُـوَ كَـثْرَةُ الاخْـتِلَافِ) وقـال: (وَكِلَا الأَمْـرَيْنِ صَحِيحٌ)[236] أي -الضّم والكسر- جائز، فتقـرَّر بهـذا أو ذكرنـا هـذا ليكـون معـنى الحـديث مفهومًا.

والنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال في هذا الحديث: ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ)) (ما) هنا اسمٌ موصـول بمعنى: الَّذي، فهي في قُوَّة الَّذي، يعني: الَّذي نهيتكم عنه فاجتنبوه.
والأسماء الموصولة عند الأصوليّين واللُّغويّين تُفيد العموم، فاقتضى اجتناب النَّهي، أو اقـتضى الاجتناب عن كلِّ نهيٍّ، وهذا معنى ظاهر لأنَّه قال: ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْـهُ)) و (مـا) و (الَّذي) و (الأسماء الموصولة) عند الأصوليين وعند اللّغويين كلُّها في قوَّة: كلّ، بمعنى: كلّ مـا نهيـتكم عنه فاجتنبوه.

والاجتناب أبلغ من النَّهي المجرَّد، لأنَّه نهيٌ عن الشَّيء ونهيٌ عن ما يُوصل إليه، ولهذا قـال العلماء في تفسير قوله تعالى:﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ -يعني في الخمر- ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[237] إنَّ هذا أبلغ من مجرَّد النَّهي عن الخمر.
فهنا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ)) و (عن) هذا الحرف -حرف الجر- يقتضي المجاوزة، بمعنى أنَّ الإنسان يكون عنده علمٌ بهذا النَّهي ثمَّ يتجـاوزه؛ كمـا في قـوله تعالى في كتابه الكريم:﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[238] بمعنى أنَّهـم علمـوه فتجـاوزوه، فلابدَّ أن يكون النَّهي معلومًا لمن جاوزه.

فقال هنا: ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوه، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ)) (ما) يُقال فيها كمـا قيـل في الَّـتي قبلها.

---

[236] "شرح الأربعين النووية" لابن عثيمين رحمه الله، ص157.
[237] سورة المائدة: 90
[238] سورة النور: 163

((وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)) فالمنهي عنه يُجتنب كلُّه، أسهل من الفعل، الفعل تأتي منه ما تستطيع أمَّا التَّرك فهذا لا أحد يعجز عنه لأنَّ التَّرك أسهل؛ ولهذا قال: ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ)) ولم يقل: اجتنبوا ما استطعتم، بل قال: ((فَاجْتَنِبُوهُ)) وكلُّ أحد يستطيع أن يترك المنهي عنه؛ اللَّهم في حالة الضَّرورة إذا اضطرَّ إلى المنهيِّ فإنَّه يفعله من باب الرُّخصة، مثل الاضطرار إلى أكل الميتة فإنَّه يتناولها لبقاء حياته، وكذلك إذا غُصَّ بلُقمة لم يستطع أن يستصيغها إلَّا بجرعة خمر فإنَّه يستصيغها -وغير ذلك من المسائل المتعلِّقة بهذا المعنى-.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَإِنَّمَا أَهْلَكَ)) هذه (إنَّما) كما تقدَّم معنا للحصر، ولكنَّ الحصر هنا ليس مرادًا على المعنى الَّذي تقدَّم، وإنَّما من أسباب هلاك هؤلاء الَّذين اتَّبعوا الأنبياء فليست الأمم الكافرة، من أسباب أو أكثر أسباب هلاك هؤلاء الَّذين اتَّبعوا الأنبياء ((كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)).

فالفاء هنا تعليل؛ تعليلٌ لأيِّ شيء؟ لشيءٍ محذوف، ما تقديره؟ تقديره: ولا تُكثروا السُّؤال فتهلكوا فإنَّما أهلك.

وأمَّا الفاء الثَّانية الَّتي في ((فَإِنَّمَا)) هذه هي الواقعة في جواب أمر مقدَّر، وعلى هذا فقد بيَّن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ورسم الأمر بغاية الوضوح على أنَّ أكثر ما يُهلك أتباع الأنبياء مع تسليمهم لهم واتِّباعهم لهم على التَّوحيد أنَّ أكثر ما يُهلكهم -عياذًا بالله- كثرة المسائل وكثرة الاختلاف، وعلى هذا فإنَّ المسلم لا ينبغي له أن يكون على هذه الحال.

وقد جاء التَّحذير من كثرة الاختلاف في نصوصٍ كثيرة، في كتاب الله -تبارك وتعالى- نهى عن الاختلاف والتَّفرُّق مع وجوده لأنَّه أمرٌ كوني مقدَّرٌ من جهةِ التَّقدير الكوني لا أنَّه مطلوب شرعًا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[239] لكن جاء التَّحذير منه في نصوص الكتاب والسُّنة، جاء التَّحذير منه في كلام أئمَّة السَّلف -رحمهم الله تعالى-.

وسنرجع إلى الفرق بين المنهي والمأمور.

---

[239] سورة هود: 118-119

وقد جاء في الصَّحيحين من حديث النُّعمان بن بشير أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: **((لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ))**[240] فاختلافهم حتَّى في تسوية صفوفهم من الأسباب الَّتي تُودعهم في الهلاك -عياذًا بالله-، فالمسلم يكون حذرًا في هذه الجوانب.

و (كثرة المسائل) هي: الأُغلوطات، الَّتي يذكرها كثير من أئمَّة السَّلف ويُعبِّرون عنها بـ:"الأغلوطات"، أو أيضًا يدخل فيها ما لا وُقوع له ولا حُصول وإنَّما يكون من باب التَّنطُّع أو من باب افتراض المسائل.

فالمسلم يعمل بالأمر بامتثاله ويترك المنهي عنه، وإن احتاج إلى ما يسأل عنه في دينه فإنَّه يسألها أو يسأل عنه، فإذا كثُرت الأسئلة كان سببًا للهلاك -عياذًا بالله-.
حذَّر النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام من كثرة هذه المسائل الَّتي لا يُحتاج إليها في أمور الدِّين، وضرب لذلك مثلًا بالأُمم السَّابقة، وجاء سياق هذا الحديث في سؤال الرَّجل عن الحج هل هو مفروض لمرَّة واحدة أو لمرَّتين أو لأكثر من ذلك، لأنَّ العرب تفهم أنَّ المأمور به يقع إذا لم يكن ثمَّة قرينة بمرَّة واحدة، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ذكر هذا الحديث في سياق النَّهي عن هذه المسألة فحذَّرهم صلَّى الله عليه وسلَّم من هذا، وجاء أيضًا في حديث سعد بن أبي وقَّاص أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ))**[241]، وقد قال الله -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾[242] فالمسلم لا يتكلَّف المسائل الَّتي لا يحتاج إليها أو يفترض المسائل: (وكيف إذا وقع؟ وكيف إذا قيل؟ وكيف إذا؟ وكيف إذا؟) فإنَّ هذا من جنسِ المنهيِّ عنه.

---

[240] متفقٌ عليه.
[241] متفق عليه، واللفظ للبخاري.
[242] سورة المائدة: 101-102

❀ اختلف العلماء -رحمهم الله تعالى- في مسألة التَّفضيل بين المَنْهي عنه والمأمور به:

_ ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وابن القيِّم إلى أنَّ جنس فعل الواجبات أفضل من جنس ترك المحرَّمات.

_ وقال الإمام أحمد -رحمه الله- إنَّ النَّهي أشدُّ من الأمر، قال إسماعيل الأنصاري: (إنَّ النَّهِي أَشَدَّ مِنَ الأَمْرِ لِأَنَّ النَّهي لَمْ يُرَخَّص فِي ارْتِكَابِ شَيء مِنْهُ، وَالأَمْر قُيِّدَ بِالاسْتِطَاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَعْمَالُ البِرِّ يَعْمَلُهَا البار والفاجِرُ، وَالْمَعَاصي لَا يَتْرُكُهَا إِلَّا صِدِّيق)[243].

❀ وَمِن فوائد هذا الحديث:

_ أنَّ المسلم إذا انشغل بترك المنهيِّ وفعل المأمور فإنَّ هذا يُبعده ويشغله عن المسائل الَّتي لا حاجة له فيها؛ كما قرَّر ذلك الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-.

_ ومن فوائد هذا الحديث -لأنَّ فيه فوائد أُصولية وقواعد فقهية-: أنَّ العجز عن فعل المأمور يُسقطه أو يُسقط ما يُعْجَز عنه.

وَلَيْسَ وَاجِبٌ بِلَا اقْتِدَارِ   وَلَا مُحَرَّمٌ مَعَ اضْطِرَارِ

فالواجب إذا عجز عنه الإنسان فإنَّه إمَّا أن يسقط عنه كلَّه إذا كان لا يستطيعه، وإمَّا أنَّه يسقط عنه ما لا يقدر عليه، النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال كما في البخاري من حديث عمران بن حُصين: ((**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**))[244] معنى هذا أنَّ من عجز عن القيام واستطاع السُّجود واستطاع الرُّكوع فإنَّه إنَّما يسقط عنه القيام

[243] "التحفة الربانية في شرح الأربعين حديثا النووية" لإسماعيل بن محمد الأنصاري رحمه الله، ص31
[244] رواه البخاري

القيام ولا يسقط عنه الرُّكوع ولا يسقط عنه السُّجود ولا يسقط عنه الأفعال الأخرى الَّتي يستطيع القيام بها، هذا ظاهر ما دلَّ عليه هذا الحديث.

_ من أهل العلم -رحمهم الله- من حصر أُصول المسائل المنهيّ عنها -كما يُشير إليه كلام الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:

- بأنَّه يدخل فيه النَّهي عن سؤاله عن أمور دُنيويَّة كسؤاله عن الإبل الضَّالة كما سأله ذاك الرَّجل: (أَيْنَ نَاقَتِي؟)[245].
- وكذلك الثَّاني: سُؤاله عليه الصَّلاة والسَّلام عن شيءٍ يكون سببًا لإعنات الأمَّة.

أمَّا ما فيه فائدة فلا يُمنع منه.

هذا كما قلتُ لك آنفًا ظاهرُ ما دلَّ عليه الحديث الَّذي ذكره الحافظ النَّووي -رحمه الله-.

* ونُركِّز على هذا الجانب: على أنَّ المسلم ينبغي له أن يحرص على فعل المأمور وعلى ترك المنهيّ عنه فإنَّ في هذا من الشُّغل ما يمنعه عن مخالفة أمر الله وأمر رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، وقد قال الإمام الشَّافعي -رحمه الله تعالى-: (نَفْسكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْخَيْرِ شَغَلَتْكَ بِالشَّرِّ) وكان ينقل هذا عن الصُّوفية ويقول: (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَتْهَا الصُّوفِيَّة: نَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْخَيْرِ شَغَلَتْكَ بِالشَّرِّ)[246].

---

245 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتِهْزَاءً فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ: أَيْنَ نَاقَتِي؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْ الْآيَةِ كُلِّهَا) رواه البخاري.

246 وقفتُ عليه -عند ابن القيِّم رحمه الله- بلفظ: (قَالَ الشَّافعيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: صَحِبْتُ الصُّوفيَّة فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْهُمْ سِوَى حَرْفَيْنِ، أَحَدُهُمَا قَوْلُهُمْ: الوَقْتُ كَالسَّيْفِ فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ، وَذَكَرَ الكَلِمَةَ الأُخْرَى: وَنَفْسَكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالحَقِّ وَإِلَّا شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ) ["الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشافي" ص180].

۞ الحديث العاشر ۞

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«أَيُّهَا النَّاس إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ، أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

هذا الحديث -كما ذكر المصنِّف رحمه الله تعالى- رواه مسلمٌ في صحيحه، وأعلَّه بعض أهل العلم من الأئمَّة؛ إلَّا أنَّ هذا الإعلال لم يُسلَّم لهم.

❋ وهذا الحديث من الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام كما في كتاب "المُعين"؛ لأنَّ فيه من الفوائد والقواعد في معرفة الحلال والحرام الشَّيء الكثير.

قوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((أَيُّهَا النَّاسُ)) هذا الأسلوب -أسلوب النِّداء- من الأساليب الَّتي استعملتها العرب قديمًا، وجاءت في القرآن وفي السُّنَّة بكثرة؛ لأنَّ المراد منها التَّنبيه على ما يُلقى على السَّامع فإنَّه يُصغي إلى ما يُلقى إليه.

❋ فقال: ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ))

_ ذكر طوائفُ من أهل العلم أنَّ من أسمائه -تبارك وتعالى- «الطَّيِّب» وهذا الَّذي مشى عليه شيخنا العلَّامة زيد المدخلي -حفظه الله تعالى- في نظمه؛ فقال:

ثُمَّ السَّمِيعُ والعَظِيمُ الطَّيِّبُ ... نُصُوصُهَا ثَابِتَة لَا تُغْلَبُ

وهكذا عدَّه العلَّامة ابن عثيمين -رحمه الله- في سرده للأسماء الحسنى في كتابه "القواعد المثلى".

_ ومن أهل العلم من يرى أنَّه من قَبيل الوصف، كما هو ظاهر صَنيع شيخنا العلَّامة صالح بن فوزان الفوزان -حفظه الله تعالى-.

- والأمر في هذا يسير، والَّذي عليه أكثرُ أهل العلم أنَّه من الأسماء، وهكذا شيخنا مُقبل -عليه رحمة الله- ذكره في الأسماء.

هنا قال: ((إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ)) ما معنى ((طيِّب))؟

_ معناه أنَّه -تبارك وتعالى- مُنزَّهٌ عن النَّقائص والعُيوب، فهو طيِّبٌ -تبارك وتعالى- في ذاته، وطيِّبٌ في أسمائه، وطيِّبٌ في صِفاته، وطيِّبٌ في أوامره، وطيِّبٌ في نواهيه، وطيِّبٌ في قضائِه وقدره، وطيِّبٌ في شرعه -جلَّ وعلا-، فهو طيِّبٌ من كلِّ الوجوه سُبحانه، ولهذا لا يَقبل من الأعمال إلَّا ما كان طيِّبًا ليس فيه نقصٌ، وليس فيه دخن، كما جاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام في صحيح مسلم أنَّه قال: ((**قَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ،**

مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))[247]، وكذلك جاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام في سنن النَّسائي[248] أنَّه قال: **((إنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إلَّا مَا كَانَ خَالِصًا، وَابتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ))**[249].

وهنا قوله: ((إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا)) لا يقبل إلَّا طيِّبًا من جهة الإخلاص فيه، بمعنى أنَّ العبد ينظر إلى الباعث له على الفعل، وأيضًا من جهة ما يتقرَّب به إلى الله -تبارك وتعالى- فإنَّ الله كما أخبر في كتابه الكريم؛ قال:﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[250] فهو -تبارك وتعالى- لا يقبل إلَّا العمل الطيِّب، لا يقبل إلَّا الكلام الطيِّب، لا يقبل من الصَّدقات أيضًا إلَّا ما كان طيِّبًا، لا يقبل من النَّفقات أو الزَّكوات إلَّا ما كان طيِّبًا، ولهذا نهى عن تيمُّم الخبيث وإنفاقه فقال -جلَّ وعلا-:﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾[251] ومن أشدِّ الخبائث: الميتة، والخمر، والخنزير، هذه خبيثة في نفسها، أو كان خبيثًا في كسبه كـ: الرِّبا، والرِّشوة، والقمار، ومهر البغي، -وأوجه الحرام-.

❀ فهذا الخبيث:

_ إمَّا أن يكون خبيثًا من جهة الذَّات.

_ وإمَّا أن يكون خبيثًا من جهة الوسيلة أو الكسب.

والمسلم يبتعد عن هذا كلِّه، فلا يتقرَّب إلى الله -تبارك وتعالى- بالخبيث لا في ذاته ولا يتقرَّب إليه بالخبيث الَّذي هو من جهة وسيلته.

فعرفنا أنَّ الله -تبارك وتعالى- لا يقبل إلَّا الطَّيِّب، بمعنى أنَّه لا يُحبُّ إلَّا الطَّيِّب ولا يُثيبُ إلَّا على الطَّيِّب.

---

[247] رواه مسلم، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.
[248] "سنن النَّسائي الصغرى" رقم: (3142)، ص432.
[249] قال الألباني رحمه الله: حسن صحيح.
[250] سورة فاطر: 10
[251] سورة البقرة: 267

وقد مرَّ معنا -أو هذا كان في شرح العُمدة معذرة- في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ))[252] أنَّ القبول إمَّا أن يتوجَّه إلى نفي الشَّيء، وإمَّا أن يتوجَّه مع المطالبة به، وإمَّا أن يتوجَّه إلى الشَّيء مع عدم المُطالبة به، -على تفاصيل عند أهل العلم معروفة-.

* والعمل لماذا لا يُقبل؟

_ إمَّا لأنَّه لا تتوفَّر فيه شروطه.

_ وإمَّا لوجود الموانع الَّتي تتعلَّق بردِّه.

فهنا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا)) وفي هذا حرص المسلم على أنَّه يتقرَّب إلى الله بالطَّيِّب وإن كان قليلًا، ولا يكون همُّه كثرة الشَّيء وإن كان فيه خلطٌ وخبطٌ وخُبثٌ -عياذًا بالله-، بل يحرص على أن يتقرَّب إلى الله -تبارك وتعالى- بالشَّيء الطَّيِّب.

ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال بعد هذا -بعد أن قال ((إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا))-: ((وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ)) هذا في جهاتٍ مختلفة وإلَّا فإنَّ الأنبياء قد يختصُّون ببعض الأشياء، وهناك مبحثٌ في مباحث كتب الفقه وكتب الحديث يَعرض له العلماء وهو "خصائص النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم"، وغالب ما يذكره الفقهاء يذكرونه في "كتاب النِّكاح" فإذا شرعوا في "كتاب النِّكاح" ذكروا مسائل الخصائص وما يتعلَّق بها -يعني من جهة خصائص النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم-، وإلَّا فإنَّ الأصل أنَّ الأمر إذا جاء عن الرَّبِّ -تبارك وتعالى- فإنَّه يعمُّ النَّبي الَّذي أُمر به ويعمُّ أمَّته إلَّا ما دلَّ عليه الدَّليل، ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ)) وبيَّن أنَّ هذا ليس في كلِّ شيء بالمثال؛ فقال:﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[253] يعني أنَّه أمرهم بأن يأكلوا من الطَّيِّبات وكذلك أمر المؤمنين، وأمرهم بأن يعملوا الصَّالحات وذلك أمر المؤمنين.

[252] متفق عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ للبخاري].
[253] سورة المؤمنون: 51

﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ والطَّيِّبات المراد بها الحلال الطَّيِّب كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[254] فالحلال الطَّيِّب هو الَّذي يحرص عليه المسلم.

وهنا قال:﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ ثمَّ بيَّن بعد ذلك:﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فلا يَخشى المسلم أو الإنسان أن يَضِيع له عملٌ لأنَّ الله -تبارك وتعالى- عليمٌ بجميع أعماله، وأنَّ الله -تبارك وتعالى- يُحصيها له ويُوفِّيه أجرها.

وقال في حقِّ المؤمنين:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[255] ثمَّ قال:﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾[256].

ثمَّ إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذكر الرَّجل على سبيل المثال أو سبيل الجنس، ليس أنَّه رجلٌ واحدٌ مخصوصٌ بهذا الأمر، وإنَّما كلُّ من انطبق عليه هذا المعنى أو هذا الوصف، ما حاله؟ قال: ((ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ)) يعني أنَّ هذه حالته، ذكر هذه الأوصاف الَّتي هي من مُوجبات إجابة الدُّعاء، وأنَّ حالته أنَّه: ((يُطِيلُ السَّفَرَ)) وأنَّه: ((أَشْعَثَ)) وأنَّه: ((أَغْبَرَ)) وأنَّه: ((يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ)) وأنَّه يدعو الله ولا يدعو غيره ويقول: ((يَا رَبِّ! يَا رَبِّ!)) وهذه الأسباب الَّتي ذكرها نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام من أكثر الأسباب الجالبة لإجابة الدُّعاء، لاحظ:

_ أوَّلًا المسافر، فإنَّه قال: ((ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ)) ليس في مجرَّد سفر؛ لأنَّ السَّفر -كما جاء في الصَّحيحين-: ((**قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ**))[257] لحديث أبي هريرة، والإنسان إذا استشعر العذاب واستشعر الآلام فإنَّه يكون أشدَّ تعلُّقًا بالله -تبارك وتعالى-، والسَّفر يكون فيه الإنسان بعيدًا عن أهله وعن وطنه فيكون قلبه منكسرًا، ذليلًا، خاضعًا، وهذا ممَّا تُرجَّح

[254] سورة الأعراف: 157
[255] سورة البقرة: 172
[256] سورة البقرة: 172
[257] متفق عليه؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

عنده الإجابة، فإطالة السَّفر أو السَّفر عُمومًا من الأسباب الجالبة لإجابة الدُّعاء كما صحَّ عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ**))[258] ذكر المسافر.

_ ومع كونه أيضًا قد قطع المسافات وأطال السَّفر إلَّا أنَّه كذلك قام فيه وصفٌ آخر، ما هو هذا الوصف؟ هو أنَّه: ((أَشْعَث)) والشَّعث ثوران الرَّأس، يعني أنَّ رأسه ثائر.

_ وأيضًا من أوصافه الَّتي ذكرها أنَّه: ((أَغْبَر)) والأغبر هو المتغيِّر اللَّون لطول السَّفر، قد مرَّ معنا في حديث جبريل أنَّه قال: ((شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ)) فالسَّفر يُغيِّر من معالم صاحبه، وخصوصًا الأسفار الَّتي كانت قديمًا، فهو أغبر مُتغيِّر اللَّون.

_ وكونه أشعث وأغبر وأطال السَّفر؛ أيضًا عمِل بسببٍ آخر من الأسباب الَّتي تُجاب معها الدَّعوات: وهو رفع اليدين، لأنَّه قد تواتر عنه عليه الصَّلاة والسَّلام -تواتُرًا معنويًّا- رفعُ اليدين حال الدُّعاء -إلَّا في المواطن الَّتي لم يأتِ فيها رفع اليدين-.

_ وفوق هذا وهذا فإنَّه لم يتوجَّه بالدُّعاء إلَّا إلى الله ولم يجعل بينه وبين الله -تبارك وتعالى- واسطة، بل إنَّه دعا الله -تبارك وتعالى- بالاسم الَّذي جاء أكثر دُعاء الأنبياء عليه؛ فقال: ((يَا رَبِّ! يَا رَبِّ!)) فهو يدعو الله -جلَّ وعلا- ويسأل الله -تبارك وتعالى- لا يسأل غيره.

إلَّا أنَّه لا يُستجاب له، ولذلك قال: ((فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!)).

((فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ!)) استبعاد أن يُستجاب له، لماذا؟

_ وفي قوله أيضًا: ((يَا رَبِّ! يَا رَبِّ!)) هذا نوعٌ من الإلحاح في الدُّعاء ليس مجرَّد دعاء، بل فيه إلحاح بالدُّعاء، ومع هذا قال: ((فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!)) يعني: كيف يُستجاب؟ لأنَّ الفاء هنا استئنافيَّة، و (أنَّى) هذه اسم استفهام تأتي بمعنى: (كيف)، يعني: كيف يُستجاب لذلك؟!

ويحتمل أن تكون ظرفًا، لكن الصَّواب أنَّها بمعنى: كيف يُستجاب لذلك؟

258 ((ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الوَالِدِ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ)) [حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب"؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه]

فانتبه يا أخي -بارك الله فيك- إلى هذه المعاني، فإنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال بعد أن ذكر المعالِم الَّتي يقع بها إجابة الدُّعاء؛ قال: ((ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ، أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ)) يعني أنَّ طعامه الَّذي يطعمه وغذاءه الَّذي يتغذَّى به حرام.

((وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ)) أي أنَّ الَّذي يشربه مِنَ الحرام، إمَّا لذاته كالخمر، وإمَّا -كما ذكرتُ لك آنفًا- وإمَّا لوسيلته.

ثمَّ ذكر بعد ذلك أيضًا: ((وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ)) فلُبسه الَّذي يلبسه حرام، إمَّا في ذاته كالحرير، وإمَّا لوسيلته بأن يأكل الرِّبا أو الرِّشوة -وما أشبه ذلك-.

ثمَّ عمَّمَ وقال: ((وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!))، ((غُذِيَ بِالْحَرَامِ)) هكذا تُضبط بالتَّخفيف، على ما جاء في الرِّوايات، وعلى ما قرَّره أيضًا عُلماء اللُّغة، فإنَّها تُضبطُ بتخفيفها: ((وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ)).

❋ فإن قُلتَ: إذا أخذ الإنسان مالًا حرامًا ثمَّ تاب إلى الله وأراد أن يردَّه إلى صاحبه فلم يجده؛ فما العمل في مثل هذا؟

ذهب ابن عقيل من الحنابلة -المتقدِّم يعني- وابن القيِّم إلى أنَّ من أخذ مالًا حرامًا ثمَّ تصدَّق به عن صاحبه بعد أن بحث عنه فلم يجده أنَّه يُؤجر على ذلك لأنَّه قد طلبه فلم يجده ولم يأخذ هذا المال الَّذي تحصَّل عليه من قِبَل بالحرام، وهذا هو الواجب عليه أن يردَّه، فإن لم يجده فإنَّه يتصدَّق به على صاحبه، وكلُّ من أخذ مالًا أو شيئًا فإنَّه يجب عليه ردُّه ولا يجوز له أن يتمادى في أخذه.

فوائد هذا الحديث فوق ما تقرَّر أو نحو ما تقرَّر، كثيرة:

_ منها: أنَّ المسلم لا يصف الله -تبارك وتعالى- إلَّا بأعظم الأوصاف وأجلِّها وأكملها، ولذلك وصف ربَّه وصفًا عامًّا فقال: ((إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ)).

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الله -تبارك وتعالى- مُنزَّهٌ عن النَّقائص والعُيوب.

_ ومن فوائده: أنَّ الله -تبارك وتعالى- لا يُتقرَّب إليه إلَّا بمحابِّه ومراضيه -وهي الأعمال الصَّالحة-، لأنَّه لا يقبل إلَّا الطَّيِّب من الأعمال.

_ ومنها: أنَّ الدُّعاء له شروط وله موانع، فيتعلَّم المسلم شُروط إجابة الدُّعاء وموانعه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ السَّفر والشَّعث والغبرة من أسباب إجابة الدُّعاء، وكذلك الإلحاح في الدُّعاء.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام يَستوُون مع أُمَمهم في الخِطاب الشَّرعيِّ إلَّا ما دلَّ الدَّليل عليه.

_ ومنها أيضًا: أنَّ من تصدَّق بحرامٍ فإنَّ الله -تبارك وتعالى- لا يقبله منه.

❀ ومن باب الفائدة: قد نظم بعض أهل العلم -كما ذكر بعض الشُّراح- نظموا آداب الدُّعاء وشروطه:

قَالُوا شُرُوط الدُّعَاءِ المُسْتَجَابِ لَنَا ... عَشْرٌ بِهَا بُشِّرِ الدَّاعِي بِإفْلَاحِ
طَهَارَةٌ وَصَلَاةٌ مَعْهُمَا نَدَمٌ ... وَقْتُ خُشُوعٍ وَحُسْنُ ظَنٍّ يَا صَاحِ
وَحِلُّ قُوتٍ وَلَا يُدْعَى بِمَعْصِيَةٍ ... وَاسْمٌ يُنَاسِبُ مَقْرُونٌ بِإلْحَاحِ

المسلم يحرص على معرفة هذه الأُمور.

_ ومن فوائده أيضًا -الَّتي نسيتُها-: إثبات علوِّ الله -تبارك وتعالى- على خلقه، لأنَّ رفعه اليدين في الدُّعاء دليلٌ على علوِّ الرَّبِّ -جلَّ في علاه-.

وهذا الحديث حديثٌ عظيمٌ جليلُ القدر.

۞ الحديث الحادي عشر ۞

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -سِبْطِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَيْحَانَتِهِ، رضي اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، والنَّسَائِيُّ، وقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

هذا الحديث أصلٌ في باب الزُّهد والورع -كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى بيانُ ذلك-، وهو راجعٌ إلى حديث النُّعمان بن بشير المتقدِّم والَّذي فيه: ((فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ)) كما نصَّ على ذلك النَّووي نفسه -المصنِّف-، وابن المُلقِّن أيضًا في شرحه، والفاكهاني في شرحه، ويُشير إلى ذلك أيضًا حافظ ابن رجب في شرحه، فهذا الحديث راجعٌ إلى حديث: ((إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ)).

وقول المصنِّف -رحمه الله تعالى- هنا -لأنَّه ابتدأ بشيءٍ من التَّعريف ببعض ألقاب الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه-، فكنَّاه بكنيته، ويُكنى بأبي محمَّد، فقال:[عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ] وهذه كُنيته رضي الله عنه، وهذا نسبه.

وقوله هنا:[سِبْطِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] السِّبط: يُقال لابن البنت، كما يُقال لابن الابن: حفيد.

فالسِّبط هو ابن البنت، هذا ما تعرفه العرب في لُغتها، لأنَّ الحسن رضي الله عنه -كما هو معلومٌ- ابن فاطمة بنت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقول المصنِّف -رحمه الله تعالى- هنا:[وَرَيْحَانَتِهِ] هذا وصفٌ آخر للحسن رضي الله عنه وأرضاه، مأخوذٌ من قول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيه وفي أخيه الحُسَين بن علي: ((**هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا**))[259] والرَّيحانة نوعٌ من النَّبات طيِّب الرَّائحة، فهذا وصفٌ للحسن رضي الله عنه ولأخيه لأنَّهما طيِّبان -رضي الله عنهما وأرضاهما-، فهما طيِّبان في النَّسب وطيِّبان في الدِّين رضوان الله عليهما.

✽ والحسن هذا هو الَّذي قال فيه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم فيما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي بكرة: ((**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ**))[260] وقد كان كما وصف النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فقد تنازل بالخلافة لمعاوية رضي الله عنهم جميعًا، وحُقن بذلك دماء المسلمين وانتشرت الرَّحمة والأُلفة بعد ذلك.

هذا بالنِّسبة لراوي هذا الحديث وهو الحسن بن علي ابن أبي طالب.

وقوله هنا:[حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] هذا فيه بيان أنَّ العلم ما حُفظ، ولهذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم يتبارَوْن على هذا لحفظ حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، أتعلمون أنَّ أبا زيد عمرو بن أخطب رضي الله عنه -لمَّا حدَّث بالحديث الطَّويل الَّذي في صحيح مسلم- قال: (فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا)[261]، وكذلك البراء بن عازب لمَّا علَّمه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم دُعاء النَّوم قال: (فَرَدَّدْتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ)[262].

---

259 رواه البخاري.

260 رواه البخاري.

261 قال عَمْرو بْن أَخْطَب: (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَت الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ثُمَّ نَزَلَ، فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَت الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا) رواه مسلم.

262 عَنِ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ

وهكذا أبو هريرة رضي الله عنه كان يُلقَّب بحافظ الصَّحابة -رضي الله عنهم جميعًا- ودعا له النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم فكان لا ينسى شيئًا سمعهُ من رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقوله رضي الله عنه هنا:[حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] أي أنَّه تلقَّى ذلك منه، وعلَّمه إيَّاه الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقوله هنا: ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ)) هذا أمر، والأصل في الأمر المُطلق أن يكون للوجوب، لكن لم أر فيم وقفتُ عليه أحدًا من العلماء نصَّ على أنَّ هذا الحديث يدلُّ على الوجوب في مثل هذا المقام، بل قال الفاكهاني: (الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا أَمْرُ نَدْبٍ وَإِرْشَادٍ وَحَضٍّ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ بِالتَّوَرُّعِ عَنِ الشُّبُهَاتِ، لَا أَمْرِ إِيجَابٍ وَفَرْضٍ بِحَيْثُ يَكُونُ مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ عَاصِيًّا آثِمًا، كَيْفَ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ السَّادِسِ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ**» الْحَدِيث؛ فَكَانَتِ الشُّبُهَاتُ غَيْرَ الْحَرَامِ)[263] وهذا الحديث مثل ذاك الحديث؛ فلا قائل بالوجوب.

وهذا الحديث قال فيه نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام -كما أسلفنا قبل قليل-: ((دَعْ)) وهذا فعلُ أمر، ((مَا)) هنا اسمٌ موصول بمعنى الَّذي.

وقوله: ((يَرِيبُكَ)) هكذا ضُبطت على الأشهر والأفصح -بفتح الياء-، ويصحّ فيها الضَّم: ((دَعْ مَا يُرِيبُكَ)) -ضمّ الياء-، لكن الأشهر هو الأوَّل.

((دَعْ مَا يَرِيبُكَ)) ما يريبك: هذا من الرَّيب، والرَّيب فسَّره طوائف من أهل العلم بالشَّك، لكن أبدى شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- اعتراضًا على هذا التَّعريف في تفسير قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾[264] -وما في نحوه- بأنَّ الرَّيب أخصُّ من الشَّك:

آخرِ كَلَامِكَ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ) قَالَ: فَرَدَّدْتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: (قُلْ: آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ) [متَّفق عليه؛ واللفظ لمسلم]

[263] "المنهج المبين في شرح الأربعين" للفاكهاني رحمه الله؛ ص290.

[264] سورة البقرة:2

_ فإنَّ الشَّك تردُّد بين أمرين.

_ وأمَّا الرَّيب فإنَّه اضطرابٌ وحركة.

ولهذا يُكرِّر شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- هذا المعنى كما في كتابه "مُقدِّمة في أصول التَّفسير" فيعترض على من فسَّر الرَّيب بأنَّه شكّ مُطلق، بل الصَّواب أنَّه نوعٌ من الشَّك الَّذي فيه اضطرابٌ وحركة، ويَستأنس -رحمه الله تعالى- بما رُوِيَ أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام مرَّ بظبيٍ حَاقف -أي جالسٍ- فقال: ((لَا يُرِيبهُ أَحَدٌ))[265] يعني: لا تُحرِّكوه، فهذا معنى الرَّيب؛ فهو نوعٌ من الاضطراب والحركة، بمعنى أنَّ الإنسان يقلق ويتردَّد عند حصول هذا الأمر في نفسه.

وقوله هنا: ((إِلَى)) هذا الحرف حرف الانتهاء، يعني لا ينتهي به الأمر في ترك الرَّيب حتَّى يصل إلى ما لا يَريبه، فلمَّا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((إِلَى)) فإنَّ الرَّيب الأوَّل لا ينقضي عن الإنسان ولا يندفع حتَّى يعمل بما لا ريب فيه، ولهذا قال هنا: ((إِلَى مَا)) وهذه مثل الَّتي قبلها؛ بمعنى: الَّذي، ((إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ)) فإذا وصل الإنسان إلى الأمر الَّذي لا يريبه فإنَّه قد وصل إلى الحال الَّتي يقع فيها اطمئنان النَّفس.

هذا الحديث قال فيه المصنِّف -رحمه الله-:[رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ] وقد صحَّحه جمعٌ من الأئمَّة -رحمهم الله- من المتقدِّمين والمتأخِّرين، وإن كان أبو محمَّد بن حزم يُضعِّف هذا الحديث؛ لكن ليس فيما قاله أبو محمَّد بن حزم من تحقيق، بل الصَّواب أنَّه حديثٌ صحيح، وكذلك جاء تضعيفه عن ابن حبَّان -رحمه الله- صاحب الصَّحيح، ابن حبَّان أيضًا يميل إلى تضعيف هذا الحديث.

فوائد الحديث[266]:

[265] "مجموع فتاوى ابن تيمية" ج5، ص338.

[266] الجملة من إضافتي.

_ هذا الحديث أصلٌ في باب الزُّهد والورع؛ وبهذا ينبغي أن يُستعمل التَّعبير لا كما يقول طوائف بأنَّه علم السُّلوك أو علم التَّصوُّف، بل الَّذي جرى عليه عمل المصنِّفين من الأئمَّة المتقدِّمين أنَّهم يجعلون هذا الباب "باب الورع" فيقولون: (الورع)، ويقولون: (الزُّهد)، ولا يَعرفون التَّصوُّف أو ما يُسمَّى بعلم السُّلوك.

وهذا الحديث -كما قلتُ لك قبل قليل- هو أصلٌ من أُصول هذا العلم، أصلٌ فيه، يعني أنَّ هذا الحديث أصلٌ من أُصول باب الورع وباب الزُّهد في الدُّنيا واتِّقاء مواطن الشُّبهات، لهذا جاء عن حسَّان ابن أبي سِنان أنَّه قال: (مَا شَيْءٌ أَهْوَنُ مِنَ الْوَرَعِ، إِذَا رَابَكَ شَيْءٌ فَدَعْهُ)[267] ولهذا علَّق الحافظ ابن رجب على قول حسَّان ابن أبي سنان بقوله: (وَهَذَا إِنَّمَا يَسْهُلُ عَلَى مِثْلِ حَسَّانَ رَحِمَهُ اللهُ)[268]، ولكن قد قال الفُضيل بن عياض: (يَزْعُمُ النَّاسُ أَنَّ الْوَرَعَ شَدِيدٌ، وَمَا وَرَدَ عَلَيَّ أَمْرَانِ إِلَّا أَخَذْتُ بِأَشَدِّهِمَا، فَدَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ)[269].

فالمسلم إذا اشتبهت عليه الأمور واختلطت عليه الأوراق ولم يتميَّز له حُكم المسألة فإنَّه يأخذ بالاحتياط ولا يُغامر بدينه ولا يُجازف فيه، لأنَّه لا طُمأنينة للإنسان المسلم إلَّا بترك مواطن الرِّيب، فإذا ترك ما فيه ريبة ارتاحت نفسه وسلمت من القلق وهو الاضطراب والارتباك في أموره فيظلُّ ذلك يحزُّ في نفسه ويوقع فيها أنواعًا من الرِّيبة.

_ وكذلك أنَّ هذه المنزلة ينالها أهل الصِّدق في الاستقامة وطاعة الله -تبارك وتعالى- لأنَّها ضربٌ من المجاهدة؛ ويُؤخذ هذا من قوله: ((دَعْ)) لأنَّ ترك الإنسان للشَّيء -وربَّما تكون نفسه راغبةٌ فيه- هذا يحتاج إلى نوعٍ من المجاهدة.

_ فهذا الحديث أيضًا فيه مُجاهدة النَّفس على ترك المألوف أو على ترك المرغوب فيه وترك ما يتردَّد في النَّفس -كما سيأتي معنا أيضًا في حديثٍ آخر مُناسبٍ له-.

267 "جامع العلوم والحِكم" ص:262
268 "جامع العلوم والحِكم" ص:262
269 "جامع العلوم والحِكم" ص:262

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ النَّفس إنَّما تسكن وتستريح بفعل ما فيه سلامةٌ في الدِّين.

فَمَــا آمِـنٌ فِـي دِينِـهِ كَمُخَـاطِـرِ

ولكن ينبغي أن يُعلم أنَّ هذه المنزلة تحتاج إلى علم، فربَّما يترك الإنسان واجبًا من الواجبات بسبب الجهل يظنُّ بأنَّ هذا من الورع أو من الزُّهد، فلابُدَّ من العلم في مثل هذا المقام، وربَّما اختلطت عليه الأمور فأنزل الوسوسة الَّتي تقع في نفوس كثيرٍ من النَّاس هذه المنزلة، وقد جاء عن الإمام أحمد -رحمه الله- فيما ذكره عنه المرُّودي وأبو طالب وأبو حامد أنَّه قال: (إِذَا تَـرَكَ الرَّجُلُ فِي تَرِكَتِهِ مَالًا فِيهِ شُبْهَةٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ) لم يقل: (فيه حرام) قال: (فِيهِ شُبْهَةٌ وَعَلَيْهِ دَيْـنٌ) ونحن نعلم أنَّ من الواجبات الَّتي تتعلَّق بعين التَّركة: قضاء الدَّين، فإذا ترك مالًا فيه نـوعٌ مـن الشُّبهة هل يقول الوارث: (أنا لا أُعينه وأُسلِّم هذا الدَّين إلى صاحبه)؟ نقول: لا، بل قال الإمام أحمد وهذا ظاهر كلام شيخ الإسلام إنَّه قـد يتعـيَّن عليـه أن يُعطيـهم إيَّـاه أو يُمكِّـنهم مـن أخذه[270].

ويدخل في هذا الحديث مسائل كثيرة مُتعلِّقة بهذا الباب، قد ذكر الحافظ ابـن القـيِّم -رحمـه الله- المتعلِّقة بهذا الحديث ممَّا استعمل فيها قاعدة الاحتياط.

والإنسان إذا شكَّ في أمر فإنَّه يخلص منه ويعمد إلى ما لا شكَّ فيه وترتاح إليه النَّفـس، فـإذا شكَّ الإنسان في مالٍ واشتبه عليه أمره: هل هذا المال حلال أم حرام؟ هل مصـدره مـن وجـهٍ حلال أو وجهٍ حرام؟ فإنَّ هذا الورع تركه، والاحتياط تركه، وهو العمل بهذا الحديث.

وكذلك إذا اشتبه عليه طعامٌ من جهة حلِّه وحُرمته: هل هذا الطَّعام من جنس الحلال أم من جنس الحرام؟ فإنَّه يحتاط ويتركه.

---

[270] قَالَ شَيْخُ الإسلامِ ابن تَيْمية رَحِمَهُ اللهُ: (...يَقْتَضِي اتِّقَاءَ الشُّبُهَاتِ الَّتِي يشْتَبهُ فِيهَا الْحَلَالُ بِالْحَرَامِ، بِخلَاف مَا إذَا اشْتَبَهَ الوَاجِبُ أَوِ الْمُسْتَحَبُّ بِالْمَحْظُورِ؛ وَقَدْ ذَكَرَ ذَلكَ أَبُو طَالب المَكيّ وابْنُ حَامد، وَلِهَذَا سُئِلَ الإِمَامُ أَحْمَد عَنْ رَجُلٍ مَاتَ أَبُوهُ وَعَلَيْه دَيْنٌ وَلَهُ دُيُونٌ فيهَا شُبْهَةٌ، أَيَقْضِيهَا وَلَدُهُ؟ فَقَالَ: أَيَدَع ذِمَّةَ أَبِيه مَرْهُونَةً! وَهَذَا جَوَابٌ سَدِيدٌ، فَإِنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ وَاجِبٌ وَتَرْكُ الْوَاجِبِ سَبَبٌ لِلْعِقَابِ، فَلَا يتْرك لِمَا يحْتَمل أَنْ يَكُونَ فِيه عِقَابٌ وَيحتَمل أَن لا يَكُون) ["مجموع فتاوى ابن تيمية" لابن قاسم رحمـه الله؛ ج21، ص311]

❁ لكن -كما قلتُ في السَّابق- بأنَّ هذا يحتاج إلى نوعٍ من العلم، ولهذا قال الحافظ ابن القيِّم: (قَالَ شَيْخُنَا) -يعني ابن تيمية- (وَالِاحْتِيَاطُ حَسَنٌ مَا لَمْ يُفْضِ بِصَاحِبِهِ إِلَى مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ؛ فَإِذَا أَفْضَى إِلَى ذَلِكَ فَالاحْتِيَاطُ تَرْكُ هَذَا الاحْتِيَاطِ)[271] هذا ما قاله شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى وغفر له-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: تعليم الصِّغار والصِّبيان -أو الصُّبيان-، فإنَّهم ينبغي أن يُعلَّموا تعاليم الإسلام؛ لأنَّ الحسن رضي الله عنه وأرضاه كان صبيًّا حين علَّمه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم هذا الحديث، بل قال ابن حبَّان بأنَّه كان ابن ثمان سنين، ومن أسباب إعلال ابن حبَّان لهذا الحديث هذه العلَّة؛ أنَّه قال: (إنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيّ قُبِضَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِ سِنِينَ، فَكَيْفَ يُعَلِّمُ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَ ثَمَانِ سِنِينَ دُعَاءَ الْقُنُوتِ فِي الوِتْرِ وَيَتْرُك أُولِي الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا يَأْمُرهُمْ بِهِ؟!)[272] وهذا الحديث هو حديث تعليم القنوت في الوتر وفيه زيادة -يعني بعد قوله: ((دَعْ مَا...))-، يعني هو حديث الدُّعاء في القنوت ومع هذا أيضًا وقعت فيه زيادةٌ في هذا الحديث وهي قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فإنَّ الصِّدق طُمَأْنِينَةٌ وَالْكَذِب رِيبةٌ))[273] وجاء أيضًا في الرِّواية الأخرى عند ابن حبَّان: ((الْخَيْرُ طُمَأْنِينَةٌ وَالشَّرُّ رِيبةٌ))[274].

وقد جاء الحديث أيضًا عن جماعة من الصَّحابة رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

271 "إغاثة اللهفان" ص154

272 "البدر المنير" لابن الملقن رحمه الله؛ ج3، ص634.

273 صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

274 أخرجه ابن حبان في صحيحه (722)

الحديث الثاني عشر

عَـنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنْـهُ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّـــى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّــــمَ:

«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ

وكما هو بيِّنٌ بين يديك فإنَّ النَّوويَّ -رحمه الله تعالى- قد جزم بحُسن هذا الحديث.

وهذا الحديث من الأحاديث الَّتي انتُقدت على المصنِّف -رحمه الله تعالى-، على أنَّ جماعة مـن الأئمَّة نصُّوا على أنَّ هذا الحديث من الأحاديث الأربعة الَّتي عليها مدار الإسـلام كمـا قـرَّر ذلك ابن أبي زيدٍ القيرواني وغيره من الأئمَّة، حتَّى قال رحمه الله تعالى -يعـني ابـن أبي زيـد-: (جُمَّاعُ آدَابِ الْخَيْرِ وَأَزِمَّتُهُ تَتَفَرَّعُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ:

_ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يُـؤْمِنُ بِـاللهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ فَلْيَقُـلْ خَـيْرًا أَوْ لِيصْمُتْ**».

_ وقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**».

_ وقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لِلَّذِي اخْتَصَرَ لَهُ فِي الْوَصِيَّةِ-: «**لَا تَغْضَبْ**».

_ وقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمؤمِنُ يحِبُّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لنفْسِهِ**»)[275].

ولهذا قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: (هَذَا مِنَ الْكَلَامِ الْجَامِعِ لِلْمَعَـانِي الْكَـثِيرَةِ الْجَلِيلَـةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ؛ وَهُوَ مِمَّا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ)[276] هكذا قال أبو عمر بن عبد البر -رحمه الله-.

[275] "جامع العلوم والحِكم" ص270

[276] "قوت المغتذي على جامع الترمذي" للسيوطي رحمه الله؛ ج3، ص77.

وأمَّا الكثير من الأئمَّة كالإمام أحمد والبخاري وابن مَعين والدَّارقطني وغيرهم فإنَّهم جنحوا إلى ضعف هذا الحديث وقالوا بأنَّه حديثٌ أمْثَل طُرُقه الإرسال.

وأمَّا معناه فإنَّ المعنى منه ظاهرٌ وبيِّن.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مِنْ حُسْنِ)) هذه ((مِن)) التَّبعيضيَّة، يعني أنَّ حُسن الإسلام واقعٌ في أشياء كثيرة؛ ومن حُسن الإسلام الَّذي يقع عند المسلم أنَّ المسلم يترك ما لا يعنيه إلى ما يعنيه، فذكر هذا الشَّيء دون غيره.

❀ والحُسن أو الحسن ضدُّ القبيح، لأنَّ المراد به ما يُجمِّل الإنسان ويستر عيوبه، والإحسان للإسلام -كما ذكر الحافظ ابن رجب- يُفسَّر بمعنيين:

_ (أَحَدُهُمَا: بِإِكْمَالِ وَاجِبَاتِهِ، وَاجْتِنَابِ مُحَرَّمَاتِهِ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ الْمَرْوِيُّ فِي "السُّنَنِ": «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**») -وهذا الحديث هو الَّذي معنا هنا في هذا المقام- (فَكَمَالُ حُسْنِ إِسْلَامِهِ حِينَئِذٍ بِتَرْكِ مَا لَا يَعْنِيهِ، وَفِعْلِ مَا يَعْنِيهِ، وَمِنْهُ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي خَرَّجَاهُ فِي "الصَّحِيحَيْنِ" أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَنُؤَاخَذُ بِأَعْمَالِنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالَ: «**مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ**» فَإِنَّ الْمُرَادَ بِإِحْسَانِهِ فِي الْإِسْلَامِ فِعْلُ وَاجِبَاتِهِ وَالِانْتِهَاءُ عَنْ مُحَرَّمَاتِهِ)[277] هذا المعنى الأوَّل ممَّا ذكره الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-.

_ (وَالْمَعْنَى الثَّانِي مِمَّا يُفَسَّرُ بِهِ إِحْسَانُ الْإِسْلَامِ أَنْ تَقَعَ طَاعَاتُ الْمُسْلِمِ عَلَى أَكْمَلِ وُجُوهِهَا وَأَتَمِّهَا بِحَيْثُ يَسْتَحْضِرُ الْعَامِلُ فِي حَالِ عَمَلِهِ قُرْبَ اللَّهِ مِنْهُ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ، فَيَعْمَلُ لَهُ عَلَى الْمُرَاقَبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ لِرَبِّهِ بِقَلْبِهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ الْإِحْسَانَ فِي حَدِيثِ سُؤَالِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ)[278].

فإذًا لابدَّ من اجتماع الأمرين قدرًا من الاستطاعة بالنِّسبة للعبد.

---

[277] "فتح الباري" لابن رجب رحمه الله، ج1، ص141.
[278] "فتح الباري" لابن رجب رحمه الله، ج1، ص147.

والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم هنا قال: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)) والإسلام كما تعلمون إذَا أُطلق مفردًا دخل فيه الإيمان، كما أنَّ الإيمان إذا أُطلق مفردًا دخل فيه الإسلام، فالإسلام يدخل فيه الإيمان، فإنَّهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

وهنا قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَا لَا يَعْنِيهِ)) (ما) هنا اسمٌ موصولٌ بمعنى: الَّذي، و ((يَعْنِيهِ)) بفتح الياء، بمعنى: الاعتناء بالأمر، فإذا قصده وأراده فقد اعتنى به.

✿ وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة

لأنَّ ((مَا)) هنا ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)) ((مَا)) هنا اسمٌ موصول بمعنى: الَّذي، فتعمّ القول وتعمّ الفعل، تعمّ المعتقد، فإذَا ترك الإنسان ما لا يعنيه فقد أتى من أحسن أبواب الإسلام وأعظمها، وخصوصًا في أزمنة الفتن فإنَّه لا يدخل فيها بالأقوال الباطلة.

_ من فوائد هذا الحديث: أنَّ الإنسان ينبغي له أن يشغل نفسه بمواطن الخير الظَّاهرة والباطنة، ولهذا قال الشَّافعي -رحمه الله-: (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَتْهَا الصُّوفِيَّة: نَفْسَكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ وَإِلَّا شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ)[279].

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المسلم ينبغي له أن يعتنيَ بمعالي الأُمور وأعظمها، ويبتعد عن السَّفاسف والأمور الَّتي لا طائل من ورائها بل لا تأخذ عنه إلَّا دينه ودُنياه.

_ ومن فوائده: أنَّ الإنسان إذا ترَك ما لا يعنيه استراحت نفسه لأنَّه يقع في قلبه إحسانٌ للإسلام فيستريح بذلك.

[279] قال ابن القيِّم رحمه الله: (قَالَ الشَّافِعِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: صَحِبْتُ الصُّوفِيَّة فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْهُمْ سِوَى حَرْفَيْنِ، أَحَدُهُمَا قَوْلُهُمْ: الوَقْتُ كَالسَّيْفِ فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ، وَذَكَرَ الكَلِمَةَ الأُخْرى: وَنَفْسَكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالحَقِّ وَإِلَّا شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ) ["الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشافي" ص180]

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ العبد ينبغي له أن يحرص على اجتمـاع المحاسـن في ذاتـه، وأن لا يذهب وراء المساوئ الَّتي تقع فيه أو يقع فيها.

الحديث الثالث عشر

عَنْ أَبِي حَمْزَةَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي اللهُ عَنْهُ -خَادِمِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ:
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يحبُّ لنفْسِهِ».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

هذا الحديث حديث أنس بن مالك، ولقَّبه المصنِّف بـ:[خَادِمِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] وقد خدم النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام تسع سنين أو عشر سنين -رضي الله عنه وأرضاه-.

وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة الَّتي تُبيِّن حقوق المسلمين بعضهم على بعض، فإنَّ هذه الشَّريعة قد راعت هذه الحقوق وأنزلت المسلمين منزلة الشَّيء الواحد؛ فقد قال الله -تبارك وتعالى-:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[280] والمراد بأنفسكم هنا أن يقتل المسلم أخاه، وكذلك قال في بني إسرائيل:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وقال:﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾[281]، وقال في حقِّ المال:﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[282] وهذا يدلُّ على عظيم الحقِّ المُشترك بين المسلمين، ولهذا النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ**))[283] كما في الصَّحيحين[284].

---

[280] سورة النِّساء: 29
[281] سورة البقرة: 84
[282] سورة البقرة: 188
[283] عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)) [متَّفقٌ عليه، واللَّفظ لمسلم]

وهذا الحديث من الأحاديث المبيِّنة لعظيم هذا الأمر المتعلِّق بحقوق المسلمين مع بعضهم البعض، وهو من الأحاديث الَّتي يُطلق عليها بأحاديث الوعيد، وقد جرت عادة السَّلف -رحمهم الله- أنَّهم لا يتأوَّلون أحاديث الوعيد الَّتي فيها نفيُ الإيمان، فلا يتطرَّقون إليها بالتَّأويل، هذا مذهب جماعة من الأئمَّة المحقِّقين من أئمَّة السَّلف كأحمد وسفيان، وسمعتُ شيخنا العلَّامة ابن عقيل يُقرِّره ويُرجِّحه، وكذلك سمعتُ شيخنا العلامة الفوزان يُقرِّر ذلك ويُرجِّحه، لكن لمَّا تكلَّمت الخوارج والمعتزلة بعظيم الأمر بأنَّ كلَّ حديث جاء فيه نفيُ الإيمان فإنَّ المراد به نفي كلِّ الإيمان، جمع السَّلف بين النُّصوص وقرَّروا أنَّ مثل هذه الأحاديث إنَّما هي لنفي الإيمان المطلق الَّذي هو الكامل، لا لنفي مُطلق الإيمان الَّذي هو أصل الإيمان.

فالمراد هنا بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَا يُؤْمِنُ)) أي إيمانًا كاملًا، فالنَّفي مُتوجِّهٌ إلى كمال الإيمان لا إلى أصله، وهذا يُشبهُهُ أحاديث كثيرة كأحاديث البراءة: ((لَيْسَ مِنَّا)) من فعل كذا.

وهذا الحديث استدلَّ به طائفةٌ من أهل العلم -وبنظائره- كشيخ الإسلام أبي العبَّاس ابن تيمية -رحمه الله-؛ على أنَّ ما جاء فيه نفيُ كمال الإيمان فإنَّ المراد به أنَّه معصية وكبيرة من كبائر الآثام، فينتبه المسلم لهذا الأمر.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَا يُؤْمِنُ)) بيَّنتُ لك آنفًا أنَّ المراد عند أئمَّة السُّنَّة وأئمَّة السَّلف أنَّ المراد به: لا يُؤمن الإيمان الكامل، أمَّا أصل الإيمان والإيمان المجزئ فإنَّه موجودٌ عنده مع ارتكابه لهذه المعصية.

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ)) هاهنا عام، وهذا العموم مأخوذٌ بالإضافة؛ لأنَّ (أحد) هنا مفرد وهو مُضاف، والضَّمير مضافٌ إليه، والمفرد المضاف يدلُّ على العموم، فدلَّ على دخول كلِّ أحدٍ فيه -ذكرًا كان أو أُنثى- إذا كان ممَّن يصدق عليه اسمُ العبودية -أو ما يُعبِّر عنه الأصوليون بالمكلَّف-.

---

[284] رواه البخاري بلفظ: ((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

وقوله هنا: ((حَتَّى)) هذه الغائيَّة، ((حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ)) لأنَّها من جهة المعنى تُفيد الغاية، وهي مع ما بعدها -وإن كانت هنا ناصبة للفعل- تُؤوَّل بمصدر ليُرجعها إلى أصل عملها، لأنَّ الأصل في (حتَّى) أنَّها حرفُ جرّ وهذا الصَّحيح من أقوال العلماء النُّحاة، فإذا جاءت ناصبة لفعلٍ مضارع فإنَّها في الحقيقة جارَّة للمصدر المنسبك منها ومن الفعل، يعني: لا يُؤمن أحدكم حتَّى محبَّته، بمعنى أنَّه يبلغ الغاية الَّتي حُدَّت له، فإذا أحبَّ لأخيه المسلم ما يُحبُّ لنفسه فهنا كمل الإيمان.

((حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لنفْسِهِ)) وهنا قوله: ((لِأَخِيهِ)) فهم جماهير أهل العلم على أنَّ المراد به: أُخوَّة الإسلام والدِّين، بمعنى أنَّه لا مدخل للكافر فيه، فهذا الَّذي عليه جماهير أهل العلم، وإن كان بعضهم يقول بدخول الكافر فيه من جهة أنَّه يُحبُّ له الهداية والدُّخول في الإسلام.

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ)) وهذه ((مَا)) اسمٌ موصولٌ بمعنى: الَّذي، والأسماء الموصولة من ألفاظ العموم، فدلَّ على وجوبِ محبَّة جميع ما تُحبُّه لنفسك لأخيك، وهذا من الأمور العظيمة الَّتي تُبيِّن العِبْء الثَّقيل في رعاية حقوق المسلمين.

((مَا يُحِبُّ لنفْسِهِ)) اللَّام هنا لام الاختصاص أو لام المِلك، ولا نقول بأنَّها لام الاستحقاق؛ بل ما يُحبُّ أن تختصَّ به نفسه أو ما يُحبُّ أن تمتلكه نفسه، فإذا أحبَّ لأخيه أن يمتلك ما امتلكه أو أن يختصَّ بما اختصَّ به أو أن يكون له كمثل أخيه فهذا هو الَّذي استكمل الإيمان من هذه الجهة -من جهة الحقوق المتعلِّقة بالمسلمين-.

هذا الحديث له كما أنَّه منطوقٌ في وجوب محبَّة الخير للمسلم، وقد جاء في رواية عند النَّسائي: **((حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يحِبُّ لنفسِهِ مِنَ الْخَيْرِ))**[285] وهذه الرِّواية وإن كانت زيادة وفيها مقال إلَّا أنَّ المعنى يُغني عنها، لأنَّ مفهوم المخالفة: أن لا يُحبَّ الشَّرَّ لأخيه وأن لا يُحبَّ المكروه

285 ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح النَّسائي"؛ من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه]

لأخيه، وهذا الحديث ظاهرٌ في هذا المعنى، فإنَّ محبَّة الخير تنفي أن يُحبَّ له الشَّرَّ والهلاك والضَّلال والضَّياع وما أشبه ذلك.

وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

_ منها: تفاضل أهل الإيمان فيه، فإنَّ الإيمان يزيد وينقص وهذا من الأدلَّة الدَّالة عليه، فإنَّ من أحبَّ لأخيه المسلم ما أحبَّه لنفسه ليس كمن لم يحب لأخيه المسلم ما يُحبُّه لنفسه فضلًا عن أن يُحبَّ لأخيه الشَّرَّ أو المكروه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: ما هو ظاهرٌ فيه وهو محبَّة الخير لأخيه المسلم، وأن يكون أخوه المسلم في أكمل وجوه الخير وأعلاها وأرفعها.

_ ومن فوائد هذا الحديث: ما تقدَّم معنا من النَّصيحة للمسلمين، لأنَّ النَّصيحة من أعظم أمور الخير الَّتي يجب أن تُحَبَّ للمسلمين.

_ من فوائده أيضًا -كما ذكرنا قبل قليل-: أنَّه يحرم على المسلم أن يُريد الشَّيء المكروه لأخيه المسلم.

_ ومن فوائد هذا الحديث -ما أشرتُ إليه في أوَّل التَّعليق-: وهو أنَّ المسلمين كالجسد الواحد والنَّفس الواحدة، ولذلك قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ**))[286].

_ ومن فوائده -كما سيأتي-: استحباب الإيثار في أمور الدُّنيا، وسيأتي تفصيل هذه المسألة في مسألة إيثار المسلم لأخيه بالقُرب وإيثار أخيه المسلم في أمور الدُّنيا.

[286] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود".

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المسلم إذا أحبَّ لأخيه ما يُحبُّه لنفسه فقد برَّأ قلبه وساحة قلبه من داء الحسد والغشِّ.

_ ومن فوائد هذا الحديث: وجوب اعتناء المسلم بما يتعلَّق بأمور الإيمان.

هذه بعض فوائد الحديث الظَّاهرة منه وما ذكره طوائف من أهل العلم من شرَّاح هذا المتن ومن شرَّاح الصَّحيحين وغيرهما.

* هذا الحديث يذكر فيه العلماء مسألةً مهمَّةً: وهي مسألة الإيثار، يعني أن تُحبَّ لأخيك ما تُحبُّه لنفسك، هذا ظاهر، يعني أن يكون لك أو أن يكون لأخيك كمثل ما لك، هناك منزلة زائدة ورتبة أعلى من هذه الرُّتبة وهي مسألة الإيثار، وهذا الإيثار قسمان:

_ إيثارٌ بأمور الدُّنيا، وهذا الإيثار بأمور الدُّنيا كإيثاره بالمطعم أو المشرب أو الملبس أو المسكن؛ هذا مُستحبٌّ عند جميع العلماء، مستحبٌّ بإجماع أهل العلم، وعليه قوله -تبارك وتعالى-:﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[287] حكى هذا الإجماع النَّووي وغيره من أهل العلم، فإذا كانت الأمور من أمور الدُّنيا -كما ذكرتُ لك بعض أمثلته: بمطعم ومشرب ومأكل وملبس ومسكن ومال وما أشبه ذلك- فإنَّه يُستحب أن تؤثره وإن لم يبق لك كما صار له، هذا هو الإيثار.

_ القسم الثَّاني: الإيثار بالقُرَبِ، أو قل: الإيثار بأمور الدِّين، كما قلنا من قبل في أمور الدُّنيا نقول الآن في أمور الدِّين، والإيثار بالقُرب، الإيثار بالطَّاعات، الإيثار بالحسنات؛ هذا فيه كلامٌ كثيرٌ وتفاصيل لأهل العلم ومحصَّله وخلاصته: أنَّ القُرب تُقسم إلى قسمين منها ما هو فرضٌ واجبٌ على العبد، ومنها ما هو مستحبٌّ.

[287] سورة الحشر: 9

● فإن كان هذا الَّذي يُريد أن يؤثر به أخاه المسلم من جنس الواجبات أو من الواجبات فقد اختلف فيه أهل العلم، وجمهور أهل العلم على أنَّ الإيثار والحالة هذه لا يجوز بل يجب أن يقوم بهذا العمل بنفسه هو، مثل أن لا يجد ماءً للوضوء إلَّا هذا الماء الَّذي يكفيه، ومثل أيضًا أن لا يجد ما يستر عورته إلَّا هذا الثَّوب فإمَّا أن يلبسه وإمَّا أن يُلبسه لأخيه، فجمهور أهل العلم أنَّه لا يجوز والحالة هذه بل يجب عليه أن يُقدِّم نفسه.

ويُشير كلام ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- إلى أنَّه يجوز الإيثار بالقُرب وإن كانت واجبة، هذا ظاهر ما يُشير إليه كلام ابن القيِّم، فإن كان الفهم صحيحًا له فإنَّ هذا مُشكلٌ من المشكلات، لأنَّ العبد يجب عليه أن يقوم بما فرضه الله -تبارك وتعالى- عليه.

● القسم الثَّاني: أن تكون هذه القُرب من المستحبَّات، كتقديمه في الصَّفِّ الأوَّل أو تقديمه في صدر مجلس العلم -أو ما أشبه ذلك من القُرب الفاضلة أو القُرَب المُستحبَّة-، وهذه المسألة أيضًا فيها قولان أو بعضهم أوصل القول إلى ثلاثة أقوال:

القول الأوَّل: بأنَّ هذا مكروه، وهذا المذهب عند الشَّافعية، واختاره من الحنابلة ابن مُفلح والشَّوكاني، ونصَّ أحمد على كراهة أن يترك المصلِّي الصَّفَّ الأوَّل لغيره، واستدلُّوا بعموم الآيات الدَّالة على المسارعة إلى الخيرات.

والقول الثَّاني: أنَّ الإيثار به مستحب، يعني يُستحبّ أن تؤثره بهذه المنزلة -كما ذكرتُ كالصَّفِّ الأوَّل أو ما أشبهها من السُّنَن الَّتي لا يُمكن أن تقوم إلَّا بحال واحد أو بشخص واحد-؛ هذا القول ظاهر كلام ابن القيِّم -رحمه الله- فإنَّه قال بأنَّه يُستحب الإيثار حتَّى بالقُرَبِ، وابن القيِّم -رحمه الله- استدلَّ في الحالتين بقصَّة عمر مع عائشة رضي الله عنها؛ لمَّا أرسل إليها رضي الله عنه بأن يُدفن مع صاحبيه -يعني مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ومع أبي بكر رضي الله عنه- فقال إنَّها قد آثرته رضي الله عنها وأرضاها، وهذا القول لو قيل به فإنَّه قد يُقال كما هو عند طائفةٍ من السَّلف فيمن هو في حقِّ الفاضل فإنَّهم قد نصَّ طائفة من أهل العلم على استحباب أن يُؤثر الابن أباه بالقُرَب المستحبَّة وكذلك أن يُؤثر الطَّالب العالِم بأمثالها.

والقول الثَّالث: على القول بالتَّفصيل أو التَّفريق عند بعض الأصوليين بين الكراهة والأولويَّة، قال طائفة من أهل العلم بأنَّه خلاف الأولى.

❁ وعلى كلِّ حال الَّذي يترجَّح أنَّه مكروهٌ أن يُؤثر المسلم غيره بالقُرب المستحبَّة، اللَّهم أن يُقال في حقِّ الوالد إذا قدَّمه للصَّفِّ الأوَّل فإنَّه لا ينبغي أن يتقدَّم عليه.

هذا أهم ما يتعلَّق بهذا الحديث أو ما تيسَّر بيانه من فوائد هذا الحديث.

۞ الحديث الرابع عشر ۞

عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لدينهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

هذا الحديث أيضًا من الأحاديث الَّتي تدلُّ على ضرورة الاعتناء بحقوق المسلمين ورعاية هذه الشَّريعة لدفع المفاسد عنهم، فإنَّ من الضَّرورات العظيمة الَّتي جاءت الشَّرعة بحفظها - والَّتي يُعبَّر عنها بالضَّرورات الخمس- وإن كانت هذه هي أصول الضَّرورات وليست هي الضَّرُورات وحسب؛ على ما هو مُرجَّح عند طائفةٍ من المحقِّقين من أهل العلم، وإنَّما هي أصول هذه الحقوق أو الضَّرورات الَّتي جاءت الشَّريعة برعايتها لا أنَّها محصورة في هذه الخمس[288]، ألا وهي:

_ حِفْظ الدِّين.

_ وحِفظ النَّفس.

_ وحِفظ المال.

_ وحِفظ العِرْض.

_ وحِفظُ العقل.

[288] نَظَمَهَا شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفظَهُ الله بِقَوْلِـــهِ:

حِفْظٌ لِدِين وَلِنَفْس وَلِعَقْل عِرْضٌ وَمَالٌ مَقْصَدُ الشَّرْعِ حَصَل

❋ وقد جاء في هذا الحديث ما يَحفظ ثلاث منها، وهي:

_ حفظ الدِّين.

_ وحِفظ العرض -في الزِّنا-.

_ وحفظ النَّفس من القتل.

فهذه الثَّلاث من الضَّرورات الخمس الَّتي يذكرها الفقهاء أو علماء المصالح -أو ما يُسمَّى بعلماء مقاصد الشَّريعة- .

هنا قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَا يَحِلُّ)) أي لا يجوز ويَحرُم دم المرء المسلم.

وقوله هنا: ((دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ)) هذا من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، لأنَّ المقصود ليس هو الدَّم الَّذي هو ذات الدَّم أو عينه؛ بل المقصود إراقته وسفكه، يعني: لا يحلُّ إراقة دم امرئ مُسلِم.

و ((دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ)) يعني بقتله إلَّا إذا ثبت مُوجبُ القتل، وقد ذكر من مُوجبات القتل هنا ثلاثًا -كما سيأتي بيانها-، ونصَّ عليها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ((إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ)) إلَّا أنَّ العدد هنا على الصَّحيح: لا مفهوم له، لأنَّه قد جاءت أحاديث وجاءت أحكام تدلُّ على أنَّه يحلُّ دمه بغير هذه الثَّلاث، -وإن كان بعض أهل العلم يرى أنَّها داخلة في أحد هذه الثَّلاث-.

((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ)) والمراد بـ: ((امْرِئٍ)) هنا أي: رجل أو امرأة، يعني ذكر أو أنثى، والرَّجل عامٌّ فيهما.

((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ)) ولا مانع من أن تجتمع في رجل واحد.

ما هي هذه الثّلاث؟!

قال عليه الصّلاة والسّلام: ((الثّيّبِ الزّانِي)) والثّيب هو المُحصن؛ وهو من جامع زوجته في نكاحٍ صحيحٍ وهما بالغان عاقلان حرّان -لابدّ وأن تشترك هذه الأوصاف-، وهذه الأوصاف قد نظمها بعضهم نظمًا طريفًا -وهو القاضي زين الدّين رُشيق-، فقال:

شُرُوط الْحَصَانَةِ سِتٌّ أَتَتْ ... فَخُذْهَا عَلَى النَّصِّ مُسْتَفْهِمَا
بُلُوغٌ وَعَقْلٌ وَحُرِّيَّةٌ ... وَرَابِعُهَا كَوْنُهُ مُسْلِمَا
وَعَقْدٌ صَحِيحٌ وَوَطْءٌ مُبَاحٌ ... مَتَى اخْتَلَّ شَرْطٌ فَلَنْ يُرْجَمَا[289]

كما في شرح الفاكهاني لهذا الكتاب "النّووية"، وهذا نظمٌ رائقٌ ينبغي حفظه.

((الثّيّبُ الزّانِي)) والزّنا معروفٌ؛ وهو الفاحشة، والفاحشة ما قُبح أو تناهى قُبحه، وبعض العُلماء يذكر أنْ يكون هذا الوطء أو هذا الزّنا في قُبل ودبر؛ ولكن الصّحيح أنّ المقصود بالزّنا ما وقع في القبل، وأمّا ما وقع في الدّبر فإنّه يُسمّى لواطًا وحكمه القتل أيضًا على كلّ حال.

هذا بالنّسبة للثّيّب الزّاني، ويُرجم بدلالة الكتاب والسُّنّة والإجماع خلافًا للخوارج:

_ أمّا الكتاب: فالآية المنسوخة لفظًا الباقية حكمًا وقد جاءت في حديث عمر: ((الشّيْخُ وَالشّيْخَةُ))[290].

_ والسُّنّة: ما دلّ عليه هذا الحديث.

_ والإجماع حكاه غير واحدٍ من أهل العلم، خلافًا لطائفةٍ من الخوارج الّتي أنكرت الرّجم.

طبعًا هنا لا ذكرى للبكر لأنّه لا قتل له.

---

289 "المنهج المبين في شرح الأربعين" للفاكهاني رحمه الله، ص304.

290 قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب: (لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ: مَا أَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهِ، فَيضلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، أَلَا وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ، إِذَا أُحْصِنَ الرَّجلُ وَقَامَت البيِّنةُ، أَوْ كَانَ حَمْلٌ أَوِ اعْتِرَافٌ، وَقَدْ قَرَأْتُهَا: ((الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا البَتَّةَ)) رَجَمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ) [صحّحه الألباني رحمه الله في "صحيح ابن ماجه"].

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ)) وهذا اللَّفظ وإن كان عامًا بأنَّه تُقتل كُلُّ نفسٍ بما قتلته من النُّفوس إلَّا أنَّ هذا العامّ قد استُثنِيَ منه بعض الصُّوَر، على خلافٍ بين أهل العلم فيها.

_ فإذا قتل الرَّجل الرَّجُلَ فإنَّه يُقتل به، وإذا قتلت المرأة المرأة فإنَّها تُقتل بها، وإذا قتل الرَّجل المرأة فإنَّه يُقتل بها عند عامَّة أهل العلم أو جماهير أهل العلم.

_ واختلفوا في الوالد يَقتل ولده؛ هل يُقتل؟

• والجمهور من الحنفية والشَّافعية والحنابلة على أنَّه لا يُقتل والدٌ بولده واستدلُّوا بلفظ هذا الحديث: ((لا يُقتَل وَالد بـوَلدِهِ))[291] ولأنَّ الولد جزء من الوالد ولأنَّ شفقة الوالد يمتنع أن يقوم بقتل ولده.

• وقالت المالكية يُقتل الولد بوالده إذا انتفت الشُّبهة، بمعنى أنَّه يتعمَّد قتله تعمُّدًا فوق التَّعمُّد بأن يُضجعه ويذبحه -أو ما أشبه ذلك-.

❁ وقول الجمهور أرجح لأنَّه أقوى دليلًا وأقوى نظرًا.

واختلف العلماء في صُوَر كثيرة، ومنها إذا اختلف التَّكافؤ في الدِّين؛ فلا يُقتل مسلمٌ بكافر كما جاء ذلك في صحيح البخاري من حديث علي رضي الله عنه[292].

_ فإذا كان هذا الكافر حربيًّا في دار حرب فإنَّه لا يُقتل به بالإجماع.

_ واختلفوا في المعاهد والذِّمي والمستأمن:

• والجمهور على أنَّه لا يُقتل به، وهم المالكية -من جهة الجملة- والشَّافعية والحنابلة.

• وقال بعض المالكية: يُقتل المسلم بالذِّمي إذا قتله غيلة، يعني غدرًا وما أشبه ذلك.

❁ ولكن الَّذي عليه الجمهور ودلَّ عليه الدَّليل على أنَّه لا يُقتل مسلم بكافر وهذا عامٌّ.

---

[291] صحَّحه الألباني رحمه الله في "إرواء الغليل".

[292] ((لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ)) رواه البخاري.

ثمَّ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ)) هنا ((التَّارِكُ لِدِينِهِ)): المرتدُّ، وقد جاء في صحيح البخاري عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: ((**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**))[293] فهذا المراد به: المرتدّ؛ الَّذي ارتدَّ عن الإسلام فبدَّل دينه لأنَّه شهد بأنَّ الإسلام حقٌّ ثمَّ تركه.

والأدلَّة على قتل المرتد كثيرةٌ ومُجمعٌ عليها بين أهل العلم خلافًا لدعاة الحرية الانفلاتية الَّتي يضمنون بها كفرهم ولا يضمنون بها الإسلام لأهله.

فإنَّ التَّارك لدينه المراد به: المرتدّ.

و ((الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ)) هذا هنا من المواضع المُشكلة -عند الشُّرَّاح لا في الحديث-، لماذا؟
_ لأنَّنا إن قلنا بأنَّ المفارق للجماعة عطفُ بيان أو قلنا بأنَّ المفارق للجماعة صفةٌ للتَّارك فإنَّ التَّارك لدينه المفارق للجماعة يكون شيئًا واحدًا، فهو بمثابة الوصف أو الكاشف يعني أو عطف البيان، فلا يكون هناك حكمٌ زائدٌ.
_ وعلى قول بعض أهل العلم بأنَّه وإن كان عطف بيان أو كان صفة إلَّا أنَّه حكمٌ مُستقلٌّ فالمرتدّ الَّذي خرج عن الإسلام له حكم، والتَّارك لدينه المفارق للجماعة الَّذي يغلب عليه أن يصل أمره إلى الرِّدَّة فهذا حكمه آخر.

فإذا قلنا بهذا القول الثَّاني كان العدد أربعة لا ثلاثة، وهذا هو محلُّ الإشكال، وإن كنتُ سمعتُ شيخنا الشَّيخ صالح الفوزان يُقرِّرُ هذا في شرحه على هذا المتن، ولكن الصَّحيح أنَّه عطفُ بيانٍ أو إنَّه صفة للتَّارك، ثمَّ نقول بعد ذلك لأنَّه وإن لم تبلغ مفارقة الجماعة حدَّ الرِّدَّة فإنَّ الحكمَ أيضًا مُلحق به بقتله لأدلَّة أُخرى، ولهذا ابن المُلقِّن -رحمه الله تعالى- لمَّا ذكر هذا الوصف قال: (يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَصْفِ كُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُرْتَدًّا كَالْخَوَارِجِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ وَأَهْلِ الْبَغْيِ)[294] إلى آخر كلامه.

---

[293] رواه البخاري، من طريق ابن عبَّاس رضي الله عنهما.
[294] "المعين على تفهم الأربعين" لابن الملقن رحمه الله، ص205

وفي آخر هذا المقام ينبغي أن يُنبَّه أنَّ القتل ليس مُلازمًا للتَّكفير، وقد جمع هذا الحديث بين النَّوعين؛ فإنَّ القتل يُقسم قسمين: إمَّا أن يكون قتل حدٍّ، وإمَّا أن يكون قتل ردَّة:

_ فقتل الرِّدَّة في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((التَّارِكُ لِدِينِهِ)) والمراد به هنا المرتدّ، وليس المراد بالتَّارك لدينه أن يترك جميع الدِّين كما قاله بعض الشُّرَّاح؛ فإنَّ هذا باطلٌ ولا يقع أصلًا، بل الصَّحيح أنَّه لو ترك ما يُوجب ردَّته كمن سبَّ الله أو سبَّ رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام أو قال في عائشة رضي الله عنها ما برَّأها الله -تبارك وتعالى- منه، أو ما هو من موجبات الكفر.

_ وفي الحديث أيضًا ما يُقتل حدًّا كالثَّيب الزَّاني والنَّفس بالنَّفس، فإنَّ هؤلاء مع كونهم يُقتلون إلَّا أنَّهم لا يُكفَّرون كما هو بيِّن.

فجمع الحديث بين النَّوعين: بين من يُقتل حدًّا، ومن يُقتل ردّةً.

✿ وهذا الحديث فيه فوائد،

-وأحيانًا نقدِّم المسائل على الفوائد-، لا ضير إن شاء الله، المهمّ هو المقصود، والمقصود هو وصول المعلوم من هذا الحديث.

_ من فوائد هذا الحديث: حُرمة المسلم واحترامه وعدم الاعتداء عليه بأيِّ شيءٍ من أنواع الاعتداء.

_ ومن فوائده: وجوب رجم الزَّاني الثَّيِّب.

_ ومن فوائده أيضًا: وجوب قتل المرتدّ إذا لم يتب.

_ ومن فوائده: جواز القصاص، لأنَّ القِصاص قد يدخل فيه العفو.

_ ومن فوائده: حُرمة الزِّنا وشناعته.

_ ومن فوائده: المحافظة على الدِّين والإيمان.

_ ومن فوائده: وجوب لزوم جماعة المسلمين وإمامهم؛ كما جاء في حديث حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه وأرضاه: ((**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**))[295].

295 مُتَّفقٌ عليه.

الحديث الخامس عشر

عَـنْ أَبِي هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ:

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصْمُتْ.

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ.

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

هذا اللَّفظ الَّذي ذكره المصنِّف -رحمه الله تعالى-.

وهذا الحديث أيضًا -كما تلحظون- داخلٌ في رعاية حقوق المسلمين مع بعضهم البعض، وهو مثل حديث أنس في تحقيق الإيمان وكماله.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)) المراد: مَـن كان يُـؤمن بالله واليوم الآخر إيمانًا كاملًا -وهو الإيمان المطلق-.

وقوله: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ)) هنا يؤمن بالله -عزَّ وجلَّ- في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

وقوله هنا: ((وَالْيَوْمِ الآخِرِ)) المراد به آخر الأيَّام لأنَّه لا يوم بعده، وإنَّما ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر دون غيرها من أركان الإيمان: لأنَّ على هذين الرُّكنين تدُور أركان الإيمان الباقية، فبصلاحهما صلاحٌ لسائر أركان الإيمان وفرائضه وشرائعه.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَلْيَقُلْ خَيْرًا)) اللَّام الدَّاخلة على الفعل هنا: هي لام الأمر، لأنَّ من صيَغ الأمر أن يدخل عليه اللَّام.

هنا قال: ((وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ)) والفاء هذه -والله أعلم- هي الواقعة في جواب الشَّرط (مَن). واللَّام -كما قلتُ لكَ- لام الأمر، ومثلها في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أَوْ ليصْمُتْ)) فإنَّ اللَّام فيه لام الأمر.

((وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)) هنا قال: ((فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ ليصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ)).

وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة، -وهذا بالنِّسبة لما تقدَّم مُفرداته-.

من فوائد هذا الحديث:

_ وُجوب الإيمان بالله تعالى، والإيمان باليوم الآخر.

_ ومن فوائده: التَّحذير من آفات اللِّسان.

_ ومن فوائده: أنَّ العبد إمَّا أن يتكلَّم بالخير وإمَّا أن يتكلَّم بالشَّر وإمَّا أن يسكت عنهما، فكلامه بالخير خيرٌ من كلامه بالشَّرِّ، وسكوته عن الشَّرِّ خيرٌ من كلامه فيه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: التَّرغيب في إكرام الجار وإكرام الضَّيف.

_ ومن فوائده: وُجوب القيام بحقِّ الضِّيافة على ما هو مُبيَّنٌ ومفروضٌ في الشَّريعة -وأحكامه بيِّنةٌ، ظاهرةٌ-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: تفاضل أهل الإيمان فيه، وأنَّ الإيمان يزيد وينقص، وأنَّ من قام بهذه الأمور فقد قام بحقِّ الإيمان.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ شُعب الإيمان كثيرة مفرَّقة في نُصوص الكتاب والسُّنَّة وهذا منها.

_ ومن فوائد هذا الحديث: دخول الأعمال في مُسمَّى الإيمان، لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ذكر الإيمان وذكر أنَّ الأعمال منه؛ فقال: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ)).

((وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ)) والجار له حقوق.

❁ واليوم يصدق على النَّاس مع هذه المدَنيَّة أن يُقال بأنَّ جوارهم جوار الموتى -كما قالها بعض العوَّام-؛ قال: (أمَّا جيران اليوم فكجيران المقابر) لأنَّ صاحب هذا القبر وصاحب هذا القبر على تلاصقهما لا يدري ما عليه جاره، وقد قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: («**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ**» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:«**الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»)[296]، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**))[297] إلى غير ذلك من النُّصوص الدَّالة على رعاية حقِّ الجار.

296 رواه البخاري.
297 متَّفقٌ عليه؛ من طريق ابن عمر رضي الله عنهما.

وهكذا حقُّ الضَّيف، إلَّا أنَّه في ظلِّ هذه المدنية فقد قال طوائف من أهل العلم بأنَّ الوجوب غير مُتأتٍّ، لأنَّ الأصل في الضِّيافة أنَّها واجبة لكن في ظلِّ هذه المدنية ليست واجبة إلَّا إذا كان في الأماكن النَّائية أو القرى أو في الأرياف أو ما يُسمَّى بالبادية، حيث لا يجد الإنسان منزلًا يسكن فيه كالفنادق -وما أشبه ذلك-.

هذا ما يتعلَّق بهذا الحديث، وما فيه مِن الفوائد أو الأحكام الظَّاهرة.

۞ الحديث السادس عشر ۞

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِني، قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**» فَرَدَّدَ مِرارًا، قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**».

رَوَاهُ البُخَارِيُّ

فهو من أفراد البخاري على مُسلم، فلم يُخرِّجه مسلم -رحمه الله تعالى-، وقد أشار الحافظ ابن رجب في شرحه إلى أنَّ مسلمًا لم يُخرِّجه لأنَّ الأعمش رواه عن أبي صالح واختُلف عليه في إسناده.

هذا الحديث من جوامع كلمه صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد قال العلَّامة ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله تعالى- الملقَّب بـ:"مالك الصَّغير" العالم المشهور -عالم المغرب والقيروان- رحمه الله تعالى؛ قَالَ: (جُمَّاعُ آدَابِ الْخَيْرِ وَأَزِمَّتُهُ تَتَفَرَّعُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ:

_ قَوْل النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**». -وهذا الحديث قد تقدَّم معنا-

_ وقَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**». -وهذا الحديثُ أيضًا قد تقدَّم معنا-.

_ وَقَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لِلَّذِي اخْتَصَرَ لَهُ فِي الْوَصِيَّةِ: «**لَا تَغْضَبْ**». -وهذا هو الحديث الَّذي نحن بصدده-.

_ وقَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «**الْمؤْمِنُ يحِبُّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لنفْسِهِ**»[298] -وهذا الحديث قد تقدَّم معنا أيضًا-.

فهذه الأحاديث -وهذا آخرها- هي الأربعة أحاديث الَّتي اشتُهر عن الإمام ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله تعالى- أنَّه قال بأنَّها جُمَّاع آداب الخير وأزمَّته.

❃ فهذا الحديث من جوامع الكلِم الَّتي أوتيها النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فإنَّ من تأمَّل النَّتائج والآثار الواقعة بسبب الغضب يجد أنَّه لا يُحصيها إلَّا الله -تبارك وتعالى-، فالمفاسد الواقعة من جهة دين المرء على نفسه راجعٌ إلى الغضب، فربَّما تحت وطأة الغضب وشدَّة الغضب ربَّما قال الإنسان كلمة الكفر وربَّما ردَّ الحق وربَّما طلَّق امرأته وربَّما قتل أخاه المسلم وربَّما فعل الأفاعيل الَّتي تعود عليه بالأضرار في دينه وفي دنياه، وهذا أمرٌ معلومٌ مُشاهدٌ وملموسٌ، وقد ذكر الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- عن شيخه -شيخ الإسلام أبي العبَّاس ابن تيمية- وهذا قول كثيرين من أهل العلم إلَّا أنَّ ما سنذكره من كلام شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- فيه إجمال لمراتب الغضب، فإنَّ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- يقول: (قَالَ شَيْخُنَا...) -يعني ابن تيمية- (وَالْغَضَبُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

_ أَحَدُهَا: مَا يُزِيلُ الْعَقْلَ، فَلَا يَشْعُرُ صَاحِبُهُ بِمَا قَالَ، وَهَذَا لَا يَقَعُ طَلَاقُهُ بِلَا نِزَاعٍ.

_ وَالثَّانِي: مَا يَكُونُ فِي مَبَادِيهِ بِحَيْثُ لَا يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنْ تَصَوُّرِ مَا يَقُولُ وَقَصْدِهِ، فَهَذَا يَقَعُ طَلَاقُهُ.

_ الثَّالِثُ: أَنْ يَسْتَحْكِمَ وَيَشْتَدَّ بِهِ، فَلَا يُزِيلُ عَقْلَهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَكِنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نِيَّتِهِ بِحَيْثُ يَنْدَمُ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ إِذَا زَالَ، فَهَذَا مَحَلُّ نَظَرٍ، وَعَدَمُ الْوُقُوعِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ قَوِيٌّ مُتَّجِهٌ)[299] هكذا ذكر شيخ الإسلام الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- عن شيخه، لأنَّ الغضب يتعلَّق به من جهة الأحكام أشياء كثيرة، والمراد أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أوصى هذا الرَّجل بأن لا يغضب.

[298] "جامع العلوم والحِكم" ص270
[299] "زاد المعاد" ج5، ص195.

والغضب كما عرَّفه الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في شرحه -في كلامه على هذا الحديث- بأنَّه غليانُ دم القلب طلبًا لدفع المؤذي أو طلبًا للانتقام[300]، وهذا التَّعريف مشهورٌ معروفٌ عند الحافظ ابن رجب وعند غيره.

❀ وفوائد هذا الحديث كثيرة جدًّا:

_ أوَّلها: فيه الرُّجوع إلى أهل العلم وإلى أهل الاستشارة من أهل الفضل من ذوي الخبرة وهم أهل العلم، فإنَّ الإنسان لا يرجع إلى كلِّ أحد وإنَّما يرجع إلى من يُنير له السَّبيل، وهذا أمرٌ واضح، لأنَّ هذا الرَّجل قال للنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم:[أَوْصِنِي].

_ ومن فوائد هذا الحديث: طلب الوصية من أهل العلم والفضل، لأنَّ الإنسان لا يكمل في نفسه بل لا يزال محتاجًا إلى الوصية لأنَّ حقيقة الوصيَّة أنَّها تجمع الخير للمُوصَى.

_ وفي هذا الحديث من الفوائد: ما كان عليه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم من مُعالجة أُمور أصحابه والاعتناء بمطالبهم، فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام كان يردُّ على السَّائل ويُغيث الملهوف ويُعين على نوائب الحق، هذا قبل بعثته عليه الصَّلاة والسَّلام فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: ما أوتِيَه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم من البلاغة والفصاحة والبيان، فإنَّه يقول الكلمة الجامعة الَّتي تحتوي على المعاني الكثيرة الَّتي ربَّما يقف عندها العلماء كثيرًا لأخذ ما فيها من العِبَر والعظات.

[300] قال ابن رجب رحمه الله: (وَالْغَضَبُ هُوَ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ طَلَبًا لِدَفْعِ الْمُؤْذِي عِنْدَ خَشْيَةِ وُقُوعِهِ، أَوْ طَلَبًا لِلِانْتِقَامِ مِمَّنْ حَصَلَ مِنْهُ الْأَذَى بَعْدَ وُقُوعِهِ) ["جامع العلوم والحِكم" ص351]

ـ ومن فوائد هذا الحديث: حِرص الصَّحابة رضي الله عنهم -وهذا شأنهم كلّهم رضي الله عنهم وأرضاهم- على الخير وطلبه والحرص عليه والأخذ به، لأنَّ هذا الصَّحابي رضي الله عنه قال:[أَوْصِنِي].

ـ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المفتي والمعلِّم يُراعي حاجة السَّائل، فإنَّه ربَّما تخفى عليه بعض الأشياء أو يكون محتاجًا لأشياء كثيرة إلَّا أنَّ فيها ما هو مهمٌّ وفيها ما هو أهم.

❋ ومن هنا قال طوائف من أهل العلم: قد اختلفت وصايا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم مع أنَّ السُّؤال ربَّما يكون بصيغةٍ واحدة لكنَّه يجيب كلَّ واحد من هؤلاء الصَّحابة السَّائلين بما فيه زيادة له في الفضل والخير -رضي الله عنهم-، وهم أهل الفضل والخير رضي الله عنهم وأرضاهم، فربَّما سألوه عن شيءٍ من الخير فيدلّ على الصَّلاة أو يدلُّ على الجهاد، فهذا باختلاف أحوال هؤلاء الصَّحابة رضي الله عنهم، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام كان هذا حاله مع أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم.

ـ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ فيه التَّأكيد الشَّديد على التَّحذير من الغضب لأنَّه نهاه عنه، وهذا النَّهي يُؤكِّد الاعتناء باجتناب الغضب، ففيه التَّحرُّز من الغضب.

ـ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لمَّا قال: ((لَا تَغْضَبْ)) فقد ضمَّن له هذه الوصية اجتناب الأسباب الموجبة للغضب وأيضًا الابتعاد عن المواطن الَّتي تُؤدِّي إلى الغضب.

ـ كذلك من فوائد هذا الحديث: أنَّه وإن كان في باب الدَّفع -لأنَّه قال له: ((لَا تَغْضَبْ)) إذا جاءك ما يُغضبك-؛ فإنَّه داخلٌ أيضًا في باب الرَّفع -على ما قدَّمنا في الفائدة الَّتي قبلها- فإنَّ المسلم يتجنَّب مواطن الغضب.

ـ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم لمَّا قال لهذا الصَّحابي: ((لَا تَغْضَبْ)) فإنَّ فيه إشارة وتضمين لطلب مُعالجة الغضب إذا قُدِّر وُقوعه، فالنَّبي صلَّى الله

عليه وسلَّم لمَّا قال له: ((لَا تَغْضَبْ)) ليس فيه أنَّه إذا وقع الغضب فإنَّه يسترسل فيه ويتركه، ولهذا كان النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يُعالج بعض حالات أصحابه رضي الله عنهم عند الغضب.

_ من فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ الأخلاق والمكارم منها ما هو جبليّ ومنها ما هو مُكتسب، فهذا ما قرَّره المحقِّقون من أهل العلم:

- فقد جاء في حديث أشج بن عبد القيس لمَّا قال له النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **((إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ))**[301]، قال: (أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ:«**بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**» قَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ)[302] فهذا ممَّا يُجبل عليه الإنسان ويُفطر، فمن رزقه الله شيئًا من ذلك فإنَّه ينبغي له أن يحرص عليه وأن يحرص على تنميته ويحرص على الزِّيادة منه.
- الثَّاني: أخلاق مُكتسبة يتطبَّع بها الإنسان، ولهذا جاء في حديث أبي هريرة المشهور قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: **((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ))**[303] وفي الرِّواية الأخرى: **((صَالِحَ الأَخْلَاقِ))**[304] وجاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: **((وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ))**[305] وقال عليه الصَّلاة والسَّلام أيضًا: **((وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ))**[306] يعني أنَّ الإنسان ربَّما لا يكون حليمًا فيتطلَّب مواطن الحلم حتَّى يرزقه الله -تبارك وتعالى- إيَّاه.

فالأخلاق فيها ما هو جبليٌّ يُجبل عليه الإنسان ويُفطر، وفيها ما هو مُكتسب، ودليل هذا أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال له: ((لَا تَغْضَبْ)) فلو كان الإنسان لا يملك شيئًا من أمره ما قال له عليه الصَّلاة والسَّلام ذلك.

[301] رواه مسلم.
[302] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود".
[303] صحَّحه الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة".
[304] صحَّحه الألباني رحمه الله في "الأدب المفرد".
[305] متَّفقٌ عليه؛ واللفظ للبخاري.
[306] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ فيه الرَّد على الجبرية -وهم قدرية لأنَّهم يُسمُّون قدرية باعتبار السَّلب أو باعتبار الإثبات-، ووجه الرَّدِّ عليهم فيه أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام وَكَل الأمر إلى العبد فقال: ((لَا تَغْضَبْ)) وهم يقولون إنَّ العبد كالرِّيشة في مهبِّ الرِّيح. وهذا كلامٌ وقولٌ باطلٌ بلاشكٍّ، ففيه الرَّد على هؤلاء الجبرية.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ التَّوكيد يقع بالتَّكرار، وهذه مسألة بلاغية بيانية معروفة، ولذلك قد يستغني العرب عن التَّكرار اللَّفظي بما يدلُّ عليه كما يُسمَّى بحروف الصِّلة؛ فيأتون بالحرف الَّذي هو من حروف الصِّلة لأنَّه يُفيد التَّوكيد.

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ (ألْ) وَكَوْنُهَا بِمُعْرَبِ الأَفْعَالِ قَلْ

فالتَّكرار أو التَّوكيد يقع باللَّفظ كما في هذا الحديث:[فَرَدَّدَ مِرَارًا] ما الَّذي ردَّده مرارًا؟ كلَّما أراد منه الرَّجل أن يوصيه:[قَالَ أَوْصِنِي] قال: ((لَا تَغْضَبْ))، ((لَا تَغْضَبْ))، ومن هذا ما جاء في حديث أبي معبد المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ))**[307] فالعرب إذا أرادت أن تؤكِّد أمرًا كرَّرته.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ هذا الدِّين جاء مُعلِّمًا لأصحابه مكارم الأخلاق وفضائلها، وهذا أمرٌ واضحٌ كما تقدَّم معنا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه.

_ وآخر ما في ذلك -وقد تقدَّم معنا مرارًا-: أنَّ جُمَّاع الشَّر في سَوْرَة الغضب وشدَّته.

❁ وعلاج الغضب يقع بأحد أمرين: الأمر الأوَّل علميٌّ، والأمر الثَّاني عمليٌّ.

• فأمَّا العلميّ: فأن يتصوَّر المسلم العواقب الوخيمة الَّتي يُنتجها الغضب إذا تمادى معه، فقد ذكرتُ لكم في أوَّل الكلام أنَّه ربَّما يغضب ويقول كلمة الكفر، ربَّما يغضب فيقتل أخاه

307 صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب".

المسلم، ربَّما يغضب ويُطلِّق، فالغضب شرٌّ لاشكَّ فيه، وهذا العلاج إذا علم الإنسان عواقب الغضب -أي ما يُنتجه الغضب من السُّوء- فإنَّه يدخل فيه أيضًا -أي يدخل في العلاج العلمي- أن يعلم العبد ما لِمَنْ كتمَ غضبه وغيظه من الفضل عند الله -تبارك وتعالى-؛ كما في قوله -جلَّ وعلا-:﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[308] وكما جاء في أحاديث كثيرة: ((**مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جَرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ**))[309] -أو كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم-، إلى فوائد كثيرة لكظم الغيظ -يطول المقام بذكرها-، في كتاب الله تعالى وفي سنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم ما فيه علاجٌ علمي لهذا الغضب.

ومن العلاج العلميّ: أن يعلم الإنسان أنَّ الغضب يُوصله إلى أن يكون جنديًّا من جنود إبليس -نسأل الله العافية والسَّلامة- فيكون زمامه وخطامه في يد إبليس يقوده حيثما شاء بالغضب -نعوذ بالله من ذلك-.

- أمَّا العلاج العمليُّ: فقد جاءت أحاديثُ كثيرة إلَّا أنَّه لا يخلو بعضها من المقال، إلَّا أنَّ أصحَّ ما في ذلك ما رواه الشَّيخان في صحيحيهما من حديث سُليمان بن صُرَد رضي الله عنه أنَّه قال: (اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) -يعني حصل بينهم نزاع- (اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ**» فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) -يقول له إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول كذا وكذا-، (وَقَالَ تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَقَالَ: أَتَرَى بِي بَأْسٌ؟ أَمَجْنُونٌ أَنَا؟ اذْهَبْ)[310] انظر إلى الغضب أين وصل به رضي الله عنه، وإن كان الحافظ -رحمه الله- في مواضع من "الفتح" يحمل مثل هذه الأحاديث على طائفةٍ من المنافقين، وإنَّ مثل هذا لا يُتصوَّر ردُّ أمر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم من أفاضل الصَّحابة.

[308] سورة آل عمران: 134
[309] صحَّحه أحمد شاكر رحمه الله في "عمدة التفسير".
[310] متَّفقٌ عليه؛ واللَّفظ للبخاري.

ومن العلاج العملي: أنَّ الإنسان يُحاول قدر استطاعته أن يتدارك ويتلافى الغضب، فقد جاء في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرعةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**))[311] فيُحاول المسلم دائمًا وإن غضب على أن يتجنَّب الغضب وما يُثيره، فالنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا الحديث ذكر عدوَّين: عدوٌّ خارجيٌّ وعدوٌّ باطنيّ.

_ فالعدوّ الخارجي: هو أخوك المسلم -أو الإنسان بشكلٍ عام- الَّذي يُصارعك أو يُقاتلك أو يُضاربك.

_ وهناك عدوٌّ باطنيٌّ من باطنك، من الدَّاخل ينفخ فيك، وهو الَّذي يجري فيك مجرى الدَّم، فيُثيرك ويُغضبك، فإن انتصرت على أخيك المسلم انتصر عليك غضبك وشيطانك، وإن تجاوزت محلَّ الغضب وابتعدت عنه انتصرت على الشَّيطان، وكذلك يندفع هذا الإنسان لأنَّه يرى سماحتك ويرى بُعدك عن مواطن الغضب فيستحيي على نفسه كما قال -جلَّ جلاله-: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[312]، وكما قال -تبارك وتعالى-: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[313].

والحقيقة -كما ذكرتُ من قبل- أنَّ هذا الحديث فيه فوائد كثيرة جدًّا، إلَّا أنَّ هذا ما يَجمُل أن يُذكر في هذا المقام.

_ وأنَّ الإنسان لا ينبغي له أن يقول: (هذا طبعي) أو (هذا فيَّ طبع) كما نسمعه من بعض الشَّباب أو من بعض طلبة العلم؛ يقول: (أنا طبعي الغضب).

311 متَّفقٌ عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.
312 سورة المؤمنون: 96
313 سورة فصلت: 34

❁ آخر ما ينبغي أن يُتكلَّم فيه في هذا المقام: أنَّ الغضب ليس مذمومًا على الإطلاق، بل كما ذكر ابن الأثير في "النّهاية" إنَّ الغضب فيه ما هو محمودٌ وفيه ما هو مذمومٌ، وهذا أمرٌ ظاهرٌ، لأنَّ من لا يغضب إذا انتُهكت محارم الله -جلَّ وعلا- فإنَّ هذا مذمومٌ في حقِّه ولهذا قال ابن الأثير -رحمه الله-: (-الْغَضَبُ- مِنَ الْمَخْلُوقِينَ فَمِنْهُ مَحْمُودٌ وَمَذْمُومٌ، فَالْمَحْمُودُ مَا كَانَ فِي جَانِبِ الدِّينِ وَالْحَقِّ، وَالْمَذْمُومُ مَا كَانَ فِي خِلَافِهِ)[314]، بل قد جاء عن عيسى عليه السَّلام أنَّه قال: (مَنْ لَا يَغْضَب فَهُوَ حِمَارٌ)[315] كما ذكر ذلك غير واحدٍ من أهل العلم ممَّن ينقل ما رُوِيَ في الحِكَمِ عن الأنبياء.

والغضب -كما هو معلومٌ أيضًا- خصلة يقابلها الرِّضا، فالغضب نقيضٌ للرِّضا.

❁ وأمَّا إذا قلتَ: ما سبب أنَّ الرَّجل كان يُكرِّر على النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم؟!

فالجواب عن هذا أن يُجاب عنه بجوابين:

_ الجواب الأوَّل: أنَّ هذا الرَّجل ربَّما أراد أن يسمع شيئًا آخر من الوصايا الَّتي يُوصيه بها النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم فكرَّر عليه رغبة في الخير.

_ والجواب الثَّاني: أن يُقال بأنَّ الرَّجل ربَّما لم يقنع بهذه الوصيَّة فأراد أن يصل إلى وصية أُخرى، -وهذا الجواب فيه نوعُ رجوعٍ إلى الجواب الأوَّل-.

وشيخنا -حفظه الله-[316] يقول بأنَّ الرَّجل استقلَّ هذه الوصية ولذلك كرَّر على النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

---

[314] "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن أثير رحمه الله، ج3، ص370.

[315] تَعَذَّرَ الوُقُوفُ عَلَيْهِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ الشَّافعي رَحِمَهُ الله بِلَفْظ: (مَنِ اسْتُغْضِبَ فَلَمْ يَغْضَبْ فَهُوَ حِمَارٌ) ["حلية الأولياء" لأبي نعيم، ج9، ص143]

[316] أي: الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله.

وذكر شيخنا -حفظه الله-[317] أنَّ بعض أهل العلم قال: (لَعَلَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ مَعْرُوفًا بِالْغَضَبِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُجِيبُ كُلَّ إِنْسَانٍ بِحَسَبِ حَاجَتِهِ، فَأَوْصَاهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ).

حقيقة هذا الأمر أنَّه ما أمكنك أن تجتنب الغضب فافعل.

317 أي: الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله.

۞ الحديث السابع عشر ۞

عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ:
«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

وهذا -كما ذكرنا الحديث الأوَّل من أفراد البُخاري على مسلم-، هذا أيضًا من أفراد مُسلم على البخاري.

وسبب إعراض البخاري عن هذا الحديث -كما ذكر الذَّهبي وابن رجب- أنَّ البُخاري لم يُخرِّج لأبي الأشعث شيئًا في صحيحه لأنَّ راوي هذا الحديث عن شدَّاد بن أوس هو أبو الأشعث.

* وينبغي أن يكون عند طالب العلم معرفة في جانب علم الحديث وما يتعلَّق بما خرَّجه الشَّيخان في صحيحيهما؛ أنَّهما لم يلتزما أن يُخرِّجا كلَّ حديثٍ صحيح عندهما كما صرَّحا بذلك -رحمهما الله تعالى-، إلَّا أنَّ العلماء يتطلَّبون أحيانًا سبب الإعراض للبخاري أو سبب الإعراض من جهة مسلم لإخراج حديثٍ أخرجه أحدهما.

هذا الحديث من الأحاديث العظيمة الَّتي تُبيِّن شفقة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ورحمته حتَّى بالحيوان -صلوات ربِّي وسلامه عليه-.

وأبو يعلى شدَّاد بن أوس فيما أذكر من فوائد شيخنا مُقبل -رحمة الله عليه- أنَّه ليس له في صحيح مُسلم سوى هذا الحديث، وكذلك ليس له في صحيح البخاري إلَّا حديث سيِّد الاستغفار؛ يعني: ((سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي))[318] إلى آخره.

_ وهذا الحديث -كما ذكرتُ لكم- فيه ما عليه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الشَّفقة.

_ وفيه كمال هذا الدِّين في رعاية الحقوق حتَّى تجاوزت الحقوق من الإنس والجنِّ إلى الحيوان.

_ وفيه ما عليه سبق هذا الدِّين لرعاية حقِّ الحيوان الَّتي يتشدَّق بها كثيرٌ من الغرب اليوم وهم يذبحون الإنسان في كلِّ بلد.

فعلى كلِّ حال هذا الدِّين هو دينُ الله -تبارك وتعالى-، ونحن إنَّما نحتاج إلى الثَّناء عليه لنعرف النِّعمة الَّتي نحن فيها؛ وإلَّا فإنَّ هذا الدِّين قائمٌ بنفسه لا يحتاج من يُثني عليه أو من يُبيِّن فضائله -كما هو معلومٌ-.

وهذا الحديث -حديث أبي يعلى شدَّاد بن أوس رضي الله عنه- قال فيه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إِنَّ اللهَ كَتَبَ)) ولفظ: ((كَتَبَ)) تأتي في القرآن ويُراد بها: الأمر والوجوب، يعني: أوجب وفرض؛ كما في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[319]، وفي قوله -جلَّ وعلا-:﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾[320] إلى آخر الآيات، فيُراد به الأمر الَّذي هو بمعنى: فَرَضَ وَأَوْجَبَ.

---

[318] ((سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لَا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلَقْتَنِي وأَنَا عَبْدُكَ، وأَنَا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي، فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ)) رواه البخاري.

[319] سورة البقرة: 183

ممَّا يتعلَّق بالأمر أيضًا قوله تعالى:﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[321] أي أمركم بدخولها.

وقد يأتي لفظ (كَتَبَ) في القرآن على (جَعَلَ) كما في قوله تعالى:﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[322] يعني: اجعلنا مع الشَّاهدين، وأيضًا تأتي (كتب) بمعنى (جعل) كما في قوله تعالى:﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[323] فهي تأتي في القرآن على كلِّ حال على خمسة معانٍ وقد تزيد.

هنا قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كَتَبَ الإِحْسَانَ)) الإحسان معناه الاتقان -اتقان الشَّيء-، وقد تقدَّم معنا في حديث جبريل -وهو ثاني الأحاديث الَّتي ذكرها المصنِّف رحمه الله تعال- ما يتعلَّق بهذا الأمر؛ وأنَّ الإحسان مأمورٌ به وهو مُتعلِّقٌ بحقوق الله تعالى، ومتعلِّقٌ بحقوق عباده.

وقوله هنا: ((عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)) يحلو لمن يقول بأنَّ الحروف تتناوب -مِن اللُّغويِّين- يعني أنَّه يقع بينها التَّرادف -بمعنى أنَّه ينوب بعضها عن بعض- أن يقول بأنَّ (على) هنا بمعنى (في): (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ «فِي» كُلِّ شَيْءٍ) والمحقِّقون من أهل العلم وهو قول أبي هلال العسكري واختيار شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- كما حرَّر ذلك في كتابه "مقدِّمة في أصول التَّفسير" على أنَّ العرب لا تعرف هذا التَّناوب وهذا التَّرادف، وهو مذهب البصريين، فأهل البصرة لا يَرَوْن التَّرادف لا بين الكلمات ولا بين الحروف، وإنَّما يقولون بأنَّ الحرف إذا جاء في مكان حرفٍ آخر فإنَّه يدل على تضمين الفعل القائم فيه كما في قوله تعالى:﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[324] يعني أنَّ الباء هنا ضُمِّن المجاوزة، يعني الَّتي يرْوَى بها عباد الله.

---

[320] سورة المائدة: 45
[321] سورة المائدة: 21
[322] سورة آل عمران: 53
[323] سورة المجادلة: 22
[324] سورة الإنسان: 6

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَإِذَا قَتَلْتُمْ)) أي مَن يستحقُّ القتل أو من يجوز قتله مِن إنسانٍ أو حيوانٍ.

((فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ)) القِتلة هنا بمعنى الصِّفة والفِعلة -بكسر القاف-، أي اختاروا أسهل الطُّرق وأخفَّها إيلامًا وإسراعًا في إزهاق الرّوح وخروجها.

وقوله هنا: ((فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ)) معناه: أتقنوا الهيئة الَّتي تذبحون بها.

وقوله: ((شَفْرَتَهُ)) الشَّفرة هي السِّكين العريضة، إذا كانت عريضة يقولون لها: الشَّفرة.

وقوله هنا: ((وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)) بإحداد السِّكِّين، فإذا حدَّ السِّكِّين فإنَّه يُعاجل ذبحها.

وقوله هنا: ((ذَبِيحَتَهُ)) فَعِيلَة بمعنى مفعولة، يعني مذبوحته الَّتي يذبحها.

هذا الحديث فيه فوائد، فوائد أيضًا عظيمة وكثيرة لأنَّه قول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الَّذي آتاه الله جوامع الكلم، وقد مرَّ معنا في حديث ابن مسعود: ((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ)).

✿ من فوائد هذا الحديث:

_ أنَّ الإحسان مأمورٌ به، فقد أمر الله به ورسوله عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[325] وهنا قال: ((فَأَحْسِنُوا)).

[325] سورة آل عمران: 134.

_ ومن فوائد الحديث: أنَّ الإحسان مُتجاوزٌ لعلاقة العبد مع ربِّه إلى كلِّ شيء، فليس الإحسان فقط الَّذي هو أعلى مراتب الإيمان مُتعلِّقٌ بما يفعله العبد مع ربِّه؛ بل هو مكتوبٌ على كلِّ شيءٍ كما قال في هذا الحديث.

_ ومن فوائد هذا الحديث: الرِّفق بأهل العقوبات ومن استوجب القتل -أو ما أشبه ذلك- ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وهي مسألة خلافية بين أهل العلم كما هو معروفٌ في المذاهب الأربعة فيمن قَتل: هل يُقتل بنفس القِتْلة الَّتي قَتل بها من قَتل؟!

فمن أهل العلم من يرى أنَّه يُقتل بنفس القتلة مُطلقًا، وهذا قول جماعات من أهل العلم، وهو اختيار شيخنا الشَّيخ العلَّامة الفوزان -حفظه الله- يرى أنَّه يُقتل بما قَتَل به إلَّا أن يكون هذه الصِّفة ممَّا نُهِيَ عنها كالتَّحريق بالنَّار أو ما أشبه ذلك، واستدلَّ بحديث الرَّجل اليهودي الَّذي قتل تلك الجارية وردَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم رأسه بين حجرين[326].

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: الأمر بالأسباب الموصلة إلى المطلوب لأنَّ النبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ)).

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّه مُتضمِّنٌ للنَّهي عن التَّعذيب والتَّمثيل في القتيل، فإذا استطعنا أن نوصل العقوبة إليه دون إيذاء وإيلامٍ أو بالأصح دون تمثيل فإنَّا نفعل ذلك إلَّا بمقتضى ما جاء به الشَّرع.

_ ومن فوائد هذا الحديث: الرِّفق بالحيوان؛ وهو ما أُنشئت له الجمعيات العالميَّة اليوم مع مُعارضتهم لحقوق الإنسان وتشدُّقهم وإكثارهم من الكلام فيها !

_ ومن فوائد هذا الحديث: النَّدب أو مشروعية الإتقان لكلِّ الأعمال، أكانت واجبةً أو مستحبَّة، لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)) ثمَّ

326 عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك أَنَّ يَهُودِيًّا قَتَلَ جَارِيَةً عَلَى أَوْضَاحٍ لَهَا فَقَتَلَهَا بحَجَرٍ، قَالَ: فَجِيءَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وَبِهَا رَمَقٌ فَقَالَ لَهَا: ((أَقَتَلَك فُلَانٌ؟)) فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا الثَّانِيَةَ، فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا، ثُمَّ سَأَلَهَا الثَّالِثَةَ فَقَالَتْ نَعَمْ وَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا، فَقَتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ حَجَرَيْنِ) [متَّفقٌ عليه واللفظ لمسلم].

فسَّر بعض أفراد هذا العموم، وهـذا التَّفسـير الَّذي هـو ذِكْـر بعـض أفـراد العـامِّ لا يقـتضي التَّخصيص وإنَّما يقتضي التَّنصيص.

_ ومن فوائد هذا الحـديث: أنَّ مراتـب الإحسـان تختلـف بـاختلاف الحـقِّ الواجـب، فالإحسان إلى الوالدين أوجب وأكبر وأفضل وأحقّ -وما أشبه ذلك-.

❁ الحديث الثامن عشر ❁

عَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ:

«اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» .

رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ؛ وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: حَسَنٌ صَحِيحٌ

يعني بعض نُسخ السُّنن الَّتي بين يدي النَّووي -رحمه الله تعالى- للتِّرمذي، يعني: لسُنن التِّرمذي.

- والحديث صحَّحه الحاكم -رحمه الله تعالى-، والحافظ ابن حجر، والعلَّامة الألباني -عليه رحمة الله-، وغيرهم من أهل العلم.

- والحديث ضعَّفه آخرون منهم الدَّارقطني، ومنهم البيهقي، ومنهم ابن مفلح، وكذلك هو صنيع الحافظ ابن رجب الحنبلي -رحمه الله تعالى- في شرحه الَّذي هو "جامع العلوم والحِكم"، وكذلك شيخنا مُقبل -رحمة الله عليه- كان يميل إلى تضعيف هذا الحديث.

والكلام على علَّته يطول؛ أمَّا رواية أبي ذرٍّ فإنَّ ميمون -الرَّاوي عنه- لم يَسمع من أبي ذرٍّ، وذكروا عِللًا أُخرى منها الإرسال كما نبَّه على ذلك الدَّارقطني -رحمه الله تعالى-.

قوله هنا صلَّى الله عليه وسلَّم: ((اتَّقِ اللهَ)) لفظة التَّقوى مرَّت معنا فيما أذكر وأنَّها مفيدةٌ لاتِّخاذ الوقاية والحاجز الَّذي يحجز الإنسان عن معاصي الله، وقد قال عُمر بن عبد العزيز -رحمه الله وغفر له-: (التَّقِيُّ مُلْجَمٌ لَا يَفْعَل كُلَّ مَا يُرِيد)[327]، وجاء عن طَلق بن حبيب أنَّه قال: (إِذَا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ فَأَطْفِئُوهَا بِالتَّقْوَى، قَالُوا: وَمَا التَّقْوَى؟ قَالَ: أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَرْجُو ثَوَابَ اللهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَخَافُ عِقَابَ اللهِ)[328]، وجاء عن الحسن -رحمه الله- أنَّه قال: (مَازَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ حَتَّى تَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَلَالِ مَخَافَةَ الْحَرَامِ)[329].

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((حَيْثُمَا كُنْتَ)) معلومٌ أنَّ (حيث) مُلازمة للظَّرفيَّة؛ أي: في أيِّ مكانٍ كنتَ فيه، وهذا يدخل فيه هنا الزَّمان، وأراد في السِّرِّ والعَلن أن تلزم تقوى الله تعالى.

وقوله هنا: ((وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)) هكذا ضبطها: ((أَتْبِع)).
والسَّيِّئة: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُباعد عن الله تعالى.
والحسنة ضدُّها: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُقرِّب إلى الله -تبارك وتعالى-.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((تَمْحُهَا)) أي تُزيلها، كما في قوله -تبارك وتعالى-:﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[330].

وقوله هنا: ((وَخَالِقِ)) المراد بها: عَامِل، يعني عاملهم وعاشرهم.
و ((النَّاسَ)) هنا وإن كانت (أل) فيها للجنس إلَّا أنَّ المراد بها في أصالة الأمر: المؤمنون، وأيضًا لا مانع من حملها على مجموع النَّاس ممَّن يستحقُّ العشرة الحسنة وإن كان كافرًا.

---

[327] "شرح السُّنَّة" للإمام البغوي رحمه الله؛ الجزء:14، ص:341
[328] "بدائع التَّفسير" لابن القيم رحمه الله، ص309.
[329] "جامع العلوم والحكم" لابن رجب رحمه الله ، ص:209.
[330] سورة هود: 114

فقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((بِخُلُقٍ حَسَنٍ)) الخلق الحسن هو بذل النَّدى وكفُّ الأذى وطلاقة الوجه.

هذا الحديث فيه فوائد عظيمةٌ:

_ من أهمِّها: رعاية النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعنايته لأصحابه بوصيَّتهم بما فيه صلاحهم؛ فإنَّه أوصى معاذًا وأوصى أبا ذرٍّ بهذه الوصيَّة العظيمة.

-وهذا الحديث مُحتملٌ للتَّحسين-.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ الوصيَّة بالتَّقوى فيها جمعٌ لكلِّ الخير ولهذا وصَّى الله بها الَّذين من قبلنا:﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[331]، وهكذا أوصى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الأحاديث، وهكذا جاءت الوصيَّة بها في أوَّل الوصايا في حديثِ العرباض بن سارية:[فَأَوْصِنَا، قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى»]

_ ومن فوائد هذا الحديث: كمال نُصح النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وشفقته بأُمَّته، فإنَّه بهم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[332] -عليه الصَّلاة والسَّلام-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: ما جاءت به الشَّريعة من الرِّعاية والاهتمام والاعتناء بحقوق الآخرين وأنَّ المسلم لا يكون همُّه نفسه.

_ ومن فوائد الحديث أيضًا: التَّرغيب في الخلق الحسن والمحافظة عليه.

---

331 سورة النِّساء: 131

332 سورة التوبة: 128

_ ومن فوائد هذا الحديث ما تقدَّم معنا من الكلام على حديث: ((لَا تَغْضَبْ)) أنَّ الأخلاق تُقسم قسمين: منها ما هو جبليّ، ومنها ما هو مُكتسب.

_ ومن فوائد الحديث: أنَّ الإنسان لا يترك الإحسان بسبب الإساءة، بل إنَّه إذا أساء يلزمه أن يُحسن ليزيل هذه الإساءة.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الحسنات مُكفِّرة للسَّيِّئات، على تفاصيل عند أهل العلم فيها لأنَّ الكبائر لابدَّ فيها من التَّوبة.

هذا أهمّ ما ظهر من فوائد هذا الحديث، وفيه فوائد أيضًا أُخرى مُتعلِّقة به، إلَّا أنَّ هذا هو أظهرها وأبرزها.

۞ الحديث التاسع عشر ۞

عَن أَبِي العبَّاسِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبّاسٍ رضي اللهُ عَنْهُمَا قَـالَ:
كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ:
«يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَـظِ اللهَ تَجِـدْهُ تُجَاهَكَ.
إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ.
وَاعْلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُـوكَ بِشَيْءٍ، لَـمْ يَنْفَعُـوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ.
وَإِنِ اجْتَمَعُـوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَـمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَـدْ كَتَبَـهُ اللهُ عَلَيْكَ.
رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وقَالَ: حَدِيثٌ حَسَـنٌ صَحِيحٌ.
وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذيِّ: «احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَـرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ.
وَاعْلَمْ: أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَـأَكَ لَـمْ يَكُـنْ لِيصِيبَكَ.

وَأَنَّ الْخَلَائِقَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُعْطُوكَ شَيْئًا لَمْ يُـرِدِ اللهُ أَنْ يُعْطِيَكَـهُ لَـمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، أَوْ أَنْ يَصْرِفُوا عَنْكَ شَيْئًا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُعْطِيَكَهُ لَـمْ يَقْـدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَأَنْ قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.
فَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ.
فَإِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَالْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

قول المصنِّف رحمـه الله تعـالى -قبـل أن نـدخل في ألفـاظ الحـديث-:[وَفِي رِوَايَـةِ غَـيْرِ التِّرْمِذِيِّ] هذه الرِّواية يُشير بها إلى ما أخرجه عبدُ بن حُميدٍ في مُسنده، وعبدُ بن حُميـد رَواهـا من طريق المثنَّى بن الصَّبَّاح عن عطاء عن ابن عبَّـاس، وهـذه الرِّوايـة في سـندها المثنَّى بـن الصَّبَّاح وهو ضعيفٌ كما قاله الإمام أحمد وابن مَعين والنَّسائي وغيرهم، وله مناكير.

- وهذا الحديث صحَّحه التِّرمذي.
- وحسَّنه الحافظ ابن رجب في شرحه، والعلَّامة الألباني -عليه رحمة الله- في "الصَّحيحة"، وشيخنا مُقبل في "الصَّحيح المسند ممَّا ليس في الصَّحيحين".

* وهذا الحديث حديثٌ عظيم جليلُ القَدْر، قد صنَّف فيه الحافظ ابن رجـب كتابًـا مستقلًّا عندما شرحه في كتابه "جامع العلوم والحِكـم" وسمَّاه: "نور الاقتباس".

وهذا الحديث؛ قول ابن عبَّاس رضي الله عنهما:[كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] وقع في بعض النُّسخ: (كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[333] هنا يُخبر ابـن عبَّـاس رضي الله

[333] قال أحمد شاكر رحمه الله في "المسند": إسناده صحيح.

عنهما عن الحالة الَّتي كان عليها مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من جهة ضبط الرِّواية، فإنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا يعتنون بهذا النَّقل، ويذكرون ما يُحيط بالرِّواية من الأحداث، وهذا من عنايتهم بنقل السُّنَّة وضبطها كما مرَّ معنا وسيأتي كثيرًا.

قوله هنا: ((يَا غُلَامُ)) الغلام المراد به الصَّبيّ، مأخوذٌ مِن الغُلمة وهي الحركة والاضطراب، والغُلمة هذه -أو الغلام- هي إحدى مراحل الإنسان الَّتِّي يمرُّ بها، فقد قال أبو جعفر النَّحوي في كتابه "خلق الإنسان": (وَحَكَى ثَابِت:

_ مَادَامَ الْوَلَدُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فَهُو جَنِينٌ.

_ فَإِذَا وُلِدَ سُمِّيَ صَبِيًا مَادَامَ رَضِيعًا.

_ فَإِذَا فُطِمَ سُمِّي غُلَامًا إِلَى سَبع سِنِين.

_ ثُمَّ يَصِيرُ يَافِعًا إِلَى عَشرِ حِجَج.

_ ثمَّ حَزَوَّرًا إِلَى خَمْس عَشْرَة سَنَة.

_ ثُمَّ يَصِيرُ قَمْدًا إِلَى خَمْس وَعِشْرِين سَنَةٍ.

_ ثُمَّ يَصِيرُ عَنَطْنَطًا إِلَى ثَلَاثِين سَنَة.

_ ثمَّ يَصِيرُ مُلًا إِلَى أَرْبَعِين سَنَةٍ.

_ ثمَّ يَصِيرُ كَهْلًا إِلَى خَمْسِين سَنَةٍ.

_ ثُمَّ يَصِيرُ شَيْخًا إِلَى ثَمَانِين سَنَةٍ.

_ ثمَّ يَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ هِمًا فَانِيًا كَبِيرًا)[334] وهذا نقله عنه الفاكهاني في "رياض الأفهام شرح عُمدة الأحكام"، ونقله عنه العيني في شرحه على صحيح الإمام البخاري، هذا معنى غُلام.

وقد يُطلق الغلام على غير هذه المرحلة أي على ما فوق سبع سنين كما جاء في إطلاقه في عليٍّ رضي الله عنه وأرضاه.

وقول النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يَا غُلَامُ)) هاهنا عرفنا معنى الغلام.

---

[334] "رياض الأفهام" ج1، ص213.

وقوله: ((كَلِمَاتٍ)) هذا من جُموع القلَّة وله خمس صِيغ، والعرب تستخدمه من أجل بيان التَّقليل واستراحة النَّفس إلى هذا الشَّيء القليل، ومنه تسمية الجويني كتابه بـ:"الورقات" لأنَّه أراد أن يُخفِّف حِمله وعِبئهُ على طالبه، وهذا القول منه عليه الصَّلاة والسَّلام فيه بيان لقضية التَّعليم -كما سيأتي معنا-.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((احْفَظِ اللهَ)) المراد به حِفظُ الأوامر بامتثالها وحفظ النَّواهي باجتنابها.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((تَجِدْهُ تُجَاهَكَ)) جاء في الرِّواية الثَّانية -وإن كانت معلولة- : ((تَجِدْهُ أَمَامَكَ)) أي ناصرًا ومُؤيِّدًا، وهذا محمولٌ على المعيَّة الخاصَّة، لأنَّ من حَفِظ أوامر الله -جلَّ جلاله- حفظه الله برعايته والقيام بحقوقه.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَإِذَا اسْتَعَنْتَ)) أي طلبت العون، لأنَّ السِّين والتَّاء إذا دخلت على الفعل دلَّت على الطَّلب إلَّا في حالات نادرة كما في قوله تعالى:﴿وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ﴾[335] ليس معناها -تعالى الله عن ذلك- طلب الغنى، وكذلك (الاستحاضة) ليس معناه أنَّها طلبت الدَّم، في حالات ذكرها بعض أهل العلم.

وقوله: ((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ)) الأمَّة المراد بها هنا: الجماعة، وتُطلق في القرآن على ستَّة معانٍ:

_ منها الجماعة.
_ ومنها الإمام.
_ ومنها المدَّة مِن الزَّمن.
_ ومنها الصِّنف.

وغيرها.

[335] سورة التغابن: 6

قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ)) يعني من جهة التَّقدير، لأنَّ الكتابة إحدى مراتب القدر.

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُه   وَخَلْقُه وَهُوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

وقوله هنا: ((رُفِعَتِ الأَقْلَامُ)) أي أنَّ القدر قد كُتب، لأنَّ القدر كُتب بالقلم.

((وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)) كذلك من الكتابة.

هذه بعض الألفاظ الغريبة في هذا الحديث.

وهذا الحديث فيه فوائد:

_ من أهمِّها: اعتناء النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأصحابه صغارًا وكبارًا بتعليمهم العلم.

_ ومن فوائده: أنَّ النّداء يُحضر صاحبه معه الذّهن، فإذا أردتَ أن تُعلِّم فإنَّك تُنادي مَن تُعلِّمه، وهذا في القرآن وفي السُّنَّة كثيرٌ جدًّا لا يُحصيه إلَّا الله.

_ ومن فوائده: تيسير العلم وتسهيله لتقليله؛ في تقليل ألفاظه، لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((كَلِمَاتٍ)) وهذا الجمع من جُموع القلَّة.

_ ومن فوائده: أنَّ الجزاء من جنس العمل ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[336] فإذا كان الإنسان حافظًا لحدود الله تعالى فإنَّ الله -تبارك وتعالى- يحفظه ويرعاه ويكلأُه.

[336] سورة الرحمن: 60

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ معيَّة الله -تبارك وتعالى- مُصاحبة لأهل الطَّاعة والإحسان.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ العبد لا يتوجَّه بالسُّؤال إلى أحدٍ من الخلق كائنًا من كان، لا عبدًا صالحًا ولا ملكًا مُقرَّبًا ولا نبيًّا مُرسلًا، وكذلك الاستعانة لا تطلب إلَّا من الله.

_ وفيه: ما كان عليه النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام من تعليم أصحابه التَّوحيد بتعليم أفراده، فإنَّ الدُّعاء هو العبادة كما هو معلومٌ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[337].

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ من آمن بالله تعالى ووحَّده وعرف الله -جلَّ وعلا- حقَّ المعرفة فإنَّه يتوكَّل على الله -جلَّ جلاله- ويعلم أنَّ النَّاس كلّهم وأنَّ الخلق جميعهم لو اجتمعوا على نفعه ما نفعوه، ولو اجتمعوا على ضرِّه ما ضرُّوه، هذا هو الَّذي يُورثُه الإيمان بالقدر وأنَّ ما قدَّره الله كائن.

_ ومن فوائد هذا الحديث: الإيمان بالقدر؛ وأنَّ القدر مراتب ومنازل، وأنَّ من هذه المراتب: مرتبة الكتابة.

❁ وأمَّا الرِّواية الثَّانية:

فهي لا تختلف عن الرِّواية قبلها إلَّا أنَّ فيها بعض الزِّيادات.

[337] سورة غافر: 60

وقول نبيِّنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ)) قُلنا بأنَّ المراد حِفظ الأوامر واجتناب النَّواهي، والَّذي حملنا على هذا التَّفسير أمران:

_ الأمر الأوَّل: أنَّ الله -جلَّ وعلا- هو الغنيُّ الحميد، فليس بحاجة إلى أحدٍ من خلقه -تبارك وتعالى-، كما جاء في حديث أبي ذرّ في صحيح مسلم -وسيأتي معنا في هذا الكتاب-: ((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)).

_ والأمر الثَّاني: أنَّ الحفظ لله -تبارك وتعالى- جاء في القرآن بمعنى حِفظ أوامره، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم لمَّا أثنى على المؤمنين وعلى صفاتهم؛ قال -جلَّ وعلا-:﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾[338] المراد بالحدود: المحرَّمات فلا تُنتهك، والمباحات فلا تُتجاوز؛ هذا ما تُطلق عليه الحدود في القرآن، وربُّنا -تبارك وتعالى- ذكر الحِفظ لأوامره في أعظم المقامات: ذكره في الصَّلاة؛ كما في قوله تعالى:﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾[339]، وكما في قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[340]، والنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بيَّن أنَّ حِفظ الوضوء من الإيمان كما في حديث أبي أُمامة وثوبان رضي الله عنهم أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ))[341]، وكذلك أمر الله -تبارك وتعالى- بحِفظ الأيمان كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[342].

❀ ومعنى:﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فيها ثلاثة أوجه:

_ احفظوها قبل عقدها، بمعنى أنَّ الإنسان لا يُكثر اليمين والحَلِف.

_ وبعد عقدها؛ بملازمتها إن كان فيها برٌّ.

_ والثَّالث: برعاية كفَّارتها إن حنث الإنسان فيها.

---

[338] سورة التوبة: 112
[339] سورة البقرة: 238
[340] سورة المؤمنون: 9
[341] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح ابن ماجه".
[342] سورة المائدة: 89

والحفظ أيضًا جاء في القرآن في قوله تعالى مُبيِّنًا الثَّناء على المؤمن الَّذي حفظ حدود الله:﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[343] وحفيظ هنا: فَعيل؛ بمعنى حَافظ، أي الَّذي حفظ حقوق الله -تبارك وتعالى-.

فالمسلم يحفظ أوامر الله، يحفظ حدود الله، يحفظ ما أمر الله -تبارك وتعالى- به، لأنَّ هذا هو الَّذي أوجبه -جلَّ جلاله-.

✽ ومن طرائف ما يُروى أنَّ أحد الأئمَّة -رحمهم الله- كان على قاربٍ صغيرٍ فلمَّا قاربوا من النَّهر -وقد جاوز التِّسعين من عمره- نهض وقفز من على ذلك القارب إلى الشَّاطئ؛ فقالوا له: (أَتَفْعَلُ هَذَا وَأَنْتَ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَفِي هَذَا السِّنِّ!) قال: (هذِهِ جَوارِحُ حفظناهَا عنِ الْمَعَاصي فِي الصِّغَرِ، فَحَفِظَهَا اللهُ عَلَيْنَا فِي الْكِبَرِ)[344].

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((يَحْفَظْكَ)) هذا -كما قُلنا- من باب المُقابلة بالجزاء، والجزاء من جنس العمل، بمعنى أنَّه يعصمك من كلِّ شرٍّ، فإذا عرف المسلم هذه اللَّطيفة العظيمة أنَّ حِفظه لأوامر الله وحِفظه لجوارحه وحِفظه لأوامر الله بامتثالها ولنواهي الله باجتنابها يُحدثُ له هذا الأجر العظيم الَّذي هو حِفظ الله -تبارك وتعالى- له؛ فإنَّ ذلك يحمله على مُلازمة حِفظ الأوامر والعمل بها.

---

[343] سورة ق: 32-33

[344] قَالَ ابْنُ رَجَب رحمَهُ الله: (كَانَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَدْ جَاوَزَ الْمائَةَ سَنَةً وَهُوَ مُمَتَّعٌ بِقُوَّته وَعَقْله، فَوَثَبَ يَوْمًا وَثْبَةً شَدِيدَةً، فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: هَذِهِ جَوَارِحُ حَفِظْنَاهَا عَنِ الْمَعَاصِي فِي الصِّغَرِ، فَحَفِظَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي الْكِبَرِ) ["جامع العلوم والحكم" ص437]

الحديث العشرون

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو الأَنْصَارِيِّ الْبَدْرِيِّ رضي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

هذا الحديث فيه قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ)) والصَّحيح فيها أنَّها بياءين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[345] ولذلك إذا دخل عليها الجازم كما هنا فإنَّك تُبقي لها ياءً، وإنَّما تحذف ياء العلَّة الَّتي هي علامةٌ للجزم.

والحياء خصلةٌ عظيمةٌ تمنع الإنسان من الأشياء الَّتي لا يتليق به من سفاسف ورذائل الأمور. والحياء شُعبة من الإيمان كما بيَّنه نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم في حديث: ((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ))[346] أو ((بِضْعٌ وَسَبْعُونَ))[347] والرَّواية الأولى أصحّ، ((شُعْبَة، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنَ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ))[348]، وجاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام كما في صحيح مُسلم أنَّه قال: ((الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ))[349] هكذا جاء عنه عليه

[345] سورة البقرة:26
[346] اللَّفظ للبخاري.
[347] اللَّفظ لمسلم.
[348] اللَّفظ لمسلم.
[349] رواه مسلم.

الصَّلاة والسَّلام، وقوله أيضًا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**))[350]، وكما مرَّ على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: ((**دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ**))[351].

والحياء فضله عظيم فقد جاء في حديث ابن عُمر رضي الله عنهما أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**إِنَّ الْحَيَاءَ وَالإِيمَانَ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الآخَرُ**))[352].

✿ وهذا الحديث فيه فوائد:

_ من فوائده: إخبار النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ببعض ما كانت عليه الأُمم قبله، وهذا لا يكون إلَّا بوحي، وهو من دلائل نبوَّته عليه الصَّلاة والسَّلام، لأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أخبر بأنَّ هذا ممَّا أُدرك من كلام النُّبوَّة، والعلم بالنُّبوَّة إنَّما يكون بالوحي، فالنَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام أخبر بهذا الَّذي بقيَ من النُّبوَّة الأولى ولم يُبيّن النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام مَن المُراد بهذا النَّبيّ أو أنَّ هذا عامٌّ في جميع رسالات الأنبياء.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ العرب قد بقيَ عندهم بقايا من أوامر الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام وكانوا يتعبَّدون بها كما هو معلومٌ في حال المشركين؛ فإنَّهم كانوا يحجُّون ويصومون ويطوفون بالبيت وكذلك كانوا يختتنون، إلَّا أنَّهم أحدثوا بدعًا زادوها على أصل ما تركه الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، ومِن هنا قال بعض أهل العلم بأنَّه لا وُجود لما يُسمَّى بالفترة -بمعنى أنَّه لم يُبعث رسول- ولقول الله تعالى:﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[353].

وأمَّا قوله:﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾[354] فليس المراد أنَّه لم يُبعث فيها رُسل وإنَّما بقي بقايا من دعوة الرُّسل تقوم بها الحجَّة على الخلق.

---

350 متَّفقٌ عليه؛ من طريق عمران بن حُصين رضي الله عنه.

351 متَّفقٌ عليه؛ من طريق ابن عمر رضي الله عنهما.

352 صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" من طريق ابن عمر رضي الله عنهما.

353 سورة فاطر: 24

354 سورة المائدة: 19

_ ومن فوائد هذا الحديث: أن يُوكَل الإنسان إلى التَّهديد، فإنَّ التَّهديد نوعٌ من النَّهي.

✽ وهذه اللَّفظة -قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))- فيها قولان لأهل العلم:

• منهم من قال إنَّ هذا ليس بمعنى الأمر بمعنى أنَّه يصنع ما يشاء إذا لم يحل بينه وبين صُنعه الحياء.

• ومنهم من قال: إنَّ هذا المعنى جاء على سبيل الذَّمِّ ثمَّ حملوه على طريقتين؛ فقالوا إنَّه أمرٌ بمعنى التَّهديد والوعيد ويكون المعنى: (إذا لم يكن حياء فاعمل ما شئت فالله يجازيك عليه) كقوله تعالى:﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[355]، وكذلك قوله -تبارك وتعالى-:﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ﴾[356] وهذا المعنى هو الَّذي اختاره شيخنا الشَّيخ صالح الفوزان وسمعتُه منه؛ فقال: (هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ مِثْل قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[357] فَلَيْسَ تَخْيِيرًا لَهُ أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَإِنَّمَا هُوَ تَهْدِيدٌ) وهذا المعنى ظاهرٌ، فإذًا يكون هذا من باب التَّهديد كما في هؤلاء الآيات الثَّلاث؛ ابن رجب ذكر هاتين الآيتين:﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقوله تعالى:﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾، وشيخنا هنا ذكر في شرحه:﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

_ وهذا الحديث -كما سبق- فيه هذه الفائدة العظيمة: أنَّ ما أُدرك من كلام النُّبوَّة الأولى ((إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)).

_ وأيضًا من فوائده الأصولية: أنَّ ما أُدرك من كلام الأنبياء ولم يأتِ في شرعنا ما يخصُّه أو ينقُضه أو ينسخه فإنَّه معمولٌ به -على اختلافٍ وتفصيلٍ لأهل العلم في هذه المسألة-.

---

[355] سورة فصلت: 40
[356] سورة الزمر: 15
[357] سورة الكهف: 29

_ ومن فوائد هذا الحديث: الحث على الحياء؛ لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام جعله حاجزًا بين الفعل القبيح.

_ ومن فوائد هذا الحديث: اتِّفاق النُّبوَّات على فعلِ الخير.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الإسلام يدعو إلى أكمل الفضائل وأحسن الأخلاق.

۞ الحديث الحادي والعشرون ۞

عَنْ أَبِي عَمْرٍو -وَقِيلَ: أَبِي عَمْرَةَ-، سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي اللهُ عَنْهُ

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ.

قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ».

رَوَاهُ مسلِمٌ

والَّذي وقع في النُّسخ الَّتي قرأنا من صحيح مُسلم وسمعنا على الشُّيوخ أنَّ لفظ الحديث: ((قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ))[358] (فَـ) بدون: ((ثُمَّ)) وهذه أبلغ، لماذا؟ لأنَّها لا تقتضي التَّراخي ولا التَّأخير كما في قصَّة السَّحرة لمَّا آمنوا.

هذا الحديث له زيادة عند التِّرمذي قال: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ:«هَذَا»)[359] وهذه الرِّواية جاءت عند التِّرمذي وأحمد وابن ماجه وغيرهم، وهذه الزِّيادة حَسنة على أقلِّ أحوالها.

---

[358] رواه مسلم.

[359] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التِّرمذي".

۞ وهذا الحديث فيه فوائد:

_ من فوائده: الرُّجوع إلى أهل العلم بسؤالهم واستشارتهم وأخذ العلم عنهم، فإنَّ سفيان بن عبد الله الثَّقفي رضي الله عنه سأل النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، والعلماء ورثة الأنبياء.

_ ومن فوائد هذا الحديث: ما أُوتِيَه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جوامع الكَلِم، فقد اختُصِر له الكلام اختصارًا.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ السَّائل يكون بليغًا في مسألته لأنَّ الصَّحابيَّ رضي الله عنه قال:[قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ] فقد أبلغ هذا الرَّجل حتَّى حصل على أعظم وصيَّة وأجمع وصيَّة وهي: الأمر بالعلم والعمل ((قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ)) أو ((فَاسْتَقِمْ)).

والاستقامة حقيقتها لُزوم طاعة الله -تبارك وتعالى-، أي: اِلْزَم فعل المأمور، وترك المنهي.

❋ وقبل هذا؛ النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال له: ((قُلْ)) و (قُل) حيثُ وَرَدَتْ معك -خُذها قاعدة لا يخلف عنها فردٌ من أفرادها- حيث وردت معك: ((قُلْ)) في نُصوص الشَّريعة -في نصوص الكتاب والسُّنة-، فإنَّ المراد بها: قول القلب وقول اللِّسان؛ لأنَّ قول اللِّسان لابدَّ وأن يُواطِئ قول القلب، فلا يصح أن يُكتفى بأحدهما عن الآخر أبدًا، ففي قوله -تبارك وتعالى- مثلًا:﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[360] يعني قَوْل قلبٍ وقول لسان، وهكذا في نصوصٍ كثيرة:﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[361].

كما أنَّ القول أيضًا يدخل فيه الفعل، وهذا المتقرِّر عند الأُصوليِّين واللُّغويين وغيرهم، لماذا؟ لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام كما جاء في حديث عمَّار بن ياسر في التَّيمم أنَّه عليه الصَّلاة

[360] سورة البقرة: 136
[361] سورة الإخلاص: 1

والسَّلام قال: («إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا» ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً)[362] فسمَّى -عليه الصَّلاة والسَّلام- الفعل قولًا.

* والإيمان مركَّب من هذه الثَّلاثة الأمور، أعني:

_ من قول القلب.

_ وقول اللِّسان.

_ ومن عمل الجوارح.

وقوله هنا: ((قُلْ آمَنْتُ)) محمولٌ على هذا المعنى.

والله -جلَّ وعلا- قد أمر بالاستقامة في كتابه الكريم في مواضع؛ لأنَّ الاستقامة ضدّ الطُّغيان، كما في قوله -تبارك وتعالى-:﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[363]، وكذلك في قوله -جلَّ وعلا-:﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾[364]، وكما في قوله -تبارك وتعالى-:﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[365]، وكما في قوله -جلَّ جلاله-:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[366]، وفي قوله -جلَّ وعلا-:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[367].

* والاستقامة جاء في حقيقتها وألفاظها شيءٌ كثير، قال الحافظ ابن القيِّم: (وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ- يَقُولُ: اسْتَقَامُوا عَلَى مَحَبَّتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتُوا عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً)[368] وهذا كلام ابن القيِّم الَّذي نقله عن شيخه أبي العبَّاس ابن تيمية -

---

[362] متَّفقٌ عليه؛ واللَّفظ لمسلم.
[363] سورة فصلت: 6
[364] سورة هود: 112
[365] سورة الجن: 16
[366] سورة الأحقاف: 13
[367] سورة فصلت: 30
[368] "مدارج السَّالكين" ج2، ص104.

رحمه الله-، وقد قال شيخ الإسلام -رحمـه الله تعـالى- في كتابـه "قاعـدة في المحبَّـة": (أَعْظَـمُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ)[369].

فمن أراد العلم والعمل الجامع فإنَّه في هذه الوصية؛ لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّـلام قـال له: ((قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ)) أو ((ثُمَّ اسْـتَقِمْ)) وهـذه وصـيَّة جامعـة لأنَّ حقيقـة الاسـتقامة بامتثال الأوامر بفعلها، واجتناب النَّواهي بتركها، وهذا هو الَّذي جاء به رسـول الله صـلَّى الله عليه وسلَّم، لأنَّ بناء الدِّين مُتلازمٌ بين الظَّاهر وبين الباطن.

[369] جاء في "مدارج السَّالكين" لابن القيِّم رحمه الله، ج2، ص 106 بهذا اللَّفظ؛ وبلفظ: (الْكَرَامَةُ هِيَ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ) [في كتابه "قاعدة في المحبة "؛ ص: 59]

۞ الحديث الثاني والعشرون ۞

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:
يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَاتِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذلِكَ شَيْئًا، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

هذا الحديث في صحيح الإمام مسلم كما عزاه إليه المصنِّف -رحمه الله تعالى-؛ بهذا اللَّفظ.

وقول جابر رضي الله عنه:[أَنَّ رَجُلًا] هذا الرَّجل جاء مُصرَّحًا به كما بيَّن ذلك النَّووي بأنَّه: النُّعمان بن قَوْقَل رضيَ الله عنه.

وقول الصَّحابي رضي الله عنه:[أَرَأَيْتَ] هنا بمعنى: أخبرني، كما قرَّر ذلك طائفةٌ من الشُّرَّاح في بيان هذه اللَّفظة [أَرَأَيْتَ] بمعنى أخبرني، ليس معناها الرُّؤية العلمية ولا الرُّؤيا القلبية، ولكنَّها راجعةٌ إلى معنى العلم.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام:[إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَاتِ] المراد بالمكتوبات: المفروضات، وهي الخمس الفرائض الَّتي فرضها الله -تبارك وتعالى- على العباد.

والمراد بقول الصَّحابي رضي الله عنه:[وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ] أي اعتقدتُ حلَّه، لأنَّه لا يجب على الإنسان أن يفعل كلَّ الحلال أو أن يأتيَ كلَّ الحلال، وهكذا بالنِّسبة للحرام أن يعتقد حُرمته مع اجتنابه.

وقوله هنا:[وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذلِكَ] أي على ما فرض الله -تبارك وتعالى- من هذه الفرائض.

هذا الحديث فيه فوائد:

_ من فوائده: الرُّجوع إلى أهل العلم بسُؤالهم واستشارتهم واستفتائهم.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم قد يُـبْهِم بعضـهم بعضًـا لعـدم وُجود مَصلحة في الذِّكر، فإنَّ جابرًا رضي الله عنه قال:[أَنَّ رَجُلًا] وهذا يُسمَّى عند أهل العلـم بـ: المُبهم، وهو نوعٌ من علومِ الحديث.

وَمُبْهَمٌ مَـا فِيهِ رَاوٍ لَمْ يُسَّـم[370]

_ ومن فوائد هذا الحديث: ذِكر ما يفعله الإنسان من الأعمال الصَّالحة إذا أُمِنت الفتنة، لأنَّ الصَّحابيَّ رضي الله عنه أخبر بأنَّه يُصلِّي المكتوبات ويصوم رمضان ويُحلُّ الحلال ويُحـرِّم الحرام؛ وإلَّا فإنَّ الأصل أن لا يَذكر المرء عمله إلَّا إذا دَعت إلى ذلك مَصلحة مثل السُّـؤال أو أن يكون مظلومًا بأنَّه لا يعمل خيرًا أو لا يعمل صالحًا أو لا يُصلِّي فإنَّه في مَقام الدِّفـاع عـن نفسه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: إجمال النَّـبيِّ صـلَّى الله عليـه وسـلَّم في الجـواب لأنَّـه قـال: ((نَعَمْ)) وفيه ردٌّ على بعض الشُّرَّاح الَّذي يقولون بـأنَّ (نعـم) لابُـدَّ وأن يتبعهـا التَّفصـيل في الجواب؛ واستدلُّوا على ذلك بمواضع جاءت في السُّنَّة مثل حديث ابن عمر في الصَّحيحين عن أبيه لمَّا سأل النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: (أَيَرْقُدُ أَحَدُنَا وَهُوَ جُنُبٌ؟)[371] فقال: **((نَعَمْ؛ إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فلْيَرقُدْ))**[372] فهذا إنَّما جاء من باب بيان الوضوء وإلَّا فإنَّ المجيب إذا أجاب في مقام الإثبات بمجرَّد اللَّفظة (نعم) فإنَّ هذا يكفي.

---

370 منظومة البيقوني.

371 مُتَّفقٌ عليه.

372 مُتَّفقٌ عليه، واللَّفظ للبخاري.

_ وفيه أيضًا: ما كان عليه النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الإيجاز والاختصار حتَّى قد تُعدُّ ألفاظه، وهو ممَّا يُمدح به العلم وأهله كما ذكر ذلك الحافظ ابن رجب الحنبلي -رحمه الله تعالى- في كتابه "فضل علم السَّلف على علم الخلف".

❁ وقد بينَّا أنَّ قول الصَّحابي رضي الله عنه -وهو من أهمّ ما ينبغي أن يُذكر-: أنَّ قوله رضي الله عنه:[وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ] أي اِعتقدتُ حلَّه، لأنَّ بعض أهل العلم يقول: (فَعَلْتُهُ مُعْتَقِدًا حِلَّهُ) وهذا فيه نظر، لأنَّه لا يلزم أن يفعل كلَّ الحلال وإنَّما المراد أنَّه يعتقد أنَّه حلال أحلَّه الله -جلَّ وعلا-، ومن هنا أدخل الأصوليُّون القسمة الخماسيَّة في الأحكام الشَّرعية.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المسلم له النَّجاة إذا لم يأتِ بالنَّوافل إلَّا أنَّه يفوته خيرٌ كثير.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ العامل للصَّالحات يدخل الجنَّة، فالأعمال سببٌ لدخول الجنَّة.

_ ومن فوائد هذا الحديث: ما كان عليه الصَّحابة رضي الله عنهم مِن الحِرص على العلم ومِن الحرص على العَمل ومِن الحِرص على دُخول الجنَّة.

_ ومن فوائده: أنَّ الله -تبارك وتعالى- يسَّر الأعمال الصَّالحة لعباده، والعبد يعمل بما أمره الله -تبارك وتعالى- به.

۞ الحديث الثالث والعشرون ۞

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيّ رضي اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ.

وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ.

وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.

وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ.

وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ.

كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

هذا الحديث العظيم من جوامع كلمه عليه الصَّلاة والسَّلام وممَّا اختصَّه الله -تبارك وتعالى- له من الكلام.

وقد اشتمل هذا الحديث على أمورٍ عظيمة وعلى مسائل جليلة مُتعلِّقة بفرائض الأعمال وفضائلها، ومُتعلِّقة بصلاح الباطن وصلاح الظَّاهر، ومُتعلِّقة أيضًا بعلاقة العبد بربِّه -تبارك وتعالى- وعلاقته بنفسه.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هاهنا: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ))

_ ((الطُّهُورُ)) بالضَّم -يعني بضمّ الطَّاء- معناه: التَّطهير أو التَّطهُّر لأنَّه مصدر مِن (طَهُر، يَتَطهَّر)، والمراد به التَّطهُّر من الحدث والنَّجس.

_ وأمَّا (الطَّهور) -بالفتح-: فهو مادة التَّطهير، يعني الماء وما ينوب عنه -كما هو معلوم-.

وقلْ مثل هذا في الوَضوء والوُضوء -وما أشبه ذلك-.

والطَّهارة قسمان: حسِّيَّة، ومعنويَّة -كما هو معلومٌ-، وهذا الحديث شاملٌ للنَّوعين.

_ فأمَّا الحسِّية: فإنَّها الطَّهارة من الأنجاس والأحداث.

_ وأمَّا المعنوية: فإنَّها الطَّهارة من الشِّرك والمعاصي والبدع.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هاهنا: ((شَطْرُ الإِيمَانِ)) الشَّطر ما المراد به؟ شطرُ الشَّيء نصفه، هذا الَّذي تُفيده لغة العرب وخطابها، فإنَّهم يقولون: (هذا شطر الشَّيء) بمعنى أنَّهم يجعلونه النِّصف منه.

وأمَّا ((الإِيمَان)) هاهنا فقد اختُلف في المراد به، ما المراد به؟

هل المراد الإيمان الَّذي هو على ظاهر اللَّفظ وهو التَّصديق والإقرار وما يدخل في ذلك من أعمال الباطن؟

أو أنَّ المراد بالإيمان هاهنا الصَّلاة كما عبَّر الله -تبارك وتعالى- عن ذلك في قوله:﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[373] -فإنَّ المراد هاهنا بالإيمان: الصَّلاة-؟

_ من أهل العلم من قال بهذا.

_ ومن أهل العلم من قال بالقول الَّذي تقدَّم.

يعني منهم من قال بأنَّ المراد بالإيمان هاهنا الإيمان الَّذي هو مُتعلَّق الأمور الباطنة، ومنهم من قال إنَّ المراد به الإيمان الَّذي هو الصَّلاة فجعل الطُّهور شطر الصَّلاة.

[373] سورة البقرة: 143

ولا مانع مِن حمل الحديث على المَعْنَيين، يعني أنَّه شاملٌ لهذا وهذا، ويكون دليلًا على مَطلب الطَّهارة الحسِّية وعلى مَطلب الطَّهارة المعنوية لأنَّ أحدهما لا يُغني عن الآخر، هذا الَّذي رجَّحه طوائف من أهل العلم، وهو اختيار شيخنا العلَّامة الفوزان -حفظه الله-.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هاهنا: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ)) فيه دليل وفائدةٌ جليلة على ضرورة الاعتناء بالطَّهارة بنوعيها:

_ فإنَّ العبد المسلم مطلوبٌ منه أن يعتنيَ بطهارة باطنه، يعني بطهارة قلبه حتَّى يُدرك قلبًا سليمًا، والقلب السَّليم هو القلب الَّذي سلم من كلِّ شبهة تُعارض خبر الله ومن كلِّ شهوة تُعارض أمر الله ونَهْيَ الله -كما عرَّفه بذلك الحافظ ابن القيِّم عليه رحمة الله-[374]، وسبيل الحصول على القلب السَّليم إنَّما هو تطهيره من الشِّرك ومن البدع ومن المعاصي.

_ وكذلك العبد مطلوب منه أن يَسعى في طهارة حسِّه، بأن يكون طاهرًا من جهة الحس بعيدًا عن مواطن النَّجاسة، وبعيدًا حتَّى عن الأحداث كما جاء في سنن ابن ماجه من حديث أبي أُمامة[375] ومن حديث ثوبان أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ))**[376] والمحافظة على الوضوء مُستلزمة لأن يكون الإنسان طاهرًا من الأحداث وطاهرًا من الأنجاس.

هذا ما يعلَّق بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ)).

❁ وأمَّا قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ)) هذا فيه فضلُ هذه الكلمة الَّتي هي (الْحَمْدُ للهِ) حتَّى كان بعض أهل العلم يُفضِّلها على قول (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) كما هو معلوم من اختلافهم، وقد ذكر ذلك القُرطبي -رحمه الله- في أوَّل تفسيره، لأنَّها مُتضمِّنة

---

374 قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَقَد اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ النَّاسِ فِي مَعْنَى الْقَلْبِ السَّلِيمِ، وَالأَمْرُ الْجَامِعُ لِذَلِكَ: أَنَّهُ الَّذِي قَدْ سَلِمَ مِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُخَالِفُ أَمْرَ اللهِ وَنَهْيَهُ، وَمِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ) ["إغاثة اللهفان" ص15]

375 من طريق أبي أمامة رضي الله عنه بلفظ: ((اِسْتَقِيمُوا، وَنِعِما إِنِ اسْتَقَمْتُمْ،وَخَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاة، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)) ["سنن ابن ماجه" رقم:179، ج1، ص102] وصحَّحه الألباني رحمه الله.

376 ((اِسْتَقِمُوا وَلَنْ تُحصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)) ["سنن ابن ماجه" رقم:177، ج1، ص101] من طريق ثوبان رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني رحمه الله.

لهذه الكلمة فإنَّ من حمد الله تضمَّن كلامه هذا قـول هـذه الكلمـة الَّـتي هي: (لَا إِلَه إِلَّا الله)، ولاشكَّ في فضل الحمد.

و ((الْحَمْدُ)) (أل) فيه هنا للجنس، أي استغراق جنس المحامد، فالله محمود على رُبوبيته وعلى إلهيته وعلى أسمائه وعلى صفاته، والحافظ ابن القـيِّم -رحمـه الله- صـنَّف رسـالة مُسـتقلَّة في مواطن الحمد وهي مطبوعة مُفردة، في المواطن الَّتي شُرِع فيها قول: (الحمدلله).

فالحمد هنا -كما قلنا- (أل) فيه مُستغرقةٌ لجميع أنواع المحامد.

و ((الْحَمْدُ)) هذا معناه ذكر صفات المحمود مع محبَّته وتعظيمه، خلافًـا لمـا يُقـرِّره كثـير مـن الشُّرَّاح والمفسِّرين من أنَّ المراد بالحمد الثَّناء، والحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- في كتابـه "الوابل الصَّيِّب" له مبحثٌ جليلٌ في التَّفريق بين الحمد والثَّناء وأنَّ الحمد ذكرٌ لصفات المحمود فإذا كُرِّر هذا الذِّكر صار ثناءً فإذا زيد فيه صار تمجيدًا، واستدلَّ بما رواه مسلم من حـديث أبي هريرة عن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يرويه عن ربِّه أنَّه قال -جلَّ وعلا-: **((قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَـالَ اللهُ تَـعَـالَى: أَثْـنَى عَلَيَّ عَبْـدِي، وَإِذَا قَالَ:﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْـدِي))**[377] ففـرَّق بـين الحمـد وبـين الثَّنـاء وبـين المجد[378].

_ فأوَّل الذِّكر حمد.
_ وإذا ثُنِّي صار ثناءً؛ لأنَّه مأخوذٌ من الثَّني الَّذي هو الإعادة.
_ فإذا زيد فيه صار مجدًا أو تمجيدًا.

---

377 رواه مسلم، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

378 نَظَمَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى الْفَرْقَ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ والتَّمْجِيد؛ بِقَوْلِهِ:

الْحَمْدُ ذِكْرٌ لِصِفَاتِ الْخَالِقِ ... بِالْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ لَا تُفَارِقِ
إِنْ كُرِّرَ الْحَمْدُ فَذَا الثَّنَاءُ ... أَوْ زِيدَ فَالتَّمْجِيدُ فَالدُّعَاءُ
دَلِيلُ مَا قُلْتُ رَوَاهُ مُسْلِمُ ... قَسْمَ الصَّلَاةِ وَالْمُفِيدُ الْقَيِّمُ

فالحمد كلمةٌ عظيمةٌ لا يتَّسع المقام للكلام عليها والكلام على مُتعلَّقاتها، وقد ابتدأ الله كتابه بها:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[379] فالله -جلَّ وعلا- محمودٌ على جميع أفعاله وصفاته وأخباره ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[380] كلُّ شيءٍ لله، فكيف لا يُحمد -جلَّ وعلا-؟

واللّام في الاسم الأحسن (الله) هذه لامُ الاستحقاق أو الاختصاص، لأنَّ الله -جلَّ وعلا- هو المستحقُّ للحمد كلِّه وهو المختصُّ بهذا الحمد.

ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ)).

* وقد حضرني أنَّ الَّذي فضَّل بين (الحمد) و (لا إله إلَّا الله) هو سفيان بن سعيد الثَّوري -رحمه الله-، وكذلك غيره من أهلِ العلم -أو جماعة من أهل العلم-، لكن الَّذي عليه الجماهير على أنَّ (لا إله إلَّا الله) -الَّتي هي مفتاح الإسلام- هي أعظم كلمة، لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ))[381].

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هاهنا: ((تَمْلأُ الْمِيزَانَ)) فيه ردٌّ على المعتزلة من أنَّ الميزان إنَّما هو معنويٌّ وهو العدل، والشَّيء المعنوي لا يُقال فيه: (امتلأ) أو (مِلْءَ هذا الشَّيء).

- وأهل السُّنَّة وأهل الإسلام على أنَّ الميزان حقٌّ وأنَّه حقيقة وله كفَّتان، هذا جاء في حديث عبد الله بن عمرو في قصَّة نوح، وفي حديث عبد الله بن عمرو في قصَّة البطاقة، وكلاهما في مسند الإمام أحمد وغيره، وكلاهما في "الصَّحيح المسند ممَّا ليس في الصَّحيحين" لشيخنا مُقبل -رحمة الله عليه-.

---

379 سورة الفاتحة: 2

380 سورة سبأ: 1

381 حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"، من طريق جابر رضي الله عنه.

وكذلك الميزان له لسان كما هو مُجمَعٌ عليه بين أهل العلم لِمَا حكاه الحافظ ابن حجر -رحمنا الله وإيَّاه- في "الفتح" عن الزَّجاج[382]، وجاء التَّنصيص عليه عن الحسن -رضي الله عنه ورحمه- ولا مُخالف له.

- وما جاء عن ابن عبَّاس فإنَّه موضوعٌ من طريق الكلب عن أبي صالح.
- وبعض أهل العلم استدلَّ على إثبات اللِّسان للميزان بالمعنى -يعني القياس-، وهذا القول ليس بصحيح وقد رددناه في بعض الدُّروس الَّتي انعقدت على هذه الغرفة في دروس العقيدة.

على كلِّ حال الميزان أيضًا الكلام يطول عليه، والَّذي عليه المحقِّقون مِن أهل العلم أنَّ الميزان واحد وليس متعدِّدًا، وذِكْرُه من جهةِ التَّعدُّد إمَّا من قبيل كثرة الموزونات أو لأمرٍ آخر ليس هذا محلُّه.

قال: ((وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ))، ((وَسُبْحَانَ)) : هذا تنزيهٌ، وهو مصدر مُلازمٌ للنَّصب كما هو معلومٌ، تنزيهٌ للرَّبِّ -تبارك وتعالى- عن النَّقائص والعيوب.

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ   سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ التَّفَاخُرُ

فالتَّسبيح تنزيهٌ للرَّبِّ -تبارك وتعالى- عن النَّقائص والعيوب والآفات، كما أنَّه تنزيهٌ عمَّا يصفه به المخالفون للرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، فالتَّسبيح من أجلِّ الذِّكر أيضًا.

وهنا قرنه بالحمد، فزاد في الحمد هنا التَّسبيح ليدلَّ على أنَّ الشَّيء إذا تركَّب من أمرين فإنَّه يزيد في فضله، وهكذا في جوانب التَّعظيم المعلَّقة بالرَّبِّ -تبارك وتعالى-، وقد قال بعض أهل العلم بأنَّ التَّسبيح لم يأتِ مُفردًا وإنَّما جاء مقرونًا بالحمد، وهذا ليس بصحيح لما جاء في الصَّحيح أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: («**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ**» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ:«**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ**»)[383]

---

[382] قال ابن حجر رحمه الله: (قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْمِيزَانِ وَأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ لِسَانٌ وَكِفَّتَانِ وَيَمِيلُ بِالْأَعْمَالِ) ["فتح الباري" ج13، ص457]

[383] رواه مسلم؛ من طريق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

فهذا الحديث يدلُّك على فضل هذه الأذكار وعلى رعايتها ومراعاتها والحرص عليها واللَّهج بها ((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ))[384]، وأنَّها من أسباب صلاح الظَّاهر والباطن، لأنَّه لمَّا ذَكَر الطَّهارة -كما قلتُ لك آنفًا- ذَكَر الوسائل الموصلة إليها.

قال عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)) وكَمْ قَدْر ما بين السَّماء والأرض؟ لا يعلمه إلَّا الله -جلَّ وعلا-، وأنتم تعلمون سعي العالَم كلِّه للسَّعي إلى أن يصلوا إلى أقرب الكواكب منهم -المرِّيخ أو ما أشبه ذلك-، لِعِظَم هذا الخلق وهذا الكون الَّذي خلقه الله -تبارك وتعالى-.

ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام ذكر بعض فضائل الأعمال -كما سيأتي معنا ذلك بعد قليل-، فإنَّه لمَّا ذكر الأذكار وذكر نتائج صلاحها للعبد وآثارها عليه في الآخرة لأنَّها أجرها عظيم لا يعلمه إلَّا الله ((تَمْلَأُ الْمِيزَانَ))، ((تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)) كلُّ واحدةٍ من هذه الكلمات تملأ ما بين السَّماء والأرض، وهذا لعظيم قدرها عند الله -جلَّ في علاه-.

ثمَّ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَالصَّلَاةُ نُورٌ)) وهذا النُّور يُنير للإنسان حياته ودربه ويُبعده عن الفواحش والسَّيِّئات ويُخرجه من الظُّلمات، كما قال ربُّنا -تبارك وتعالى-:﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[385]، والله -جلَّ وعلا- أمر بالاستعانة بالصَّلاة فقال:﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[386]، وفضلها عظيمٌ عند الله، وفضائلها في الكتاب والسُّنَّة لا يُحصيها إلَّا ربُّ العالمين، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه "قاعدة جليلة في التَّوسُّل والوسيلة" بأنَّ أكثر أحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في الصَّلاة وفي الجهاد[387]، يعني أنَّ أكثر ما رُوِيَ عنه عليه الصَّلاة والسَّلام وصحَّ عنه وتناقلته الأُمَّة في دواوين السُّنَّة؛ أكثر الأحاديث في الصَّلاة وفي الجهاد في سبيل الله، وهذه فائدة نفيسة من شيخ الإسلام -رحمه الله-.

---

[384] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق عبد الله بن بسر رضي الله عنه.

[385] سورة العنكبوت: 45

[386] سورة البقرة: 45

[387] قَالَ شَيْخ الإِسْلَام ابْن تَيْمِيَة رَحِمَهُ الله: (وَأَكْثَر أَحَادِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَالْجِهَادِ) ["قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" ص55]

قال بعد ذلك عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ)) والصَّدقة إذا أُطلقت في مواضع فإنَّها تعمُّ الفرض والنَّفل، يعني تعمُّ ما فرضه الله -تبارك وتعالى- كما في قوله -جلَّ وعلا-: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[388] إلى آخر الآيات، وأيضًا إذا جاءت فإنَّه يدخل فيها ما يُتعبَّد به من نوافل الصَّدقات والإنفاق.

✽ والصَّدقة من أفضل الأعمال لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[389] فالصَّدقة برهان على أيِّ شيء؟ بُرهانٌ على الإيمان وعدم شُحِّ النَّفس لأنَّ الله -عزَّ وجلّ- قال: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[390] فهي تَستلُّ الحسد والشُّح والبخل، وكما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ البُخْلِ))[391] فداء البخل عظيم، فإذا عوَّد الإنسان نفسه على التَّصدُّق والبذل والإنفاق في وُجوه الخير كلِّها وخصوصًا فيما فرضه الله -تبارك وتعالى- عليه ثمَّ زاد على ذلك بالتَّنفُّل فإنَّ هذا من علامة صدقه؛ لذلك سُمِّيت بالصَّدقة لأنَّها مُصدِّقة للإيمان، وكذلك سُمِّيت الزَّكاة لأنَّها زكاةٌ وطُهرة للعبد، وإخراجٌ لسخيمة قلبه من أن يحسد النَّاس على ما في أيديهم، كيف يحسدهم على ما في أيديهم وهو يعطيهم ما في يده!

وهذا مقامٌ عظيم، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يروي عن ربِّه كما في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة: ((يَا ابْنَ آدَمَ! أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))[392] فالصَّدقة إذًا بُرهان، برهانٌ على مصداقية العبد في إيمانه.

ثمَّ قال نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ)) الصَّبر معناه حبس النَّفس على طاعة الله -تبارك وتعالى-.

فحقيقة الصَّبر أنَّه حبس النَّفس عن التَّسخُّط واللِّسان عن الشَّكوى والجوارح عمَّا لا ينبغي فعله؛ كما قرَّر ذلك الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله- وغيره من أهل العلم.

---

388 سورة التوبة: 60

389 سورة البقرة: 270

390 سورة النِّساء: 128

391 صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

392 متَّفقٌ عليه؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ لمسلم].

و (الضِّياء) نورٌ أيضًا، نوعٌ من النُّور، وقد قال الله -عزَّ وجلَّ- في المنافقين لمَّا سُلبوا أعمالهم:﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[393] وبعض أهل العلم فرَّقوا بين الضِّياء والنُّور بأنَّ الضِّياء نورٌ فيه حرارة، والنُّور لا حرارة فيه.

✱ ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام ذكر لنا هذا المقام لنحمل أنفسنا على أنواع الصَّبر كلِّها؛ يعني:

_ الصَّبر على أقدار الله -جلَّ جلاله-.

_ والصَّبر على طاعة الله، بأن لا يطول بنا الأمد.

_ والصَّبر عن معصيَّة الله وعن ركوب جوانب الشَّهوات.

فالصَّبر من سُبل الإمامة في الدِّين؛ كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[394] فالصَّلاة نور والصَّبر ضياء، فمن ترك الصَّلاة ذهب نوره، ومن ترك الصَّبر ذهب ضياؤه، أو بقدر ما يترك من الصَّبر يذهب من ضياء الإيمان في قلبه، والعبد محتاجٌ إلى هذين الأمرين، فإنَّه كما لا يستغني النَّاس في حياتهم المادية عن الشَّمس وضيائها والقمر ونوره كذلك العبد لا يستغني عن نور الصَّلاة فيما يُصلح نفسه وقلبه ولا يستغني عن ضياء الصَّبر، وهذا من أعظم أسباب صلاح النُّفوس وتزكيتها، لا الرِّعاية الَّتي يتكلَّم فيها المتصوِّفة أو التَّصوُّف أو ما أشبه ذلك ويُسمُّون ذلك بالرِّعاية أو بالتَّصوُّف -وما أشبه ذلك- ويجعلون له سُبلًا يُسمُّونها بالرِّياضة والارتياض على الفعل، وهذا كلُّه ما أنزل الله -جلَّ وعلا- به من سلطان.

لمَّا ذكر النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام (الصَّلاة) وذكر (الصَّبر) وذكر (الذِّكر) من قبل -كما بيَّناه-: ذكر بعد ذلك الأمر الجامع لهما، هذا الأمر الجامع لهذه الأمور كلِّها والَّذي يُؤخذ عنه ومنه هو القرآن؛ فقال: ((وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)) يعني أنَّ هذا القرآن الَّذي أنزله الله -تبارك وتعالى- على رسوله نورًا وهو الرُّوح الَّتي تحيى بها القلوب.

---

[393] سورة البقرة: 17

[394] سورة السجدة: 24

● العبد له حياتان والعبد له روحان، تأمّل في القرآن تجد جواب هذا في آياتٍ كثيرة، اجعل قراءتك للقرآن للبحث عن هاتين الحياتين، وعن هاتين الرُّوحين، حياةٌ دُنيا وحياةٌ هي الحقيقية الَّتي يعيش بها الإنسان، روحٌ تحيا بها الأجساد وروح تحيا بها القلوب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[395] فوصف الله -تبارك وتعالى- كتابه الَّذي هو كلامه المنزَّل على نبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام وصفه بأنَّه (روح) وبأنَّه (نور) فكما أنَّ العبد إذا سُلب روحه الَّتي يقع بها حياته الدُّنيويَّة ويُسلب منها ويصير جثَّة هامدة كذلك العبد إذا سُلب القرآن -إذا سُلب الإيمان-: سُلب الرُّوح وسُلب النُّور فصار في ظُلمة كما قال -جلَّ وعلا-:﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[396]، ثمَّ قال بعد ذلك في نفس السُّورة -في سورة الأنعام- مُبيِّنًا هذا النُّور:﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[397] هذا نوعٌ من الحياة.

ولهذا إذا أردت أن تعرف ضابط الحياة المعنويَّة في القرآن فإنَّه لا تُذكر بعدها الدُّنيا، وإذا أردت أن تعرف ضابط الحياة الَّتي تقع بها المعاشات فإنَّها تُذكر بعدها الدُّنيا.

هنا قال:﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ فالعبد لا بدَّ أن يتعرَّف على هذين الأمرين ليسعى في صلاح نفسه بطلبهما.

النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام هنا قال: ((وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ)) يعني أنَّك تُحاجُّ به عند الله يومَ القيامة، ((أَوْ عَلَيْكَ)) فالقرآن الَّذي أنزله الله -جلَّ وعلا- نورًا وهدى للنَّاس يقع به هذا الاحتجاج، ولهذا الرَّبُّ -تبارك وتعالى- يحتجُّ على عباده بآياته:﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[398]، ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾[399]، وكان

---

[395] سورة الشورى: 52
[396] سورة الأنعام: 125
[397] سورة الأنعام: 122
[398] سورة المؤمنون: 105
[399] سورة المؤمنون: 66

النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يقول في دعائه: ((...**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي**))[400] -إلى آخر الدُّعاء المشهور المعروف-.

ثمَّ ختم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام هذا الحديث ببيان ما يُصلح العبد أيضًا، بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو)) والغدو معناه الذَّهاب صباحًا؛ ولذلك تُسمَّى صلاة الفجر بـ: "صلاة الغداة"، فالغدو ذهابٌ في بكورٍ، وهذا فيه بركة البكور: ((**اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**))[401] كذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام.

((كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو)) ما هناك أحدٌ من النَّاس لا يغدو، لكن إلى أيِّ شيءٍ يغدو؟ بيَّن ذلك النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، لأنَّ طلب الغدو شيءُ فطريٌّ في الإنسان، يسعى إليه الإنسان، فغدوُّه هذا إمَّا إلى صلاح نفسه وإمَّا إلى فسادها، فالعاقل يعرف أين يسعى.

فالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال هنا: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو)) لأنَّهم يسعون في طلبهم إمَّا للدُّنيا؛ فإنَّ الله -تبارك وتعالى- جعل للإنسان سلطانًا على نفسه ليسعى في صلاحها ولهذا قال:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[402]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[403] على من يعمل ذلك على الزَّكاة الباطنة.

((فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا)) يعني أنَّه يسعى في إعتاق نفسه؛ بالتَّوحيد، والتَّوبة وفعل الطَّاعات، وترك المعاصي، والإنابة، وكلّ ما يُرضي الله -عزَّ وجلَّ-.

((أَوْ مُوبِقُهَا)) يعني أنَّه مُهلكها، والمُوبِق هو الشَّيء المُهلِك، يعني أنَّه يُوردها موارد الهلاك.

---

[400] عَنْ ابْن مَسْعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي، إِلا أَذْهَبَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: ((أَجَلْ! يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب"].

[401] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح سنن ابن ماجه" رقم (1832) ج2، ص232

[402] سورة الشمس: 9-10

[403] سورة الأعلى: 14-15

وفي هذا اللَّفظ منه عليه الصَّلاة والسَّلام ردٌّ على القديرية وعلى الجبرية، ردٌّ على الطَّائفتين:

_ فإنَّ القدرية -نُفاة القدر- يجعلون الإنسان هو المتسلِّط على نفسه ويخلق فعل نفسه، وهذا الحديث فيه ردٌّ عليهم من جهة أنَّ هذه الأسباب المتَّخذة موصلة إلى عتق النَّفس أو إلى بيعها.

_ وفيه ردٌّ على الجبرية وهو أظهر في الرَّدِّ عليهم من جهة أنَّهم يقولون بأنَّ الإنسان في مهبِّ الرِّيح.

والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو)) يعني أنَّهم يَسعون، فأين يَصِلُون؟ قال: ((فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)).

وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة الَّتي ينبغي أن تكون نبراسًا ومَعْلَمًا عظيمًا لمن أراد أن يتكلَّم على تزكية النُّفوس وعلى أسبابها وعلى صلاحها، بل هو أصلٌ عظيمٌ في هذا الباب.

۞ الحديث فيه فوائد كثيرة وعظيمة جدًّا:

_ منها: فضل الطُّهور، والمحافظة عليه، والسَّعي إليه بنوعيه الظَّاهر والباطن.

_ ومنها: فضل الحمد والحثِّ عليه، [...][404] أو يقف على كلام ابن القيِّم -رحمه الله تعالى-

.

_ وفي هذا الحديث: فَضل الصَّلاة والمحافظة عليها وأنَّها نورٌ للعبد.

_ ومن فوائد الحديث: فضل الصَّدقة وأنَّها أيضًا نورٌ للعبد.

404 انقطاع يسير في الصَّوت.

_ ومن فوائد هذا الحديث: المحافظة على القرآن، والعمل به؛ فإنَّه النُّور والرُّوح الَّتي جعلها الله لعباده.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الإنسان له عملٌ يعمله، ليس مجبورًا على الأعمال بل هو مختارٌ، فيغدو إمَّا إلى بيع نفسه بإعتاقها من الذُّنوب والمعاصي والسَّيِّئات أو بإيباقها فيها.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ فيه إثباتُ الميزان وأنَّه حقٌّ وأنَّ موازين العباد تُوزن فيه عند الله -تبارك وتعالى-.

۞ الحديث الرابع والعشرون ۞

عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيّ رضي الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ أَنَّه قَالَ:

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

هذا الحديث كما قال المصنِّف -رحمه الله تعالى- رواه الإمام مُسلمٌ في صحيحه، وقد رواه من طريق سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وهذا الإسناد مسلسلٌ بالشَّاميين، حتَّى قال إمام أحمد -رحمه الله-: (هُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ لِأَهْلِ الشَّامِ)[405].

وأبو إدريس الخولاني هو الَّذي يروي هذا الحديث عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وقد جاء أنَّ أبا إدريس الخولاني كان إذا قرأ هذا الحديث يجثو على رُكبتيه[406] -رحمه الله وغفر له-.

وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة المشتملة على مقاصد الرِّعاية، أي رعاية الإنسان لحقوق ربِّه -جلَّ وعلا- ولحقوق نفسه في معاملته لربِّه -تبارك وتعالى-، وهذا الَّذي يكون عليه العبد في مُعاملته لله -جلَّ وعلا- ومعرفته به سبحانه.

---

[405] "جامع العلوم والحكم"، ص512

[406] قَالَ سَعِيد بْن عَبْدِ الْعَزِيز: (كَانَ أَبُو إِدْرِيس الْخَوْلَانِيّ إِذَا حدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيث جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ) ["جامع العلوم والحكم" ص511]

وهذا الحديث يُسمَّى بالحديث القدسي، والحديث القدسي اشتهر عند كثيرٍ من المصنِّفين أنَّ لفظه من النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ومعناه من الله -جلَّ وعلا-، ولكن هذا التَّعريف خطأ وليس بصواب وهو فرعٌ من فُروع مسألة الكلام الَّتي يتكلَّم فيها الأشاعرة وسائر المتكلِّمين لأنَّهم يقولون بأنَّ القرآن -أو ما أشبه ذلك- عبارة -أو حكاية- عن كلام الله تعالى عبَّر أو أخبر به جبريل عمَّا في نفس الرَّب -تبارك وتعالى-، من فروع هذا القول هذه المسألة.

- والصَّواب الصَّحيح الَّذي لا ينبغي أن يُقال غيره: أنَّ الحديث القدسي لفظه ومعناه من الرَّب -تبارك وتعالى-، والكلام على هذا يطول تفصيله، وممَّا يدلّ عليه ما في هذا الحديث لأنَّه لا يُعقل لا شرعًا ولا عقلًا أن يكون اللَّفظ من النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ هو يقول: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي)) إلى غير ذلك من الأدلَّة الَّتي يطول المقام بسردها وذكرها.

وقد كُتب في هذا كتابات، والرُّجوع إلى كلام أهل العلم في تحقيق هذه المسألة وتقريرها أمرٌ سهل، لكن تنتبه إلى هذا المأخذ، وإلى أنَّ بعض المآخِذ راجعةٌ إلى مُنطلَق المتكلّم في التَّعريف، من أين ينطلق في تعريفه لهذا اللَّفظ؟ -في تعريفه للقدر، في تعريفه للكلام، في تعريفه للعقيدة، في تعريفه للتَّوحيد-، من أين ينطلق؟ ينطلق من فِرقته الَّتي يتَّبعها.

فإذا رأيتَ مثل هذه الأقوال فإنَّك تتنبَّه لها، ومن ذلك تعريف "التَّوفيق" وما أشبه هذا المقام.

وعلى كلِّ حال هذا الحديث -كما ذكرنا- حديثٌ قُدسيٌّ، والقُدسي هو المنسوب إلى الله -جلَّ وعلا-، مِن القداسة وهي الطَّهارة.

هنا يقول فيه الرَّبُّ تبارك وتعالى، -النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام يرويه عن ربِّه- أنَّه قال: ((يَا عِبَادِي)) وهذه الإضافة إلى الله -تبارك وتعالى- تحتمل الأمرين من جهة المراد بالعبد، لأنَّ العبادة تُقسم قسمين:

_ القسم الأوَّل: عبادة اضطراريَّة.

_ والقسم الثَّاني: عبادة اختياريَّة.

فالعبادة الاضطرارية: داخلٌ فيها كلُّ الخلق، فإنَّ الخلق جميعًا عبادٌ لله تعالى، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[407].

أمَّا القسم الثَّاني: هو العبادة الاختيارية، بمعنى أن يكون العبد مختارًا لهذا الفعل وإن كان الهوى يدعوه إلى غيره، ولهذا أبو إسحاق الشَّاطبي -رحمه الله- في كتاب "الموافقات" لمَّا ذكر المقصد الشَّرعي من وضع الشَّريعة قال: (إِخْرَاجَ الْمُكَلَّفِ عَنْ دَاعِيَةِ هَوَاهُ؛ حَتَّى يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ اخْتِيَارًا، كَمَا هُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ اضْطِرَارًا)[408] والعبد يجب عليه أن يعمل ما أمره الله -تبارك وتعالى- وإن كان هواه يدعوه إلى غير ذلك، -طبعًا انتهى كلام الشَّاطبي إلى قوله: (كَمَا هُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ اضْطِرَارًا) ثمَّ ذكر الأدلَّة الدَّالة على ذلك-.

هنا الرَّب تعالى قال: ((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي)) الله -جلَّ وعلا- أخبر أنَّه حرَّم الظُّلم على نفسه، والخلق والعباد لا يُوجبون على الله شيئًا -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-، ولا يُحرِّمون عليه شيئًا.

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبُ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكَرِيْمُ الوَاسِعُ

فالله -جلَّ وعلا- هو الَّذي حرَّم الظُّلم على نفسه، كما أنَّه أحقَّ على نفسه وأوجب على نفسه أنَّ العباد إذا عبدوه لا يُشركون به شيئًا يدخلون الجنَّة -كما في حديث معاذ-[409].

فهنا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يُخبر عن ربِّه أنَّه قال: ((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي)) وقد كرَّرَّ هذه اللَّفظ -يعني: ((يَا عِبَادِي))- في مواضع في هذا الحديث تذكيرًا لهم بلطفه -جلَّ وعلا-.

---

[407] سورة مريم: 93

[408] قال الشَّاطبي رحمه الله: (الْمَقْصِدُ الشَّرْعِيُّ مِنْ وَضْعِ الشَّرِيعَةِ إِخْرَاجَ الْمُكَلَّفِ عَنْ دَاعِيَةِ هَوَاهُ؛ حَتَّى يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ اخْتِيَارًا، كَمَا هُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ اضْطِرَارًا) ["الموافقات" ج2، ص189]

[409] عن مُعَاذ بْن جَبَلَ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، قَالَ: فَقَالَ: ((يَا مُعَاذُ! تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟)) قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أن لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: ((لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا)) [متَّفق عليه، واللفظ لمسلم].

وحقيقة الظُّلم أنَّه وضع الشَّيء في غير موضعه، والظُّلم كما جاء في حديث أنس عند الطَّبراني ثلاثة أقسام:

_ ظُلم العبد في حقِّ ربِّه.

_ وظُلمه في حقِّ نفسه.

_ وظُلمه في حقِّ غيره.

• فأمَّا ظُلم العبد في حقِّ ربِّه -جلَّ وعلا- فهو إشراكه به، كما قال -جلَّ وعلا-:﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[410]، وكما قال -جلَّ وعلا-:﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[411]، وقد جاء في الصَّحيحين في حديث ابن مسعود تفسير النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم هذه الآية بالآية الَّتي قبلها.

• أمَّا الثَّاني: هو ظُلمُ العبد لنفسه بالمعاصي والسَّيِّئات -وما أشبه ذلك-.

• والنَّوع الثَّالث: ظُلم الإنسان للنَّاس بالاعتداء عليهم في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم؛ إلى غير ذلك من المظالم الَّتي تكون بين العباد.

ثمَّ إنَّ الرَّبَّ -تبارك وتعالى- لمَّا قال: ((وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا)) شاملٌ لهذه الأنواع الثَّلاثة، فلا يظلم الإنسان في حقِّ الله تعالى، ولا يظلمُ في حقِّ نفسه، ولا يظلمُ في حقِّ العباد، لأنَّ هذا كلَّه محرَّم لا يجوز، فجعله الله تعالى بيننا مُحرَّمًا.

((فَلَا تَظَالَمُوا)) و (لا) هنا هي النَّاهيَّة ولذلك جُزم الفعل بعدها فحُذفت النُّون.

ثمَّ قال: ((وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا)) أي جعلته بينكم أيُّها العباد ((مُحَرَّمًا)) حرامًا، فقد حرَّم الله -تبارك وتعالى- الظُّلم وبيَّن عواقب الظَّالمين ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[412]، وكما في قول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في الصَّحيحين لمَّا بَعث معاذًا إلى اليمن: ((وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ))[413] وما أكثر الظُّلم في

[410] سورة لقمان: 13

[411] سورة الأنعام: 82

[412] سورة إبراهيم: 42

[413] متَّفقٌ عليه؛ من طريق ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

هذه الأيَّام وخصوصًا الظُّلم في حقِّ النَّفس بقتلها وسفك الدَّم الَّذي حرَّمه الله -جلَّ وعلا- بأدنى الشُّبه أو الانتقام، وكلُّ هذا حرامٌ حرَّمه الله -تبارك وتعالى-.

وقوله سبحانه هنا: ((فَلَا تَظَالَمُوا)) يعني كما تقدَّم: لا يظلم بعضكم بعضًا.

ثمَّ بيَّن الرَّب -تبارك وتعالى- فضله على عباده وأنَّهم هم الفقراء وهو الغنيّ.

وَهُوَ الْغَنِيْ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَعَالَى شَأْنُهُ[414]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[415]، وكما في الآية الأخرى:﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[416].

وبيَّن الرَّبُّ -تبارك وتعالى- صُوَّرًا مِن غِناه ومِن فقر عباده إليه، وهذا الَّذي يجب أن يستشعره العبد؛ لأنَّ العبد فقيرٌ معنى وحسًّا إلى الله -تبارك وتعالى-، فالنَّاس كلُّهم فقراء إلى الله - مُؤمنهم وكافرهم، وبرُّهم وفاجرهم- فُقراء إلى الله.
ومن صُوَر هذا الفقر: حاجتهم إليه -تبارك وتعالى- في الظَّاهر: من جهة الملبس والمطعم والمشرب، وفي الباطن: من جهة الهداية والإيمان والطَّاعة -وما شابه ذلك-.

فبدأ بذكر أعظم الأمور وأجلِّها الَّتي تُبيِّن غناه وفقرهم؛ فقال: ((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ)) كلُّكم على ضلالٍ ولا تصلون إلى الهداية وتفاصيلها ومعرفة ما أمركم الله -جلَّ وعلا- به ممَّا فيه صلاحكم إلَّا بأن يهديكم الله -تبارك وتعالى-، هداية إعانةٍ وتوفيق وهداية دلالة وإرشاد، والمشهور عند العلماء أنَّهم يقسمون الهداية قسمين:
_ قسمٌ مُتعلِّقٌ بحقِّ الرَّبِّ -تبارك وتعالى- وهي الإعانة والتَّوفيق، وهي المنفيَّة عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم فضلًا عن غيره، في قوله:﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[417].

[414] منظومة "سلم الوصول" للعلامة حافظ حكمي رحمه الله.
[415] سورة فاطر: 15
[416] سورة لقمان: 26
[417] سورة القصص: 56

_ وهداية الدّلالة والإرشاد وهي كائنةٌ مـن الله -جـلَّ وعـلا- ببيـان الصَّراط المسـتقيم، وكذلك من القرآن:﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[418]، وكذلك من النَّبيّ عليـه الصَّـلاة والسَّلام:﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[419]، ومن العلماء كمـا في قـوله عليـه الصَّـلاة والسَّلام: ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى))[420].

والهداية الّتي هي بمعنى الدّلالة والإرشـاد محمـولٌ عليهـا قـوله تعـالى:﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[421] وهذا القـرآن هـدى، والنَّـبي عليـه الصَّـلاة والسَّـلام جـاء بالهدى، وابن القيِّم -رحمه الله- في "البدائع" ذكر نوعين من الهداية ذُكرا في القرآن لكنَّهما من مُتعلَّقات الآخرة:

_ في أهـل الجنَّـة: في قـوله تعـالى:﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾[422].

_ وفي حقِّ أهل النَّار:﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[423].

فالعبد محتاجٌ إلى الهداية.

وقوله هنا -تبارك وتعالى-: ((فَاسْتَهْدُونِي)) السِّين والتَّاء دالَّة على الطَّلب في حال دخولهـا على الفعل، يعني: اطلبوا هدايتي، هذا هو الغالب في استعمال العـرب لهـا، وإلَّا فإنَّهـا قـد تـأتي في مدخولها على الفعل ولا تدلُّ على الطَّلب كما في قول الـرَّبِّ -جـلَّ وعـلا-:﴿وَّتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ﴾[424] لأنَّ الله -جلَّ وعلا- هو الغنيّ ولا يطلب الغنى من أحدٍ من خلقه، وكذلك عنـدما يقول الفقهاء: (هذا باب الاستحاضة) يعني أنَّ المرأة تكون مُستحاضة لا أنَّها طلبـت هـذا الفعل من جهة دخول السِّين والتَّاء عليه.

[418] سورة الإسراء: 9
[419] سورة الشورى: 52
[420] رواه مسلم، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.
[421] سورة فصلت: 17
[422] سورة محمد: 4-6
[423] سورة الصافات: 23
[424] سورة التغابن: 6

((فَاسْتَهْدُونِي)) أراد: اطلبوا هدايتي، ومن ذلك ما علَّمناه الله -جلَّ وعلا- في قراءتنا لسورة الفاتحة:﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[425] فإنَّها زيادة للهدى على الهُدى، والعبد محتاجٌ إلى الهداية في كلِّ نَفَسٍ يتنفَّسه، وقد قال الله -تبارك وتعالى-:﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾[426]، فالعلم بتفاصيل الشَّريعة والزِّيادة في العلم بها هذا نوعٌ من الهداية.

وهنا قال: ((اهْدِكُمْ)) وهذا هو جوابُ الأمر، فمن طلب الهداية مِن الله تعالى صادقًا مُخلصًا لله -جلَّ وعلا- فإنَّ الله لا يردُّه.

ثمَّ بيَّن حاجتهم في فقرهم إليه في ذاتهم وما تقوم به مصالحهم في بقاء حياتهم وبقاء جنسهم ونوعهم البشري فقال: ((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ)) فيُقال في قوله: ((فَاسْتَطْعِمُونِي)) ما قيل في: ((فَاسْتَهْدُونِي)) من جهة الطَّلب.
والنَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام بيَّن أنَّ العبد يسأل الله حاجته حتَّى ملح طعامه وشسع نعله كما جاء في الأحاديث عنه عليه الصَّلاة والسَّلام[427]، والرَّب -تبارك وتعالى- يُحبُّ السَّائلين، يُحبُّ المُلِحِّين.

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[428]

فالعبد إذا وقع له الفقر أو لم يكن وقع له الفقر فإنَّه محتاجٌ إلى ربِّه -تبارك وتعالى-، فيسأله حوائجه، ولا يتردَّد في سؤال الرَّبِّ -تبارك وتعالى- شيئًا ما لم يكن قد اعتدى في هذا المسؤول.

ثمَّ قال -تبارك وتعالى-: ((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ)) من الثِّيَّاب الَّتي يستر بها عورته، والَّتي يحصل بها دفؤه والَّذي يقع بها جماله، فهذا كلُّه من عند الله -تبارك وتعالى-، كما أخبر الرَّب -عزَّ وجلَّ- في القرآن بقوله:﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ

425 سورة الفاتحة: 6
426 سورة الضحى: 7
427 ((لِيَسْأَلْ أحَدُكمْ ربَّهُ حَاجَتَهُ كلَّهَا، حَتَّى يَسْأَلَه شِسْعَ نَعْلِه إِذَا انْقَطَعَ)) ["السلسلة الضعيفة" للألباني رحمه الله]
428 "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" ص77

﴿التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[429] فهذا اللِّباس أنزله الله -عزَّ وجلَّ- وأنزل أسبابه ويسَّر صناعته، فالعبد يسأل الله -جلَّ وعلا- جميع حوائجه، ولهذا قال: ((فَاسْتَكْسُونِي)) أي اطلبوا منِّي الكسوة، ((أَكْسُكُمْ)) لأنَّ الله -تبارك وتعالى- كريمٌ وبرٌّ رحيم، يُحبُّ السَّائلين، ويُحبُّ الملحِّين.

ثمَّ بيَّن الرَّب -تبارك وتعالى- حاجة عباده إليه في العفو عنهم ومغفرة ذنوبهم لأنَّ بني آدم خطَّاءٌ وخير الخطَّائين التَّوَّابون[430] -كما جاء في الحديث وقد حسَّنه طائفةٌ من أهل العلم-، وكما قال النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: **((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُم))**[431]، وكما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: **((مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ))**[432] فالعبد خطَّاء ومُسيء، وكما جاء في الصَّحيح عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: **((إِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))**[433] فإذا كان الأمر كذلك فإنَّ الله علَّمنا هذا التَّعليم في هذا الحديث بقوله: ((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ)) يعني أنَّكم تقعون في الخطأ وتقعون في السَّيِّئات وفي المعاصي؛ لكن هذا لا يمنعكم من طلب المغفرة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[434] فالرَّبُّ سبحانه يغفر لعباده، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[435]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ فإذا ذكروا الله فإنَّ أعظم ذِكْر الله -عزَّ وجلَّ- في هذا المقام أن تستغفره ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[436].

---

[429] سورة الأعراف: 26

[430] ((كُلّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)) [حسَّنه الإمام الألباني في "صحيح الجامع"؛ من طريق أنس رضي الله عنه].

[431] رواه مسلم؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[432] ((مَا مِنْ عَبدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنيا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا، تَوَّابًا، نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق عبدالله بن عباس رضي الله عنهما]

[433] رواه مسلم؛ من طريق أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

[434] سورة الزمر: 53

[435] سورة آل عمران: 135

[436] سورة الأعراف: 201

* وليس من شرط الوَليّ أن يكون معصومًا عن المعصية كما نبَّه على هذا شيخ الإسلام -رحمه الله- في طائفةٍ من كتبه؛ مِن أحسنها "الفُرقان بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان"، وهذه الآيات فيها دلالة على هذا المعنى.

وقد قال الرَّب -عزَّ وجلَّ- عن نفسه:﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[437] وهذا من آثار اسمه الغفور والغفَّار -جلَّ في علاه-، فهو الَّذي يغفر الذُّنوب ويسترها ويتجاوز عنها -تبارك وتعالى-، وقد علَّمَ النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام أمَّته سيِّد الاستغفار الَّذي يحتاجونه؛ حتَّى أنَّه علَّمهم أن يقولوه صباحًا ومساءً كما في حديث أبي يعلى شدَّاد بن أوس عند البخاري وغيره: ((سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لَا إلَهَ إلَّا أنْتَ))[438] -إلى آخر الحديث-، فالعبد مطلوبٌ منه أن يستغفر الله، وقد كان نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام يُكثر من الاستغفار حتَّى جاء أنَّه كان يستغفر في اليوم مائة مرَّة[439]، وفي لفظ لحديث آخر: سبعين مرَّة[440]، إلى آخر الأحاديث كما في حديث أبي هريرة وحديث الأغرِّ المزني.

ثمَّ إنَّه سبحانه قال: ((يَا عِبَادِي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)) كما قدَّمتُ لك إنَّ الله -جلَّ وعلا- أخبرنا عن غناه، والله غني بذاته -تبارك وتعالى-:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[441]، وكما قال -جلَّ وعلا-:﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[442]، وقال -جلَّ وعلا-:﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[443] فهو سبحانه الغنيّ ليس محتاجًا لعباده، ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾[444] فالعباد لو اجتمعوا كلّهم جميعًا على أن ينفعوا الله بشيءٍ لن يبلغوا ذلك فضلًا عن أن يُفكِّروا فيه،

---

[437] سورة طه: 82

[438] ((سَيِّدُ الاسْتِغْفَار أنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لَا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلقتَنِي وأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأبُوءُ لَكَ بذَنْبِي فَاغْفِر لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ)) رواه البخاري.

[439] ((إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)) [رواه مسلم، من طريق الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ رضي الله عنه]

[440] ((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)) [رواه البخاري، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه]

[441] سورة فاطر: 15

[442] سورة الزمر: 7

[443] سورة إبراهيم: 8

[444] سورة الإسراء: 100

وهذا شيءٌ مغروزٌ في فطرهم، وهكذا لو ظنُّوا أنّهم يضرُّون الله بشيء؛ كما أخبر -عزَّ وجلّ-: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾[445] فلن يبلغ العباد أن يضرُّوه ولا أن ينفعوه، وإنَّما ما أمرهم به وشرعه لهم لمصالحهم هم، فلن يبلغوا النَّفع فينفعوه، ولن يبلغوا الضّر فيضرُّوه، فالله لا تضرُّه معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطَّائعين، بل تلك -كما سيُبيِّن في آخر الحديث- هي الأعمال الَّتي تنفعهم وترفع درجاتهم عند الله -تبارك وتعالى-.

ثمَّ إنَّه قال: ((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ)) يعني من أوَّل الخليقة إلى آخرها.
((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُم)) وهم بنوا آدم ((وَجِنَّكُمْ)) وهم العالم الثَّاني الَّذين أصلهم الشَّيطان؛ ولا يعلمهم إلَّا الله، وخلقهم من النَّار كما جاء في صحيح مسلم في حديث عائشة[446]، فهم مستترون لا يراهم أحدٌ من الخلق، هؤلاء كلُّهم، ((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ)) لو كانوا على صلاح وعلى أفضل القلوب وأكملها وأجلِّها وأتقاها وأعرفها بالله -تبارك وتعالى- وكانوا صالحين بَرَرَة لا يقع منهم الخطأ وكانوا معصومين ((مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا)) فلا يزداد الله بطاعتهم شيئًا على الإطلاق.

ثمَّ قال: ((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ)) فلو كفر النَّاس جميعًا وكانوا على قلب إبليس الَّذي مُلِئَ كبرًا وحسدًا ما نقص من مُلك الله شيئًا، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[447]، ولهذا لمَّا قالت الأعراب آمنَّا قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[448] ثمَّ قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[449].

هذا الحديث جليل القدر، عظيم.

---

[445] سورة محمد: 32
[446] عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ)) رواه مسلم.
[447] سورة إبراهيم: 8
[448] سورة الحجرات: 14
[449] سورة الحجرات: 17

ثمَّ إنَّه -تبارك وتعالى- قال: ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ)) الجميع منذ خلق الله الخلق، ((قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ)) والصَّعيد هو ما تصاعد من وجه الأرض، ((قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ)) يعني اجتمعوا في مكانٍ واحد بِغَضِّهم وغَضِيضِهم، بذُكرانهم وإناثهم، بأوَّلهم وآخرهم، بحاجاتهم قلَّت أو كثُرت، عظُمت أو حقرت، اجتمعوا كلُّهم من الجنِّ والإنس؛ فسألوا الرَّبَّ -تبارك وتعالى- ليست مسألة واحدة يجتمعون عليها، يتَّفقون عليها، بل يسأل كلُّ إنسانٍ منهم مسألةً تخصُّه، مسألته، ((مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)) لماذا؟ لأنَّه أخبر عن نفسه: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾[450] فيمين الله مَلْأَى لا يغيضها نفقة سحَّاء اللَّيل والنَّهار[451] -كما جاء في الصَّحيحين عنه عليه الصَّلاة والسَّلام-.

والله -جلَّ وعلا- أخبر عن نفسه بأنَّ له خزائن السَّماوات والأرض: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[452] فهذه الخزائن لا تنقص، انظروا إلى ما أنفق على عباده مذ خلقهم وما أمدَّهم به، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا -تبارك وتعالى-، فإذا قاموا على صعيدٍ واحد، في مكانٍ واحدٍ، وسألوا الله -عزَّ وجلَّ- جميع مسائلهم الَّتي يُريدونها ما نقص ذلك من مُلك الله وخزائه شيئًا -تبارك وتعالى-.

وحتَّى أنَّه -تبارك وتعالى- مثَّل بشيء عظيم على هذا الأمر ((الْمِخْيَط)) هذا الَّذي يخيطون به؛ لو أُدخل في البحر -لو أُدخل في اليم- ما الَّذي يأخذه من هذا اليم؟ ما الَّذي يأخذه من هذا البحر؟ ((إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)).

ثمَّ بيَّن لهم فضله عليهم وكرمه وإحسانه يوم أن أعانهم على الأعمال الصَّالحة وأعانهم على طاعته ويسَّر لهم سُبل الطَّاعة؛ فقال: ((يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا)) فليس لكم إلَّا هذه الأعمال، فإنَّما هي هذه الأعمال، ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[453]، ﴿أَحْصَاهُ

---

[450] سورة الإسراء: 100
[451] ((إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَار)) [متَّفقٌ عليه، واللفظ للبخاري]
[452] سورة المنافقون: 7
[453] سورة الكهف: 49

اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[454] هذا كلُّه فضلٌ من الله، وكرمٌ من الله -جلَّ وعلا-، لا يُضيع أجر من أحسن عملًا: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[455]، ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[456] فلا يُضيع الله أجر المحسنين.

((يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ)) فمن وجد الخير والتَّيسير إليه والإعانة عليه فهذا فضل من الله -تبارك وتعالى- تفضَّل به عليه.

((وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ)) ولم يقل: (وجدَ الشَّر) تعليمًا لنا للأدب معه -تبارك وتعالى- وأنَّه لا يأتي منه الشَّر ولا يُنسب إليه الشَّر.

وقد ذُكِرت فوائده في مضمون الكلام والتَّعليق والشَّرح، إلَّا أنَّه من باب التَّأكيد عليها نقول بأنَّ

من فوائد هذا الحديث:

_ أنَّ الله -جلَّ وعلا- حرَّم الظُّلم على نفسه وجعله بين عباده محرَّمًا، وهذا لكمال عدله، لأنَّه -جلَّ وعلا- قال عن نفسه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[457].

_ ومن فوائده: إطلاق النَّفس على الله -تبارك وتعالى-.

_ ومن فوائده: أنَّ الله -تبارك وتعالى- يغفر الذُّنوب جميعًا، أيًّا كان كمُّها، وأيًّا كانت كيفيَّتها، إذا تاب العبد إلى الله واستغفر.

---

[454] سورة المجادلة: 6
[455] سورة الكهف: 30
[456] سورة هود: 115
[457] سورة الأنعام: 115

_ ومن فوائد هذا الحديث: الضَّرورة الذَّاتيَّة والمعنويَّة من جهة فقر النَّاس إلى الله -تبارك وتعالى-، وأنَّ الله -جلَّ وعلا- هو الغني الحميد، فالنَّاس فقراء إلى الله.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الله -تبارك وتعالى- لا تنفعه طاعة الطَّائعين، ولا تضرُّه معصية العاصين، وإنَّما هذه الأعمال الَّتي يقومون بها هم بين مُنتفعٍ بها أو مُتضرِّرٍ بها.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ أصل صلاح الإنسان وأصل فساده هو القلب؛ كما مرَّ معنا في حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنه: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ))، وفي هذا الحديث قال عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يرويه عن ربِّه أنَّه -جلَّ وعلا- قال: ((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ)) وفي الفجور قال: ((عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ)) فهذا بيانٌ من أنَّ أصل الصَّلاح والفساد مِن القلب.

_ ومن فوائد هذا الحديث: ما قرَّره أئمَّة السُّنَّة مِنْ أنَّ الجنَّ مُكلَّفون ومُتعبَّدون بأوامر الشَّريعة؛ لأنَّهم ذُكروا في هذا المقام -في مقام التَّعبُّد الاختياري-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أن يعرف العبد نِعمة الله عليه ويشكره عليها؛ لأنَّه إن وُفِّق للطَّاعات فإنَّ هذا محض فضل الله -تبارك وتعالى-.

الحديث الخامس والعشرون

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي اللهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، ويَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَموالِهِم.

قالَ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟!**

إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً.

وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ.

وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟!

قالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا**»

رَوَاهُ مُسلِمٌ

وهذا الحديث من أفراد الإمام مسلم على البخاري -رحمهم الله تعالى-، والبخاري روى هذا الحديث -أو نحوًا منه- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه، وبيَّن فيه أنَّ الَّذين جاءوا إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هم فقراء المهاجرين.

❃ وهذا الحديث -كما سيأتي إن شاء الله تعالى معنا- فيه فوائد عظيمة ينبغي على المسلم أن يلتفت إليها وأن يتبيَّنها وأن يعرف حقَّ الله -تبارك وتعالى- في أعضائه، وكذلك في الحديث الَّذي بعده فإنَّ مضمونهما ومؤدَّاهما واحدٌ -كما سيتبيَّن إن شاء الله تعالى ذلك-.

وعلى كلِّ حال فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: (جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ:«**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ؛ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ: تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**» فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا فَقَالَ: بَعْضُنَا نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ) وهذا القائل: سُمَيّ، (وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ) -يعني إلى أبي صالح-، فقال: ((تَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلهِ وَاللهُ أَكْبَرُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ)[458] هذا الحديث هو بنحو حديث الباب الَّذي ذكره المصنِّف؛ ولكنَّه من حديث أبي هريرة وعند البخاري.

وقول أبي ذرٍّ رضي الله عنه:[أَنَّ نَاسًا] تبيَّن لنا من حديث أبي هريرة أنَّ هؤلاء النَّاس هم فُقراء المهاجرين.

وقول الصَّحابة رضي الله عنهم وأرضاهم:[ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ] الدُّثور جمع دَثْر، ومثل: فَلس وفلُوس، وهذا واحدها: دَثر، وهو المال الكثير.

وقوله هنا:[بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ] أي بأموالهم الفاضلة على كفايتهم.

وقول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أَوَلَيْسَ)) هذا استفهامٌ استنكاريّ.

458 متَّفقٌ عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ للبخاري].

وأمّا قولهم رضي الله عنهم وأرضاهم في هذا الحديث:[يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ] فيه كما سيأتي ذِكرُ المستفتي الحالة الَّتي يستفتي بها.

۞ هذا الحديث العظيم فيه فوائد عظيمة:

_ منها: علوّ همَّة الصَّحابة رضي الله عنهم وما كانوا عليه من الحرص على الآخرة -من الفقراء والأغنياء على حد سواء- رضي الله عنهم وأرضاهم -يعني من جهة طلب أجر الآخرة- فهم كلُّهم هذا حالهم رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد كانوا مُتنافسين على الخير تنافسًا عظيمًا؛ كما جاء أنَّ عمر بن الخطاب مرَّ مع أبي بكر رضي الله عنهم مع النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام وابن مسعود قائمٌ يُصلِّي فلمَّا رآه النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((سَلْ تُعْطَ))[459]، فجاء عُمر رضي الله عنه في الصَّباح -لمَّا غدا- أتى إلى ابن مسعود فطرق عليه الباب وقال: (مَا جَاءَ بِكَ هَذِهِ السَّاعَةَ؟) فقال: (جِئْتُ لِأُبَشِّرَكَ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (قَدْ سَبَقَكَ أَبُو بَكْرٍ) فقال عمر رضي الله عنه: (إِنْ يَفْعَلْ فَإِنَّهُ سَبَّاقٌ بِالْخَيْرَاتِ، مَا اسْتَبَقْنَا خَيْرًا قَطُّ إِلَّا سَبَقَنَا إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ) رضي الله عنه.

وكذلك ما جاء في سُنن التِّرمذي من حديث عمر رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أمرهم يومًا بالصَّدقة؛ قال: (فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا)[460] -يعني جاء الأمر بالصَّدقة وأنا عندي مال-، قال: (فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا) قال: (فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي) فقال النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟)) قلتُ: (مِثْلَهُ) قال: (وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ

---

459 عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ يَقْرَأُ، فَقَامَ فَسَمِعَ قِرَاءَتَهُ، ثُمَّ رَكَعَ عَبْدُ اللهِ، وَسَجَدَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ))، قَالَ: ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ مِنَ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ)) قَالَ: فَأَدْلَجْتُ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ لِأُبَشِّرَهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَلَمَّا ضَرَبْتُ الْبَابَ -أَوْ قَالَ: سَمِعَ صَوْتِي- قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ قُلْتُ: جِئْتُ لِأُبَشِّرَكَ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قَدْ سَبَقَكَ أَبُو بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنْ يَفْعَلْ فَإِنَّهُ سَبَّاقٌ بِالْخَيْرَاتِ، مَا اسْتَبَقْنَا خَيْرًا قَطُّ إِلَّا سَبَقَنَا إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ) [قال الشيخ أحمد شاكر في "المسند": إسناده صحيح]

460 حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي".

مَا عِنْدَهُ) فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام له: ((مَا أبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟)) قال: (أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فقال عمر رضي الله عنه: (وَاللهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا)[461].

الشَّاهد من هذا -وأمثاله كثير- أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا مُتنافسين على الخير -الفُقراء والأغنياء- كلّهم، وما ذكر الله -عزَّ وجلّ- من عُذر الفقراء ومن عُذْر الأعرج والمريض والأعمى إنَّما ذَكر هذا لأنَّهم كانوا يَرَوْن أنَّ حقًّا عليهم أن يفعلوا شيئًا لهذا الدِّين، فالصَّحابة رضي الله عنهم كانوا حريصين، وانظر إلى حرصهم؛ هؤلاء هم فقراء المهاجرين الَّذين كانوا لا يُؤوون إلى مال ولا أهلٍ، وإنَّما كانوا أهل الصُّفَّة رضي الله عنهم وأرضاهم، وكانوا أضياف الإسلام كما جاء في مجموع الأحاديث في الصَّحيحين وفي غيرها، وربَّما كانوا لا يجدون ما يلبسون، وكانوا يضعون الشَّوك على ثيابهم لئلا تنكشف عوراتهم، ولمَّا رأوا الأغنياء من الأنصار ومن غيرهم -وكانوا أصحاب زراعة ونخل وخيل وإبل- لم تكن همَّتهم في أنَّهم قالوا: (لأنَّ هؤلاء يلبسون أحسن من لبسنا، ويركبون أحسن من مراكبنا ويُؤوون إلى أهلٍ ومالٍ، وعندهم النَّخل، وعندهم الإبل، وعندهم الغنم، وعندهم الخيل) لم يذكروا من هذا شيئًا كما هو حال النَّاس اليوم -إلَّا من رحم الله-، انظر قالوا بأنَّهم:[أَهلُ الدُّثُور] يعني أموال، وما قالوا: (ونحن يا رسول الله فقراء وما عندنا، وهؤلاء لا يُزكُّون على أموالهم، وهؤلاء، وهؤلاء) ويذكرون ما يذكره النَّاس ممَّن عظُمت رغبتهم في الدُّنيا -إلَّا من رحم الله-، ماذا قالوا؟ قالوا:[ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ] هذا همُّهم، هذه همَّتهم، هذا هو الشَّيء الَّذي ترغب فيه نفوسهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

قالوا:[ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ] أصحاب الأموال ذهبوا علينا بالأجور، كيف ذهبوا بالأجور؟ لأنَّهم يُشاركوننا في جميع الأعمال الظَّاهرة فيُصلُّون كما نُصلي، يصومون كما نصوم، وفوق هذا يتصدَّقون بفضول أموالهم، وهذا هو الَّذي كان يَشغل الصَّحابة، لم يشغل هؤلاء الفقراء أنَّ إخوانهم من الأغنياء عندهم الدُّنيا وعندهم الأموال، هذا لم يخطر لهم ببالٍ -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وإنَّما كانت همَّتهم أنَّ هؤلاء سيسبقونهم إلى الأجر وإلى الآخرة.

_ فبيَّن لهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام -وهذا أيضًا من فوائد الحديث- وهو أنَّ مفهوم العبادة عظيمٌ وكبيرٌ لمن وفَّقه الله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

---

[461] قَالَ عُمَرَ بنَ الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا! قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: وَاللهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا) [حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي"].

الْعَالَمِينَ﴾[462] فإذا علم العبد أنَّ تقلُّبه باللَّيل والنَّهار حتَّى في المباحات إذا نوى بها الطَّاعات -طاعة الله عزَّ وجلَّ- أنَّه في عبادة، فبيَّن لهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ بين أيديكم من الأجور ما يعدل ما يتصدَّق به الأغنياء.

_ ومن فوائد هذا الحديث: فَضْل الأعمال الصَّالحة، لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بيَّن لهم طُرقًا كثيرةً من الأعمال الصَّالحة ونوافل العبادات الَّتي يتقرَّبون بها إلى الله -تبارك وتعالى-، فبيَّن لهم أنَّ التَّسبيح وفضله عظيمٌ: ((بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً)) فإذا سبَّح الإنسان فقال: (سبحان الله) تصدَّق، ولم يُبيِّن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم [...][463].
وكذلك بيَّن لهم أنَّ أمرهم بالمعروف -وهو كلُّ ما أمر به الشَّرع ورضي به وأحبَّه- صدقة، وأنَّ نهيهم عن المنكر -وهو كلُّ ما نهى عنه الشَّرع وكرهه- صدقة كذلك، وكلُّ هذا من فَضل الأعمال الصَّالحة الَّتي ينبغي أن يحرص عليها المسلم، وإذا كان النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام لمَّا ذكر شُعب الإيمان ذكر من أمورها المهمَّة أنَّ إماطة الأذى عن الطَّريق صدقة[464].

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ الأعمال المباحة إذا اقترنت بنيَّة صالحة فإنَّ العبد يُؤجر عليها، ولهذا عبَّر ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- في طائفة من كتبه منها "الفروسية" و "الإعلام" و "المدارج" وغيرها بقوله: (الْمُبَاحَاتُ تَصِيرُ بِالنِّيَّةِ طَاعَاتٍ)[465]، وقد جاء في صحيح الإمام البخاري أنَّ معاذًا رضي الله عنه قال: (أَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي)[466]، وهذا الضَّابط أو القاعدة الَّتي يذكرها بعض أهل العلم في القواعد الفقهية مأخوذة من قول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ)) يعني أنَّه إذا أتى أهله في المباح.

((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ)) والبضع طبعًا على وزن فُعل، إنَّما يُطلق على الفرج ويُطلق على الجماع، فالنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بيَّن لهم هذا، فالجِماع كما هو معلومٌ الأصل فيه أنَّه من الأفعال المباحة لكن لمَّا اقترنت به نيَّة الإعفاف بمعنى أنَّ العبد يعفُّ نفسه ويعفُّ أهله فإنَّه يُؤجر

---

462 سورة الأنعام: 162
463 انقطاع يسير في الصوت.
464 ((وَتُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)) متَّفقٌ عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ لمسلم].
465 "الفروسية" ص103
466 (أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ وَأَقُومُ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي) رواه البخاري.

بهذا، وهذا له نظائر كثيرة في الشَّريعة مثل قول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**))[467] كما في حديث سعد المخرَّج في الصَّحيح.

_ ومن فوائد هذا الحديث -وهي فائدة أصوليَّة-: إثبات قياس العكس، القياس عند جماهير أهل العلم من الأدلَّة الشَّرعيَّة إذا كان صحيحًا ولا يتكلَّف فيه صاحبه -كما هو قول جماهير أهل العلم-، إلَّا أنَّهم اختلفوا في بعض أنواعه -أعني الجمهور-؛ ومن أنواعه الَّتي اختلفوا فيها: قياس العكس، وما هو قياس العكس؟ عرَّفه شيخ الإسلام في "النُّورانية" بقوله: (هُوَ أَنْ يَثْبُتَ فِي الْفَرْعِ نَقِيضُ حُكْمِ الأَصْلِ)[468] بمعنى أنَّ الحكم متنافٍ، وهذا القول -وهو قياس العكس- ذهب إليه المالكية والشَّافعية في الصَّحيح من مذهبهم، واختاره النَّووي منهم، واختاره من الحنابلة شيخ الإسلام وابن النَّجار وغيرهم من أهل العلم على أنَّ قياس العكس ثابت بشروطه.

وقلنا بأنَّ حقيقته أن يثبت في الفرع نقيض حكم الأصل، فإذا نظرت إلى هذا الحديث النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال لهم:[«**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا] الهمزة هنا استفهاميَّة لأنَّهم يراجعون فيها النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ليفهموا، قال هؤلاء الأصحاب رضي الله عنهم:[أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟] فقال لهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ)) هذا هو قياس العكس، فقاس لهم الحلال على الحرام، بمعنى أنَّهم إذا فعلوا الحرام فإنَّهم يأثمون؛ وهو الزِّنا واللِّواط -أعوذ بالله- وإتيان المرأة في دبرها، كلُّ هذا هو العدوان.

((لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟)) والوزر هو الإثم -كما هو معلومٌ-.
قال: ((فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا)) هكذا بيَّن لهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام.

---
467 ((وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ)) [متَّفقٌ عليه؛ من طريق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه].
468 "القواعد النورانية" لابن تيمية رحمه الله، ص75.

من قبل وأنا أتأمّل في إعراب: ((أَجْرٌ)) وأنا أشرح؛ لأنَّها في النُّسخة الَّتي بين يدي وضع لها طابعُها نصبًا -يعني ألف وعليها الفتح-، وهذا لاشكَّ أنَّه غلط فيما يظهر لأنَّ ((كَانَ)) هنا ما إعرابها؟ ما إعراب ((أَجْرٌ)) هنا؟ (أجر) هنا ستكون اسم كان مؤخَّر مرفوع وعلامة رفعه الضَّمَّة، فعلى كلِّ حال هذا الظَّاهر أنَّه غلط من الطَّابع لأنَّ قوله: ((فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ)).

وقد يُحتمل أنَّ الطَّابع هذا وضعها نصبًا؛ لكن ينبغي النَّظر في الرِّوايات على أنَّها مفعول (وضع) وهذا فيه ما فيه على كلِّ حال.

✽ هذا الحديث كما بيَّنَّا في طرفٍ من الفوائد؛ أيضًا فيه مسألة مُهمَّة يذكرها أهل العلم فيما يتعلَّق بكتُب الرَّقائق وما يُسمَّى بالزُّهد والسُّلوك، وصنَّف فيها وبحثها ابن القيِّم وأطال في كتابه "عِدَّة الصَّابرين" أو "عِدَةُ الصَّابرين" أو "عُدَّة الصَّابرين" -على ثلاث أوجهٍ ضُبط-، وهي مسألة التَّفاضُل بين الغني والفقير، ما الأفضل الغني أم الفقير؟

- جُمهور أهل العلم وهو اختيار ابن القيم والحافظ ابن حجر والعلَّامة ابن باز والعلَّامة ابن العُثيمين -عليهم رحمة الله- إلى أنَّ الغني الشَّاكر أفضل من الفقير الصَّابر، لماذا؟ قالوا: لأنَّ الغنيّ نفعه متعدٍّ، أمَّا الفقير الصَّابر فإنَّ نفعه لازم له في نفسه.

إلَّا أنَّ بعض أهل العلم قال بأنَّ الفقير الرَّاضي -لأنَّ الرِّضا منزلة أعلى منها- أنَّ الفقير الرَّاضي يكون أفضل من الغنِيّ الشَّاكر[469].

وهذه على كلِّ حال مسألة يذكرها كثيرٌ من أهل العلم

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ في الحلال غُنية عن الحرام، وأنَّ الله -تبارك وتعالى- حرَّم على عباده الخبائث وأبدلهم بها الطَّيِّبات، وهذا ما يُسمَّى بالبديل إذا كان ثمَّة دليل، وأمَّا بغير دليل فلا يلزمك أن تأتي النَّاس ببديل، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[470]، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[471]، وهنا الزَّواج عِوض عن الزِّنا واللِّواط، وسائر الفواحش؛ لأنَّه قال:

[469] قَالَ ابْن رَجَب رَحِمَهُ الله: (وَقَدْ قِيلَ: إنَّ الْفَقِيرَ الرَّاضِي أَفْضَل مِنَ الْفَقِيرِ الصَّابِرِ وَالْغَنِيِّ الشَّاكِرِ بِالاتِّفَاقِ) ["مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي" ص761]

[470] سورة البقرة: 275

[471] سورة الأعراف: 157

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ)) فالاستغناء بما أحلَّ الله -تبارك وتعالى- هذا فضله عظيم، والحمد لله الَّذي منَّ على عباده بالفضائل كلِّها في هذا الدِّين.

_ من فوائد هذا الحديث أيضًا -وهو كان ينبغي أن يكون في أوَّلها ونحن نركِّز عليه دائمًا-: الرُّجوع إلى أهل العلم، وهذا أصلٌ أصيلٌ عظيم ضيَّعه كثيرٌ من النَّاس وسبب تضييعهم له راجعٌ إلى أمرين:

- الأمر الأوَّل: عدم معرفتهم بأهل العلم وفضائلهم.
- والأمر الثَّاني: أنَّه نبتت نابتة من أهل الجهل والإعلاميِّين الَّذين ربَّما إذا نظرتَ في تراجمهم رأيته من المهندسين أو طبيب ليس له علاقة بالعلوم الشَّرعيَّة، لم يبرك بين يدي العلماء حتَّى يأخذ علومهم وسمتهم ثمَّ يتكلَّم في أمور الشَّرع فيرجعون إليه، وإذا أرادوا أن يُلبِّسوا على أنفسهم جميعًا هذا المدَّعي للعلم وهذا الَّذي يرجعُ إليه سمَّوه: مُستشارًا، أو سمَّوه: مفكِّرًا، أو سمَّوه: مدرِّبًا، ولا يعذرهم هذا بين يدي الله -عزَّ وجلَّ- لأنَّ الله -جلَّ وعلا- قال في كتابه الكريم:﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[472]، ومن هذا أيضًا قوله -جلَّ جلاله- في كتابه الكريم:﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[473].

[472] سورة النَّحل: 43
[473] سورة النِّساء: 83

۞ الحديث السادس والعشرون ۞

عَنْ أَبِي هُريرة رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ.

كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ.

وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ.

وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ.

وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ.

وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وأنتم تلحظون أنَّ هذا الحديث شبيهٌ في جُملةٍ كبيرةٍ بالحديث الَّذي قبله، لأنَّه ذكر أنواعًا من الأعمال الصَّالحة هي صدقات يتصدَّق بها العبد على نفسه.

قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كُلُّ سُلَامَى)) السُّلامى هنا المراد بها العظام والمفاصل، والمراد: أنَّ كلَّ عظمٍ من عظام ابن آدم أو عُضو أو مفصل -والأصل فيه أنَّه عظام الكفِّ والأصابع والأرجل- أنَّ فيها أجرًا للعبد.

والصَّدقة تُطلق على جميع ذلك، على جميع أنواع البرِّ والإحسان كما يقول الحافظ ابن رجب: (الصَّدَقَةُ تُطْلَقُ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ فِعْلِ الْمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ، حَتَّى إِنَّ فَضْلَ اللهِ الْوَاصِلَ مِنْهُ إِلَى عِبَادِهِ صَدَقَةً مِنْهُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُنْكِرُ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا الصَّدَقَةُ مِمَّنْ يُطْلَبُ جَزَاؤُهَا وَأَجْرُهَا، وَالصَّحِيحُ خِلَافُ ذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَصْرِ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ:«**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**»)[474].

فهذا الحديث يعني في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((سُلَامَى)) عرفنا معناها.

والصَّدقة: فعل الخير.

والعدل المراد به هنا: الصُّلح، أن تُصلح بينهم.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَتُعِينُ)) أي تُساعد.

✿ وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة -قد تقدَّمت الإشارة [...]-[475]

قلنا بأنَّ هذه الأعضاء تحتاج إلى شكر من الله -تبارك وتعالى-، فالعبد لا يحقر من المعروف شيئًا لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**))[476]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**))[477].

474 "جامع العلوم والحكم" ص535.

475 انقطاع يسير في الصَّوت.

476 رواه مسلم؛ من طريق أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

477 عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)) [صحَّحه الألباني رحمه في "صحيح الترمذي"]

وإذا تأمَّلت أيضًا في حديث أبي ذرٍّ الَّذي في الصَّحيحين: ((**تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ**)) قال: (أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟) ذكر له أشياء كثيرة[478] قال: ((**تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**))[479] فالعبد إذا أحسن إلى النَّاس فإنَّما أحسن إلى نفسه.

وقوله: ((تُمِيطُ))، معنى: ((تُمِيطُ)) وهو بالضَّمِّ وقد يُفتح، أي: تُنحِّي وتُزيل، كما في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**وإِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**))[480]، وكما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ**))[481].

_ من فوائد هذا الحديث أيضًا: دوام الطَّاعة والمحافظة عليها، فقد قالت عائشة رضي الله عنها في حقِّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: (كَانَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ)[482]، وقالت عليها رضوان الله: (كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً)[483] يعني أنَّه يستديم على هذا العمل، وسُئل عليه الصَّلاة والسَّلام عن أحبِّ الأعمال إلى الله فقال: ((**أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**))[484]، فالنَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ)) فينبغي أن يكون المسلم هذا حاله، ولهذا لمَّا أصبح النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يومًا قال: («**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟**»قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي اللهُ عَنْهُ: أَنَا)، ((**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**))، ((**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**))، ((**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**)) في كلِّ ذلك أبو بكر رضي الله عنه يقول: (أَنَا) فقال: ((**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**))[485] فإذا عمل العبد عملًا فإنَّه ينبغي له أن يُحافظ عليه قدر استطاعته إلَّا أنَّه يُكره له أن يُشبِّهه بالواجب، ويُفرَّق بين ما

---

478 عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِه)) قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا)) قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: ((تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ)) قَالَ: قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: ((تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ)) [متَّفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم]

479 متَّفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم.

480 صحَّحه الألباني رحمه في "صحيح الجامع"؛ من طريق أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

481 متَّفقٌ عليه؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ لمسلم].

482 رواه مسلم.

483 متَّفقٌ عليه.

484 عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، قَالَ: ((أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ)) [متَّفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم]

485 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) رواه مسلم.

كان من متأكّد العبادات -أي النّوافل- وما كان من مُطْلق سُننها، فالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ)).

ثمَّ ذكر بعض الأعمال الَّتي ينبغي أن يُحرص عليها وعامَّتها مُتعدٍّ، وهذا ممَّا يدلُّك على أنَّ الأعمال المتعدِّية أفضل من الأعمال اللّازمة أو القاصرة الَّتي تقتصر على العبد، فقال: ((تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ)) فإذا عدلت بين اثنين وأصلحت بينهما وجمعت بينهما على خير، ما يُشترط؛ قد يكون أب وابن، أو أمّ وبنت، أو زوج وزوجة، أو جار وجارة، أو أخ وأخيه -وما أشبه ذلك-، ((تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ)).

((وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ)) ويُحمل على الدَّابة اليوم: السَّيارات، فإذا رأيت إنسانًا تعطَّلت سيَّارته أو كفر السيَّارة خرب عليه -أو ما أشبه ذلك- أو احتاج إلى ماء للسَّيَّارة فإنَّك تُعينه عليها.

((فِي دَابَّتِهِ)) كلُّ ما دبَّ على الأرض ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[486] والشَّريعة أحكامها باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال: ((فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا)) وحمله عليها: أي إصعاده، وكذلك إعانته إذا تعثَّرت أو تعطَّلت -أو ما أشبه ذلك-، ومن ذلك أيضًا أنَّه ذكر: ((أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ)) كلُّ هذا: تُعينه على رفع المتاع في الدَّابة، في الحمار، في الخيل، في الإبل، في السَّيَّارة، في الطَّيَّارة، هذا من فضل هذا الدِّين القائم على التَّعاون ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾[487].

((أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ)) إن عجزت عن العمل فقل الكلمة الطَّيِّبة: (أحسنتَ)، (جزاكَ الله خيرًا)، (بارك الله فيك)، (نفع الله بك)، وقد قال النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: **((وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ**

---

[486] سورة النَّحل: 8

[487] سورة المائدة: 2

حَتَّى تُرَوا أنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))[488]، وقال ((**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ**))[489] فالكلمة الطَّيِّبة صدقة، كونك تختار الكلمة الطَّيِّبة هذا صَدَقة تتصدَّق بها على نفسك، إذا استطعت أن تدفع أخاك المسيء -لا نقول المحسن- بالكلمة الحسنة فهو أفضل، ولا يُشترط أن تحتدَّ في وجهه حتَّى يتبيَّن أنَّك كذا وكذا، فتُلين الجانب له.

قال: ((وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ)).

وَسَائِلُ الْأُمورِ كَالمَقَاصِدِ ... وَاحْكُمْ بِهَذَا الحُكْمِ لِلزَّوَائِدِ

كما قال شيخ مشايخنا العلَّامة ابن سعدي -رحمه الله- في نظم القواعد، يعني أنَّ الوسائل لها أحكام المقاصد، فلمَّا كان مقصدك هو الذَّهاب إلى المسجد، وترتَّب على ذهابك إلى المسجد المشي والذَّهاب، فإنَّك تؤجر على هذا، بل الزَّوائد الَّتي هي الرُّجوع والذَّهاب يُحكم بها أيضًا للعبد بالأجر.

وذكر آخر ما ذكر قال: ((وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)) وقد عرفنا آنفًا أو سابقًا أنَّ الإماطة للأذى هي أيضًا من شعب الإيمان.

---

488 صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

489 صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

۞ الحديث السابع والعشرون ۞

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سمْعان الأَنْصَارِيِّ رضي الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ رضي الله عَنْهُ قالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **«جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟»**

قُلْتُ: نَعَمْ.

قالَ: **«اسْتَفْتِ نَفْسَكَ؛ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ»**

قَالَ سُفْيَانُ: «**وَأَفْتَوْكَ**» حَديثٌ حَسَنٌ رويناهُ فِي مُسْنَدَيِ الإمَامَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَالدَّارِمِيِّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

هنا ذكر المصنِّف -رحمه الله تعالى- حديثين تحت ترقيمٍ واحد، وهذان الحديثان مُتعلِّقان بأعمال الباطن، وهما من الأحاديث المهمَّة في اجتناب الشُّبهات والاحتياط في الدِّيانة، وقد مرَّ معنا شيءٌ من ذلك في الكلام على حديث النُّعمان بن بشير المتَّفق عليه، وفي حديث الحسن بن عليّ بن أبي طالب أيضًا الَّذي فيه: ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ)).

وهذا الحديث -حديث النَّوَّاس بن سمعان- قال فيه رضي الله عنه وأرضاه:[عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ»] كلمة البرِّ هذه من الكلمات الجامعة الَّتي تشتمل على أفرادٍ كثيرة مُتقاربة، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام أبو العبَّاس بن تيمية -رحمه الله تعالى- في مُجمل كتبه، فإنَّه يُقرِّر فيها كثيرًا أنَّ هذه الألفاظ مُتقاربة وليست مُترادفة.

فالنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم هنا عرَّف لنا البرَّ الَّذي قال الله -تبارك وتعالى- فيه:﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[490] فعرَّف النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم البرَّ هاهنا بكلمة جامعة بأنَّه: ((حُسْنُ الْخُلُقِ)) وحسن الخلق ليست لفظة متعلَّقها التَّعامل مع النَّاس فحسب، لكنَّ حُسن الخلق كلمة أو اسم جامع لفعل كلِّ خير من جهة العبد في حقِّ ربِّه -جلَّ جلاله- أوَّلًا، وفي حقِّ نفسه، وفي حقِّ النَّاس، فإذا عمل العبد أنواعًا من البرِّ فإنَّه يكون قد أدَّى هذا الميزان الَّذي أمر الله -تبارك وتعالى- به وهو:﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[491].

فالنَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم عرَّف الحديث أو عرَّف هذه اللَّفظة بأنَّها: ((حُسْنُ الْخُلُقِ)) فهو اسمٌ جامع لكلِّ خير، وأنتم تعرفون أنَّ الألفاظ تتصرَّف في لغة العرب يقولون: البِرّ، والبُرّ، والبَرّ، وكلُّ كلمة لها معناها المستقلّ الَّذي تدلُّ عليه في سياق كلام العرب.

❁ وحسن الخلق: بذل النَّدى وكفُّ الأذى وطلاقة الوجه.

ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام عرَّف الإثم بعد ذلك -بعد أن عرَّف البرّ عرَّف الإثم- فقال: ((مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليْهِ النَّاسُ))، وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَا حَاكَ)) بمعنى ما أثَّر في صدر الإنسان فأحدث له همًّا أو ضيقًا أو كربًا -أو ما أشبه ذلك-.

❁ ولهذا المسلم بقدر ما عنده من الدِّيانة والإيمان والصَّلاح فإنَّ المعاصي تُؤثِّر عليه، ولهذا بعض النَّاس في هذه العُصور يقولون: لماذا المسلمون إذا عملوا بعض المعاصي أو بعض السَّيِّئات يحصل لهم أنواع من الاضطرابات النَّفسيَّة أو الأمراض النَّفسيَّة أو الضَّنك أو ضيق الصَّدر أو ما أشبه ذلك؟ لماذا؟

---

490 سورة المائدة: 2

491 سورة المائدة: 2

والجواب على هذا: أنَّ الكافر أو الفاجر الَّذي لا إيمان له يعمل الأعمال ولا يُبالي بآثارها ولا يُبالي بنتائجها، ولكن المؤمن إذا عمل العمل فإنَّه وإن تجاسرت عليه نفسه لكنَّها تُؤنِّبه، والنَّفس أنواع ومنها النَّفس اللَّوَّامة الَّتي تلوم صاحبها وتُؤنِّبه.

وهذا هو معنى قول النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ)) فإذا حصل للإنسان نوعٌ من الاضطراب والتَّردُّد في فعل الشَّيء فإنَّه يجتنبه وهذا هو الاحتياط لدينه.

كثيرٌ من النَّاس لا يعلمون قضيَّة التَّمييز بين الحلال والحرام أو لا يعلمون التَّمييز فيما بين الحلال والحرام، يعني يعلمون حلالًا صِرفًا وحرامًا صِرفًا -كما جاء في حديث النُّعمان بن بشير-، ولكنَّهم لا يعلمون المشبَّهات الَّتي تكون بين هذين الأمرين، وهذا هو الَّذي أشار إليه النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام.

كما أنَّ بعض النَّاس أيضًا إذا جاء يستفتي العالِم أو يسأله عن أمر دينه قد لا يجد العالم ما يُعبِّر به عن دليل التَّحريم الموصل إلى المطلوب لكنَّه بتأمُّله في مقاصد الشَّريعة، في عمومات الشَّريعة، في أدلَّة الشَّريعة العامَّة، يستنبط ويستخرج منها الحكم الشَّرعي الَّذي لا يعلمه كثيرٌ من النَّاس، ولهذا فإنَّ العبد إذا أفتاه المفتون وأكثروا عليه في الفتوى بحِلِّ هذا الأمر وقد ارتاب منهُ فإنَّه يتركه، وهذا مرجعٌ له في دينه.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((اسْتَفْتِ)) السِّين والتَّاء دائمًا -كما قُلنا- إذا دخلت على الفعل فإنَّها تطلب أو تدلُّ على الطَّلب.

وقوله هنا: ((وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ)) (أل) فيها للعموم إلَّا أنَّ هذا العموم ليس مرادًا، لأنَّنا نعلم جميعًا -بارك الله فيكم- أنَّ (أل) إذا دخلت على الاسم المفرد فإنَّها تدلُّ على العموم، لكن هذا العموم قد لا يكون مرادًا، فقال طائفة من الشُّراح: ((وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ)) أي أفتاك علماؤهم.

وقد يكون الحديث على ظاهره ويكون فيه دلالة على جهل كثيرٍ من النَّاس الَّذين يطلبون الفتوى وإن لم تكن من أهلها الَّذين هم أهل العلم وحملته، فقد يكون هذا المعنى مُرادًا وقد يكون هذا المعنى مُرادًا -والعلم عند الله جلَّ وعلا-.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَإِنْ أَفْتَاكَ)) يعني أفتوك بخلاف الَّذي حاك في صدرك.

۞ وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

_ من أجلِّها وأحسنها: العمل بقاعدة الاحتياط في الشَّريعة وترك الشُّبهات.

_ ومن فوائده أيضًا: تعريف بعض الأفراد الشَّرعية، وهو الَّذي يقول عنه العلماء: (تعريفه في الشَّرع)، وأمَّا إذا كان اجتهادًا فإنَّه يُقال فيه: (تعريفه في الاصطلاح) أي ما اصطلح عليه العلماء.

_ ومن فوائد هذا الحديث: فضل البرِّ الَّذي هو حسن الخلق والَّذي هو الكلمة الجامعة في تعامل الإنسان مع ربِّه وتعامل الإنسان مع نفسه وتعامل الإنسان مع النَّاس.

_ من فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ المسلم له حَكَمٌ في باطنه وهو ما يُسمَّى عند كثيرٍ من العلماء وعند بعض العلماء بـ: الرِّعاية، أنَّ الإنسان يُراعي ما تُمليه نفسه من طاعة الله -جلَّ جلاله-، وهذا هو الواجب على المسلم.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: العمل بغلبة الظَّنِّ الَّتي هي نوعٌ من البصيرة الَّتي يقذفها الرَّبُّ -جلَّ وعلا- في قلب العبد.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ بعض الأمور قد لا تكون ظاهرة في الشَّريعة يعرفها كلُّ النَّاس -كما مرَّ معنا في حديث النُّعمان بن بشير، وفي حديث الحسن بن عليّ، كما أسلفتُ ذلك آنفًا-، وهو من الأمور المهمَّة.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الحقَّ له سكينة في النَّفس وطمأنينة في القلب، فإذا عمله العبد فإنَّه يكون مُستريحًا.

ـ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ صلاح الإنسان وفساده راجعٌ إلى صلاح وفساد باطنه -كما مرَّ معنا ذلك أيضًا في حديث النُّعمان بن بشير-، وفي هذا الحديث أحال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام إلى ما يحيك في نفس الإنسان فيكون القلب فيه طلبٌ للخير وطلبٌ للشَّرِّ.

ـ ومن فوائد هذا الحديث -وهي مرَّت معنا أيضًا بكثرة-: الرُّجوع إلى أهل العلم، لأنَّ هذا الرَّجل سأل النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام عن البرِّ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم.

ـ وفيه أيضًا: حرص الصَّحابة رضي الله عنهم على الخير ووسائله ومقاصده.

ـ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المفتي إذا لم يجد دليلًا ظاهرًا على المسألة الَّتي يُفتيها للمستفتي فإنَّه يُرجعه إلى قلبه وإلى ما يُمليه عليه إيمانه ويمليه عليه دينه.

ـ ومن فوائد هذا الحديث: اعتبار ملامة النَّاس في ذمِّ عِرْض الإنسان أو مدحه، لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أحال إليها بقوله: ((وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليْهِ النَّاسُ)) لا كما يقوله بعض النَّاس: (أنا لا يُهمُّني النَّاس) أو (لا يُهمُّني ما يفعلون أو ما يقولون) وهذا غلط، وأنتم تعرفون أيضًا الحديث الَّذي في الصَّحيحين في قصَّة الاعتكاف -حديث صفيَّة- لمَّا قام النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يَقْلبها من معتكفه فرآه رجلان فأسرعا في المشي فقال: **((عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ))**[492] فقالا: (سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ)[493] فقال: **((إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا))**[494].

ـ ومن فوائده أيضًا: أنَّ الإنسان يجتنب مساوئ الأخلاق الَّتي تؤدِّي إلى خرم مروءته فيكون عرضه مُلاكًا بين النَّاس.

والفوائد في هذا الحديث الَّذي هو من جوامع كَلِم نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم كثيرة.

492 متَّفقٌ عليه.

493 متَّفقٌ عليه.

494 متَّفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم.

ونحوه أيضًا حديث وابصة بن مَعبد لمَّا قال بأنَّ الرَّجل جاء يسأل النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال:[«جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قالَ: «اسْتَفْتِ نَفْسَكَ؛ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ»] وزاد سُفيان: ((وَأَفْتَوْكَ)) تأكيدًا، وهذا الحديث حسَّنه الحافظ النَّووي -رحمه الله تعالى- كما نصَّ على هذا، وقد حسَّنه طوائف من أهل العلم.

وهذا ما يتعلَّق بفوائد هذين الحديثين ممَّا ذكره النَّووي -رحمنا الله وإيَّاه-.

والمعنى الإجمالي -كما قدَّمت سلفًا-: أنَّ المسلم ينبغي له أن يحافظ على رعاية نفسه من جهة أنَّه يبحث عن ما هو سبيلٌ إلى تقوية إيمانه بحيث يقذف الله -تبارك وتعالى- في قلبه نورًا يُميِّز به بين الحقِّ والباطل، وبين الهدى والضَّلال، وبين الخير والشَّر، كما قال -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[495] فإنَّ هذا كلّه ممَّا يُؤثِّر على نفسه.

[495] سورة الأنفال: 29

الحديث الثامن والعشرون

عَنْ أَبِي نَجِيح العِرْباضِ بنِ سَارِيَةَ رضي اللهُ عَنْهُ قالَ: وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ، فَقُلْنا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّها مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ؛ فَأَوْصِنَا.

قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ؛ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

هذا الحديث من الأحاديث العظيمة، الجليلة، الكثيرة الفائدة، المتنوِّعة الحِكم والأحكام.

وهذا الحديث من الأحاديث المشتركة والمشاعة بين أنواع العلوم، فحيث [...][496] وجدت فيه أحكامًا وفوائد عظيمة لا يَستغني عنها مسلمٌ في عمومِ حياته فضلًا عن طالب العلم الَّذي يُواجه النَّاس ويستفيد منه النَّاس.

[496] كلمة غير واضحة.

وهذا الحديث يرويه لنا أبو نجيح العرباض بن سارية رضي الله عنه، وقد جاء في رواية عند الإمام أحمد أنَّ ذلك كان بعد صلاة الغداة -يعني بعد صلاة الفجر-.

فقال رضي الله عنه هاهنا:[وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] الموعظة عبارة عن الذِّكرى، فالوَعْظ نوعٌ من التَّذكير بالله -جلَّ وعلا- وآياته، وما أشبه ذلك.

والعِظة أيضًا يُراد بها التَّذكير؛ فإنَّ العرب يقولون: (وعظتُه، أعظه، وَعظًا).
ويُقال أيضًا: (عَظَاه، يَعْظُوه، عَظْوًا) لكن هذا في أمور أخرى، أمَّا ما يتعلَّق بكلامنا هنا فإنَّما المراد بها التَّذكير والعظة والدَّعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، وهذا نوعٌ ممَّا تستخدمه العرب في خطاباتها، ويقولون للرَّجل إذا قبِل الموعظة بأنَّه (اتَّعَظَ) إذا ذُكِّر بالخير -وما أشبه ذلك-.

وتُستعمل الموعظة في الغالب فيما يكون سببًا إلى رقَّة القلب وخضوعه وخشوعه، فإذا رقَّ القلب أو كانت الموعظة سببًا لترقيق القلب فإنَّهم يقولون: هذه موعظة.

قال:[وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] هذا فيه أنَّ أهل العلم هم أهل الموعظة الَّذين يتولَّونها ويُبيِّنونها للنَّاس ويُذكِّرون النَّاس ما أمر الله -تبارك وتعالى- به أن يُذكَّروا، وقد قال الله -تبارك وتعالى- لنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام فيما أخبر به عن المنافقين؛ قال:﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا﴾[497] فاستَعْمَل أيضًا أُسلوب التَّذكرة كما في قوله -جلَّ وعلا-:﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾[498].

فهنا قال:[وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] وهو عليه الصَّلاة والسَّلام كان هو الواعظ، والإمام، والخطيب، والمعلِّم، والموجِّه، وكذلك كان طائفةٌ من أصحابه يفعلون ذلك.

497 سورة النِّساء: 63
498 سورة المدثر: 49

وقول العرباض رضي الله عنه:[وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ] الوجل نوعٌ من الخوف، يعني خوفٌ دقيق، وقد قال الله -تبارك وتعالى-:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[499]، وهنا قال:[وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ] فهكذا قلوب المؤمنين فإنَّ صِفَتها عند أن يُذكَّروا بالله -تبارك وتعالى- أنَّ قلوبهم تَوْجَل وتخاف، ومن لم يجد هذا في قلبه عند عِظَة الله له وتذكيره فليفتش نفسه فإنَّ القلب فيه ما فيه!

وهنا قال العرباض بن سارية:[وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ] ثمَّ هذا الوصف راجعٌ إلى القلوب لأنَّ القلوب هي المحلّ الَّذي يصل إليه الوعظ والَّذي يتنزَّل عليه القرآن:﴿نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[500] فالتَّنزيل -تنزيل الذِّكرى، تنزيل الموعظة، تنزيل القرآن- إنَّما يكون على القلب، وهذا الَّذي ينبغي أن يستحضره الواعظ بأن يُوصل الموعظة إلى قلوب النَّاس، والَّذي أيضًا يستحضره مَن حضر الموعظة بأن لا يفتح لها آذانه وقد أغلق عنها قلبه.

فالعرباض قال:[وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ] وهذا دليل على أنَّ الأعضاء تابعة للقلوب، فإنَّ العين دمعت بعد أن تأثَّر القلب [وَذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ] قال هنا، بمعنى أنَّهم رضي الله عنهم قد بكوا عندما سمعوا موعظة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقول العرباض بن سارية رضي الله عنه هنا:[مَوْعِظَةً] في نُسخة أُخرى: (مَوْعِظَةً بَلِيغَةً)[501] والبلاغة معروفةٌ، وأنَّ البلاغة هي أخصُّ من الفصاحة، فقد يكون الإنسان فصيحًا ولا يكون بليغًا، أمَّا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فقد اجتمعت فيه الفصاحة والبلاغة بكلِّ أنواعها وشروطها، بلاغة المفرد، فصاحة المفرد، وفصاحة الجملة، وفصاحته هو عليه الصَّلاة والسَّلام -كما هي أركان الكلام الفصيح-، وكذلك كان عليه الصَّلاة والسَّلام بليغًا وقد آتاه الله جوامع الكلم.

---

[499] سورة الأنفال: 2
[500] سورة البقرة: 97
[501] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود".

والنُّسخة الَّتي بين يدي ليس فيها: (بَلِيغَةً) لكن هذا ما أحفظه من الحديث في بعض نُسخ الكتاب، أو في بعض مصادر الرِّوايات الَّتي سمعناها من الأشياخ (بَلِيغَةً).

قال:[وَجِلَتْ مِنها القُلوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ] يعني أنَّهم قد بكوا، وقد جاء في الصَّحيحين في حديث أنس أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال لهم يومًا: ((**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم لَضَحِكتُم قليلًا وَلَبَكيتُم كَثِيرًا**))[502] قال: (فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ، غَطُّوا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ)[503] هذا كان حالهم رضي الله عنهم وأرضاهم، كان حالهم هذا أنَّهم يبكون إذا سمعوا الموعظة ويتأثَّرون بها، توجل قلوبهم، وتذرف دموعهم، وقد يبكي القلب أحيانًا ولا تبكي العين كما هو معروفٌ في أخبار طائفة من العلماء وقد ذكر الذَّهبي -فيما علق في ذهني من السِّير- عن أحد الأئمَّة ووصفه بقوله: (وَكَانَ إِذَا وَعَظَ أَبْكَى الْقُلُوبَ).

وقول الصَّحابي رضي الله عنه -وهو العرباض-:[وَذَرَفَتْ مِنها العُيُونُ، فَقُلْنا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأنَّها مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ؛ فَأَوْصِنَا] هنا الصَّحابة رضي الله عنهم استحضروا هذه الموعظة واستحضروا هذه الذِّكرى، وحَضَرتها قلوبهم، وعَلِموا أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قصد بهذه الموعظة أمرًا عظيمًا، وأنَّه قدَّم لهم بهذه الموعظة الَّتي رقَّقت قلوبهم ليتحصَّل على شيءٍ من تَهْيئة نفوسهم، وهذا الَّذي يجب أن يكون عليه الواعظ.

فقالوا:[كَأنَّها مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ] يعني: (كأنَّك مودِّعٌ لنا يا رسول الله)، والمودِّع إذا ودَّع يعلم أنَّه لا يرى من ودَّعه فيُوصيه بأعظم الوصايا، فطلبوا مِن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أن يُوصيهم بوصايا تنفعهم بعد موته، والصَّحابة رضي الله عنهم كما قال المشايخ؛ قالوا: (إِنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا مِنْ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُخْبِرُهُمْ بِقُرْبِ أَجَلِهِ)[504].

---

[502] متَّفقٌ عليه.

[503] متَّفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم.

[504] وقال ابن رجب رحمه الله: (لَرُبَّمَا كَانَ قَدْ وَقَعَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْرِيضٌ فِي تِلْكَ الْخُطْبَةِ بِالتَّوْدِيعِ، كَمَا عَرَّضَ بِذَلِكَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَقَالَ: ((لَا أَدْرِي، لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا)) وَطَفِقَ يُوَدِّعُ النَّاسَ، فَقَالُوا: هَذِهِ حَجَّةُ الْوَدَاعِ) ["جامع العلوم والحكم" ص586]

[...][505] النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام في أحاديث كثيرة يطول المقام بها إذا ودَّع أصحابه في السَّفر، لأنَّ السَّفر أيضًا فيه شُقَّة وبُعد وقد لا يلتقي النَّاس بعد السَّفر، فكان يُوصيهم ويعظهم عليه الصَّلاة والسَّلام.

فهنا الصَّحابة قالوا:[يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ فَأَوْصِنَا] يعني أخبرنا بما نفعله بعدك. والوصيَّة أيضًا هي نوعٌ من الأمر المتحتِّم المؤكَّد، والوصية من الآداب الَّتي جاءت بها الشَّريعة، ليست الوصية في الأحكام الفقهية المتعلِّقة بالإرث، لا؛ وإنَّما الوصية عمومًا، أن يوصي الإنسان نفسه أو إخوانه كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[506]، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[507]، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[508]، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[509]، ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾[510] إلى نصوص كثيرة في القرآن تدلُّ على أهمِّية الوصيَّة.

فقالوا:[فَأَوْصِنَا] وهذا فيه ما كان عليه الصَّحابة رضي الله عنهم من الرَّغبة في الخير والوصول إليه وسماع العلم من النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام.

فلمَّا أوصاهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، أوصاهم بجوامع الكلم فقال: ((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ)) وهذه الوصية هي الوصية الجامعة لكلِّ خير وهي وصيَّة الله -تبارك وتعالى- للأوَّلين والآخرين، كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[511] وأظنُّه قد تقدَّم معنا إن كنتم تذكرون في الكلام على حديث معاذ: ((اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ)) الكلام على هذه المسألة بما يُغني عن إعادتها [...][512].

505 انقطاع يسير في الصَّوت.
506 سورة العصر.
507 سورة الأنعام: 151
508 سورة الأنعام: 152
509 سورة الأنعام: 153
510 سورة النساء: 12
511 سورة النِّساء: 131
512 انقطاع يسير في الصَّوت.

خَـــلِّ الــــذُّنُوبَ صَـــغِيرَهَا وَكَبِيرَهَـــــا ذَاكَ التُّقَـــــى
وَاصْــنَعْ كَمَــاشٍ فَـــوْقَ أَرْضِ الشَّـــوْكِ يَحْــذَرُ مَــا يَــرَى
لَا تَحْقِــــــرَنَّ صَـــــغِيرَةً إِنَّ الْجِبَـــالَ مِـــنَ الْحَصَى

قال: ((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ)) فلمَّا وصَّاهم بتقوى الله الَّتي من اتَّصف بها وتحلَّى بها [...][513] فإنَّ نفسه تكون مُتهيِّئة لقبول أيِّ أمر وفعل، [...][514] أيضًا لتركه [...][515].
ويحمل الإنسان على أن يعمل في سبيل رضا الله -تبارك وتعالى-.

قال: ((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ)) [...][516] إلى هذه المعاني [...][517] الَّتي وصفها العرباض بأنَّها:[بَلِيغَة]، فهذه متعلِّقة بصلاح الإنسان في نفسه، فإذا صلح الإنسان في نفسه فإنَّه يقوم بصلاحه في غيره.

فقال بعد ذلك: ((وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ)) أي أوصيكم بالسَّمع والطَّاعة، ولم يُكرِّر الفعل هنا لأنَّه معلومٌ مفهومٌ مسبقًا، فقال: ((وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ)) أي أُوصيكم بالسَّمع والطَّاعة، يعني لمن ولَّاه الله -جلَّ وعلا- أمركم.
وتنصيب الولاية والإمام فيها كلامٌ كثير وتكلَّم عنها العلَّامة القرطبي -رحمه الله- في تفسيره بما يشفي ويكفي وقد أجاد وأفاد عند قوله تعالى:﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[518] وذكر شروطها وما يتعلَّق بها، وهي من أحسن ما يكون من الكلام -عليه رحمة الله ومغفرته-.

والله -جلَّ وعلا- قال في كتابه الكريم:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[519]، وجاء في الصَّحيحين من حديث ابن عمر أنَّ النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام

513 انقطاع يسير في الصَّوت.
514 انقطاع يسير في الصَّوت.
515 انقطاع يسير في الصَّوت.
516 انقطاع يسير في الصَّوت.
517 انقطاع يسير في الصَّوت.
518 سورة البقرة: 30
519 سورة النِّساء: 59

قال: ((عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ عَلَيْهِ وَلَا طَاعَةَ))[520]، والأحاديث في السَّمع والطَّاعة والقيام بها كثيرةٌ جدًّا، وشيخنا العلَّامة أحمد النَّجمي -رحمه الله تعالى- يقول بأنَّ أحسن من جمعها وبيَّنها: الإمام مسلم -رحمه الله تعالى- في كتاب الإمارة من صحيحه، فمَن أرادها راجعها فهي كثيرةٌ جدًّا.

ولمَّا قرَّر أنَّ السَّمع والطَّاعة لأنَّ العرب -كما ذكر الإمام محمَّد بن نصر المروزي- أنَّ ممَّا كان عليه عادة العرب أنَّهم كانوا لا يدينون بالسَّمع والطَّاعة لأحد، وجاءت هذه الشَّريعة فبيَّنت السَّمع والطَّاعة وخالفتهم في هذا الأمر، وكذلك ذكر شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب -رحمه الله تعالى- في المسألة الثَّالثة من المسائل الَّتي خالف فيها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أهل الجاهليَّة هذه المسألة -مسألة السَّمع والطَّاعة-، فهي مسألة مُهمَّة.
وكانوا يأنفون من أن يسمعوا ويُطيعوا لأحد، وجعل النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام الخلافة في قريش، إلَّا أنَّه إذا تأمَّر عليهم ولو عبدٌ حبشي فإنَّهم يطيعون له ويسمعون كما جاء في الأحاديث الكثيرة ومنها هذا الحديث وحديث أبي ذرٍّ وحديث معاذ وكلُّها في الصَّحيح، ولذلك قال: ((وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ)).

ولمَّا كان قد يتبادر إلى الأذهان أنَّ السَّمع والطَّاعة ربَّما تختصُّ بالعرب -ربَّما تختصُّ بقريش فضًلا عن أن يكون غير قُرشي- فبيَّن لهم النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه مادام قد وصل إلى مرحلةٍ يُسمع فيها ويُطاع فإنَّه يُسمع له ويُطاع حتَّى قال: ((وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ))، وجاء في الصَّحيح -في صحيح البخاري-: ((كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))[521] -طبعًا في غير هذا الحديث- في حديث أنس: ((كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))، ولهذا أجمع العلماء على أنَّه إذا عَلِيَهُمْ أو غلبهم وصار إمامًا وخليفةً فإنَّهم يسمعون ويُطيعون له، هذا الَّذي جرى عليه عمل المسلمين، والكلام في هذا كثير، وأيضًا هناك محاضرة لشيخنا العلَّامة صالح بن فوزان الفوزان مبثوثة في المواقع هي "الإعلام بطريقة تنصيب الإمام في الإسلام".

520 متَّفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم.
521 عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) رواه البخاري.

فقال: ((وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ)) يعني لو كان هذا المتأمَّر عليهم والَّذي صار أميرًا ومُطاعًا حتَّى جاء في صحيح مسلم من حديث أبي ذرٍّ قال: ((عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ))[522]، النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام يُؤكّد على هذا الأمر ويُبيّن أنَّ الطَّاعة بالمعروف؛ قال: ((لَا طَاعَةَ فِي الْمَعْصِيَةِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))[523] كما في البخاري من حديث عليّ رضي الله عنه.

وهذه المسألة طويلة تحتاج منَّا إلى كثيرٍ من الكلام، والمقصود في مثل هذه الشُّروح للمتون هو الإشارة، وطالب العلم بعد ذلك ينظر في كتب أهل العلم وفي مظان كتب أهل العلم.

فأوصاهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بالسَّمع والطَّاعة، لأنَّ التَّقوى فيها صلاحٌ لهم في أنفسهم، والسَّمع والطَّاعة فيها صلاح لهم في مُجتمعاتهم ومعايشهم ومعادهم، كما نعلم المفاسد العظيمة الَّتي تقع بسبب الخروج على ولاة الأمر ومُنازعتهم.

ثمَّ أوصاهم بوصيَّةٍ بعد ذلك، أو بيَّن لهم التَّعليل الَّذي من أجله أمر بالسَّمع والطَّاعة وأنَّ السَّمع والطَّاعة عاصمةٌ من الوقوع فيه؛ فقال: ((فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) لماذا ذكر هذه العلَّة؟ هذا يُسمَّى تعليل، طبعًا التَّعليل عند الأصوليين وعند البلاغيين حتَّى إذا نظرت في كتب البلاغة لا يقتصرون على قضية أن يأتيَ بحرف العلَّة، لا؛ أحيانًا قد تكون الجملة هي العلَّة للحكم، أو العلَّة للكلام والسِّياق الوارد فيه، فإنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام لمَّا أمر بالسَّمع والطَّاعة وقال: ((وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ)) لماذا؟ قال: ((فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) فإذًا السَّمع والطَّاعة ولزوم التَّقوى هذه عاصمة من داخل الإنسان ومن خارجه من الوقوع في الاختلاف الكثير، فمن اتَّقى الله فرَق الله له بين الحقّ والباطل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[524] ومن اعتصم بالسَّمع والطَّاعة لوليّ الأمر أمِنَ من الوقوع في الخلاف والفُرقة والتَّفرُّق واتِّباع الهوى، فقال: ((فَإِنَّهُ

---

[522] عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: ((إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ)) رواه مسلم.
[523] متَّفقٌ عليه؛ واللفظ للبخاري.
[524] سورة الأنفال: 29

مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا)) فحسب؟ لا؛ أكَّده بقوله: ((اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) هذا الاختلاف الكثير هو الفِتن الواقعة في النَّاس، تفرُّق جماعات، أحزاب، نِحل، ملل.

النَّاسُ شَتَّى وَآرَاءٌ مُفَرَّقَةٌ كُلٌّ يَرَى الْحَقَّ فِيمَا قَالَ وَاعْتَقَدَا

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا بِلَيْلَى وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَ

فيزعمون أنَّهم على الحقِّ وربَّما لا تجد في كلامهم ولا في تقعيدهم ولا في تأصيلهم من الحقِّ ما يُوصل به إلى خيرٍ أبدًا -نسأل الله العافية-.

فالخلاف واقعٌ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[525] وليس اختلافًا فحسب بل هذا اختلافٌ كثير، ولهذا كم نشأ من الفِرقِ فِرق، ومن الجماعات جماعات، ومِنَ الأحزاب أحزاب.

- **مَا العِصمة؟!!**

تقوى الله، والسَّمع والطَّاعة، ولهذا جاء في حديث حُذيفة -الطَّويل المتَّفق عليه- لمَّا سأله عن تلك المسائل العظيمة وما كانوا عليه في الجاهلية والإسلام؛ قال: (فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟)[526] قال: ((تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ))[527] قال: (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟) قال: ((**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**))[528] كثيرٌ من النَّاس لا يُهمُّه إلَّا أن يخوض ويتخوَّض بحجَّة أنَّه لا يترك السَّاحة، لا يترك الإسلام، فإذا كانوا يخوضون -ولا يخوضون إلَّا في باطلٍ- تخوض معهم من أجل أنَّك عملت بالإسلام؟ وأيُّ إسلام أنتَ عملت به ودعوتَ إليه؟ إسلامٌ ديمقراطيٌّ؟ إسلامٌ حزبي؟ إسلامٌ يُؤمن بكلِّ ما يُؤمنون به؟ هل هذا هو الإسلام الَّذي أنتَ دعوت إليه؟! بل أنتَ

---

[525] سورة هود: 118-119
[526] متَّفقٌ عليه، واللفظ للبخاري.
[527] متَّفقٌ عليه.
[528] متَّفقٌ عليه، واللفظ للبخاري.

أفسدت على النَّاس دينهم فيعتقدون أنَّ هذا هو الإسلام الَّذي فرضه الله -جلَّ وعلا- على الأمَّة.

هنا قال بعد ذلك مؤكِّدًا للعاصم الَّذي يُخرج من الفتن والفُرقة وهي نارٌ لا يعلمها إلَّا من نظر في أحوال المسلمين، أشدُّ مِن النَّار الَّتي تأكل الحطب وتأكل المنازل وتأكل الذَّوات، الفُرقة نارٌ تحترق بها الأُمَّة، تحترق بها جهودها، وتُؤكل بها جهودها، ((مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) ما المخرج -مع السَّمع والطَّاعة وتقوى الله-؟ قال: ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي)) أنتم تعلمون أنَّ المراد به هنا اسم فعل الأمر يعني: اِلْزَمُوا سُنَّتي، ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي)) أي اِلْزموا سُنَّتي، فهي بمعنى الأمر كما في قوله -جلَّ وعلا-:﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[529] يعني ألزموا أنفسكم، و((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي)) ما المراد؟ اِلْزموا سُنَّتي، والمُراد بالسُّنَّة هنا ليست السُّنَّة الاصطلاحيَّة الَّتي غلبت على العلماء في الفنون الَّتي يتعاطونها -عند أهل الحديث أو عند أهل الفقه أو عند أهل الأصول-، لا؛ المراد بالسُّنَّة هنا: الطَّريقة.

وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا[530]

فهي الطَّريقة الَّتي سار عليها النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام واهتدى بها واقتدى بها وعمل بها عليه الصَّلاة والسَّلام، يعني: (عليكم بطريقتي الَّتي أنا عليها)، ولهذا لمَّا ذكر حديث الافتراق وأنَّ الأُمَّة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فِرقة، جاء في رواية الحديث -وإن كان فيها عبد الرَّحمن بن أبي زيد بن أنعم الإفريقي وهو مختلفٌ فيه، وليس الخلاف فيه كبيرًا-، أنَّه قال: ((مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي))[531] لمَّا سُئل عن الجماعة؛ قال: ((مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي))، فالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام هنا قال: ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي)) يعني: طريقتي، وقد جاء في الصَّحيح قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))[532].

---

529 سورة المائدة: 105
530 للبيد بن ربيعة العامري.
531 قال ابن تيمية رحمه الله: (الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد) ["مجموع الفتاوى" ج3، ص345]
532 متَّفقٌ عليه، من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثمَّ أكَّد ذلك بسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديين مِن بعده، قال: ((وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي)) والواو هنا عاطفةٌ، والأصل فيها أن تكون مُقتضية للمغايرة، ومن هنا قال جماهير أهل العلم والأئمَّة بأنَّ سنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين الَّذين أوصى بهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام حُجَّة وواجبة الاتِّباع، وطبعًا هم مستحضرون ومُتصوِّرون أنَّها ما لم تُخالف سُنَّة النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ وهذا لو وُجد فإنَّه شيءٌ يسيرٌ لا اِكثرات به، وله احتمالات وتأويلات كثيرة، وكذلك ما لم يقع هم بينهم اختلافٌ -رحمهم الله ورضي عنهم-، لأنَّ كثيرين من النَّاس يُهوِّنون من هذا الأمر، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي**))[533] هذا أمرٌ منه عليه الصَّلاة والسَّلام أيضًا، وهذا تخصيص بعد التَّعميم، الخلفاء الرَّاشدون رضي الله عنهم وأرضاهم ذَكَرهم هنا في هذا الحديث ثمَّ بيَّن الأوْلَوِيَّة والمكانة العظيمة بأنَّها للشَّيخين لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهكذا كانوا عليهم رضوان الله.

هذا ما كان عليه الصَّحابة رضي الله عنهم، ولهذا جاء في صحيح مسلم أيضًا أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**فَإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا**))[534].

وهناك مسائل كثيرة لا منَّاص من القول بها مع أنَّه لا وجود لها لا في الكتاب ولا في السُّنَّة، والأمَّة مُتَّفقة عليها -ولو ذهبنا نطيل في الكلام- وجاءت من جهة الخلفاء الرَّاشدين، مثلًا: مسألة العمريَّتين في باب المواريث -كما هو معلومٌ-.

وَالثُّلْثُ فَرْضُ الأُمِّ حَيْثُ عُدِمَا ... فَرْعٌ وَجَمْعُ إِخْوَةٍ، وَثُلْثُ مَا
يَبْقَى لَهَا فِي الْعُمَرِيَّتَيْنِ ... مَعَ أَبٍ وَأَحَدِ الزَّوْجَيْنِ[535]

[...][536] إمَّا مع الزَّوج وإمَّا مع الزَّوجة، وإنَّما قضى فيها عمر رضي الله عنه وأرضاه، وليس فيها قضاءٌ لا في كتاب الله ولا في سنَّة رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، ولا حصلت أيضًا في زمن أبي بكر رضي الله عنه.

---

[533] ((اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي؛ مِنْ أَصْحَابِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّار، وَمَا حَدَّثَكُمْ ابْنُ مَسْعُودَ فَاقْبَلُوهُ))صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"، من طريق حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

[534] رواه مسلم.

[535] "القلائد البرهانية في علم الفرائض".

[536] انقطاع يسير في الصَّوت.

وكذلك أبو بكر لمَّا جمع المصاحف لعلَّة انتشار القتل في النَّاس -وهو الجمع الأوَّل-، لعلَّة انتشار القتل في النَّاس بعد معركة بني حنيفة وقِتال أهل الرِّدَّة، واستفحال القتل في الصَّحابة الَّذين كانوا حفظة القرآن.

وكذلك جمع عثمان رضي الله عنه الجمع الثَّاني للقرآن، وكانت علَّته: الاختلاف في الأُمَّة، بمشيرة حذيفة بن اليمان.

❁ وهذه فائدة عزيزة خذها جاءت مُستحضرة الآن في الفَرق بين علَّة الجمعين، فإذَا سُئلت عن الفرق بين جمع أبي بكر وبين جمع عثمان:

_ فعلَّة جمع القرآن في زمن أبي بكر رضي الله عنه: استفحال القتل في القُرَّاء، في الحفظة.

_ وعلَّته في زمن عثمان: وُجود الاختلاف عندما ذهبوا وسافروا في الأمصار فاختلفوا بسبب أنَّ هذا يقرأ قراءة لم يكن يقرأ بها غيره، وكلّهم محسنٌ ومُصيب إلَّا أنَّه لو طال الأمر لاشتدَّ الخلاف في الأمَّة كما قال حذيفة رضي الله عنه وأرضاه.

فِعل عثمان رضي الله عنه وأرضاه في قضية الأذان يوم الجمعة واتِّفاق الأُمَّة عليه من تلك الأزمان بلا نكير في بلاد الإسلام في مشرقها ومغربها.

وهذا كثير لطالب العلم الموفَّق الَّذي ينظر، والإمام مالك رحمه الله -إمام دار الهجرة- في مُوطّئه وفيما نقله عنه طُلّابه من مسائله وفتاويه يرعى هذا الأمر رعايةً عظيمةً ويعتني به في فعل الخلفاء الرَّاشدين، وفعل الصَّحابة رضي الله عنهم، وفعل أهل المدينة، لم يقتصر الأمر على قضية الخلفاء الرَّاشدين، وهي على كلِّ حال مسألة لا نطيل الكلام فيها، وطالب العلم يكفيه الإشارات إلى ما تفتح له مسائل العلم، فهي مبحوثة في آخر كتب أصول الفقه، ويقول شيخ مشايخنا حافظ حكمي في نظمه للأصول، قال:

وَالْخُلَفَا قَدِّمْ عَلَى سِوَاهُمْ ... فَالاهْتِدَاءُ وَالرُّشْدُ مِنْ حلاَهُمْ
وَقَدِّمِ الشَّيْخَيْنِ إِذْ كَانَ الأَجَلْ ... عَصْرُهُمَا وَخُلْفُهُ كَانَ أَقَلْ

وَبَعْـــــدَهُمْ أَئِمَّـــــةٌ مِمَّـــــنَ مَضَى ... مِمَّـــنْ بِنُـــورِ هَـــدْيِهِم قَـــدِ اِسْتَضَـــا
فَـــاعْرِفْ لَهُـــمْ مَنْصِـــبَهُم لَا تَسْـــتَهِنْ ... وَبِفُهُـــومِ القَـــوْمِ فِي الفِقْـــهِ اِسْـــتَعِنْ

وهذه فائدة على كلِّ حال عزيزة وهي في منظومة شيخ مشايخنا -رحمة الله عليه- "وسيلة الحصول إلى مهمَّات الأصول".

قال هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ))

_ الرَّاشدين جمعُ: راشد، ضد: الغيِّ.

_ والمهديِّين جمعُ: مهدي، ضد: الضَّلال.

هذان الوصفان هما الوصفان الحقيقيان للإمام، فالإمام لا يكون إمامًا في النَّاس إلَّا إذا كان راشدًا مُهتديًا، راشدًا لا يفعل الغيّ، ومُهتديًا لا يفعل الضَّلال.

قال: ((تَمَسَّكُوا بِهَا)) وهذا تأكيد لقوله: ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي)) اِلْزَمُوا سنَّتي، تمسَّكوا بها.

وزاد هذا بتأكيدٍ آخر فقال: ((وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)) تأكيد بعد تأكيد لبيان هذا الأمر وأهميَّته، ((وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)) والنَّواجد معروفة في الإنسان.

ثمَّ قال بعد ذلك مُحذِّرًا لما يُخالفها: ((وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ)) يعني ابتعدوا عن محدثات الأُمور، المستجدَّات الَّتي تُنسب إلى الدِّين وأنَّها من الدِّين وليست منه -في الاعتقاد، والقول والعمل- لأنَّ المحدثات جمع مُحدثة، والمُحدَث في الدِّين ما ليس له أصلٌ لا في كتاب الله ولا في سُنَّة رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام؛ كما مرَّ معنا في حديث عائشة: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ))، وفي رواية مسلم وعند البخاري معلَّقة: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ)).

ثمَّ بيَّن النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ هذه المحدَثات كلَّها ضلالة لا فرق بين ظاهرها وباطنها، ولا فرق بين شيءٍ من الأعمال أبدًا، فليس في البدع ما هو حسنٌ على الإطلاق،

فقال: ((وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) وقلتُ لكم هذا الحديث حديثٌ عظيم، كلّ واحدة ممَّا فيه من الألفاظ تحتاج إلى كثيرٍ من الكلام.

وهنا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) هذا أصلٌ وقاعدة عظيمة، ومنها استدلَّ العلماء على أنَّ العبادات توقيفيَّة، وهذا أمرٌ واضح، وليس في البدع ما هو حسن، و (كلّ) هي أمُّ أبواب العموم، ولذلك إذا أرادوا أن يستخرجوا ألفاظ العموم قالوا: (تقومُ مَقَامَ: كُلّ) فإذا قالوا (أل) الجنسية، قالوا: الَّتي يصلح مكانها (كلّ).

وَ (أَلْ) تُفِيدُ الْكُلَّ فِي الْعُمُومِ

إلى غير ذلك من الألفاظ الَّتي يستخدمونها، وما جاء على خلاف الأصل في استعمال (كلّ) فإنَّ هذا خرج بقرينة مِن الشَّريعة أيضًا، مثلما يحتجُّون على شبهاتهم في القول بأنَّ البدع منها ما هو حسن ومنها ما هو سيِّء: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[537] قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[538] أي: ما هو حقٌّ للتَّدمير، ولهذا قال بعدها: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾[539]، ومثل هذا: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[540] ممَّا يُؤتاه الملوك، وهذه أمورٌ واضحة.

قال: ((فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) فكلُّ البدع ضلالة، ولهذا جاء عن ابن عمر رضي الله عنه أنَّه قال: (كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَإِنْ رَآهَا النَّاسُ حَسَنًا)[541] والأئمَّة يتناقلون قول الإمام مالك -رحمه الله-: (مَنِ ابْتَدَعَ فِي الإِسْلَامِ بِدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَانَ الرِّسَالَةَ، لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[542] فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا)[543].

[537] سورة الأحقاف: 25
[538] سورة الأحقاف: 25
[539] سورة الأحقاف: 25
[540] سورة النمل: 23
[541] "السُّنَّة" للمروزي رحمه الله، ص94
[542] سورة المائدة: 3
[543] "الاعتصام" للشاطبي رحمه الله، ج1، ص38

هذا الحديث -كما أسلفتُ- حديثٌ عظيم، جليل القدر، فيه كثيرٌ من الفوائد المتعلِّقة بأنواع علوم الشَّريعة، وفوائده أيضًا مرَّت معنا فلا حاجة لإعادتها؛ لأنَّنا قد نُغاير أحيانًا في الأسلوب، قد نجعل الفوائد في مضمون الشَّرح، وقد نجعل الفوائد على سياق: وفيه، وفيه، وفيه.

وهذا أمرٌ إن شاء الله واضحٌ ومتَّضح.

الحديث التاسع والعشرون

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ويُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ.

قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ؛ تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ».

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟»

قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟»

قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ.

فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ؛ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا».

فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟

فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمِ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

هذا الحديث من الأحاديث الَّتي اعترض عليها الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في كتابه "جامع العلوم والحِكم" فقد ضعَّف الحديث، وسبب ضعفه أنَّ أبا وائل لم يسمع من مُعاذ بن جبل عند طائفةٍ من الحُفَّاظ، فنصُّوا على أنَّ أبا وائل لم يسمع من معاذ بن جبل، ولكن الحديث له طُرقٌ كثيرة ومتابعات وشواهد ولهذا صحَّحه طائفة من أهل العلم؛ منهم: التِّرمذي والعقيلي والذَّهبي وابن القيِّم والألباني وغيرهم، فصحَّحوا هذا الحديث باعتبار الطُّرق الكثيرة الَّتي جاءت لهذا الحديث.

✱ وعلى هذا فالحديث صحيحٌ أو حسن وثابتٌ عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم.

وهو حديثٌ عظيمٌ جليل القدر فيه أمورُ الإسلام والإيمان -الظَّاهرة والباطنة-، وفيه كمالات الأعمال الَّتي يحتاجها المسلم.

وفوائد هذا الحديث كثيرةٌ جدًّا كما نستقبل الكلام عليها.

قال معاذ رضي الله عنه:[قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ] أي أدخل بسببه الجنَّة، [ويُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ] وأُباعد بسبب هذا العمل عن النَّار.

قال: ((لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ)) يعني عن أمرٍ عظيمٍ، فعظَّم النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم هذا الأمر الَّذي هو السَّبب الموصل إلى دخول الجنَّة والسَّبب الموصل إلى مباعدة النَّار.

((لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ)) ثمَّ هوَّن عليه الأمر وقال: ((وَإِنَّه لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ)) فمع عِظم هذا الأمر إلَّا أنَّ الله الَّذي لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء إذا أراد تيسيرهُ وتسهيله فإنَّه يُيسِّره على من يشاء من عباده؛ فقال: ((وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ)) لكن: ((عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ)) فإذا لم يأتِ التَّيسير من جهة الرَّب فإنَّه لا يستطيع العبد إليه سبيلًا.

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَى ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ولهذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام في دعائه: ((وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ))[544] ومن هنا يتبيَّن لنا الرَّد على هذه الفتنة الَّتي ملأت المواقع وملأت السَّاحات وملأت العالم الإسلامي فضلًا عن غيره وهو ما يُسمى بـ: (البرمجة العصبية) بـ: (علم اللُّغات)، و(البرمجة العصبيَّة) الَّتي نَتيجتها وثمرتها أنَّها -كما يقولون- تُوصل إلى الثِّقة بالنَّفس، والمسلم لا يثق بنفسه على الإطلاق أبدًا، وإنَّما يستعين الله -جلَّ وعلا-، ولهذا قال شيخ مشايخنا العلَّامة مُحمَّد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمة الله ومغفرته عليه-كما في فتاواه: (لَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ أَنَا عِنْدِي ثِقَةٌ بِنَفْسِي)[545] وهذا مُتبيِّن من الحديث الَّذي قدَّمناه.

قال: ((عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ؛ تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) هذا أوَّل وأعظم وأجلُّ الأسباب المُوصلة إلى دخول الجنَّة والمُباعِدَة عن النَّار، ووقوعه من العبد سبيلٌ إلى دخول الجنَّة والنَّجاة من النَّار.

_ فإمَّا أن يدخل الجنَّة ابتداءً إذا جاء به على وجه الكمال.

_ أو يدخل الجنَّة انتهاءً إذا خالط هذا التَّوحيد وهذه العبادة شيءٌ من منقصاتها.

فقال: ((تَعْبُدُ اللهَ)) وعرفنا معنى العبادة من قبل.

---

[544] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

[545] "فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله" ج1، ص170، بلفظ: (س:قَوْلُ مَنْ قَالَ: تَجِبُ الثِّقَةُ بِالنَّفْسِ؟ ج: لَا تَجِبُ وَلَا تَجُوزُ الثِّقَةُ بِالنَّفْسِ، فِي الْحَدِيثِ ((وَلَا تَكِلْنِ إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)) مَنْ يَقُولُ؟! أَخْشَى أن هَذِه غلْطَةٌ مِنْكَ؟! لَا أَظُنّ أنَّ إِنْسَانًا لَهُ عَقْلٌ يَقُولُ ذَلِكَ، فَضْلًا عَنِ الْعِلْمِ)

((وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) وفي هذا بيانٌ على أنَّ من النَّاس من يعبد الله -جلَّ وعلا- ويقع منه الشِّرك، فليس كلُّ من عَبد الله يكون موحِّدًا بل قد يَعبد الله ويَعبد غيره معه -وهذا أمر معلوم- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[546] فيكون المسلم على حذرٍ من هذا الأمر، ليس الشَّأن أن تعبد الله لكنَّ الشَّأن أن تتبرَّأ أيضًا من كلِّ عبادة عُبد بها غير الله -تبارك وتعالى-.

وقوله: ((لَا)) هذه ناهية، ((وَلَا تُشْرِك)) هذا الفعل المضارع، و (لا) النَّافية أو النَّاهية إذا دخلت على الفعل المضارع تحوِّله إلى المصدر، يعني أنَّه ينحلّ عن مصدرٍ وزمان، والمصدر من العموم، فهذا فيه النَّهي عن كلِّ عبادةٍ أيًّا كانت صغيرة أو كبيرةً، وأنتم تعلمون ما جاء في الأثر -في أثر سلمان- في الرَّجل الَّذي قدَّم ذُبابة، فهذا عامٌّ في كلِّ ما يُشرك به.

وقوله هنا: ((شَيْئًا)) هذا نكرة في سياق النَّهي، والنَّكرة في سياق النَّهي والنَّفي تُفيد العموم، وهذا عمومٌ في المشرَك به.

_ الأوَّل في المشرِك فيه، وهو العبادة.

_ والثَّاني في المشرَك به، وهو المعبود.

قال: ((وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ)) ولم يقل: (تُؤَدِّي الصَّلاة) لأنَّ إقامتها: القيام بحقوقها، قيام بها، وقيام عليها؛ كما أنَّك تقوم على الشَّيء ترقبه، فينظر المسلم في صلاته في أدائها وفي القيام بها.

والصَّلاة عرفنا طرفًا ممَّا يتعلَّق بها في الأحاديث المتقدِّمة أوَّل الكتاب.

((وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ)) أيضًا عرفنا الكلام عليها.

وكذلك: ((وَتَصُومُ رَمَضَانَ)) وهذا كلُّه تقدَّم في حديث ابن عُمر.

[546] سورة يوسف: 106

((وَتَحُجَّ الْبَيْتَ)) وهذا أيضًا مثله.

ثمَّ قال بعد ذلك، يعني قال له بعدما ذكر له هذه الأمور الَّتي هي أركان الإسلام الخمسة:

_ ((تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) هذه هي لا إله إلَّا الله.

_ ((وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ)) هذا الرُّكن الثَّاني.

_ ((وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ)) هذا الرُّكن الثَّالث.

_ ((وَتَصُومُ رَمَضَانَ)) هذا الرُّكن الرَّابع.

_ ((وَتَحُجَّ الْبَيْتَ)) هذا الرُّكن الخامس.

فهذه أركان الإسلام، وقد عرفناها من قبل.

ثمَّ قال: ((أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ)) والجُنَّة هي ما يُستجنُّ به من الحرب أو النَّار أو ما يُتخوَّف منه، مأخوذة من السِّتر أو السَّتر، بمعنى أنَّ الإنسان يستتر عن الشَّيء، فبيَّن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ الصِّيام جُنَّة؛ يعني وِقاية، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في الصَّحيحين أنَّ النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فإِنّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ للفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**))[547] فجعل النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام الصَّوم جُنَّة عن إطلاق البصر وعن أُمنيات الفرج، فبيَّن ذلك عليه الصَّلاة والسَّلام بهذا الأمر.

قال: ((وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ)) يعني أنَّها تكون سببًا -وهنا المراد بها النَّافلة- أنَّها تكون سببًا لإذهاب الخطايا لأنَّها من جنس الحسنات:﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[548].

ولمَّا كانت الخطيئة كما ذكر ابن القيِّم عن شيخه شيخ الإسلام في كتابه "إغاثة اللَّهفان" في مبحث طويل له على العلاقة بين قول النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا**

[547] متَّفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم.
[548] سورة هود: 114

كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ))[549] استعمال الماء والثَّلج والبرد بمقابل الذَّنب وبمُقابل المعصية؛ لأنَّ المعصية والذَّنب لها نارٌ ولها حرارة فناسب أن تُطفأ بالماء والثَّلج والبرد، وهاهنا هذا مثله قال: ((وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ)) لأنَّ الحسنة تُذهب السَّيِّئة.

وهنا قوله قبل ذلك: ((أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟)) يعني على الأبواب الموصلة إلى الخير، لأنَّ الباب هو المدخل إلى الشَّيء، الموصل إليه.

قوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ)) يعني أن يُصلِّيَ في جوف اللَّيل -في أصل اللَّيل أو في ثلثه الأخير-.

((وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ)) يعني أن يأخذ له قسطًا من اللَّيل لأنَّه قال: ((مِنْ)) لأنَّها تبعيضية، لا أنَّه يقوم اللَّيل كلَّه.

((ثُمَّ تَلَا)) أي النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[550] الآيات الَّتي في سورة السَّجدة.

❋ وهنا أُنبِّه على أنَّها جرت عادة المصنِّفين في الكتب أنَّهم يقتطعون الآية ثمَّ يقولون: (الآية) أو يقولون: (حتَّى بلغ قوله تعالى) ، فإذا قالوا: (الآية) فإنَّها منصوب على حذف العامل؛ بمعنى: (اقرأ الآية) أو (أكمل الآية) وما أشبه ذلك، وإذا قالوا: (حتَّى بلغ) فإنَّ المطلوب في الأمرين أن تُقرأ الآية، وهذا هو الأدب في قراءة الكتب.

ثمَّ قال -أي النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام-: ((أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ)) المقصود بـ: ((الأَمْر)) الدِّين، ورأس الشَّيء ما علا، والدِّين لا يُسمَّى دينًا إلَّا إذا كان مُلتزمًا لا يُفعل المرَّة بعد المرَّة -كما قرَّر ذلك أبو العبَّاس ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه "قاعدة في المحبَّة".

---

[549] رواه البخاري.
[550] سورة السجدة: 16

((بِـرَأْسِ الأَمْـرِ)) الَّذي هـو الدِّيـن، ((بِـرَأْسِ الأَمْـرِ كُلِّـهِ وَعَمُـودِهِ وَذِرْوَةِ)) أو ((ذَرْوَةِ)) أو ((ذُرْوَةِ)) هذه ثلاث لُغات -يعني مُثلَّث الغين-، فيصحُّ قراءتها بأيِّ وجهٍ منها.

[قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ] أخبرني يعني، قال: ((رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْـلَامُ)) يعـني رأس هـذا الأمـر الدِّين الَّذي هو دين الإسلام كلُّه.

((وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ)) والصَّلاة من الإسلام وإنَّما ذكرها هنا وخصَّها لمزيد الاعتناء بها ورعايتها وإلَّا فإنَّها أيضًا من الإسلام.

قال: ((وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ)) يعني الجهاد في سبيل الله، لأنَّه حيث أُطلق فإنَّما يُراد به القتال، والجهاد مأخوذٌ من الجَهد -بالفتح- والَّتي هي المشقَّة، أو بالضَّم والَّذي هو الطَّاقة.
والصَّلاة والجهاد في الإسلام شأنهما عظيم ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيميـة -رحمـه الله- في كتابه "قاعدة جليلة في التَّوسُّل والوسيلة" قال: (وَأَكْثَرَ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَالْجِهَادِ)[551] هذه فائدة لأنَّها من مُستقرئ لأحاديث النَّبي عليه الصَّلاة والسَّـلام، وإذا كانت الأحاديث أكثر ما تكون في الجِهاد والصَّلاة فهذا يدلُّ على فضـلها، (وَأَكْـثَرَ أَحَادِيـثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَالْجِهَادِ) أي في بيان أحكام الصَّلاة وبيان أحكام الجهاد، وبيان فضل الصَّلاة وبيان فضل الجهاد.

قال: ((وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ)) والسَّنام معروفٌ مِن الإبل، وهو المكان المرتفع فيها.

قال:[ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟»] يعني أنَّك ربَّما عجَزت عن بعض الأعمـال فـلا تُطيقها ولا تقوم بها فإذا عجزتَ عن هذا كلِّه فكيف تفعل.

---

[551] "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" ص55.

[قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ] أخبرني، ((أَلَا أُخْبِرُكَ)) لأنَّ جواب النَّفي إثبات، [قُلْتُ: بَلَى يَا نَـبِيَّ اللهِ] قال: [فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ] وفي رواية: (بِلِسَانِ نَفْسِهِ)[552] وقال: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) أي اجتنب أو أمسك هذا -يعني اللِّسان-، وإنَّما أخرجه للمبالغة في خطورته.

[فَقُلْتُ: يا نَبِيَّ اللهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ به؟] (بِمَا) هذه اسمٌ موصول (ما) بمعنى الَّذي، ليدلَّ على العموم، وهنا قال طائفةٌ من أهل العلم -ومنهم ابن عبَّاس- في قوله تعالى:﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[553] إنَّ (ما) النَّافية هذه دخلت على نكرة وهي:﴿قَوْلٍ﴾ وأنَّ الملائكة تُسجِّل كل ما يصدر من العبد حتَّى قوله: (اذهب وتعالى) ثمَّ بعد ذلك يُصفَّى له ما يُؤجر عليه وما يُؤثم عليه -نسأل الله العافية والسَّلامة-، وهذا أمرٌ خطيرٌ، هذا العموم:﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ بل هو نصٌّ في العموم لأنَّ (ما) مع (مِنْ) الاستغراقية مع النَّكرة إذا اجتمعت في جُملة فإنَّ هذا يكون نصًّا في العموم، ليس فقط ظاهر في العموم بل هذا تنصيص في العموم ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾[554].

قال:[«كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ»] والثَّكل معناه الفقد، يعني: فقدتك أُمُّك.

* (فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَدْعُو عَلَى مَنْ لَيْسَ هُوَ بِأَهْلِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِ أَوْ يَسُبُّهُ أَوْ يَلْعَنُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ؟ فَالْجَوَابُ مَا أَجَابَ بِهِ الْعُلَمَاءُ، وَمُخْتَصَرُهُ وَجْهَانِ:

_ أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي بَاطِنِ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهُ فِي الظَّاهِرِ مُسْتَوْجِبٌ لَهُ، فَيَظْهَرُ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتِحْقَاقُهُ لِذَلِكَ بِأَمَارَةٍ شَرْعِيَّةٍ، وَيَكُونُ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ، وَهُوَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَأْمُورٌ بِالْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ، وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ.

---
552 صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترِّمذي".
553 سورة ق: 18
554 سورة المؤمنون: 91

_ وَالثَّانِي: أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ سَبِّهِ وَدُعَائِهِ وَنَحْوِهِ لَيْسَ بِمَقْصُودٍ، بَلْ هُوَ مِمَّا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي وَصْلِ كَلَامِهَا بِلَا نِيَّةٍ، كَقَوْلِهِ: «**تَرِبَتْ يَمِينُكَ**»[555] هذا كلام النَّووي -رحمه الله- في شرحه على مسلم.

وقد قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**اللَّهُمَّ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ، فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))[556] فالشَّاهد أنَّ هذا ممَّا جرى به كلام العرب وهو مُتضمِّنٌ أيضًا بهذا الحديث الدُّعاء له.

قال: ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِم- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!)) أي ما يتكلَّمون به، فإنَّ الرَّجل ربَّما يتكلَّم بالكلمة لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنَّم سبعين خريفًا أو أبعد ما بين السَّماء والأرض -عياذًا بالله-.

- وهذا فيه رعاية اللِّسان وحفظه وأنَّ الإنسان لا يتكلَّم إلَّا بما فيه رضا الرَّب -تبارك وتعالى- وأن يقول الخير أو يسكت ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)) -كما مرَّ معنا-.

قال: ((إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)) ثمَّ ذكر أنَّه رواه التِّرمذي وقال:[حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ] وقد تكلَّمنا على الحديث فيما سبق بشيء من الاختصار.

من فوائد هذا الحديث:

_ حرص الصَّحابة رضي الله عنهم على الخير وطلبهم له ورغبتهم فيه وسؤال النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم عنه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: عِظَمُ شأن الجنَّة والنَّار، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عظَّم شأنهما.

---

555 "شرح صحيح مسلم" للنووي رحمه الله، ج16، ص152.

556 متَّفقٌ عليه؛ واللفظ للبخاري.

_ ومن فوائده أيضًا: أنَّ الله -تبارك وتعالى- هو الَّذي يُعين العبد على فعل الخير ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[557].

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المتكلِّم إذا أراد أن يتكلَّم على شيء من الخير فإنَّه يأتي فيه بجوامع الكلم؛ وأعظمها أركان الإسلام.

_ ومن فوائد هذا الحديث: كثرة طُرق الخير الَّتي نصبها الله -تبارك وتعالى- لعباده في هذا الدِّين، فإنَّ هذا الدِّين مليء بالخيرات الكثيرة، والأحاديث في هذا الباب عظيمة، منها النَّوافل الظَّاهرة والباطنة، فيحرص العبد على القيام بها.

_ من فوائد هذا الحديث: فضل شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأيضًا فضل الصَّلاة، وفضل الزَّكاة، وفضلُ الصِّيام وأنَّه جُنَّة، وكذلك فضل الحج، وفضل الصَّدقة -الَّتي هي نافلة-؛ لأنَّ كلَّ عبادة مفروضة يُقابلها نافلة من جنسها إمَّا لترفع درجة العبد لأنَّ الفرض هذا قصُر عنه أو لأجل أن يُكمِّل ما نقص من عبادته وطاعته.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ رأس الأمر كلّه هو دين الإسلام وأنَّ المسلم يتمسَّك به ولا فائدة للجسم بلا رأس.

_ ومن فوائد هذا الحديث: فضل الجهاد لأنَّه جعله ذروة سنام الإسلام.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: خطر اللِّسان، وضرورة رعايته، والحفاظ عليه، وأن لا يُطلق له العنان بالكلام الَّذي لا فائدة فيه.

[557] سورة الفاتحة: 5

۞ الحديث الثلاثون ۞

عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ جُرْثُومِ بْنِ نَاشِرٍ رضي الله عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ

هذا الحديث أيضًا من الأحاديث الَّتي اختُلف فيها كما ذكر ذلك أيضًا الحافظ ابن رجب في شرحه ومال إلى تضعيفه، وكذلك ضعَّفه الذَّهبي وابن حجر.

- والحديث حسَّنه أبو بكر -ابن السَّمعاني-، والنَّووي والألباني.
- وصحَّحه ابن الصَّلاح وغيرهم من أهل العلم.

❁ وطُرق الحديث قاضية بحُسنه على الأقلِّ وأنَّه من جنس الموقوف وله شواهد، جاء له شاهد من حديث سلمان ومن حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنهم جميعًا.

وهذا الحديث قال فيه عليه الصَّلاة والسَّلام: ((إِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- فَرَضَ فَرَائِضَ)) والفرض في أصل اللُّغة: القطع والحجز، والمراد به هنا: أوجب.

✽ والعلماء -رحمهم الله- مختلفون في التَّفريق بين الفرض والواجب:

_ فالجمهور مِن المالكيَّة والحنابلة والشَّافعية أنَّه مرادف للواجب من ناحيةٍ اصطلاحية، أمَّا من ناحيةٍ لغوية هذا شيء آخر.

_ وقال الأحناف وهو رواية للحنابلة ذكرها ابن اللَّحام في "القواعد والفوائد" وقال بها أيضًا طائفة من الحنابلة وهو ظاهر اختيار شيخنا العلامة الفوزان -حفظه الله- فإنَّه يستعمل ذلك ويقول بأنَّ الفرض آكد من الواجب، فقالوا بأنَّ الفرض غير الواجب.

وهذه مسألة أصوليَّة مُختلف فيها، وإنَّما ذكرتها من باب الفائدة.

قال: ((فَرَضَ فَرَائِضَ)) فرائض جمع فريضة، وقد قال الله -تبارك وتعالى-:﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾[558] لمَّا ذكر بعض الأحكام المتعلِّقة بالمواريث قال:﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ فالله هو الَّذي فرض الفرائض، قال فيها عليه الصَّلاة والسَّلام: ((فَلَا تُضَيِّعُوهَا)) أي فلا تُضيِّعوا هذه الفرائض لأنَّها ملزمة وواجبة، وقد تقدَّم معنا قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)) تكلَّمنا على هذه المسألة من قبل.

قال: ((وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا)) الحدود في كتاب الله جاءت على جهتين:

_ حدودٌ بمعنى المحرَّمات وهذه جاء استعمال لفظ:﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[559].

_ وأيضًا جاء في القرآن (الحدود) والمراد بها المباحات؛ وهي الَّتي استُعمل معها في القرآن:﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي فلا تتجاوزوها إلى غيرها ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[560].

وهنا النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((وَحَدَّ حُدُودًا)) يعني حدَّ لكم حدودًا، الظَّاهر هنا من لفظ الحديث أنَّ هذه الحدود هي المباحات ولهذا قال: ((فَلَا تَعْتَدُوهَا)) أي قِفوا عندها،

[558] سورة النِّساء: 11

[559] سورة البقرة: 187

[560] سورة البقرة: 229

لا تتجاوزوا المباحات، ولهذا قال بعد ذلك: ((وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا)) يعني أن تنتهكوا هذه الحُرمة بوقوعكم فيها.

((فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ)) يعني لا تدخلوا في هذه المحرَّمات.

((وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا)) وهذه الأشياء الَّذي سكت الرَّب -تبارك وتعالى- عنها هي السَّعة الَّتي وسَّع الله -تبارك وتعالى- بها على عباده وهي المعنية بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾[561].

- في هذا أنَّ المسلم إذا لم يكن هناك دليلٌ على التَّحريم في مسألة ما فإنَّه لا يتجاوز إلى السُّؤال عنها وطلب الحُكم فيها لأنَّ هذا نوعٌ من التَّنطُّع.

قال: ((وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا)) والبحث يعني الطَّلب، وهو بمعنى السُّؤال، يعني أنَّ الإنسان يسأل عن الأشياء الَّتي لم يأتِ دليلٌ عليها في الشَّرع ولهذا حذَّر النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام من هذا كما في حديث سعد بن أبي وقاص أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ))**[562] فهذا ينبغي للمسلم أن لا يتخوَّض فيه.

✿ الحديث هذا فيه فوائد:

_ من فوائد هذا الحديث عنه عليه الصَّلاة والسَّلام -وهو حديث أبي ثعلبة الخشني-: أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام بيَّن شفقته بهذه الأُمَّة ببيان ما فرضه الله -تبارك وتعالى- عليهم وببيان ما حرَّمه الله -تبارك وتعالى- أيضًا عليهم.

---

561 سورة المائدة: 101

562 متَّفقٌ عليه، من طريق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه [واللفظ للبخاري].

_ ومن فوائد هذا الحديث: كمال هذا الشَّرع وأنَّه ليس فيه نقصٌ يحتاجُ معه النَّاس إلى من يزيد عليه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الحلال بيِّن والحرام بيِّن -كما مرَّ معنا في حديث النُّعمان بن بشير-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: التَّحذير من تضييع الفرائض والواجبات؛ لأنَّه قال: ((فَلَا تُضَيِّعُوهَا)) بالإخلال بها وتركها والإعراض عنها.

_ ومن فوائد هذا الحديث: الوقوف عند حدود الشَّرع، فإنَّ الشَّرع له حدود، وهذه الحدود مُبيَّنة، فالمسلم لا يتعرَّض لهذه المواطن فيُهلك نفسه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ التَّحليل والتَّحريم حقٌّ لله -جلَّ وعلا- فهو الَّذي يُحلُّ ويُحرِّم على عباده، ويفرض عليهم.

_ ومن فوائده أيضًا: أنَّ ما لم يأتِ بيانه في الشَّرع فإنَّه معفوٌّ عنه، ولا ينبغي للمسلم أن يتطلَّب له حكمًا مادام أنَّه لم يأتِ له حكمٌ في الشَّرع.

۞ الحديث الحادي والثلاثون ۞

عَنْ أَبِي العَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وأَحبَّنِي النَّاسُ.

فَقَالَ: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ**».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدَ حَسَنَةٍ.

وقد كنتُ ذكرتُ لكم في أوَّل الدُّروس أنَّ النَّووي -رحمه الله تعالى- من أهل الاجتهاد، ومثل هذه الأحاديث الَّتي وقعت في "الأربعين" وانتقدها بعض العلماء فإنَّ هذا راجعٌ إلى الاجتهاد؛ وإلَّا فإنَّه لم يقع فيها حديثٌ شديد الضَّعف اتَّفقت الأُمَّة على ضعفه من كلِّ وجهٍ، وإنَّما هي أحاديث وقع فيها نوعٌ من الاختلاف؛ ومن هذه الأحاديث: هذه الأحاديث الَّتي ذكرناها في هذه اللَّيلة[563]، ومنها هذا الحديث، فإنَّ هذا الحديث ممَّا اختُلف فيه بين الحُفَّاظ -رحمهم الله تعالى-.

المصنِّف قال هنا:[حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدَ حَسَنَةٍ]

وهذا الحديث حسَّنه هاهنا النَّووي كما هو ظاهر، وحسَّنه العلَّامة الألباني -عليه رحمة الله- وحسَّنه غيرهم من أهل العلم، وتحسينه أمرٌ مُحتمل، وقد كانت رعاية العلماء لهذا الحديث

[563] وهي ثلاث أحاديث: (الحديث التاسع وعشرون) ، (الحديث الثلاثون) ، (الحديث الحادي والثلاثون).

كبيرة جدًّا، حتَّى قال أبو محمَّد ابن أبي زيد القيرواني بأنَّه من الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام، وكما قال بعض النَّاظمين؛ قال:

عُمْـدَةُ الـدِّينِ عِنْـدَنَا كَلِمَـات ... أَرْبَـعٌ مِـنْ كَـلَامِ خَـيْرِ الْبَرِيَّـهْ
اتَّـقِ الشُّـبُهَاتِ وَازْهَـدْ وَدَعْ مَـا ... لَـيْسَ يَعْنِيـكَ وَاعْمَلَـنْ بِنِيَّـهْ[564]

هذا الحديث له شأنٌ، وله شأنٌ عظيمٌ، ومثل هذه الأحاديث -كما ذكرتُ لكم- الَّتي لم تتَّفق كلمة الأُمَّة على تضعيفها فإنَّها مُحتملة للتَّحسين، راجعة إلى اجتهاد العالِم.

فقول الرَّاوي هنا في هذا الحديث:[جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ] هذا فيه إثبات صفةِ المحبَّة لله، فالله -جلَّ وعلا- يُحِبُّ ويُحَبّ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[565]، فهو -جلَّ وعلا- يُحِبُّ ويُحَبُّ كما هو معلوم، ويُثبتُ أهل السُّنَّة والجماعة المحبَّة لله -تبارك وتعالى- ولا يتأوَّلونها، ولا يُحرِّفونها.

وقوله:[وَأَحبَّنِي النَّاسُ] فيه أنَّ هذا من الأمر المطلوب أن يسعى الإنسان إلى ما فيه محبَّة النَّاس، وقد قال الله -تبارك وتعالى-:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[566] أي محبّة، فالعمل الصَّالح من الأسباب الجالبة لمحبَّة النَّاس، فينبغي عدم التَّهاون فيها وعدم الإعراض عنها أو عدم المبالاة بها؛ فإنَّ هذا من الغلط أن يعتقد الإنسان أنَّه ليس بحاجة إلى النَّاس.

فبيَّن له السَّبب الموجب لمحبَّة الله والسَّبب الموجب لمحبَّة النَّاس، فقال له: ((ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ)) أي تقلَّل من أمر الدُّنيا، وليس معناه أن تترك المباحات، وإنَّما معناه أن لا تتوسَّع فيها توسُّعًا يُخرجك عن مُراد الله -تبارك وتعالى- منك في خلقك وإيجادك وأن يكون سبيلك هو الموصل إلى الجنَّة.

---

564 للحافظ أبي الحسن طاهر بن مُفوِّز المعافري الأندلسي؛ ["جامع العلوم والحكم" ص34]
565 سورة المائدة: 54
566 سورة مريم: 96

✿ **وهذا الحديث فيه فوائد** -كما تقدَّم مرارًا-:

_ منها: حرص الصَّحابة على الخير وطُرقه ووجوهه.

_ ومنها أيضًا: إثبات صفة المحبَّة للرَّبِّ -جلَّ وعلا-.

_ ومن فوائده أيضًا: فَضْل الزُّهد والورع والبُعد عن مواطن الشُّبهات وعدم التَّوسُّع في المباحات، وأن تكون رغبة الإنسان فيما عند الله.

_ ومن فوائد الحديث: الحثّ على طلب الرِّزق الحلال، لأنَّه إذا زهد عمَّا في أيدي النَّاس فلابدَّ له من القيام بحاجاته ومصالحه فيقوم بها بنفسه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: ترك التَّعلُّق بالدُّنيا والرَّغبة فيها واللَّهث وراءها.

۞ الحديث الثاني والثلاثون ۞

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ الْخُدْرِيِّ رضي اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُمَا مُسْنَدًا.

وَرَوَاهُ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ مُرْسَلًا، عَنْ عَمْرِو بنِ يَحْيَى، عَنْ أبيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ علَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْقَطَ أَبَا سَعِيدٍ.

وَلَهُ طُرُقٌ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا.

هذا الحديث من الأحاديث الَّتي اختُلف فيها، وقد أشار الحافظ النَّووي -رحمه الله تعالى- إلى هذا الخلاف؛ وأنَّ الخلاف راجعٌ إلى اختلاف الرُّواة في إرسال الحديث ورفعه، أو في وصله وإرساله.

- والحديث بسبب هذا الاختلاف ضعَّفه طائفة من أهل العلم كأبي محمَّد ابن حزم، وابن عبد البر، وابن عبد الهادي، والذَّهبي.
- وحسَّنه النَّووي -المصنِّف رحمه الله تعالى-، وابن المُلقِّن -رحمه الله تعالى-، وكذلك اختلف فيه قول الذَّهبي -رحمه الله- فقد حُكي أيضًا عنه تحسينه، وحسَّنه أيضًا ابن الصَّلاح وأحمد شاكر والعلَّامة الألباني -عليه رحمة الله-.
- وصحَّحه الحاكم في مُستدركه.

والخلاف فيه يسير، وما تضمَّنه الحديث من المعنى فهو مُجمعٌ عليه، ولذلك نصَّ العلماء على أنَّه قاعدةٌ فقهيَّة، منهم من يعتبرها كلِّية؛ ومنهم من يعتبرها كُبرى ويجعلها داخلة تحت القاعدة الكلِّية الكبرى: (المشَّقة تجلب التَّيسير).

((لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ))، ((لَا ضَرَرَ)): هذه (لا) النَّافية، و (ضرر): نكرة، والنَّكرة مع النَّفي تُفيد العموم، وهذا فيه نفيٌ لكلِّ ضرر، وهذا الضَّرر الَّذي نفته هذه الجُملة هو الضَّرر الابتدائيّ، أي: الضَّرر الَّذي يأتي من جهة الإنسان إمَّا تُجاه نفسه أو تُجاه الآخرين مبتدئًا به، دون أن يكون ردًّا على شيءٍ مُعيَّن، فهذا الضَّرر يُسمَّى بالضَّرر الابتدائي.
ولفظة (ضرر) تعمُّ القليل والكثير، وتعمُّ الظَّاهر والباطن، وتعمُّ الخفيَّ والجليّ، فكلُّ ضرر قصده الإنسان أو قصده المسلم بنفسه أو بأخيه فإنَّه داخلٌ في هذا العموم.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَلَا ضِرَارَ)) (لا) هذه أيضًا نافية، و (ضرار) أيضًا نكرة.

وَالنّكِرَاتُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ   تُعْطِي الْعُمُومَ أَوْ سِيَاقِ النَّهْيِ

فهذا الضَّرر أيضًا عام، لكن اختلف العلماء -رحمهم الله- في هاتين الجُملتين: هل هما جُملة واحدة -بمعنى أنَّ الجملة الثَّانية مُؤكِّدة للجملة الأولى-؟ أم أنَّ كلَّ واحدةٍ من الجملتين لها دلالةٌ أُخرى؟
_ فمن أهل العلم من قال بأنَّهما في حكم الجُملة الواحدة، وقوله: ((وَلَا ضِرَارَ)) مؤكِّدٌ لقوله: ((لَا ضَرَرَ)) وهذا مال إليه طائفة من أهل العلم.
_ والقول الثَّاني: أنَّ قوله: ((لَا ضَرَرَ)) جملة مستقلَّة تدلُّ على معنى مستقل، وهو ما قدَّمته لك من الضَّرر الابتدائي، بمعنى أنَّ الإنسان يبدأ بإضرار نفسه أو إضرار غيره -يُلحق الضَّرر بنفسه أو يُلحق الضَّرر بغيره-.
وأنَّ قوله: ((لَا ضِرَارَ)) -وهذا تقدَّم معنا أيضًا- أنَّه نكرة في سياق النَّفي وأنَّه يعمُّ كلَّ ضرر أو كلَّ ضرار، أنَّ هذا الضِّرار الَّذي يترتَّب أو ينشأ على أخذ الحقِّ أو ردِّ العقوبة، بمعنى أنَّه إذا أخذ حقَّك شخصٌ آخر فإنَّك تطلب بهذا الحقّ، وقد يكون في طلبك لهذا الحقِّ ما يستلزم الضَّرر بسبب أنَّه ضارَّ بك، فلا تتجاوز هذا الضَّرر الَّذي ضارَّك به، وكذلك إذا عاقبك فإنَّك لا

تزيد في عقوبته، وجعلوا ذلك من بيان قوله تعالى:﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[567]، وكذلك قوله -تبارك وتعالى-:﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[568] فقالوا إنَّ هذا المنفيّ هو زيادة على الضَّرر، بمعنى أنَّه إذا ابتدأك بالضَّرر فأردتَ أن تأخذ حقَّك منه فلا تصل إلى مرحلة الضِّرار أو الإضرار به.

ويُعبِّر بعض العلماء عن القاعدةِ الَّتي ذكرناها آنفًا بهذا الحديث: ((لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ))، وبعضهم يُعبِّر بقوله: (الضَّرر يُزال) وهذه القاعدة أدلَّتها كثيرة، وفُروعها كثيرة في الشَّريعة، من ذلك أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**لَا يَمْنَعُ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ**))[569] كما في الصَّحيحين، ونهى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام عن منع الماء فقال: ((**لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيمْنَعَ بِهِ الْكَلَأُ**))[570] وهذا الحديث أيضًا في الصَّحيحين.

وهذا كلُّه من محاسن هذه الشَّريعة، ومن عظمتها.

وأيضًا ذكر العلماء -رحمهم الله تعالى- أنَّ هذا الحديث من الأدلَّة الدَّالة على جلب المصالح ودفع المفاسد، فإنَّ قوله: ((لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ)) فيه ردٌّ للمفاسد -في تقليلها-.

❁ وهذا الحديث كما سبق حديثٌ عظيمٌ، ولا ينبغي ولا يجوز للمسلم أن يوقع الضَّرر بإخوانه المسلمين، فالضَّرر قد يكون من جهةٍ واحدة، وقد يكون من الجهتين، والواجب على المسلم في مثل هذا المقام أن يعفو وأن يصفح، وكما قال -تبارك وتعالى-:﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[571] فإذا أخذ حقَّه فإنَّه لا يزيد على هذا الحقّ الَّذي اعتُدِيَ عليه فيه.

---

[567] سورة النَّحل: 126

[568] سورة الشورى: 40

[569] متَّفقٌ عليه؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه [واللفظ لمسلم].

[570] متَّفقٌ عليه؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[571] سورة الشورى: 40

✿ **والحديث هذا فوائده عظيمة** -كما سبق معنا طائفة منها-:

_ منها: أنَّ الشَّريعة جاءت بانتفاء الضَّرر.

الدِّينُ جَـاءَ لِسَعَادَةِ البَشَرْ   وَلانْتِفَاءِ الشَّرِّ عَنْهُمْ وَالضَّرَرْ

كما قال العلَّامة ابن عثيمين في نظمه -في القواعد-.

_ كذلك من فوائد هذا الحديث: أنَّ الله -تبارك وتعالى- نهى المسلم أن يُضرَّ بأخيه المسلم وأن يُلحق به أيَّ نوعٍ من الضَّرر في ظاهره أو باطنه، في عرضه، في ماله، في دمه.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الشَّريعة جاءت لأخذ الحقوق، وأنَّ الإنسان إذا أخذ حقَّه فإنَّه لا يجوز له أن يزيد على أخذ الحقِّ الَّذي له ولا أن يُلحق الضَّرر بغيره بحُجَّة أنَّه هو البادي كما يقول النَّاس في قواعدهم: (البادي أظلم) ثمَّ يُرتِّب على هذا أنَّه يفعل كلَّ أنواع الضَّرر بحُجَّة أنَّه يُريد استخراج حقِّه!

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّه إذا جُمع مع غيره من النُّصوص فإنَّ الشَّريعة قد جاءت بالعفو وعدم المشاحَّة.

_ وهو -كما ذكرتُ لكم-: قاعدة فقهية عظيمة مُندرجة تحت القاعدة الكلِّية الكبرى وهي إحدى القواعد الخمس: (المشَّقة تجلب التَّيسير)

الحديث الثالث والثلاثون

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
«لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ، لَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ هَكَذَا، وَبَعْضُهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ

والَّذي أشار المصنِّف -رحمه الله تعالى- إلى أنَّ [بَعْضهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ] هو أوَّل الحديث؛ فإنَّ هذا الحديث قد خرَّجه الشَّيخان في صحيحيهما دون الزِّيادة الَّتي ذكرها المصنِّف وهي قوله: ((الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي)) فقد أعرض عنها الشَّيخان -رحمهما الله تعالى- فلم يُخرِّجاها، وأعلَّها طائفةٌ من أهل العلم من المحدِّثين بالشُّذوذ، إلَّا أنَّهم قد أجمعوا على مضمونها وما دلَّت عليه.

وهذا الحديث قاعدةٌ أيضًا عظيمة من قواعد القضاء في الشَّريعة الإسلامية، فإنَّ الشَّريعة جاءت بحفظ الحقوق الَّتي للنَّاس ابتداءً -من المعصومين حتَّى وإن لم يكونوا مسلمين-، فإن اعتُديَ على هذه الحقوق فقد جعلت الشَّريعة أسبابًا ووسائل للوصول إلى ردِّ هذا الحقّ، ومن هذه الوسائل وهذه الأمور وهذه السُّبُل ما جعلته الشَّريعة من أبواب القضاء، وهو التَّقاضي في الوصول إلى الحقِّ وردِّ الباطل، وهذا الحديث من هذا الباب.

وهو حديثٌ عظيمٌ جليل القدر، أولاه العلماء -رحمهم الله- اعتناءً كبيرًا، وجعلوه أصلًا في باب القضاء.

فإنَّ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ)) بمعنى أنَّ الشَّريعة جاءت بحفظ هذه الحقوق، بحفظ الدِّماء، بحفظ الأموال، بحفظ العقول، بحفظ الأعراض، بحفظ الدِّين، فإذا اعتُدي عليها بالدَّعاوى الباطلة فإنَّ هذه الدَّعوى مردودة.

فقال: ((لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ)) يعني لو أنَّ كلَّ مُدَّعٍ ادَّعى شيئًا له من حقوق النَّاس وقيل له: (خذ ما ادَّعيت) ((لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ)) بمعنى أنَّهم يقولون: (هذه أموالنا) وهي في أيدٍ قد ثبتت لهما.

((وَدِمَاءَهُمْ)) فيقولوا: (هذا قاتل لابني) أو (هذا قاتل لأخي) أو ما أشبه ذلك.

ثمَّ قرَّر عليه الصَّلاة والسَّلام كيفية الدَّفع لهذا الأمر فقال: ((لَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ)) البيِّنة على من ادَّعى هذه الدَّعوى واليمين على من أنكر الدَّعوى عليه.

_ والمُدَّعي: هو الَّذي يطلب شيئًا بيد غيره، هذا المُدَّعي.

_ والمُدَّعى عليه: هو الَّذي بقيَ على الأصل والبراءة في هذا المُدَّعى عليه فيه.

والأصل أن يبدأ المُدَّعي بعرض الدَّعوى، فيقول: (هذا فعل بي كذا) أو (أخذ منِّي كذا) أو (بسط على أرضي الفُلانيَّة) -أو ما أشبه ذلك-، فإذا ادَّعى عليه هذا المُدَّعي، فإنَّ القاضي يُطالب هذا المُدَّعي بالبيِّنة.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((الْبَيِّنَةُ)) مأخوذةٌ من البيان، وهو كلُّ ما يتبيَّن به الحق، إلَّا أنَّ الجمهور حصروه في الشَّهادة؛ فقالوا: البيِّنة تقع في الشَّهادة فقط.

✽ والَّذي رجَّحه طائفة من أهل العلم -رحمهم الله تعالى- كابن فرحون من المالكيَّة وابن حجر من الشَّافعيَّة وابن تيمية وابن القيِّم من الحنابلة وغيرهم قالوا بأنَّ البيِّنة تقع بالشَّهادة

وتقع بكلِّ ما يقع به البيان، حتَّى قالوا بأنَّها تقع بالإقرار وهذا من أقواها، وتقع بالشُّهود، وتقع بالقرائن، وقد أطال ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- في "الطُّرق الحُكميَّة" للاستدلال على هذا -مَن أراده رجع إليه-.

فالشَّاهد أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ما حصر البيِّنة في الشَّهادة، وما قال: (لكن الشَّهادة) وإنَّما قال: ((لَكِنِ الْبَيِّنَةُ)) وعمَّمها في البيان، لأنَّه أدخل عليها (أل) فدلَّ على أنَّ كلَّ بيِّنة بيَّنت الحقّ فإنَّه يُقضى بها عند القاضي، فقد يكون عند بعض النَّاس صكوك قديمة لا شهود عليها أو عليها شهود هي لكنَّ هؤلاء الشَّهود لا يحضرون، ثمَّ إنَّ الشَّهادة أيضًا ما يُشهد به، فالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام جعل البيِّنة على المُدَّعي بأن يأتيَ بالبيِّنة فيما يدَّعيه من دعواه لأنَّه يحتاج إليها أو أن يُصدِّقه المُدَّعى عليه، وهذا الَّذي ذهب إليه جمهور الأئمَّة من السَّلف وغيرهم.

وكون البيِّنة على المُدَّعي: لأنَّ جانب المدَّعي ضعيف، الَّذي ادَّعى شيئًا جانبه ضعيفٌ من جهته، لأنَّه يدَّعي خلاف الأصل وخلاف الظَّاهر، فيُكلَّف بإقامة الحُجَّة والبيِّنة ليُقوِّيَ هذا الضَّعف، فالبيِّنة تُقوِّي الضَّعف الَّذي وقع من جهته باعتبار أنَّ هذا الحقَّ في يد المُدَّعى عليه.

والمُدَّعى عليه جانبه قويّ، لماذا؟ لأنَّه باق على الأصل وباقٍ على فراغ ذمَّته، فيُكتفى منه باليمين، وقد جاء في قضاء عُمر الَّذي أرسله إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه [...][572] هناك رسالة مؤلَّفة كتبها الشَّيخ الدكتور الفاضل محمَّد بازمول -وفَّقه الله- في الكلام على قضاء عمر الَّذي أرسله إلى أبي موسى، ومن ضمن هذا القضاء أنَّ عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى رضي الله عنهم جميعًا: (الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ)[573] وقد رُوِيَ أيضًا عن عمر أنَّه قال: (البَيِّنَةُ العَادِلَةُ أَحَقُّ مِنَ اليَمِينِ الْفَاجِرَةِ)[574] وكذلك قال: (يَا أَيُّهَا النَّاس لَا يَمْنَعكُمْ الْيَمِين عَنْ أَخْذِ حُقُوقِكُمْ)[575].

---

572 انقطاع يسير في الصَّوت.
573 "السنن الكبرى" للبيهقي رحمه الله، ج10، ص429.
574 "السنن الكبرى" للبيهقي رحمه الله، ج10، ص307.
575 "المجموع" للنَّووي رحمه الله، ج19، ص217.

وهذا الحديث لسنا نُريد أن نتكلَّم على باب القضاء وما يتعلَّق به لأنَّ القاضي كما ذكر العلماء لابدَّ وأن يكون مُجتهدًا؛ وهو الَّذي يستطيع أن يُميِّز الحقّ الواقع فيه الخلاف، فلابدَّ وأن ينظر في حال الخصمين وفي صفاتهما وفي أخلاقهما وفي القرائن الَّتي تحفُّ بهما وفي أيضًا السَّوابق، وهناك مسائل خلافيَّة كثيرة جدًّا مُتعلِّقة بهذا الباب في استعمال المصالح المرسلة في القضاء وفي غيرها من المسائل.

وكون الإنسان المُدَّعي يأتي بالبيِّنة: قدَّمنا لكم أنَّ هذا إجماعٌ من أهل العلم -رحمهم الله تعالى-.

وهذا الحديث طبعًا فيه فوائد كثيرة

ربَّما سبقت الإشارة إلى بعضها، لكن نُجمل فيها الكلام.

_ منها: حُرمةُ مال المسلم ودمه وجميع حقوقه، وإنَّما أشار النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام إلى المال والدَّم لأنَّها من أكثر ما يقع فيه الاعتداء.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الدَّعوى لابدَّ وأن تقوم عليها البراهين والبيِّنات.

وَالدَّعَاوِي مَا لَمْ تُقِيمُوا عَلَيْهَا ... بَيِّنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ

وهذا في أمور الدِّين والدُّنيا، حتَّى من ادَّعى أنَّه على العلم أو أنَّه على الحقِّ أو أنَّه على المنهج السَّلفي -أو ما أشبه ذلك- وعليه شكوك وأوهامٌ وعنده خواطر وانحرافات؛ فإنَّه لابدَّ من إقامة البيِّنة على ذلك.

_ ومنها: أنَّ المدَّعي حجَّته ضعيفةٌ ولهذا طُولب بالبيِّنة.

ـ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المسلم لا ينبغي له أن يترك حقوقه الَّتي له لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام رخَّص له في اليمين مع أنَّ اليمين منهيٌّ عنه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾[576]، وكما قال -جلَّ وعلا- أيضًا: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[577].

ـ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المدَّعى عليه حُجَّته قويَّة، لأنَّه باقٍ على الأصل والظَّاهر، ولذلك طُولب باليمين فقط من باب التَّأكيد على حقِّه الَّذي له.

ـ ومن فوائد هذا الحديث: تحريم الظُّلم الَّذي يقع بين النَّاس.

---

[576] سورة البقرة: 224

[577] سورة المائدة: 89

۞ الحديث الرابع والثلاثون ۞

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

وهذا الحديث أيضًا من الأحاديث العظيمة الجامعة لأبواب الخير كلِّها؛ لأنَّ من محاسن هذه الشَّريعة أنَّها جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فأمرت بالمعروف لتحصيل المصالح، ونهت عن المنكر لتعطيل المفاسد أو على الأقلِّ لتقليلها.

❁ والمعروف والمنكر هاهنا اصطلاحان شرعيَّان لا بدَّ من معرفتهما:

_ فأمَّا المعروف فهو ما أمر الله به ورسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، سُمِّيَ (معروفًا) لأنَّه معروفٌ من جهة الشَّريعة، والفطرة السَّليمة والعُقول الصَّحيحة تقبله وتقوم به وتميل إليه.

_ وأمَّا المنكر فهو ما نهى الله عنه ورسوله من الأقوال والأفعال والتَّصرُّفات، وسُمِّيَ (مُنكرًا) لأنَّ الشَّريعة أنكرته، والفِطرة السَّليمة والعقول الصَّحيحة تردُّه وتأباه؛ وإن كابر بعض النَّاس في ذلك.

وهذا الحديث بيِّن الدَّلالة في ضرورة إقامة الشَّرع وأنَّ المسلم لا بدَّ له أن يقوم بما أمر الله به ورسوله عليه الصَّلاة والسَّلام بقدرٍ من الاستطاعة.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَنْ رَأَى)) (مَنْ) هذه من الأسماء المبهمة الَّتي تدلُّ على العموم.

كَذَاكَ (مَنْ) وَ (مَا) تُفِيدَانِ مَعَا   كُلَّ الْعُمُومِ يَا أُخَيَّ فَاسْمَعَا

فالأسماء المبهمة الموصولة، أسماء الشَّرط، وما أشبه ذلك، هذه من صيغ العموم وألفاظ العموم، وهذا عامٌّ إلَّا أنَّ هذا العامّ مخصوصٌ بما ذُكر بعده من الأوصاف لأنَّه قال: ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ)) في الأولى، وقال في الثَّانية أيضًا: ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ)) ورتَّب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر على حسب استطاعة العبد لأنَّ العبد لا يُكلَّف ما لا يستطيعه وما لا يُطيقه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[578]، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[579]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾[580] والنُّصوص في هذا كثيرة من جهة أنَّ المسلم لا يُكلَّف ما لا يُطيق.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ)) بمعنى أنَّه وقعت عليه الرُّؤية لا أنَّه تطلَّبه حتَّى رآه ووجده لأنَّ هذه ليست رُؤية وإنَّما هي تجسُّس وتحسُّس، والتَّجسُّس والتَّحسُّس منهيٌّ عنه.

واحتمل طوائف من أهل العلم أنَّ الرُّؤية قد يكون هنا المراد به البصرية وقد يُراد بها القلبيَّة:

_ بمعنى أنَّنا إذا قُلنا أنَّ الرُّؤية بصرية أن تقع عين هذا العبد على هذا المنكر؛ كأن يرى اثنين في خلوة مُحرَّمة -أو ما أشبه ذلك-.

_ وقولهم بأنَّ الرُّؤية قد تكون رُؤية علميَّة أو قلبية؛ بمعنى أنَّه يعلم أو يسمع بهذا وإن لم ير.

❋ والعلماء على قولين في هذه المسألة؛ والعلَّامة ابن العثيمين -عليه رحمة الله- يميل إلى أنَّ ((رَأَى)) بمعنى عَلِم وأنَّه لا يُشترط للرُّؤية البصر، وغيره من أهل العلم يرى أنَّه يراها،

---

[578] سورة البقرة: 286
[579] سورة الأعراف: 42
[580] سورة الطلاق: 7

لكن إذا أُخبِر الإنسان عن موضع فيه مُنكر أو بُلِّغ عنه فإنَّه يقوم بما فرض الله -تبارك وتعالى- عليه من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من الواجبات العظيمة الَّتي أوجبها الله -تبارك وتعالى- على الأمم قبلنا: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[581]، ولمَّا اعتدى أصحاب السَّبت ولم ينهاهم الَّذين كانوا معهم عاقبهم الله -وقصَّة أصحاب السَّبت معروفة-، والآيات والأحاديث الدَّالة على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر -كما في قصَّة لقمان لابنه وما أشبه ذلك من النُّصوص- كثيرةٌ جدًّا ومبثوثة في كتب أهل العلم وفي كتب السُّنَّة.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ)) (يُغيِّره) هذا فعل مُضارع مجزوم بلام الأمر، ولَام الأمر إذا دخلتْ على الفعل المضارع دلَّ على الوجوب، وهذا هو الدَّليل على أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر واجبٌ، لكن على حسب استطاعة المسلم وقدرته كما مرَّ معنا في الآيات الكثيرة.

وقوله هنا: ((فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ)) أي أنَّه يتولَّى التَّغيير بيده، حتَّى سُئل الإمام أحمد: (كَيْفَ يَفْعَلُ هَذَا؟) قال: (إِذَا مَرَّ عَلَى صَبِيَّيْنِ يَتَعَارَكَا أَوْ يَتَضَارَبَا فَرَّقَ بَيْنَهُمَا)[582] يعني يُفرِّق بينهما، فليس قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((بِيَدِهِ)) مُستلزمٌ للضَّرب، كما يعتقده كثيرٌ من المتهوِّكين الَّذين يُسيئُون إلى هذه الشَّريعة بأفعالهم.

وليس مُستلزمًا لحمل السَّيف والقتل كما اعتقدته المُعتزلة والخوارج وأنَّ كلَّ منكرٍ تستلزمُ إزالته حمل السِّلاح.

❋ فافهم هذا فإنَّه من المواضع الدَّقيقة، وربَّما لا يُنبِّه عليها كثيرٌ ممَّن يتكلَّم على هذه المسألة أو على هذا الحديث، فإنَّ هذا موضعٌ خطير ودقيق لأنَّ بعض النَّاس يظنُّ أنَّ التَّغيير باليد مُلزمٌ لإلحاق الضَّرر فإذا رأى صاحب المنكر فإنَّه لابدَّ وأن يضربه أو يُلحق به أنواعًا من

581 سورة المائدة: 78-79

582 تعذَّر الوقوف عليه -حسب بحثي القاصر-.

الضَّرر هذا إذا ما قتله! لكن إذا فرضنا أنَّه رأى إنسانًا يشرب الخمر واكتفى بأخذ الشَّراب عنه وحيازته فإنَّ هذا كافٍ وخصوصًا إذا ترتَّبت على ذلك مفاسد؛ وترتُّب المفاسد والمصالح من أدقِّ المسائل المتعلِّقة بها هو هذا الحديث أو ما يتعلَّق بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر، وقد ذكر ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- فوائد نفيسة في أوَّل كتابه "إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين" في ترتيب القيام بالإنكار وترتيب المصالح والمفاسد في هذا الباب، وأنَّ بعض النَّاس قد يُنكر منكرًا ويُغيِّره فيُوقع النَّاس فيما هو أنكر منه، وهذا لا يجوز، الشَّريعةُ لم تأت بهذا بل جاءت بنفيه وجاءت بإزالته، فالمنكر لا يُزال بمنكر ولا يُرتَّب على إزالته منكرًا آخر بل يجب أن ينظر المسلم الَّذي يقوم بالإنكار في مراتب الإنكار والتَّغيير فإنَّ المنكرات كثيرة لكنَّها لا تستوي أبدًا، فإذا جئتَ تُغيِّر منكرًا بما هو أنكر منه خالفت الشَّريعة من حيث أردتَ أن توافقها، فتُخطئ في هذا وتُخطئ في هذا، بل لابدَّ من النَّظر في مراتب المفاسد وكما قال عمر رضي الله عنه وأرضاه وقد صحَّ هذا عنه؛ وذكره ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- في كتابه "روضة المحبِّين" قال: (لَيْسَ الْعَاقِلُ الَّذي يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَلَكِنَّه الَّذي يَعْرِفُ خَيْرَ الشَّرَّيْنِ)[583].

فلابدَّ أن يكون طالب العلم عالمًا بهذه المحرَّمات وبأنواعها، قد ذكر الحافظ ابن القيِّم -كما قلتُ لكم- في "إعلام الموقِّعين" من الأحداث الشَّيء العجيب حتَّى فيما علق في ذهني -تُراجعونه إن شاء الله، تجدونه- أنَّه كان مع شيخه أبي العبَّاس ابن تيميَّة -رحمه الله- فمرُّوا على قوم من التَّتار وقد عكفوا على شرب الخمر والعهر -وما أشبه ذلك-، فأنكر بعض الطُّلَّاب عليهم؛ فقال: (إِنَّمَا حَرَّمَ اللهُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عن ذِكْرِ اللهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ، وَهَؤُلَاءِ يَصُدُّهُمْ الْخَمْرُ عن قَتْلِ النُّفُوسِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ؛ فَدَعْهُمْ)[584].

وفي هذا الحديث أنَّ النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام رتَّب التَّغيير، فمن أهل العلم مَن فَهِم:

_ أنَّ قوله: ((بِيَدِهِ)) هذا راجعٌ إلى السُّلطان.

_ وأنَّ قوله: ((بِلِسَانِهِ)) راجعٌ إلى أهل العلم والبيان.

---

583 "روضة المحبِّين" ص13.

584 قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: (وَسَمِعْت شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابن تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ يقول: مَرَرْت أنا وَبَعْضُ أَصْحَابِي في زَمَنِ التَّتَارِ بِقَوْمٍ منهم يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ فَأَنْكَرَ عليهم من كان مَعِي، فَأَنْكَرْت عليه، وَقُلْت له: إنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ وَهَؤُلَاءِ يَصُدُّهُمْ الْخَمْرُ عن قَتْلِ النُّفُوسِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ فَدَعْهُمْ) ["إعلام الموقعين" ج3، ص15]

_ وأنَّ قوله: ((بِقَلْبِهِ)) راجعٌ إلى عامَّة النَّاس.

إلَّا أنَّ هذا الحديث في ألفاظه يأبى كلّ هذا، وليس هذا موضع البيان والاستدلال على هذا لأنَّه يطول به الكلام، لكن خُلاصته: أن يُقال بأنَّ وليَّ الأمر إذا نصَّب من يقوم بالحُسبة -هكذا بالضمِّ- والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فإنَّهم هم الَّذين يتولَّون القيام به، وبإمكانك أن تُبلغ عمَّن يقع في شيءٍ من المنكرات.
وإلَّا فإنَّ المسلم إذا أُمِنت المفاسد وترتَّبت المصالح واستطاع أن يُغيِّر هذا المنكر كتغيير المنكر في بيته أو في أُسرته أو في مُجتمعه، فإنَّه يقوم بهذا والحالة هذه.

((فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ)) وهذا يدلُّ عليه عموم الحديث وترتيب الفِعل.

من فوائد هذا الحديث -وهي كثيرة-:

_ ضرورة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وأنَّه من الواجبات الشَّرعيَّة.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّه دليلٌ على القاعدة الفقهية أنَّ الشَّريعة لا تأمر إلَّا بما يستطيعه العبد، كما قال ابن سعدي -رحمه الله-:

وَلَيْسَ وَاجِبٌ بِلَا اقْتِدَارِ وَلَا مُحَرَّمٌ مَعَ اضْطِرَارِ

(وَلَيْسَ وَاجِبٌ بِلَا اقْتِدَارِ) هذا الشَّاهد من البيت، فلا يجب الشَّيء مع عدم القدرة به، ويدلُّ عليه حديث عمران بن حُصين: ((صَلِّ قَائِمًا))[585].

[585] عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الصَّلَاةِ فَقَالَ: ((صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ)) رواه البخاري.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الشَّريعة قائمة على البيان والحُجَّة؛ لأنَّه أحال في معرفة المنكر إلى الرُّؤية -سواءٌ قلنا بأنَّها القلبيَّة أو قلنا بأنَّها البصرية-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّه دليلٌ على زيادة الإيمان ونُقصانه، لأنَّه قال في آخره: ((وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)) و (أضعف) هذه أَفْعَل التَّفضيل، بمعنى أنَّه يتفاضل فيه أهله، لا كما تقوله المرجئة.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فيه ردٌّ على الَّذين ينفلتون ويتفلَّتون عن الشَّرائع والأوامر والنَّواهي بحُجَّة الحُرِّية الشَّخصيَّة، فيُسمُّون الخمر: مشروبًا روحيًّا، ويُسمُّون الزِّنا واللِّواط -وما أشبه ذلك-: علاقات اجتماعيَّة، ثمَّ يقولون لأهل الصَّلاح والدِّين والخير: (لا تتدخَّلوا في شؤوننا)، وهذه حُرِّية مُنفلتة، فيها اعتداءٌ على الشَّرائع واعتداءٌ على النَّاس واعتداءٌ على الغير.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الإنكار للمنكر له شروط منها: العلم به -كما تقدَّم معنا-، ومنها أيضًا: القدرة على إزالته، يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: (وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُزِيلَ الْمُنْكَرَ بِمَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ)[586] كما تقدَّم معنا ذكر ذلك.

ومراتب إنكار المنكر وأحواله كثيرةٌ جدًّا -كما سبق ذلك-، وهذه الدُّروس إنَّما هي بيانٌ لأعظم ما تضمَّنته الأحاديث الَّتي اختارها النَّووي -رحمه الله-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الشَّريعة يُسر، وهذا من تيسير الله على عباده؛ والمشقَّة تجلب التَّيسير، فمن لم يستطع التَّغيير فقد جاءته المشقَّة وجُلب له التَّيسير لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ)).

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المنكر الشَّائع الذَّائع الَّذي ظهر في النَّاس يجبُ إنكاره وإلَّا أُلحِقَت بأهله العقوبات كما دلَّ على ذلك أحاديث أُخرى.

[586] "مختصر الفتاوى المصرية" ص580.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ المسلم لا يُعذر بعدم الإنكار بقلبه لأنَّه أضعف الإيمان، فكلُّ النَّاس يستطيعون أن ينكروا بقلوبهم ولا يتفلَّت من هذا الأمر أحد، بل النَّاس كلُّهم يستطيعون فعل ذلك، لأنَّ أحدًا من النَّاس لا يستطيع أن يتسلَّط على قلوبهم.

۞ الحديث الخامس والثلاثون ۞

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عَنْـهُ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُم عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا.

الْمُسْلِمُ أَخُـو الْمُسْـلِمِ لَا يَظْلِمُـهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُـهُ، وَلَا يَحْقِـرُهُ، التَّقْوَى هَهُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-.

بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ.

كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرْضُهُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

هذا الحديث العظيم الجليل في رعاية حقوق المسلمين وحِفظها وسدِّ كلِّ الوسائل المُفضية إلى تضييعها، ومن المعلوم أنَّ من أصول الشَّريعة الَّتي جاءت بها: الحفاظ على جماعة المسلمين، والحفاظ على حقوقهم، وبقائها، وعدم انتهاكها، ولم يترك النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مجالًا من المجالات العامَّة إلَّا وبيَّن هذا الحقَّ لأصحابه -كما تعلمون في حجَّة الوداع-، ومن هذه الأحاديث: هذا الحديث الجليل الَّذي فيه جُملة من المناهي العظيمة الَّتي تُفسد المصالح المتعلِّقة بين المسلمين في أُخوَّتهم.

فبدأ بأوّل الذُّنوب وأعظمها حصولًا وأكثرها انتشارًا ألا وهو الحسد، فإنَّ الحسَد قرين الكِبر وهما أوّل ذنبٍ عُصي الله -تبارك وتعالى- به، فإنَّ إبليس -عليه لعائن الله- لمَّا خلق الله آدم وأمره بالسُّجود له؛ حسَد آدم وقال:﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[587] فحسد آدم وأبَى، وحمله ذلك الحسد إلى أن يأبى قَبول الحق؛ فأبى أن يسجد لآدم مع أنَّ الآمر له بذلك السُّجود هو الله.

والحسد من أقوى الدَّوافع الَّتي تدفع الحق، فإنَّ الإنسان يدفع الحقّ بسبب حسده لقائله، فقال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((لَا تَحَاسَدُوا)) لأنَّ الحسد إذا وُجد ذهبت كلُّ النِّعم وكلُّ الاعترافات بالفضل والخير.

والحسَد قال العلماء: هو كراهة ما أنعم الله على الغير منْ نعمةٍ مع تمنِّي زوالها، هذا الَّذي قرَّره أكثر العُلماء، إلَّا أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وغيره من أهل العلم قالوا بأنَّه لا يلزم أن يتمنَّى زوال تلك النِّعمة، فإنَّهم يعتبرون الحسد: كراهيَة ما أنعم الله به على الغير -تمنَّى زوالها أو لم يتمنَّ زوالها-.

❁ فإن قلتَ: فما الفرق بينه وبين الغِبطة؟ وما المراد بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ))[588]؟

الجواب: أنَّ المراد بالغبطة أن يُحبَّ الإنسان ما عليه أخوه المسلم ويتمنَّى أن يقع له مثل ما هو عليه أو أن يُرزق كرزقه الَّذي أُعطيَه، هذه هي الغبطة وهذا هو المراد بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اِثْنَتَيْنِ))، فهو لا يكره ما هو عليه من النِّعمة فضلًا عن أن يتمنَّى زوالها، لكنَّه يحبُّها لأخيه المسلم لأنَّ هذا هو مُوجب الإيمان، ويتمنَّى -أو يحبّ- أن يكون له ما لأخيه المسلم.

❁ ولذلك ذكر العلماء أنَّ للحسد مراتب:

_ الأولى: أن يكره نعمة الله على غيره؛ فهذا مُحرَّم بالإجماع كما حكاه النَّووي -رحمه الله-.

---

587 سورة الأعراف: 12

588 ((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ)) [مّتفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم]

_ والثَّانية: أن يتمنَّى أن يكون له مثله، فلا يَحرُم، وهذا هو الحسد الَّذي يُسمِّيه بعض أهل العلم بـ:"الحسد الشَّرعي".

_ الثَّالثة: أن يتمنَّى أن يكون أعلى منه، وهذا قال فيه العلاَّمة ابن عثيمين: فهذا جائز وليس بمحرَّم، فإذا كان المسلم له نِعم -أو عنده نِعم- وخصوصًا من أمور الدِّين فتمنَّيتَ أن تكون فوقه أو أفضل منه فإنَّ هذا جائزٌ لا تثريب على المسلم فيه.

والحسد الكلام عليه كثير، وقد قال بعض السَّلف: (مَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ، لَكِنَّ اللَّئِيمَ يُبْدِيهِ، وَالْكَرِيمَ يُخْفِيهِ)[589] فالمسلم يُجاهد نفسه على أن لا يحسد إخوانه المسلمين وأن لا يتمنَّ زوال نعمتهم الَّتي أنعم الله بها عليهم.

ثمَّ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَلَا تَنَاجَشُوا)) والنَّجش في أصل اللُّغة التَّحريك والإثارة، وحقيقته: أنَّ الإنسان يزيد في السِّلعة ولا يُريد شراءها:

_ إمَّا لأنَّه يُريد أن ينفع البائع فيكون متواطئًا مع البائع ويُريد مصلحةً منه فيرفع في ثمن السِّلعة من أجل أن يشتريها الآخر بأغلى الأسعار.

_ أو لا يُريد نفع البائع لكنَّه يُريد الإضرار بالمشتري، فيُريد أن يضُرّ ذلك المشتري حتَّى يشتري تلك السِّلعة بأغلى الأسعار.

وكلُّ هذا حرام ولا يجوز بإجماع أهل العلم حتَّى قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر -رحمه الله-: (أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ فَاعِلَهُ عَاصٍ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- إِذَا كَانَ بِالنَّهْيِ عَالِمًا)[590] والجمهور على أنَّ البيع صحيح مع الإثم الَّذي وقع فيه النَّجش، وأمَّا الإمام أحمد -رحمه الله- فيقول بأنَّه آثمٌ والبيع باطل؛ ففارق الجمهور في مسألة البطلان، فالإجماع مُنعقد على أنَّه عاصٍ وآثم، إلَّا أنَّهم اختلفوا في البطلان؛ والإمام أحمد يرى أنَّ البيع باطل.

ولا يجوز للمسلم أن يُضارَّ بأخيه المسلم، لأنَّ كونه يسعى في نفع البائع لاشكَّ أنَّه سيضرّ بأخيه المسلم المشتري، فمِن لازم طلبه للنَّفع للبائع الإضرار بالمشتري، أمَّا إذا أراد الإضرار بالمشتري فإنَّه لا يلزم أن يكون قاصدًا لنفع البائع.

589 "مجموع فتاوى ابن تيمية" ج10، ص125.

590 "جامع العلوم والحكم" ص715.

ثمَّ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَلَا تَبَاغَضُوا)) من البغضاء وهي أعلى درجات الكره، فنهى النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام من البغض الَّذي هو من صفات اليهود لأهل الإسلام:﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[591] وقد مرَّ معنا أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال في حديث أنس الَّذي في الصَّحيحين: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لنفْسِهِ))، ومن مقاصد الشَّريعة أنَّها جعلت المحبَّة بين المسلمين: ((**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**))[592]، والله -جلَّ وعلا- يقول في كتابه الكريم:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[593]، وكذلك جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**))[594] فانظر إلى هذا المقصد العظيم بأن تنتشر المحبَّة بين المسلمين والوئام، ولهذا نهت الشَّريعة عن كلِّ ما يقطع هذه الأواصر والصِّلة من البدع والخرافات والتَّحزُّبات والجماعات والتَّفرُّقات والمعاصي، وكما قال نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**مَا تَوادَّ اثْنَانِ فِي اللهِ فَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا**))[595] فنهى النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام عن التَّباغض، وهذا التَّباغض المنهي عنه هو التَّباغض الَّذي يكون على غير موجبٍ شرعيّ؛ أمَّا إذا أبغضت أهل البدع وأهل المعاصي وأهل الفجور فإنَّ هذا من الدِّين.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَلَا تَدَابَرُوا)) يعني مِن التَّدابر، وهو أن يُعطيَ كلُّ واحدٍ منها دبره للآخر فيُعرض عنه، وقد قال ربُّنا -تبارك وتعالى-:﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾[596]، ولمَّا ذكر حديث الهَجْر -النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام- قال: ((**فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**))[597] فالتَّدابر منهيٌّ عنه، ولا يجوز للمسلم أن

---

[591] سورة آل عمران: 118

[592] رواه مسلم، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[593] سورة مريم: 96

[594] متَّفقٌ عليه، واللَّفظ لمسلم.

[595] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

[596] سورة لقمان: 18

[597] متَّفقٌ عليه، من طريق أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله عنه.

يُدبر عن أخيه المسلم بغير حقٍّ ولا موجبٍ شرعيٍّ تُقرِّره الشَّريعة، كلُّ هذا ممَّا نهت عنه الشَّريعة.

ثمَّ ذكر أيضًا بعض الحقوق المتعلِّقة بالمسلمين فقال: ((وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُم عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ)) بمعنى أنَّ المسلم إذا اشترى شيئًا من أخيه المسلم فإنَّك لا تدخل في هذا البيع مادام قد استقرَّ البيع وثبتت السِّلعة في يد المشتري وثبت المال أو الثَّمن في يد البائع فإنَّك لا تتدخَّل في ذلك، فلا تقول: (إفسخ هذا البيع وأنا سأبيع لك بأرخص منه)، (هذا إنسان يبيع غال)، (هذا إنسان يُبالغ في الرِّبح) -وما أشبه ذلك-، لا يجوز هذا، وليس هذا من النَّصيحة، انتهى الأمر، وليس هناك حدٌّ في الشَّريعة للرِّبح الَّذي يربحه المسلم، وكذلك إذا أراد الإضرار بالمشتري فإنَّه يقول: (رُدَّ هذه السِّلعة وأنا أبيع لك بأقلَّ منها) كما عرفنا هذا، الشَّاهد من هذا أنَّ قوله: ((وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُم عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ)) يدخل فيه إضرار البائع بأن تذهب إلى المشتري وتقول: (أنا سأبيع لك بأقلّ ممَّا باع لك فُلان لأنَّه يُبالغ في السِّعر) أو أن يكون بإضرار المشتري.

قال: ((وَلَا يَخْذُلُهُ)) والخذلان ترك الانتصار له والنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال كما في الصَّحيح: (**«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»** فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: **«تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»**)[598] وهذا من حقوق المسلمين على بعضهم البعض.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَلَا يَحْقِرُهُ)) يعني لا يستصغره ولا يتكبَّر عليه كما قال ربُّنا -تبارك وتعالى-: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾[599] والاحتقار للمسلمين والازدراء لهم محرَّم، لا يجوز للمسلم أن يحقر أخاه المسلم ((النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ))[600] كما قال نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام، وكذلك قال ربُّنا -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[601]، ونبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((إنَّ

---

[598] رواه البخاري من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.
[599] سورة الحجرات: 11
[600] صحَّحه الألباني رحمه الله في "شرح الطّحاوية".
[601] سورة الحجرات: 13

اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ))[602] -أو كما قال نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام-.

ثمَّ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَلَا يَحْقِرُهُ)) يعني لا يُوصل إليه هذا الاحتقار أمامه ولا يحتقره عند النَّاس (هذا ليس بنفيس)، (هذا ليس بـ[...][603])، (هذا ليس بكذا)، (هذا ليس عنده كذا) -وما أشبه ذلك- لا يسعى في احتقار أخيه المسلم.

ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال أيضًا بعد ذلك مؤكِّدًا إلى هذا الشَّر: ((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ)) يعني أنَّ كلَّ شرٍّ من الشُّرور الَّتي يُقابل بها المسلم أخاه دون الاحتقار، لا أنَّ الاحتقار أعظم الذُّنوب مُطلقًا، ولكن فيما يتعلَّق بمعاملته لأخيه المسلم فإنَّ جميع ما تقدَّم هيِّنٌ ويسير أمام احتقار المسلم، فقال: ((وَلَا يَحْقِرُهُ)) ثمَّ أكَّد ذلك بقوله: ((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ)) أي يكفي المرء من الشَّر أن يحقر أخاه المسلم، وهذا أمرٌ عظيم يدلُّ على خطورة الاحتقار للمسلمين والازدراء بهم والسُّخريَّة بهم فإنَّ هذا من الظُّلم الَّذي حرَّمه الله -تبارك وتعالى- بين المسلمين.

ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام بيَّن سبب صلاح العبد وسبب فساده فقال: ((التَّقْوَى هَهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-)) وقد مرَّ معنا في حديث النُّعمان بن بشير أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهي الْقَلْبُ)) وكذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام كما في صحيح مسلم: ((إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ))[604] وفي رواية: ((وَأَعْمَالِكُمْ))[605].

فَالْقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... حُبًّا وَإِخْلَاصًا مَعَ الإِحْسَانِ[606]

[602] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود".
[603] كلمة غير واضحة.
[604] رواه مسلم من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.
[605] ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)) [رواه مسلم من طريق أبي هريرة رضي الله عنه]
[606] نونية ابن القيم رحمه الله.

القلب إذا صلح صلحتِ الجوارح كلُّها، وإذا فسدَ فسدتِ الجوارح كلُّها، فهو يقول عليه الصَّلاة والسَّلام: ((التَّقْوَى هَهُنَا)) يعني أنَّ محلَّ التَّقوى: القلب، التَّقوى الَّتي تحجز عن محارم الله لأنَّها هي التَّقوى النَّافعة الَّتي تمنع عن محارم الله وتحجز عن معاصي الله.

((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ)) وهذا عرفناه كما تقدَّم، وإنَّما قدَّمناه في الكلام لربطه مع ما قبله.

ثمَّ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ)) هذا لفظٌ عامٌّ، فكلُّ المسلم على المسلم حرام لا يجوز غمزه بالعين، ولا همزه باللَّفظ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[607] لا يجوز الغمز ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[608]، فإذا كان أن تسخر بأخيك المسلم بغمز عينك أو بحركة يدك -أو ما أشبه ذلك- تتغامزان على أخ آخر هذا لا يجوز، ومحرَّم، ومن المعاصي -عياذًا بالله-، لأنَّ كلَّ المسلم على المسلم حرام، فالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((كُلُّ الْمُسْلِمِ)) لم يستثن عليه الصَّلاة والسَّلام شيئًا، وحتَّى جاء في حديث أبي أُمامة في الاقتصاص من المسلمين لبعضهم البعض؛ قال له رجلٌ: ((وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:«وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»))[609] حتَّى نهى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أن يأخذ حبله ليُروِّعه[610]، فانظر إلى هذه الشَّريعة وإلى عظمتها ورعايتها واعتنائها بالحقوق، واليوم يتكلَّم الكثيرون في الشَّرق والغرب عن الاجتماع والعلاقات الاجتماعيَّة ولا يذكرون من هذه الآداب شيئًا ولا يلتفتون إليها، والآداب الاجتماعيَّة عندهم إنَّما هي حُرِّية التَّعامل بين النَّاس ولو بالإضرار بهم وبأعراضهم.

فالنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال هنا: ((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ)) فلا يجوز التَّعرُّض للمسلم بأيِّ شيء من الأذى.

---

607 سورة الهمزة: 1-3

608 سورة غافر: 19

609 عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ)) رواه مسلم

610 عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ، فَفَزِعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود"]

ثمَّ أكّد على أمورٍ مُهمَّة يكثر الانتهاك لها والتَّعرُّض لها، فقال: ((دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرْضُهُ)) أي أنَّ دمه حرام، وماله حرام، وعرضه حرام.

_ أمَّا (الدَّم) فقد مرَّ معنا في حديث ابن مسعود أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ)).

_ وأمَّا ((مَالُهُ)) فقد قال ربُّنا -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم:﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[611] انظر إلى هذه الأساليب الَّتي جاءت في القرآن:﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾، ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ هل يفهم أحدٌ أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- ينهى الإنسان أن يكل ماله الَّذي هو ملكه والَّذي حصَّله بوجوه الحرام؟ لا؛ لمَّا كان المسلمون كالجسد الواحد والنَّفس الواحدة فإنَّك إذا أخذت مال أخيك بغير حقٍّ فكأنَّما مالك هو الَّذي أُخِذ، فيُنْتبه لهذا، فإنَّه من الأمور العظيمة المهمَّة الَّتي رعتها الشَّريعة وحافظت عليها، والنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يقول: **((لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ))**[612] أن تطيب نفسه وأن يجود بهذا المال، فالحذر من هذه الأمور وتضييعها.

_ ثمَّ بيَّن عليه الصَّلاة والسَّلام بعد ذلك (العِرض) والَّذي هو جانب المدح والذَّمّ في الإنسان، وإن كان كثيرين مِن العلماء يَروْن أنَّ العِرض الَّذي جاءت الشَّريعة برعايته من ضمن المقاصد الشَّرعية أنَّه الحُرمات الَّتي هي المُستوجبة أو المُعرّضة للزّنا، وهذا نوعٌ منها، لكن المراد هنا الجانب الَّذي يُمدح به العبد أو يُذمّ، فعِرضه يُطلق على حسبه وهي المفاخر الَّتي يفتخر بها، فلا يتعرَّض للعِرض ولا يأخذ بعرض أخيه المسلم يلوكه ويشتمه بغير حقٍّ، فالمسلم أخو المسلم كما بيَّن عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا الحديث، لأنَّه لمَّا قال: ((وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا)) لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قال:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[613]، ((وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا)) لأنَّكم جميعًا عبيدٌ لله، فالجميع عباد الله وأُخوَّتهم على الإسلام.

[611] سورة البقرة: 188
[612] صحَّحه الألباني رحمه الله في "إرواء الغليل".
[613] سورة الحجرات: 10

ثمَّ قال: ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ)) فالمسلم أخٌ للمسلم [...][614] ((لَا يَظْلِمُهُ)) فلا يسعى في ظُلمه، ولا ينتهك محارمه يظلمه بها؛ كما مرَّ معنا في حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال فيما يرويه عن ربِّه: ((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا)).

هذا الحديث حديثٌ عظيم جليل القدر -كما قدَّمنا- في رعاية حقوق المسلمين والمحافظة عليها.

❀ وفوائده كثيرة جدًّا:

_ منها: النَّهي عن الحسد، والنَّهي عن التَّناجش، والنَّهي عن التَّباغض، والنَّهي عن التَّدابر، والنَّهي عن البيع على بيع الأخ المسلم، والأمر بالأُخوَّة الإسلامية، والنَّهي عن الظُّلم، والنَّهي عن خذلان المسلم.

❁ وأمَّا قوله: ((وَلَا يَكْذِبُهُ)) وهذه لم نتكلَّم عنها لأنَّها ليست موجودة في أكثر النُّسخ، وأيضًا ليست في النُّسخ الموجودة في صحيح مسلم، فقوله هنا: ((وَلَا يَكْذِبُهُ)) أي لا يتعامل معه إلَّا بموجب الصِّدق.

_ وكذلك نهى عن احتقاره وبيَّن أنَّ التَّقوى في القلب وأنَّ هذا محلُّها الَّذي تُترجمه الأعمال.

[614] انقطاع يسير في الصَّوت.

_ ونهى عن احتقار المسلم وجعل احتقاره من أعظم الذُّنوب فيما بينه وبين أخيه المسلم.

_ ونهى عن انتهاك الدَّم والمال والعرض.

۞ الحديث السادس والثلاثون ۞

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ.

وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَه.

وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِهَذَا اللَّفْظِ

وهذا الحديث قال المصنِّف -رحمه الله-:[رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِهَذَا اللَّفْظِ] وقد تكلَّم في هذا الحديث بعض الحُفَّاظ وأعلُّوه؛ ومنهم التِّرمذي والدّارقطني، ومال إلى إعلاله الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-.

وهذا الحديث حديثٌ عظيم، جليل القدر، كثيرُ الفوائد، وهو أيضًا له ارتباطٌ بالحديث الَّذي قبله؛ فإنَّه لمَّا ذكر الأُمور المنهي عنها في معاملات المسلمين ذكر الأمورَ الَّتي يُندب فعلها أو يُؤمر بفعلها تُجاه المسلمين، فذاك الحديث في المناهي، وهذا الحديث في الأوامر والفضائل.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً)) التَّنفيس معناه التَّوسعة، بمعنى أنَّه يجد أخاه المسلم في ضيقٍ وضنك فيسعى في توسيع ذلك الأمر عليه، أو يرى أنَّه قد ثقُلت عليه الأمور فيسعى في تخفيفها، فالتَّنفيس من التَّوسيع أو من التَّخفيف.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كُرْبَةً)) الكربة هي الشِّدَّة العظيمة الَّتي يجد منها الإنسان مشقَّة، فلشدَّتها كأنَّها غطَّت مجاري النَّفس -كما يقول العلماء-، فصار الإنسان مكروبًا بها، فإذا سعى في تنفيس كُربة أخيه المسلم فإنَّه قد سعى في أمرٍ عظيم.

((كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا)) أكان عنده مرضٌ أم نزلت به ضائقة أم أثقلته الدُّيون -أو ما أشبه ذلك-.

قال: ((نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) وليست الكربة كالكربة، ولا الغمَّة كالغُمَّة، ولكنَّ الله قال في كتابه الكريم: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[615] فالعبد يُعامل إخوانه المسلمين بما يُحبّ أن يُعاملوه؛ فإذا نفَّس عن إخوانه المسلمين كربة نفَّس الله عنه كُرب الدُّنيا والآخرة.

قال: ((وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ)) تجد أخاك مُعسرًا في قضاء دينٍ أو كشف كُربة -أو ما أشبه ذلك- فتسعى في التَّيسير عليه، فإذا كان لك دَينٌ عنده؛ قد أعطيته دَينًا ولم يستطع القضاء فيسَّرت عليه ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾[616] أو سعيتَ في التَّيسير عليه عند مَن له الدَّين أو له الحاجة عنده، ما جزاؤك؟ قال: ((يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) فتتيسَّر الأمور، وكلُّ

[615] سورة الرحمن: 60
[616] سورة البقرة: 280

هذا جارٍ على قاعدة قوله تعالى:﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[617] فإنَّ هذه قاعدةٌ عظيمة، ينبغي للمسلم أن يسعى في التَّيسير على المعسرين.

والتَّيسير له صُور: قد يكون بالصَّدقة، قد يكون بالهبة، قد يكون بالنُّظرة -أن تُنظره إذا كان صاحب دَيْنٍ لك-، وذكر الفاكهاني هذا كلَّه وأضاف عليه؛ قال: (وَلَا يَبْعدُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ التَّيْسِيرُ بِالْعِلْمِ)[618] وهذا كلُّه من التَّيسير.

✽ المهمّ أنَّ كلَّ ما كان تيسيرًا للمسلم وإذهابًا للضَّائقة النَّازلة به فإنَّ الله ييسِّر للعبد أمور دنياه وأُخراه، نعم ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[619]، والرَّب -تبارك وتعالى- هو الكريم، وكما قال نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ؛ يَرْحَمكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**))[620] فإذا يسَّرت على أخيك المُسلم -وأنتِ أيَّتُها المسلمة يسَّرتِ على أختكِ المسلمة- فإنَّ هذا من تيسير الله -تبارك وتعالى-.

قال: ((وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)) بمعنى أنَّ العبد إذا كان وقع منه زلل أو خطأ فسترت عليه فإنَّ الله -تبارك وتعالى- يسترك.

✽ لكن هذا الأمر فيه تفصيل لأنَّ المراد بهذا: ستر ذوي الهيئات لأنَّ النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ**))[621] -والحديث حسن-، ولهذا قال طائفة من أهل العلم بأنَّه:

_ إذا كان المسلم من ذوي الهيئات والإحسان والصَّلاح والبرّ إلَّا أنَّها زلَّت به قدمه ووقع في شيء من المعاصي أو في شيء من المخالفة فإنَّه يُستر مع مناصحته.

_ أمَّا إذا كان من أهل الفجور وإظهار المعاصي والتَّبجُّح بها فإنَّ مثل هذا لا يُستر بل يُرفع أمره إلى السُّلطان حتَّى يَأخذ الحقّ الشَّرعي منه.

---

617 سورة الرحمن: 60

618 "المنهج المبين" للفاكهاني رحمه الله، ص516.

619 سورة الرحمن: 60

620 صحَّحه الألباني رحمه الله في "تخريج مشكاة المصابيح".

621 حسَّنه الألباني رحمه الله في "تخريج مشكاة المصابيح".

وبهذا القول -أنَّ المراد به أصحاب الهيئات يعني النَّاس الوجهاء الَّذين الغالب فيهم الصَّلاح- بهذا القول أو بهذا جزم النَّووي وابن حزم وابن رجب وكذلك العلَّامة ابن عثيمين -عليهم رحمة الله-؛ ولهذا يقول النَّووي: (أَمَّا السَّتْرُ الْمَنْدُوبُ إِلَيْهِ هُنَا: فَالْمُرَاد بِهِ السَّتْرُ عَلَى ذَوِي الْهَيْئَاتِ وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ لَيْسَ هُوَ مَعْرُوفًا بِالْأَذَى وَالْفَسَاد، فَأَمَّا الْمَعْرُوفُ بِذَلِكَ فَيُسْتَحَبُّ أَن لَا يُسْتَرَ عَلَيْهِ، بَلْ تُرْفَع قَضِيَّته إِلَى وَلِيِّ الْأَمْر)[622] وهذا أمرٌ واضحٌ وظاهر، لأنَّ فساده يستجري في النَّاس.

فالشَّاهد من هذا أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ندب إلى ستر المسلم إذا لم يستر نفسه هو، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يقول: ((**اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ الَّتِي نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْهَا، فَمَنْ أَلَمَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صفحَتَهُ، نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ**))[623] كما في حديث ابن عمر عند أبي يعلى في رجم الأسلمي.
الشَّاهد من هذا أنَّ المسلم يسعى في ستر أخيه المسلم، فإذا ترجَّحت المصلحة إلى أنَّ ستره أفضل وأبعد عن الفساد والشَّرّ فإنَّه يستر عليه مع مناصحته وبيان الحقِّ له وخطورة ما هو عليه.

ثمَّ قال عليه الصَّلاة والسَّلام بكلمة جامعة لكلِّ ما تقدَّم: ((وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)).

❁ ونبَّه الشَّيخ ابن العثيمين -عليه رحمة الله- على غلطٍ وقع في الرِّواية من أنَّ بعض النَّاس أو العوام يقولون: (مادام العبدُ في عون أخيه) لأنَّك إذا قلتَ: (مادام العبد في عون أخيه) صار عونُ الله لا يتحقَّق إلَّا عند دوام عون الأخ، وهذا تنبيه لطيفٌ من الشَّيخ ابن العثيمين -عليه رحمة الله- في شرحه للأربعين[624].

622 "شرح صحيح مسلم" ج16، ص135.
623 صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"، من طريق ابن عمر رضي الله عنهما.
624 "شرح الأربعين النووية" لابن عثيمين رحمه الله، ص386.

الشَّاهد من هذا أنَّ أمره عليه الصَّلاة والسَّلام بإعانة أخيه المسلم هذا أعمّ ممَّا تقدَّم ((وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)) لأنَّ العون أعمّ من السِّتر والتَّنفيس وكشف الكربات -وما أشبه ذلك-، والله -جلَّ وعلا- قال في كتابه الكريم:﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[625] فإذا أعان المسلم أخاه أعانه الله -جلَّ وعلا- ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[626] تأمَّل في هذا.

قال بعد ذلك في بيان فضل العلم وأهميته وطلبه والجلوس له وخصوصًا على مُدارسة كتاب الله وما يخدم كتاب الله من العلوم فإنَّ هذا أيضًا من الأمور المطلوبة؛ فقال: ((وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)) وطريقًا في الموضعين نُكِّرا وسُبِقا باسم الشَّرط، والنَّكرة في سياق الشَّرط تعُم، فكلُّ طريق تلتمسه لطلب العلم وتحصيله وأخذه والاستفادة من العلم فإنَّك داخلٌ بإذن الله تعالى في هذا الحديث؛ أكان بالجلوس وجثي الرُّكَب عند الشُّيوخ والعلماء، أو كان بالبحث، أو كان بالحفظ، أو كان بشراء الكتب، أو كان بسماع الدُّروس عبر المسجّلات والأشرطة -أو ما أشبه ذلك- ممَّا استُحدث من وسائل التِّقنية الحديثة كهذه الغُرف وهذه المواقع، تحضر المجلس، تحضر الدَّرس، وتُقيِّد الفوائد، وتستفيد، وتتعلَّم، فإنَّ هذا من طريق العلم، فليس العلم محصورًا بطريقٍ واحد لا يخرج عنه بل كلّ ما أدَّى إلى العلم من الوسائل المشروعة الصَّحيحة فإنَّه مؤدٍّ للغرض، لا أن يستحدث النَّاس بدعًا ممَّا يُسمُّونه بالأناشيد أو بالتَّمثيليات أو بالمسرحيات أو بالفن الإسلامي -أو ما أشبه ذلك- ثمَّ يقولون: (هذا من طريق العلم) أو (من طريق الدَّعوة) لا؛ بل هذا من الصَّد عن الدَّعوة إلى الله -جلَّ جلاله-.

فقوله عليه الصَّلاة السَّلام: ((وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا)) هذا شاملٌ لكلِّ طريق مشروع لطلب العلم: الرِّحلة في طلب العلم، الحفظ، التَّفقُّه، تعلُّم الوسائل، تعلُّم المقاصد، كلّ هذا من طُرق العلم؛ فإذا سلكتَ طريقًا لطلب العلم سهَّل الله لك به طريقا إلى الجنَّة.

وقد لا تتعب في هذا الطَّريق -كما هو معلوم- الَّذي يجلس أمام هذه الوسائل -وسائل التِّقنية- لأنَّه لا يستطيع الرِّحلة إلى أهل العلم وإلى بين يدي الشُّيوخ ليتعلَّم منهم فإنَّ هذا

[625] سورة المائدة: 2
[626] سورة الرحمن: 60

مأجور مع أنَّه يكون في المكيّفات وفي الجوِّ البارد لكنَّه مأجور، فضلُ الله يُؤتيه من يشاء، فلاتُضيِّع هذه النِّعمة ولا تُهمل هذه النِّعمة.

((سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)) فيُسهِّل الله له الطَّريق إلى الجنَّة.

((وَمَا اجْتَمَعَ قَومٌ)) أيُّ قوم: من عرب أو عجم، من شرفاء أو غير شرفاء؛ لأنَّ العِلم مُشاع، ليس محصورًا على أحدٍ من النَّاس كما يظنُّه بعض النَّاس من أنَّه محصور على الأشراف -أو ما أشبه ذلك-، لا؛ العلم مُشاع بين النَّاس، انظروا إلى تراجم علماء الأُمَّة فإنَّ كثيرين منهم ليسوا عربًا، مِن الموالي -من الأئمَّة المحدِّثين والفقهاء والقُرَّاء-، الشَّاطبي يقول في "الشَّاطبية":

وَأَمَّا الإِمَامُ الْمَازِنِيُّ صَرِيحُهُمْ ... أَبُو عَمْرٍو الْبَصْرِي فَوَالِدُهُ الْعَلَا

(صَرِيحُهُمْ) يعني أنَّه العربيّ من هؤلاء، ثمَّ قال بعد ذلك:

أَبُو عَمْرِهِمْ والْيَحْصبِيُّ ابْنُ عَامِرٍ ... صَرِيحٌ وَبَاقِيهِمْ أَحَاطَ بِهِ الْوَلَا

أنَّهم ليسوا من العرب -سبحان الله-، اليحصبي وأبو عمرو البصري هم العرب من القُرَّاء والرُّواة، والباقين من الأعاجم.

فقومٌ جلسوا للعلم وجلسوا لطلبه وتحصيله هذه نعمةٌ، نعمةٌ عظيمةٌ، وكما يُنسب إلى عليّ رضي الله عنه:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُم آدَم وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ

((وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ)) في مسجدٍ -أو ما أشبهه-، ((يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ)) العلَّة دائرة مع تلاوة كِتاب الله، لكن لمَّا كان الغالب أن يُتلى في بيوتِ الله -في المساجد- فإنَّه ذُكر، وإلَّا فإنَّ أقوامًا لو ما وجدوا مسجدًا، جلسوا في بيت أحدهم، في تحت شجرةٍ، في وادٍ، يتدارسون كتاب الله فإنَّ هذا الفضل يعمّهم.

((يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ)) بمدارسته والتَّفقه فيه.

((إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ)) السَّكينة، الطمأنينة، والرَّاحة، والدَّعة، وتعرفون قصة الصَّحابي الَّذي كان يقرأ القرآن فتنزَّلتِ السَّكينة لقراءته، فهي انشراح صدر وهناءةُ بالٍ.

((وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ)) تغشاهم الرَّحمة من الله -تبارك وتعالى-.

((وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ)) تحفُّهم، وتلتمس مجالسهم، وتفرح بهم، وتطوف بهم -سبحان ربِّي العظيم- النَّاس يُجالسون أهل الشَّرّ والفسوق ويبحثون عن أماكنهم، وأنتَ تُجالس ملائكة الله، وليست فقط تُجالسك بل تحفُّك.

قال: ((وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَه)) أثنى عليهم، وذَكَرهُم، وبيَّن فَضْلَهم؛ ما أجلسهم؟ ماذا يُريدون؟ -كما في الأحاديث الأُخرى-، فيذكرهم الله فيمن عنده.

وهنا قال بعد ذلك: ((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)) إذَا كان العمل قليلًا وبطَّأ بك السَّير ولم ينفعك العمل فإنَّ النَّسب والوجاهة والشَّرف لا تنفعك، كما ذكرتُ لكم ذلك الأبيات الَّتي جاءت عن عليّ رضي الله عنه وكما ذكرنا في القرَّاء السَّبعة؛ هذا بالنِّسبة لأصحاب القراءات أمَّا إذا ذكرت في المحدِّثين فلا تسأل عن هذا أبدًا، وكان في ذهني قصَّة لأحد الأُمراء وكنتُ أريد أن أذكرها -لكن على كلِّ حالٍ قد أُنسيت أصحاب أحداثها-: أنَّ أحد الأمراء كان يُجالس أهل العلم فدخل عليه أحدهم -من العلماء- فقال: (مَنْ سَيِّدُ الْبَصْرَةِ؟) (مَنْ سَيِّدُ الْعِرَاقِ؟) (مَنْ سَيِّدُ بَغْدَاد؟) فكان يقول له: (فُلَان بْن فُلَان) فقال: (مِنْ مَنْ؟) قال: (مَوْلى) (مَوْلى) (مَوْلى) فيذكر له مولى، والرَّجل يتمعَّر وجهه ويغضب -الأمير هذا-، حتَّى كان في آخرها قال: (فُلَان) قال: (مِنْ أَيْنَ؟) قال: (مِنَ الْعَرَبِ) فاستراح قليلًا.
انظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه في حديث نافع بن الحارث أنَّه لقيَ عمر بعُسفان وكان واليًا على مكَّة فقال: (مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى؛ قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟) عمر يعرف العرب ويعلم أفخاذهم وقبائهم، (وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا؛ قَالَ:

فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ) يعني على مكَّة (مَوْلًى!) فقال نافع بن الحارث: (إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ) -انظر إلى العلم-، فقال عمر رضي الله عنه: (أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»)[627] خلاص انتهى، كلُّ ما في الماضي ذهب، فالنَّسب في معزل عن العلم لا ينفع وإلَّا لنفع أبا لهب وأبا طالب -أعمام النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام-.

فالله الله في الحرص على العلم وتحصيله.

وهذا الحديث أيضًا حديثٌ كثير الفوائد غزير المعاني، وقد خرَّجه مسلم في صحيحه، وكثير من العلماء يجنح إلى ترجيح قول مسلم -عليه رحمة الله-.

627 رواه مسلم.

۞ الحديث السابع والثلاثون ۞

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عَنْهُما، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ ربِّهِ -تَبَارَكَ وتَعَالَى- قَالَ:

«إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَها اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً.

وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً.

وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

هذا الحديث من الأحاديث العظيمة الَّتي تتعلَّق برعاية النَّفس وتهذيبها وإصلاح مقاصدها، فإنَّ العبد لابدَّ له من الْتِفاتٍ إلى باطنه لينظر فيه وما حلَّ فيه ووقع، فإنَّ باطن المرء هو حقيقته وبه صلاحه -كما مرَّ معنا ذلك مرارًا-.

وهذا الحديث من حديث ابن عبَّاس:[عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ ربِّهِ -تَبَارَكَ وتَعَالَى- قَالَ] يعني النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يروي عن ربِّه -تبارك وتعالى- أنَّه -جلَّ وعلا-: ((كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) يعني أنَّ الله -تبارك وتعالى- كتب الحسنات والسَّيِّئات

في اللَّوح المحفوظ وكذلك كتبها على المولود في بطن أُمِّه كما مرَّ معنا في حديث ابن مسعود الَّذي خرَّجه الشَّيخان في صحيحيهما وذكره المصنِّف -رحمه الله تعالى- هاهنا.

فالله قد قدَّر الحسنات وقدَّر السَّيِّئات وأقدر العباد على الفعل والتَّرك، وهو -جلَّ وعلا- لا يُعاقبهم بعلمه فيهم وإنَّما يُعاقبهم -تبارك وتعالى- بأعمالهم، ذلك بأنَّ قاعدة الشَّرع والجزاء أنَّ الله سبحانه لا يُعاقب العباد بما سيعلم أنَّهم يفعلونه بل لا يُعاقبهم إلَّا بعد فعلهم ما يعلمون أنَّه نهى عنه، هذا مُحصَّل ما ذكره الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- في "أحكام أهل الذِّمَّة" وهي قاعدةٌ جليلة عظيمة -قاعدة الشَّرع والجزاء- أنَّ الله سبحانه لا يُعاقب العباد بما سيعلم أنَّهم يفعلونه بل لا يُعاقبهم إلَّا بعد فعلهم بما يعلمون أنَّه نهى عنه.
فالله لا يُعاقب بالعلم السَّابق؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- عَلِم الأشياء قبل حصولها وكتبها في اللَّوح المحفوظ، فكتب الحسنات وكتب السَّيِّئات إلَّا أنَّ العقوبة لا تقع إلَّا على الفعل والَّذي هو العزم التَّامُّ على الفعل -كما نستقبل ذلك إن شاء الله-.

((كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ)) يعني أنَّه -جلَّ وعلا- بيَّن الحسنات وبيَّن السَّيِّئات وكلُّ هذا -كما هو معلومٌ- مُبيَّنٌ في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فالشَّرع كلُّه بيِّنٌ وواضحٌ، وقد مرَّ معنا في حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ)) فالحسنات بيِّنة، والسَّيِّئاتُ بيِّنة، وكذلك مرَّ معنا في حديث أبي ثعلبة الخشني: ((إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا)).

قال: ((ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً)) هذه المرتبة هي مرتبة الهمّ، وكيف نعرف الهمّ؟ وكيف نعرف مراتب وقصد النِّيَّات؟ لأنَّ القاعدة عند العلماء -رحمهم الله- أنَّ العزم التَّام إذا اقترن به ما يُمكن من الفعل أو مقدِّمات الفعل نُزِّل صاحبه في الثَّواب والعقاب منزلة الفاعل التَّامّ، هذا ما يتعلَّق بالعزم، وهذا ما قرَّره الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- في كتابه "طريق الهجرَتين" قد ذكر هذه القاعدة -أو ذكر هذا الضَّابط-، وقبله شيخه شيخ الإسلام أبو العبَّاس ابن تيمية يقول: (أَنَّ الْأَحَادِيثَ الَّتِي بِهَا

التَّفْرِيق بَيْنَ الْهَامّ وَالْعَامِلِ وَأَمْثَالِهَا، إِنَّمَا هِيَ فِيمَا دُونَ الإِرَادَة الْجَازِمَةِ الَّتِي لَابُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهَا الْفِعْل، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي رَجَاء الْعُطَارِدِيّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[628] -وذكر هذا الحديث- (فَهَذَا التَّقْسِيمُ هُوَ فِي رَجُلٍ يُمْكِنُهُ الْفِعْلُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «**فَعَمِلَهَا**»، «**فَلَمْ يَعْمَلْهَا**» وَمَنْ أَمْكَنَهُ الْفِعْلُ فَلَمْ يَفْعَلْ؛ لَمْ تَكُنْ إرَادَتُهُ جَازِمَة، فَإِنَّ الإِرَادَةَ الْجَازِمَةَ مَعَ الْقُدْرَةِ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْفِعْلِ)[629].

فالهمُّ الَّذي يهمُّ به الإنسان إذا كان عازمًا إذا وصل به إلى العزم إلَّا أنَّه امتنع عن الفعل من جرَّاء نفسه هو -يعني من جهته هو- فإنَّه في باب السَّيِّئات لا يُؤثم على ذلك، أمَّا إذا كان يقصد إلى الفعل ويهمُّ به وسيترقى في مرتبة القصد والإرادة إلى أن يفعل إلَّا أنَّه حيل بينه وبين هذا الفعل بعارضٍ فإنَّ هذا لا يُؤجر على نيَّته.

* وهنا يذكر العلماء -رحمهم الله- مراتب القصد -يعني مراتب قصد الإنسان- كما نظمها بعضهم فقال:

مَرَاتِبُ الْقَصْدِ خَمْسٌ: هَاجِسٌ ذَكَرُوا ... فَخَاطِرٌ، فَحَدِيثُ النَّفْسِ فَاسْتَمِعَا
يَلِيهِ هَمٌّ فَعَزْمٌ كُلُّهَا رُفِعَتْ ... سِوَى الأَخِيرِ فَفِيهِ الأَخْذُ قَدْ وَقَعَا

_ فـ (الخاطر) اسمٌ لما يخطر ببال الإنسان ولكنَّه لا يكون مُستقرًّا في الباطن.
_ فإن استقرَّ في الباطن يقال له (الهاجس).
_ وإذا استقرَّ في الباطن إلَّا أنَّه لم يخرج ولم يُعبِّر عنه ولم يُترجمه لقولٍ أو فعل ولم يترجَّح أحد جانبي الفعل أو التَّرك عند هذا الإنسان فهذا يُقال له: (حديث النَّفس).
_ فإذا ترجَّح عنده وتردَّدت فيه النَّفس فهذا هو (الهمّ) ترجَّح عنده الفعل -فعل الحسنة أو فعل السَّيِّئة- فهذا يُسمَّى: (الهمّ).
_ وإن أجمع على الفعل أو القول فهذا هو (العزم).

والعلماء يقولون بأنَّ الإجماع منعقدٌ على أنَّ ما قبل الهمّ -وهو الخاطر والهاجس وحديث النَّفس- معفوٌّ عن الإنسان فيها؛ ويدلُّ على هذا ما في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رضي

[628] "مجموع فتاوى ابن تيمية" ج10، ص411.
[629] "مجموع فتاوى ابن تيمية" ج10، ص412.

الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**إِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا**)) أو قال: ((**أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ**))[630] فإذَا علِمْتَ هذا؛ عَلِمْتَ أنَّ الهمّ مرتبة حرجة وخطرة إذا لم يتدارك الإنسان فيها نفسه لأنَّها تصل به إلى باب العزم على الفعل.

وهذه الإرادة أو القصد الَّذي يقع للإنسان من أحسن من تكلَّم عنها: السُّبُكي أو السُّبْكي في "قضاء الإرب" تكلَّم على هذه المراتب وعلى ما يتعلَّق بها وحكى الإجماع على أنَّ الهاجس والخاطر وحديث النَّفس لا تكليف بها ولا يقع على الإنسان فيها شيءٌ، لكن الشَّأن في الهمِّ والعزم؛ فإذا همَّ بالحسنة ولم يفعلها بعارضٍ كُتبت له حسنة، وإذا همَّ بالسَّيِّئة إن تركها لله كُتبت له حسنة، وإن تركها لغير الله لم تكتب عليه سيِّئة ولا حسنة، هذا ما قرَّره الحافظ ابن القيِّم وغيره، وقبله شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- استدلالًا بهذا الحديث.

❁ والعزم -كما ذكر السُّبكي والحافظ وغيرهم- له حالتان:

_ العزم على عملٍ من أعمال القلوب كالإيمان أو الكفر، وهذا لا خلاف في جريان التَّكليف به ثوابًا وعقابًا، أعمال القلوب الَّتي يُحدِّث بها الإنسان نفسه ولا تُترجم إلَّا بالقلب، لا تُعمل إلَّا بالقلب، لا تُقال إلَّا بالقلب، هذه لا خلاف بين أهل العلم أنَّه مُؤاخذٌ عليها.

_ والحالة الثَّانية: أن يعزم على عملٍ من أعمال الجوارح -من كبائر وغيرها- كالزِّنا -عياذًا بالله- والسَّرقة، وهذا الَّذي وقع فيه الخلاف بين العلماء -رحمهم الله-:

- فمن أهل العلم من يقول بالمؤاخذة بذلك مُطلقًا، وهذا القول مرويٌّ عن سفيان الثَّوري -رحمه الله- وابن الجوزي من الحنابلة وأبي العبَّاس القرطبي شارح مسلم صاحب "المُفهم" من المالكية، وكذلك أبو عبدالله تلميذه القُرطبي صاحب التَّفسير، والقاضي عياض أيضًا من المالكيَّة نسب هذا القول إلى عامَّة السَّلف من المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين، وهذا القول ذكر الحافظ ابن رجب أنَّ أكثر الحنابلة يقولون به.
- والقول الثَّاني: عدم المؤاخذة به، وهذا منسوبٌ إلى الإمام الشَّافعي وبه قال الإمام المازني من المالكيَّة وابن حامد من الحنابلة.

630 متَّفقٌ عليه؛ واللفظ لمسلم.

• والقول الثَّالث: عدم المؤاخذة به إلَّا أن يعزم على ارتكاب المنهيِّ عنه في الحرم فيُؤاخذ به، وهذا قول ابن مسعود؛ محكيٌّ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

❀ والقول الأوَّل هو الَّذي رجَّحه المحقِّقون وهو قول أئمَّة السَّلف، فإذا عزم على الفعل فإنَّه مؤاخذ به، ولهذا يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-؛ -وهذا الحديث حديثٌ مهمٌّ وقلَّ ما أُعطيَ حقَّه من الشَّرح في هذا المتن أو نحوه ونحن نُحاول أن نُجمل هذا الأمر- يقول شيخ الإسلام: (الإِرَادَةُ الْجَازِمَةُ هي الَّتِي يَقْتَرِنُ بِهَا الْمَقْدُورُ مِنَ الفِعْلِ، وَإِلَّا فَمَتَى لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا الْمَقْدُورُ مِنَ الْفِعْلِ لَمْ تَكُنْ جَازِمَةً، فَالْمُرِيدُ الزِّنَا وَالسَّرِقَة وَشُرْبَ الْخَمْرِ الْعَازِمِ عَلَى ذَلِكَ مَتَى كَانَتْ إِرَادَتُهُ جَازِمَةً عَازِمَةً فَلَابُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهَا مِنَ الْفِعْلِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّهُ يُقَرِّبُهُ إِلَى جِهَةِ الْمَعْصِيَةِ، مِثْلَ تَقَرُّبِ السَّارِقِ إِلَى مَكَانِ الْمَالِ الْمَسْرُوقِ، وَمِثْلُ نَظَرِ الزَّانِي وَاسْتِمَاعُهُ إِلَى الْمَزْنِيِّ بِهِ، وَتَكَلُّمِهِ مَعَهُ، وَمِثْل طَلَبِ الْخَمْرِ وَالْتِمَاسِهَا وَنَحْو ذَلِكَ، فَلَابُدَّ مَعَ الإِرَادَةِ الْجَازِمَةِ مِنْ شَيْءٍ مِنْ مُقَدِّمَاتِ الْفِعْلِ الْمَقْدُورِ)[631] هكذا يقول شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-، وهذا له كلامٌ أيضًا آخر كثير لا حاجة لذكر أكثره لأنَّ ما ذكرناه مؤدٍّ للغرض.

وهذا الحديث -كما سمعتم- حديث عظيم جليل القدر في أعمال العباد ومقاصدهم ونيَّاتهم؛ وهنا قال: ((وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ)) ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[632]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾[633] ((إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ)).

((وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً)) إذا تركها من جرَّاء الرَّب -تبارك وتعالى-.

((وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً)) الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسَّيِّئة ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[634]، وهذا فضل الله يُؤتيه من يشاء سُبحانه.

---

[631] "مجموع فتاوى ابن تيمية" ج10، ص415.
[632] سورة البقرة: 261
[633] سورة الجمعة: 4
[634] سورة الشورى: 40

وعرفنا ممَّا سبق أنَّ الهمَّ ترجيح الفعل، ولكن مُنع منه بسبب أنَّه لم يقدر عليه، فيُنتبه لهذا فإنَّه أمرٌ مهمٌّ في فهم هذا الحديث.

وهذا الحديث فيما يظهر ليس فيه ما يحتاج إلى بيان من جهة المفردات لأنَّ المفردات فيه ظاهرة وواضحةٌ.

۞ والحديث هذا فيه فوائد عظيمة جليلة:

_ فيه: رعاية النَّفس، ورعاية مقاصدها، والاهتمام بها، وعدم الاسترسال في خواطرها، وهواجسها، وحديثها، فإنَّها إمَّا أن تُفضي به إلى الوسوسة وإمَّا أن تُفضي به إلى الفعل.

_ ومن فوائده: [فضل الله -عزَّ وجلَّ-][635] على عباده وإحسانه إليهم فإنَّه جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف -كما في آياتٍ كثيرة في القرآن-، وأمَّا السَّيِّئة فبمثلها -فإنَّه يُجازي بمثلها-.

_ ومن الفوائد أيضًا: أنَّ الله -تبارك وتعالى- قدَّر مقادير العباد، وأنَّه قد سبق في علمه وفي كتابه ما هم عاملون، ولا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم.

_ ومنها: أنَّ العبد ينبغي له أن يكون همَّامًا للحسنات وطالبًا لفعلها؛ فإنَّ هذا من كماله وصلاحه في الدُّنيا والآخرة.

_ ومن الفوائد أيضًا: أنَّ العبد تُكتب له حسناته، وتُكتب عليه سيِّئاته، فيتنبَّه لما يُكتب عنه، فإنَّ الرَّب -جلَّ وعلا- قال:﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[636].

[635] الجملة من إضافتي بسبب انقطاع في الصَّوت.

[636] سورة ق: 18

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّه مُتضـمِّنٌ للـرَّدِّ على المعتزلـة في أصـلٍ مـن أصـولهم الخمسة وهو إنفاذ الوعيد.

_ ومنها: أنَّ رحمة الله وفضله غلبت عدله وغضبه -جلَّ وعلا-.

_ ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّ العبد وإن لم يستطع فعل بعض الحسنات فإنَّه ينبغي له أن يحدِّث بها نفسه، كما جاء في صحيح مسلم أنَّ النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((مَـنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ))**[637].

فينبغي للمسلم أن يكون حريصًا مُحافظًا على هذه المراتب، وعلى هذه الأعمال، وعلى معرفة قصده ونيَّته.

637 رواه مسلم، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ الحديث الثامن والثلاثون ۞

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ:

«مَنْ عَادَى لِي وليًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ.

وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

وهذا الحديث ممَّا انفرد به البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه عن الإمام مسلم.

وقد اعتنى به العلماء اعتناءً كبيرًا وأَوْلَوهُ اهتمامًا بالغًا، وصنَّفوا في شرحه مصنَّفات مستقلَّة؛ مِن أوسعها وأشهرها كتاب "قطر الولي" للعلَّامة الشَّوكاني -عليه رحمة الله- فإنَّه قد شرح هذا الحديث في هذا الكتاب، وهو مطبوعٌ في مجلَّد.

وهذا الحديث تعرَّض له بعض أهل العلم إمَّا من جهة الاستغراب في متنه، أو من جهة الإشارة إلى نوع كلامٍ في سنده من جهة أنَّ راويه خالد بن مَخلد القطواني، وقد أخرجه البخاريّ في صحيحه، والَّذين تعرَّضوه للحديث ليتهم استعملوا ورع الحافظ الذَّهبي لمَّا ذكر في "الميزان" خالد بن مخلد القطواني وذكر هذا الحديث قال: (وَلَوْلَا مَهَابَةُ الصَّحِيحِ) أو قال: (هَـذَا حَـدِيثٌ

غَرِيبٌ جِدًّا، لَوْلَا هَيْبَةُ الْجَامِعِ الصَّحِيحِ لَعَدُّوهُ فِي مُنْكَرَاتِ خَالِدِ بْنِ مَخْلَدٍ، وَذَلِكَ لِغَرَابَةِ لَفْظِهِ)[638] لكنَّ الذَّهبي -رحمه الله- لم يُسلِّم بهذه العلَّة لأنَّه قال: (لَوْلَا هَيْبَةُ الْجَامِعِ الصَّحِيحِ).

وهذا الحديث حديثٌ عظيم -كما ذكرنا آنفًا- جليل القدر، ولا غرابة في متنه لمن تصوَّر المعنى الصَّحيح له وعَرَضَه على نصوص الكتاب والسُّنَّة ولم يأخذه من طرفٍ خفيٍّ في باب المتشابهات؛ وأعني بهذا من تعرَّض لهذا الحديث من أهل الأهواء والبدع إمَّا في باب إثباته والمغالاة في إثباته حتَّى جعلوه دليلًا لهم على الحلول والاتِّحاد ووحدة الوجود وظنُّوا أنَّ هذا الحديث يُؤيِّدهم، ولا شكَّ في بُطلان هذا لمن عقل عن الله كلامه وعظَّم الله -جلَّ وعلا- ونزَّهه ووحَّده التَّوحيد الَّذي وحَّده به أتباع الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام.

❀ وهذا الحديث من الأحاديث القدسيَّة وقد ذكرنا أنَّ الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله -تبارك وتعالى-، هذا قول أهل السُّنَّة الَّذي لا ينبغي أن يكون فيه اختلافٌ ولا يجوز مخالفته، ومن قال غير ذلك من أهل السُّنَّة فإنَّه لم يتأمَّل في مرجع القول الَّذي قاله وهو أنَّ الحديث لفظه من النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام ومعناه من الله فإنَّ مأخذ هذا القول راجعٌ إلى قول الأشاعرة الَّذين يقولون بالكلام النَّفسي وينفون أنَّ الله -تبارك وتعالى- يتكلَّم على الحقيقة، فتنبَّه لهذا، وقد ذكرنا هذا عند كلامنا على حديث أبي ذرٍّ: ((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي)).

وهنا قال: ((إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)) يعني أعلنتُه بالحرب، وهذا معنى: ((فَقَدْ آذَنْتُهُ)) يعني أعلنته، فالله -جلَّ وعلا- قال في كتابه الكريم: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ -في الرِّبا والمرابين قال-: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[639].

[638] "ميزان الاعتدال" للذهبي رحمه الله، ج1، ص641.
[639] سورة البقرة: 279

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام عن ربِّه: ((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ)) فيه إثبات صفة المحبَّة للرَّب -تبارك وتعالى-، وفيه أنَّ أفضل ما تقرَّب به المتقرِّبون إلى الله -جلَّ وعلا- ما افترضه عليهم؛ وهي الواجبات على تفاوت مراتبها ورُتبها -كفروض الأعيان وفروض الكفاية-.

وقوله هنا: ((أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا)) (من) هذه الواقعة في محل جر هي الموصولة، يعني: مِن الَّذي افترضته عليه.

((وَمَا يَزَالُ)) وهذا الفعل المضارع المفيد للاستمرار، لأنَّ الأفعال المضارعة تختلف عن الأسماء بأنَّها تشرف في أماكن مهمَّة تنحل عن مصدر وزمان، يعني تدلُّ عن مصدر وزمان، تدلُّ على الاستمرار والشُّعور به: ((وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي))[640] إلى غير ذلك من الأحاديث.

هنا قال: ((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ)) بمعنى أنَّه يُداوم عليها ويُحافظ عليها.

❁ والنَّوافل: كلمةٌ جامعة لكلِّ مازاد عن الفرائض، فليست مُقتصرة على نوافل الصَّلوات، فإنَّ الله ما فرض فريضة من الفرائض -وعلى الخصوص أركان الإسلام- إلَّا وجعل لها من جنسها نوافل، فالصَّلاة نوافلها من جنسها الصَّلوات الَّتي تكون قبل الصَّلاة وبعدها، والصِّيام من جنسه صيام التَّطوُّع -من صيام السِّت من شوَّال والأيَّام البيض وما أشبه ذلك-، وكذلك الحجّ من جنسه الحج كمثله، وكذلك العُمرة من جنسها العمرة، وكذلك الزَّكاة من جنسها الصَّدقة، فالعبد يحرص على هذا الباب.

قال: ((حَتَّى أُحِبَّهُ)) وهذا أيضًا فيه إثبات محبَّة الرَّب -تبارك وتعالى- لعبده لمقتضى فعله.

وهذا الحديث فيه الموجبات لمحبَّة الله -تبارك وتعالى-، الأسباب الموصلة إلى محبَّته.

[640] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

ثمَّ بيَّن الأثر والثَّمرة الَّتي تنتج عن محبَّته، ومن هنا ينبغي أن يكون عندك فُرقان في فهم هذا الحديث لأنَّ قوله: ((فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ)) دلَّ على مُحبٍّ ومحبوب، فمن أين يدخل الملاحدة والزَّنادقة الَّذين يقولون بوحدة الوجود أو بالحلول والاتِّحاد وأنَّ الله تبارك وتعالى -تعالى الله عمَّا يقول الظَّالمون علوًّا كبيرًا-: كخلقه في شيء من صفاته أو دخل في شيء منهم -من القائلين بالوحدة من الزَّنادقة-؟!

((فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ)) أثبت مُحبًّا ومحبوبًا، وأثبت بعد ذلك ما يتعلَّق بالآثار والثِّمار الحاصلة به، وأثبت أيضًا: سائل ومُعطي، ومُستعيذ ومُعيذ، -تأمَّل في هذا-.

قال: ((فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا)) فالله -تبارك وتعالى- يحفظ جوارحه من المحرَّمات، يُسدِّده للطَّاعات، وقال الحافظ ابن رجب: (الْمُرَادُ بِهَذَا الْكَلَامِ: أَنَّ مَنِ اجْتَهَدَ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ بِالْفَرَائِضِ، ثُمَّ بِالنَّوَافِلِ، قَرَّبَهُ إِلَيْهِ، وَرَقَّاهُ مِنْ دَرَجَةِ الْإِيمَانِ إِلَى دَرَجَةِ الْإِحْسَانِ، فَيَصِيرُ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى الْحُضُورِ وَالْمُرَاقَبَةِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَيَمْتَلِئُ قَلْبُهُ بِمَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّتِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَخَوْفِهِ، وَمَهَابَتِهِ، وَإِجْلَالِهِ، وَالْأُنْسِ بِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَصِيرَ هَذَا الَّذِي فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ مُشَاهَدًا لَهُ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ)[641] إلى أن قال: (وَلَا يَزَالُ هَذَا الَّذِي فِي قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ الْمُقَرَّبِينَ يَقْوَى حَتَّى تَمْتَلِئَ قُلُوبُهُمْ بِهِ، فَلَا يَبْقَى فِي قُلُوبِهِمْ غَيْرُهُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ جَوَارِحُهُمْ أَنْ تَنْبَعِثَ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ)[642] وهذا المعنى واضح وجليّ لمن تأمَّله؛ إذَا تأمَّلت قوله: ((وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)) علمت أنَّ هذا محض التَّوفيق، أنَّ الله -جلَّ جلاله- يُوفِّقه لهذه الأعمال الَّتي يعملها، فلا يسمع إلَّا بالله -تبارك وتعالى-، ولا يكون حضوره إلَّا حيث أراد الله ليسمع الخير، ولا يكون بصره إلَّا حيث أراد الله -جلَّ وعلا-.

641 "جامع العلوم والحكم" ص783.
642 "جامع العلوم والحكم" ص783.

وأمَّا بالنِّسبة لقوله: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا)) قد جاء عن الشَّافعي[643] وأبي حنيفة[644] أنَّهما قالا: (إِنْ لَمْ يَكُنْ الْعُلَمَاءُ هُمْ الأَوْلِيَاء فَلَيْسَ للهِ وَلِيٌّ) فتنبَّه لهذا؛ فإنَّ الله يحفظ جوارحه هذه المذكورة من أن تُواقع ما يُسخط الله.

✿ في هذا الحديث فوائد:

_ أعظمها وأجلُّها: أنَّ الله -تبارك وتعالى- وَصف الصِّفات الَّتي يتَّصف بها أولياؤُه من المحافظة على الفرائض بأدائها، والإكثار من النَّوافل، فإنَّ هذه الدَّرجة هي الَّتي تُنال بها المحبَّة، وهي الَّتي تُنال بها الوَلاية من الله -تبارك وتعالى-.

_ ومن فوائده: إثباتُ الوَلاية لله -عزَّ وجلَّ-، وأنَّ الله تعالى يتولَّى عباده.

_ ومن فوائده أيضًا: محبَّة الله لهؤلاء الأولياء ومُوالاتهم إلى معاداة من عاداهم لأنَّه قال: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)).

_ ومن فوائده أيضًا: تحريم إيذاء أولياء الله وعلى رأسهم: الأنبياء والملائكة والصَّالحين -من العلماء وغيرهم- ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[645]، وكما بيَّن الرَّب -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾[646]، وقال قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[647].

---

643 قَالَ الرَّبِيعُ: (قَالَ لِي الشَّافِعِيُّ: إِنْ لَمْ يَكُنِ الْفُقَهَاءُ الْعَامِلُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّه فَمَا للَّه وَلِيٌّ) ["سير أعلام النبلاء" ج10، ص53]

644 قال أَبُو حنيفة رحمهُ الله: (إِنْ لَمْ يَكُنْ الْعُلَمَاءُ أَوْلِيَاء اللهِ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ للهِ فِيهَا وَلِيّ) ["محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله، ص48]

645 سورة البقرة: 98

646 سورة الأحزاب: 69

647 سورة الأحزاب: 57

_ ومن فوائد الحديث: أنَّ العبد يحرص على ولاية مَن وَالَى الله، فيحرص على ولاية الأولياء؛ وليس الأولياء ما يعتقده الضُّلَّال والجُهَّال من أنَّه محصور في نسبٍ أو سبب أو فرقة أو طائفة -أو ما أشبه ذلك- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[648] مَن هُم؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[649].

_ ومن فوائد هذا الحديث: التَّفاضل والتَّرتيب بين الأعمال الَّتي يفعلها العباد، فإنَّ الفرض ليس كالنَّفل، والفرائض ليس بعضها كبعض، وهكذا.

_ ومنها: أنَّ الإنسان يحرص على أفعال الخير وعلى ملازمتها.

_ ومنها: أنَّ من شُكر نِعم الله تعالى بالجوارح أن تُعملها في طاعته، فإنَّه يبطش لله، ويسمع لله، ويمشي لله، ويعمل الأفعال يُريد بها الله -جلَّ وعلا-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الأعمال الصَّالحة الَّتي يعملها العبد من أسباب إجابة الدُّعاء لأنَّه قال: ((وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ))، ومن أسباب حصول المَعاذ، أن يُعاذ من جهة الرَّب -تبارك وتعالى- إذا عمل الصَّالحات فإنَّه قال في آخر الحديث: ((وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)).

وهذا الحديث أيضًا حديثٌ عظيمٌ، جليلُ القدر.

[648] سورة يونس: 62
[649] سورة يونس: 63

۞ الحديث التاسع والثلاثون ۞

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي: الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَالْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُمَا

وأيضًا الحديث صحَّحه ابن حبان والحاكم وابن عبد الهادي وابن حجر والعلَّامة الألباني -عليهم رحمة الله ومغفرته-، وأعلَّه بعض أهل العلم، والحديث له طُرق وله شواهد، والعمل على مضمونه ومعناه عند أهل العلم في الجُملة؛ إلَّا أنَّهم قد يختلفون في بعض المسائل المتعلِّقة به.

❀ وهذا الحديث ممَّا يُبيِّن سماحة هذه الشَّريعة ورحمة الله -تبارك وتعالى- بهذه الأُمَّة وتجاوزه عن الأُمَّة المسلمة ما لا تُطيقه، وأيضًا أنَّ الله -تبارك وتعالى- قد وضع عنهم الآصار والأغلال الَّتي كانت على الأُمم من قبلهم، ويدلُّ على هذا أدلَّةٌ كثيرة من القرآن والسُّنَّة فيما يتعلَّق بالخطأ وفيما يتعلَّق بالنِّسيان وفيما يتعلَّق بالإكراه، فكلُّ واحدٍ من هذه الثَّلاثة له -أو يُسانده- من الأدلَّة الشَّيء الكثير من الكتاب ومن السُّنَّة.

وقد دلَّ أيضًا على ضوابط فقهيَّة يستعملها العلماء -رحمهم الله تعالى-؛ عبَّر عنها العلَّامة ابن سعدي -رحمه الله- بقوله:

وَالْخَطَأُ وَالإِكْرَاهُ وَالنِّسْيَانُ ... أَسْقَطَهُ مَعْبُودُنَا الرَّحْمَنُ
لَكِنْ مَعَ الإِتْلَافِ يَثْبُتُ الْبَدَلْ ... وَيَنْتَفِي التَّأْثِيمُ عَنْهُ وَالزَّلَلْ

هذا ما قاله -عليه رحمة الله-، وكما ذكرنا كلُّ فردٍ من أفراد هذا الحديث وكلُّ مسألة من مسائله عليها أدلَّة كثيرة ولها صور أيضًا كثيرة -كما سيُذكر ذلك إن شاء الله تعالى لاحقًا-.

فأمَّا قوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي)) بمعنى أنَّ الرَّبَّ -تبارك وتعالى- قد صفح وعفا عن هذه الأشياء، فلا يُؤاخِذ الله العباد بها.

والمراد بـ: ((أُمَّتِي)) هنا -في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام-: أُمَّة الإجابة، لأنَّهم هم المرحومون، وهم المعنيُّون بهذه الأحكام.

* والأمَّة تُقسم قسمين:

_ أمَّة دعوة.

_ وأمَّة إجابة.

وقوله هنا: ((الْخَطَأَ)) معناه عدم قصد الفعل، إمَّا ابتداءً، أو أنَّه يقصد فعل شيءٍ فيفعل خلافه، بمعنى أنَّ الخطأ إمَّا أن يكون خطأ ابتدائيًا كما يقع ذلك في القتل وإمَّا أن يكون هذا الخطأ قد نتج عن تصرُّف هذا العبد فيقصد فعل شيء فيقع منه الشَّيء الآخر.

((وَالنِّسْيَانَ)) هو نوعٌ من الذُّهول، وبعض أهل العلم يُفرِّق بين السَّهو وبين النِّسيان، فإذا ذهل الإنسان عن الشَّيء فإنَّ ذلك يُسمَّى نسيانًا.

والنِّسيان قالوا يكون بعد الذِّكر -هذا الصَّواب في لفظها-، وبعضهم يقول: بعد الذِّكر، والصَّواب فيه أنَّ ما يُقابل النِّسيان هو الذُّكر، فقالوا إنَّ النِّسيان ما يُقابل الذُّكر، فإذا كان قد ذكر شيئًا ثمَّ وقع في الذُّهول عنه فإنَّ هذا يُسمَّى: نسيانًا.

والسَّهو هو نوعٌ أيضًا من النِّسيان، فإذا كان ذاكرًا لشيءٍ فنسيه عند الفعل فإنَّ هذا يُسمَّى نسيانًا.

هذا ما يتعلَّق بقوله: ((وَالنِّسْيَانَ)).

وأمَّا (الإكراه) فهو يتبيَّن ببيان قسميه، فإنَّ الإكراه إمَّا أن يكون مُلجئًا إلى الفعل أو التَّرك، وإمَّا أن يكون غير مُلجئٍ.

_ فالإكراه الملجئ هو الَّذي تتعلَّق به الأحكام.

_ وأمَّا الإكراه النِّسبيّ الَّذي ليس مُلجئًا فإنَّه لا يتعلَّق به رُخص -كما سيتبيَّن إن شاء الله تعالى ذلك-.

✿ هذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

_ أعظمها وأجلُّها: سعة رحمة الله -تبارك وتعالى- بهذه الأُمَّة، وأنَّ فضل الله على هذه الأُمَّة عميمٌ وجسيم لأنَّ من فضله -تبارك وتعالى- ما جعله من التَّيسير واليُسر لها.

_ ومنها أيضًا: أنَّ الله -تبارك وتعالى- لا يُكلِّف العبد ما لا يُطيق، فإنَّ العبد له طاقةٌ محدودة، والخطأ والنِّسيان والإكراه خارجٌ عن إرادته لأنَّه يقع منه بدون اختيار، وشرطُ التَّكليف -كما يُعبِّر عنه الأُصوليُّون- أو شرط الامتثال هذا شرطه الأقوى هو الاختيار، بمعنى أن يكون العبد مختارًا للفعل، فإذا لم يكن له اختيار فإنَّه لا يتعلَّق به حكم، وسبق معنا الإشارة في قول الشَّيخ ابن سعدي -رحمه الله-:

لَكِنْ مَعَ الإِتْلَافِ يَثْبُتُ الْبَدَلْ

وهذا الحديث دليلٌ على انتفاء الإثم لا على ثبوت الضَّمان، فإنَّ العبد إذا كان في فعله اعتداء على حقوق الآخرين ترتَّب عليه أمران:

_ الأمر الأوَّل: الإثم، وهذا هو الَّذي ينتفي بالخطأ والإكراه والنِّسيان.

_ والأمر الثَّاني: الضَّمان، وهو أن يضمن ما أتلف، فإذا أتلف شيئًا يترتَّب عليه الضَّمان فإنَّه يضمنه وإن كان مُخطئًا أو ناسيًا أو مُكرهًا.

❀ وهذا الحديث تضمَّن ثلاث مسائل -أو ثلاثة أحكام- ممَّا يتعلَّق بالضَّوابط الفقهية:

_ أوَّلها: الخطأ

_ والثَّاني: النِّسيان.

لأنَّ أدلَّتها في الغالب واحدة، ومن أدلَّتها قوله تعالى:﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[650]، وكذلك قوله -تبارك وتعالى-:﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[651]، وقول النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم كما في الصَّحيحين من حديث عبد الله بن عمرو أنَّ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**))[652] وكذلك الأدلَّة كثيرة جدًّا في هذا المعنى.

_ وأمَّا الإكراه فقد بيَّن الله -تبارك وتعالى- الإكراه في أعظم مأمورٍ به وأعظم منهيٍّ عنه؛ وهو: التَّوحيد والشِّرك، فقال -جلَّ وعلا-:﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾[653]، ممَّا يدلُّ على هذا أيضًا قوله تعالى:﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[654] وهذا ما يُسمَّى بالمداراة.

وهذه الضَّوابط الَّتي ذكرها أهل العلم لها أحكام كثيرة داخلة في أبواب المعاملات وأبواب العبادات، وقد نبَّهنا سابقًا على أنَّ العبد إذا تجاوز إلى فعل شيءٍ بسبب الخطأ أو النِّسيان أو الإكراه فإنَّه يترتَّب عليه الإثم -وهذا منتفٍ-، ويترتَّب عليه الضَّمان.

ومن الخطأ مثلًا: القتل، وهو من أعظم الذُّنوب؛ لكنَّ الله -تبارك وتعالى- رتَّب على القتل الخطأ انتفاء الإثم ورتَّب عليه الدية والكفَّارة كما هو نصُّ القرآن -وهو قول أئمَّة أهل العلم-:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[655] إلى آخر الآيات، وكذلك المُحرم إذا قتل الصَّيد خطأً أو ناسيًا لإحرامه -نسيَ أنَّه محرم- أو أخطأ

650 سورة البقرة: 286
651 سورة الأحزاب: 5
652 متَّفق عليه.
653 سورة النَّحل: 106
654 سورة آل عمران: 28
655 سورة المائدة: 92

أراد أن يضرب شيئًا فضرب صيدًا فإنَّه ينتفي عنه الإثم ويقع عنه الجزاء عند جماهير أهل العلم -هذا مذهب جمهور أهل العلم-، وأجابو عن مثل قوله تعالى:﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا﴾[656] أنَّها محمولة على ترتُّب الإثم وأمَّا الانتفاء فإنَّ قوله -تبارك وتعالى-:﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾[657] محمولٌ عليه -أي على الضَّمان-.

وأمَّا الإكراه فله صُور كثيرة، كذلك الخطأ في الصَّلاة أو النِّسيان في الصَّلاة أو ما أشبه ذلك، هذا صُوَره كثيرة جدًّا لا يتحمَّلها شرح مثل هذا المتن.

والإكراه أيضًا له صور كثيرة منها ما هو معفوٌّ عنه ومنها ما ليس معفوًّا عنه، فمثلًا: إذا أُكره على قتل شخصٍ فإنَّه لا يصح له أن يأخذ بالإكراه عند جميع العلماء، فقد اتَّفق العلماء أنَّه لو أُكره على قتل معصوم لم يصح له أن يقتله، لماذا؟ لأنَّه إنَّما يقتله باختياره لافتداء نفسه من القتل، فهو لا يُريد أن يُقتل فيَقتُل أخاه المسلم، وحكى ابن رجب الإجماع على هذا، وقالوا: لو أخذ بالإكراه فقتله فقد اختلفوا:

- والجمهور على أنَّهما يشتركان في القوَد -المُكرِه والمكرَه-، وهذا مذهب مالك والشَّافعي، وهو المشهور عن أحمد.
- لكن هناك صورة وهي إذا حُمل هذا المُكرَه لأنَّ هذا هو الإكراه المُلجئ فرُمي به غيره حتَّى مات فهذه الحالة الجمهور على أنَّ القوَدَ على الرَّامي، وأمَّا المرْمي فإنَّه لا شيء عليه.

وكذلك من صُوَر الإكراه: أنَّ الإنسان إذا أُكره على الكفر كما هو ظاهر القرآن -ولا نحتاج إلى ذكره- فإنَّه يأخذ بالرُّخصة إلَّا إذا كان إمامًا مُقتدًا به، يَضِلُّ النَّاس بسببه، فإنَّ الواجب عليه أن يصبر وأن لا يأخذ بالإكراه كما فعل الإمام أحمد -رحمه الله-، وكما دلَّ عليه قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُطِّعْتَ، وَحُرِّقْتَ**))[658] ومثل هذا إنَّما يكون في العمل، وأمَّا القلب فإنَّه لا مدخل للنَّاس عليه فيه.

---

[656] سورة المائدة: 95
[657] سورة المائدة: 95
[658] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

وكذلك لو أُكره الإنسان على شُرب الخمر: ذهب جمهور أهل العلم على أنَّه يفعله، هذا مـذهب الشَّافعي وأبو حنيفة وهو المشهور عن الإمام أحمد ورُوي عن الحسن ورُوي عن مسروق وعُمر بن الخطَّاب.

ومن المسائل الَّتي قوِيَ فيها الخلاف -في مسألة الإكراه-: مسألة الإكراه على الزِّنـا، والـرَّاجح أنَّه لا يجوز له فعله، وهو قول الشَّافعي -رحمه الله- وابن عقيل من الحنابلة، وهذا مـذهب أبي حنيفة وهو المنصوص عليه عند أحمد، وهذا الإكراه من الأفعال، وهذا الإنسان إذا أُكـره على الزِّنا فإنَّ فعله هذا يكون اعتداءً.

وهذا الحديث فيه مسائل وأحكام كثيرة جدًّا؛ لكن هذا أهمُّها، ويحتاج النَّظر في جميع أبواب الفقه بتجاوز هذا الحديث.

۞ الحديث الأربعون ۞

عَن ابْنِ عُمَرَ رضي اللهُ عَنْهُما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمنْكِبِي فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: (إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ).

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

وهو كما قال المصنِّف -رحمه الله تعالى- فقد رواه البخاري في صحيحه.

أعلَّه بعض الحفَّاظ وبعض المحدِّثين -كالعُقيلي وغيره-، لكن الأئمَّة على متابعة البخاري في تصحيحه.

وهذا الحديث من الأحاديث الَّتي فيها العناية والرِّعاية للنَّفس وتزكيتها وإصلاحها وتعليقها بالله -جلَّ وعلا-، وانتفاء تعلُّقها بالدُّنيا.

❀ والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يُربِّي أصحابه على هذا ويحضُّهم عليه ويحثُّهم -صلوات الله وسلامه عليه-، وقد كانوا مُترجمين لهذا عمليًّا كما سمعتم قول ابن عمر لمَّا سمع هذا من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يقول:[إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ] وهذا ما يُسمَّى بقصر الأمل، وهو المسألة الَّتي يُعرض عنها كثيرٌ من النَّاس -إلَّا ما رحم الله جلَّ وعلا-.

وقوله هنا -يعني ابن عمر-:[أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمنْكِبِي] المراد به: **مجمع** العضد والكتف، بمعنى أنَّه أمسك بكتفه من الأمام وهو يُخاطبه ويُواجهه بالكلام.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كَأَنَّكَ غَرِيبٌ)) أراد أن يُبيِّن له أنَّه لا يستأنس إلى الحياة الدُّنيا ولا يركن إليها؛ بل يفزع منها إلى الآخرة ويتَّخذها مطيَّة للآخرة.

ولمَّا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كَأَنَّكَ غَرِيبٌ)) قال بعد ذلك: ((أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)) و (أو) هنا قال الشُّرَّاح: هي بمعنى (بل)، يعني متضمِّنة لمُجاوزة الكينونة بأن يكون عابر سبيل.

((كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)) أي كن في الدُّنيا كالغريب وعابر السَّبيل الَّذي لا يستقرُّ له قرار ولا تستريح نفسه إلَّا دون داره، وكما قال الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله-:

فحيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدنٍ فإنَّها	مَنازِلُكَ الأُولَى وفِيها المُخَيَّمُ
ولَكِنَّنا سَبيُ العدُوِّ فَهَل تُرَى	نَعُودُ إلَى أوطانَنا وَنُسلّمُ
وقَد زعَمُوا أنَّ الغَرِيبَ إذا نَأى	وشَطَّتْ بهِ أوطانُه فهُوَ مُغرَمُ
وأيُّ اِغْتِرَابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا الَّتي	لهاَ أضْحَتِ الأعْدَاءُ فِينَا تَحَكَّمُ[659]

فهذا حال الإنسان، حقيقته مع الدُّنيا أنَّه غريب وموطنه الأوَّل وداره الأول الحقيقي هو الجنَّة، ولهذا قيل للإمام أحمد: (مَتَى الرَّاحَةُ يَا أَبَا عَبْدِ الله؟ قَالَ: عِنْدَ أَوَّلِ قَدَمٍ نَضَعُهَا فِي الجَنَّةِ)[660]، والحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- أيضًا يقول: (لَيْسَ لِلْعَابِدِينَ مُسْتَرَاحٌ إِلَّا تَحْتَ شَجَرَةِ طُوبَى، وَلَا لِلْمُحِبِّينَ قَرَارٌ إِلَّا يَوْمَ المَزِيدِ)[661].

وهنا قوله رضي الله عنه -يعني ابن عمر-:[وَإِذَا أَصْبَحْتَ] بمعنى أنَّه قد أدركك الصَّباح فدخلت فيه.

---

659 ميمية ابن القيم رحمه الله.

660 وجدته بلفظ: [قال السّليط بن سُبَيع]: (...يَا رَاهِب مَتَى يَجِدُ الْعَبْدُ طَعْمَ الرَّاحَةِ؟ قَالَ: عِنْدَ أَوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُهَا فِي الْجَنَّةِ) -في قصة طويلة- ["تاريخ دمشق" ج6، ص12]، **ملاحظة: تعذر الوقوف على أثر من الآثار لا يعني عدم وجوده.**

661 "بدائع الفوائد" ص1186.

[إِذَا أَمْسَيْتَ] بمعنى أنَّه أدركك المساء ودخلت فيه، فلا تأمن أن يكون لك صباحٌ بعد المساء، أو مساءٌ بعد الصَّباح.

ثمَّ بيَّن له حقيقة الورع في الدُّنيا والزُّهد فيها، يعني بيَّن ابن عمر للأُمَّة حقيقة كون الإنسان يكون غريبًا؛ فقال:[وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ] وهذا شأن الغريب يأخذ حاجته من الدِّيار الَّتي يسكنها ثمَّ يرجع إلى دياره ومستقرِّه، وهذا حال الدُّنيا والآخرة بالنِّسبة للمؤمن، فإنَّها سجن المؤمن وجنَّة الكافر.

[وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ] يعني اغتنم الصِّحَّة [...][662] قبل [المرض][663] والإعاقة والعاهات والمعوِّقات، وبَعْد البصر عمى، وبَعْد السَّماع صمم، وبعد القوَّة ضعف، وهكذا الإنسان إلى ضعفٍ وانحلالٍ وزوال -نسأل الله العافية والسَّلامة-، فاغتنم هذه الصِّحَّة في العمل قبل المرض.

[وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ] يعني استقبل الحياة بالأعمال الصَّالحة الَّتي تنفعك إذا مت، وهذا ممَّا يدلُّ على ما كان عليه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يُعلمه أصحابَه من عدم الرُّكون إلى الدُّنيا وأنَّها ليست دار إقامة بل هي معبر اعتبار.

✽ أما سمعتم عيوب العاجلة إذ بينما تمشي بصاحبها إذ عثرت أيَّ عثار! وغربان البيت قامت تندب الآثار، ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[664] وهل المتاع إلَّا عارية عار؟

فالمؤمن يعلم حقيقة الدُّنيا وما جعلها الله -تبارك وتعالى- لأجله.

والكلام على هذا الحديث أيضًا يطول.

---

[662] انقطاع يسير في الصَّوت.
[663] من إضافتي؛ بسبب انقطاع في الصَّوت.
[664] سورة آل عمران: 14

ومن فوائده:

_ أنَّ هذه الدُّنيا لا تعدل شيئًا عند الله وإنَّما هي كنومة تتبعها صحوة، والعبد المؤمن يأخذ منها أُهبته وعُدَّته.

_ ومنها: أنَّ العالِم يُنبِّه طلَّابه على قدر الدُّنيا وقيمتها وأنَّها لا تعدل شيئًا.

_ ومنها: أنَّ المعلِّم لا يقتصر في تعليمه للعلم على معرفة الأحكام والحلال والحرام؛ بل يُبيِّن لمن يسمع منه حقارة الدُّنيا ويعظهم فيها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[665].

_ من فوائد الحديث: أنْ يُربيَ الإنسان نفسه على قصر الأمل، وأن مهما طالت حياته فهي قصيرة ومهما أصبح سيأتي هذا الصَّباح لا مساء بعده، ومهما أمسى فسيأتي هذا المساء ولا صباح بعده؛ هذا حال الدُّنيا، فالواجب على المسلم أن يكون فطنًا لهذا الأمر.

_ ومن فوائده أيضًا: ضرورة الاستعداد للموت والخروج من الدُّنيا.

_ وكذلك من فوائده: أنَّه دالٌّ على المسارعة إلى فعل الخيرات واغتنام العمر قبل الفوات.

_ ومن فوائده أيضًا: الضَّرب للمثال في حال التَّعليم؛ فإنَّ النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ)) والكاف هنا للتَّشبيه، يعني تشبَّه بالغريب، قِس نفسك بالغريب، كيف يكون حالك؟!

_ ومن فوائد الحديث: أنَّ النَّاصح يبتدئ المنصوح بالنَّصيحة وإن لم يطلبها منه أو يُسارع إليها أو يسأله عن الخير.

[665] سورة آل عمران: 185

_ ومن فوائده أيضًا: أنَّ الحياة الآخرة هي حياة النَّاس الحقيقيَّة؛ وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث ابن عبَّاس عند الحاكم[666] -وغيره-: **((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ))**[667] وهو حديثٌ حسن، صحَّحه غير واحد من أهل العلم.

---

[666] قال الحاكم رحمه الله: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يُخرجاه) ["المستدرك على الصَّحيحين" رقم(7846)]

[667] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب".

۞ الحديث الحادي والأربعون ۞

عَنْ أَبِي مُحَمّدٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ "الْحُجَّةِ" بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ

هذا الحديث أيضًا صحَّحه أبو نُعيم وغيره من أهل العلم كما ذكر ذلك الحافظ ابن رجب؛ وقد أطال الحافظ ابن رجب في مناقشة هذا الحديث وتضعيفه بنُعيم بن حمَّاد الخُزاعي شيخ البخاري، يعني مقرونًا عند البخاري، وقد كان إمامًا في السُّنَّة إلَّا أنَّه كان مضعَّفًا في الحديث.

❋ لكن بقيَ أمرٌ مهمٌّ بالنِّسبة للتَّخريج لأنَّني تتبَّعت الشُّرَّاح في المقصود بـ :[كِتَاب الْحُجَّة] هل هو كتاب "الحجة بيان المَحجَّة" للأصفهاني الشَّافعي؟ أو كتاب "الحُجَّة على تارك المحجَّة"؟ فيما أذكر -هذا على كلِّ حال بحثٌ قديم ولم أراجعه في درس هذا اليوم-: من الشُّرَّاح من يقول أنَّه كتاب الأصفهاني الشَّافعي، ومنهم من يقول بأنَّه كتاب المقدسي، والحقيقة أنَّه وُجد الحديث هاهنا وهاهنا، وإن كان بعض الباحثين؛ وهذا على كلِّ حال هي معلومات متناثرة الآن في المذاكرة وليست مؤهَّبة، وبإمكان طالب العلم أن يرجع إليها لأنَّ بعض الشُّرَّاح نسبه إلى هذا الكتاب وبعضهم نسبه إلى الكتاب الآخر، فبعض الشَّافعيَّة ينسبه إلى صاحب "الحجَّة" الَّذي هو الشَّافعي، والحنابلة ينسبونه إلى آخر كابن حجر الهيثمي وابن رجب الحنبلي.

وهذا الحديث كما سبق بيانه قد ضعَّفه جماعة من الأئمَّة، وأطال الكلام عليه الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحِكم".

وقوله هنا: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ)) المراد بالنَّفي: نفي الكمال، كما جزم به غير واحدٍ من المحقِّقين من الشُّرَّاح، وبيَّن العلَّامة ابن العثيمين -عليه رحمة الله- هذا البيان -يعني الحمل على أنَّه على نفي الكمال-؛ قال: (حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَصْدُقُ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ نَفْيُ أَصْلِ الإِيمَانِ)[668] لأنَّ الإنسان قد يكون هواه تبعًا لما جاء به الرَّسول في أكثر مسائل الدِّين وفي بعض المسائل لا يكون هواه تبعًا؛ فيُحمل على نفي الكمال، فيُقال: إن كان هواه لا يكون تبعًا لما جاء به رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في كلِّ الدِّين فحينئذٍ يكون مرتدًّا.

- فهو محمولٌ على الوجهين: على نفي الصحَّة، وعلى نفي الكمال.

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى))، ((حتَّى)) للغاية، يعني: حتَّى ينتهيَ الأمر به إلى أن يكون تبعًا لما جئتُ به.

((حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ)) و (ما) هنا اسم موصول بمعنى الَّذي، يعني: بالَّذي جئتُ به.

✽ والمراد بالهوى عند الإطلاق: ميلٌ إلى خلاف الحقّ -كما يقول الحافظ ابن رجب-[669]، وقد يُطلق الهوى بمعنى المحبَّة كما جاء في حديث صفوان بن عسَّال؛ وإن كان هذا الإطلاق قليل ومنه قول عائشة رضي الله عنها: (مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ)[670] لمَّا أنزل قوله تعالى:﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾[671] -يعني: فيما تُحبّ-، وأيضًا في قصَّة أُسارى بدر لمَّا اختلفوا في الأسارى فقال عمر في قصَّة المشاورة: (فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ

---

[668] "شرح الأربعين النووية" لابن عثيمين رحمه الله، ص427.
[669] قال ابن رجب رحمه الله: (وَالْمَعْرُوف فِي اسْتِعْمَال الْهَوَى عِنْدَ الإِطْلَاق: أَنَّهُ الْمَيْلُ إِلَى خِلَافِ الحَقِّ) ["جامع العلوم والحكم" ص829]
[670] متَّفقٌ عليه، واللفظ للبخاري.
[671] سورة الأحزاب: 51

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ)[672] وهنا المـراد بـالهوى: المحبَّـة، لكـن حيـثُ الإطلاق فإنَّ المراد به الميل عن الحقّ.

ولهذا قسَّم بعض العلماء الهوى إلى محمود ومذموم؛ وقالوا: الأصـل إذا أُطلـق أنَّـه للمـذموم، ولهذا يُسمَّى أهل البدع بأهل الأهواء -وهذا أمرٌ معلومٌ-.

❋ والهوى سمِّيَ هوى لأنَّه يهوي بصاحبه في نار جهنَّم؛ كما قال الشَّعبي -عليه رحمة الله ومغفرته-[673].

✿ من فوائد هذا الحديث:

_ أنَّ الإيمان يزيد وينقص لأنَّه قال: ((لَا يُؤْمِن)) أي إيمانًا كاملًا عند أهل السُّنَّة.

_ ومنها أيضًا: وجوب الطَّاعة والاتِّباع للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما جاء به.

_ ومنها أيضًا: ذمّ الهوى في مخالفة الشَّريعة، وأنَّ المسلم يجب عليه أن يكون متَّبعًا متمسِّكًا وقَّافًا عند كتاب الله -تبارك وتعالى- لا يلوي إلى شيءٍ من اتِّباع هواه أو اتِّباع هوى غيره، بل يُسلِّم لله ولرسوله.

---

672 رواه مسلم.

673 قَالَ الشَّعبيّ رَحِمَهُ الله: (إِنَّمَا سُمِّيَ الهَوَى لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِي النَّارِ) ["معالم التنزيل" للبغوي رحمه الله، ج7، ص245]

۞ الحديث الثاني والأربعون ۞

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: قَالَ اللهُ -تَبَارَك وتَعَالَى-:

«يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ

ختم المصنِّف -رحمه الله تعالى- كتابه هذا بحديث أنس بن مالك في فضل الاستغفار وسعة رحمة الله، وهو دقيق فقهه -رحمه الله- كما سننبِّه عليه.

وهذا الحديث قد حسَّنه أيضًا جماعةٌ من أهل العلم، بل بعضهم صحَّحه في الشَّواهد؛ لأنَّ الحديث جاء بنحوه أو بمعناه من حديث أبي ذرّ عند البخاري.

وهذا الحديث ختم به المصنِّف -رحمه الله تعالى- أحاديث الأربعين ليُبيِّن أنَّ مدار الإنسان في هذه الحياة الدُّنيا مع الإيمان والإسلام على العمل، وأنَّه يجب عليه أن يكون عاملًا مُحافظًا

على التَّوحيد مُجانبًا للشِّرك، ومُحافظًا على ما يُكمِّلُ التَّوحيد من الأعمال ويُصحِّح التَّوحيد من الأعمال، ومُجانبًا لما ينقصه أو ينقضه من الشِّرك وأنَّه بين هذين الأمرين لابدَّ له من استغفار الله -تبارك وتعالى-، ويختم العبد أعماله بالاستغفار؛ وقد علَّمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- ذلك في كتابه -كما تعرفون في الحجّ-:﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾[674] وكذلك علَّمنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في الانصراف من الصَّلاة أن نكون مستغفرين فكان يقول: استغفر الله، استغفر الله[675].

✿ وهذا الحديث قال فيه المصنِّف:[عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: «قَالَ اللهُ -تَبَارَك وَتَعَالَى-»] وهذا ما يُسمَّى بالحديث القدسي، وقد نبَّهنا على تعريفه عند أئمَّة السُّنَّة وأنَّ لفظه ومعناه من الله -تبارك وتعالى-، وأنَّ من الخطأ أن يُقال إنَّ اللّفظ من الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام والمعنى من الله؛ لأنَّ هذا راجعٌ إلى أصل الأشاعرة في مسألة الكلام النَّفسي، وكان ينبغي أن يتأملَّ قائل هذا القول بأنَّ الأحاديث القدسية تُصدَّر بقول: ((يَا عِبَادِي)) ومثل هذا يقول: ((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي)) فمن القائل؟! إنَّما القائل هو الرَّب -تبارك وتعالى-.

قال الله تعالى: ((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي)) (ما) هنا بمعنى: مهما، يعني: مهما دعوتني وبادرت إلى الدُّعاء -دعاء المسألة ودعاء العبادة-، فإنَّ الدُّعاء يُقسم قسمين:

_ دعاء مسألة.

_ ودعاء عبادة.

((وَرَجَوْتَنِي)) يعني تدعوه وترجو رحمته وتخاف عذابه، فمهما دعوتني ورجوتني أن أغفر لك ذنوبك غفرتها لك.

وهذه الواو فيها للحال: ((وَرَجَوْتَنِي)) أي: حال أنَّك تدعو راجيًا أن أغفر لك.

---

[674] سورة البقرة: 199

[675] عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاَثًا وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) وراه مسلم.

((غَفَرْتُ)) بمعنى سترتُ ذنبك ووقيتُك شرَّه.

قول الرَّب هنا في الحديث: ((مَا كَانَ مِنْكَ)) يعني من الذُّنوب وتكرارها مع القيام بالتَّوحيد والمحافظة عليه.

قال: ((وَلَا أُبَالِي)) يعني لا أستكثر ذنبًا غفرته لك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[676]، وكما قال -جلَّ وعلا-: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[677].

وقوله: ((عَنَانَ السَّمَاء)) المُراد بـ (العَنان) : السَّحاب -هكذا بالفتح- بعكس (العِنان) الَّذي هو الزِّمام أو الخطام.

وقوله: ((بِقُرَابِ الأَرْضِ)) بضمِّ قافها، وكذلك يجوز كسرها: ((بِقِرَابِ)) وإن كان الضَّم أشهر، يعني: بملأها أو بقريب من ملإها.

هذا ما يتعلَّق بألفاظه أو بعض المفردات فيه.

✿ ومن فوائد هذا الحديث:

_ فضل الاستغفار والرَّجاء والتَّعلُّق بالله -تبارك وتعالى- وأنَّ العبد يطلب رحمة الله -جلَّ جلاله-.

_ ومن فوائده أيضًا: المحافظة على التَّوحيد وعلى ما يُكمِّله، والبعد عن الشِّرك وما يقدح في التَّوحيد.

---

[676] سورة الزمر: 53

[677] سورة الزمر: 53

_ ومنها: فَضْل الدُّعاء؛ فإنَّ الدُّعاء فضله عظيمٌ.

_ ومن فوائده: فَضْل الاستغفار.

_ ومن فوائده أيضًا: أنَّ الدَّاعي إذا دعا الله -تبارك وتعالى- فإنَّه يُعظم الرَّغبة ويكون عنده رجاء وانكسار لله -تبارك وتعالى-.

_ ومن فوائده أيضًا: أنَّ التَّوبة واجبة، وأنَّ المسلم يجب عليه أن يتوب من الذُّنوب كلِّها.

_ ومن فوائده: أنَّ من أهمِّ شروط التَّوبة: الاستغفار الَّذي افترضه الله -تبارك وتعالى- على عباده.

_ ومنها: أنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء؛ لأنَّه قال: ((غَفَرْتُ لَكَ)).

_ ومنها: أنَّ كثرة الذُّنوب لا تحول بين العبد وبين الاستغفار.

_ ومن فوائده أيضًا: أنَّ الرَّب -تبارك وتعالى- يمنُّ بفضله على من يشاء من عباده من أهل الذُّنوب ما لم تكن شركًا، ففي هذا ردٌّ على الخوارج الَّذين يُكفِّرون المسلمين بالذُّنوب والمعاصي ويُخلِّدونهم في النَّار، وكذلك على المعتزلة الَّذين يُوجبون عليه دخول نار جهنَّم.

_ ومن فوائد الحديث أيضًا: الرَّد على المرجئة لأنَّه لم يقتصر على الرَّجاء وترْك العمل بل ذكر الدُّعاء والاستغفار وما أشبه ذلك من الأعمال الَّتي يعملها العبد.

بهذا نكون قد انتهينا من كتاب الأربعين للحافظ النَّووي -رحمه الله-؛ وعدد الأحاديث الَّتي ذكرها: اثنان وأربعون حديثًا، وفي هذا يقول العلماء: (إنَّ الكسر لا اعتبار له) وقد جرى على هذا عمل كثير من المصنِّفين -رحمهم الله تعالى-.

❁ ثمَّ بعد ذلك إن شاء الله نُكمل ما ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي في التَّتمة وهي: ثمانية أحاديث، حتَّى كمَّل الخمسين حديثًا، نأخذها بالتَّعليق عليها إن شاء الله تعالى.

ونسأل الله -جلَّ وعلا- التَّوفيق والسَّداد والهدى والرَّشاد للجميع

فهو وليُّ ذلك والقادر عليه.

والحمد لله ربِّ العالمين.

شرح

زيادة ابن رجب

«أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين رحمه الله»

۞ مقدمة ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا مجلسٌ من المجالس المُنعقدة في التَّعليق والشَّرح على مُتمِّمة متن "الأربعين" للحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-، وذلك بعد أن تمَّ لنا بفضل الله ورحمته ومنَّته الكلام على أحاديث الأربعين.

وقد ذكرنا في أوَّل مجلسٍ أنَّ أوَّل لبنة وضعها لهذا المتن هو الحافظ ابن الصَّلاح بستَّة وعشرين حديثًا، كمَّلها النَّووي -رحمه الله تعالى- وأبلغها إلى اثنين وأربعين حديثًا -وتلك هي الَّتي تمَّ شرحها-، ثمَّ زاد عليها الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- ثمانية أحاديث فتمَّم بها الخمسين، وقد انتهينا -كما ذكرتُ- من الكلام على الاثنين وأربعين حديثًا.

وفي هذا اليوم إن شاء الله تعالى نشرع بما ذكره الحافظ ابن رجب؛ على أنَّه -رحمه الله- قد ذكر بأنَّ حديث ابن عبَّاس الَّذي سنأخذه بعد قليل[678]: (زَعَمَ بَعْضُ شُرَّاحِ هَذِهِ الْأَرْبَعِينَ أَنَّ الشَّيْخَ) يعني النَّووي -رحمه الله- (أَغْفَلَهُ)[679] هذا سأنبِّه عليه؛ وهل هو من زيادات الحافظ ابن رجب، أو هو ممَّا ذكره النَّووي -رحمه الله-.

678 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضُ، فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ)) خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

679 "جامع العلوم والحكم" ص846.

۞ الحديث الثالث والأربعون ۞

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضُ، فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ».

خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وهذا اللَّفظ هو الَّذي اتَّفق عليه الشَّيخان كما ذكر ذلك المصنِّف -رحمه الله-، وفي رواية لمسلم: ((**اقْسِمُوا الْمَالَ بَيْنَ أَهْلِ الْفَرَائِضِ عَلَى كِتَابِ اللهِ، فَمَا تَرَكَتِ الْفَرَائِضُ، فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**))[680].

وتعلمون أنَّ المصنِّفين في الحديث وشروحه يُرجعون بعض أبواب الفقه وأحكامه إلى أحاديث معيَّنة، وطالب العلم ينبغي له أن يعتنيَ بهذا الجانب، لأنَّ بعض الأحاديث أجمع من بعض في الدَّلالة على الأحكام وما يتعلَّق بها، ومن أحسن من يعتني بهذا الأمر العلَّامة الفقيه المالكي أبو بكر بن العربي -رحمه الله- في كتابه "القبس"، فإنَّه في كثيرٍ من الأبواب يُصدِّر الباب بذكر جملة من الأحاديث يُبيِّن فيها أنَّ فقه الإمام مالك دائر على هذه الأحاديث، مثلما يحضرني الآن كلامه على أحاديث البيوع.

شاهدنا من هذا الَّذي نذكره الآن أنَّ بعض الأحاديث جامعةٌ لأبواب الأحكام وتُعتبر بمثابة القواعد في هذه الأبواب وهذه الأحكام، ومن ذلك هذا الحديث، فإنَّه من القواعد العامَّة في باب الفرائض، وربَّما اقتصر بعض المصنِّفين على ذكره مع آيات القرآن الدَّالَّة على أحكام

680 رواه مسلم؛ من طريق ابن عباس رضي الله عنهما.

المواريث؛ حتَّى أنَّ الحافظ ابن رجب -رحمه الله- في شرحه "جامع العلوم والحِكَم" يقول: (فَهَذَا الْحَدِيثُ مُبَيِّنٌ لِكَيْفِيَّةِ قِسْمَةِ الْمَوَارِيثِ الْمَذْكُورَةِ فِي كِتَابِ اللهِ بَيْنَ أَهْلِهَا، وَمُبَيِّنٌ لِقِسْمَةِ مَا فَضلَ مِنَ الْمَالِ عَنْ تِلْكَ الْقِسْمَةِ مِمَّا لَمْ يُصَرِّح بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَحْوَالِ أُولَئِكَ الْوَرَثَةِ وَأَقْسَامِهِمْ، وَمُبَيِّنٌ أَيْضًا لِكَيْفِيَّةِ تَوْرِيثِ بَقِيَّةِ الْعَصَبَاتِ الَّذِينَ لَمْ يُصَرَّحْ بِتَسْمِيَتِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، فَإِذَا ضُمَّ هَذَا الْحَدِيثُ إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ، انْتَظَمَ ذَلِكَ كُلُّهُ مَعْرِفَةَ قِسْمَةِ الْمَوَارِيثِ بَيْنَ جَمِيعِ ذَوِي الْفُرُوضِ وَالْعَصَبَاتِ)[681] هذا كلامه -رحمه الله تعالى-، وهو كلامٌ في غاية الأهمِّية.

وأشرتُ لكم سابقًا بأنَّ الحافظ ابن رجب في أوَّل شرحه لهذا الحديث نبَّه على أنَّ الشُّرَّاح أسقطوه، وكأنَّه يُشير إلى أنَّ هذا الحديث أيضًا من الأحاديث الَّتي جمعها النَّووي؛ فقد قال في أوَّل شرحه: (هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي زَعَمَ بَعْضُ شُرَّاحِ هَذِهِ الْأَرْبَعِينَ أَنَّ الشَّيْخَ -رَحِمَهُ اللهُ- أَغْفَلَهُ)[682] ولكن إذا نظرت إلى تعليق النَّووي -رحمه الله- على هذه "الأربعين" وهي النُّسخة المتداولة بين النَّاس والَّتي عليها تعليقٌ للمصنِّف نفسه لا تجد هذا الحديث، وكذلك النُّسخ الَّتي قُرئت على الشُّيوخ والَّتي سُمعت عليهم والَّتي قاموا بشرحها -أعني الَّذين اقتصروا على شرح الأربعين دون شرح التَّكملة- لم يذكروا هذا الحديث، وكذلك الشَّرح المنسوب إلى الحافظ ابن دقيق العيد لم يُذكر فيه هذا الحديث -فالعلم عند الله-.

وعلى كلِّ حال قد يكون المصنِّف رحمه الله -أعني الحافظ ابن رجب- وقف على هذا الباب أو وقف على هذا الحديث في بعض نُسخ "الأربعين" وفيها هذا الحديث.

❊ هذا الحديث من الأحاديث -كما ذكرتُ لكم- الجامعة لقسمة التَّركة، وقسمةُ التَّركة وقسمة الفرائض من المسائل المهمَّة، وعلمها من الفروض الكفائيَّة، ولا يخطر ببالكم بأنَّنا سنعقد الكلام على ما يتعلَّق بأحكام الفرائض وأحكام المواريث وإنَّما هي إشارات ونصائح متعلِّقة بباب المواريث وباب الفرائض، وهي أيضًا نافعة فيما يتعلَّق بسائر العلوم، فإنَّ طالب

---

[681] "جامع العلوم والحكم" ص850.

[682] "جامع العلوم والحكم" ص846.

العلم إذا أراد أن يضبط بابًا من الأبواب أو أن يبحث مسألة من المسائل فإنَّه ينبغي له أن يجمع أوَّلًا ما أجمع عليه العلماء، وهذا له فائدتان:

_ أولاهما: أنَّه يُريح نفسه من النَّقض والرَّد، بحيث يكون الإجماع مسلَّمًا.

_ وثانيهما: أنَّه يعصمه من أن يُحدث قولًا لم يقل به الأئمَّة، وهذا أمرٌ مهمٌّ، فإنَّ كثيرين من النَّاس يقع لهم الخلط في هذا الباب فيتبنَّون أقوالًا شاذَّةً ليست مشهورةً ولا معروفةً عند أهل العلم ويأخذون بها.

✽ وبابُ الفرائض -كما يقول شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم- من أقلّ الأبواب الّتي وقع فيها الخلاف، فإنَّ مسائلها في الغالب إجماعيَّة، هناك مسائل وقع فيها الخلاف بين أهل العلم كما وقع الخلاف في مسألة الجدِّ مع الإخوة؛ وخلافٌ أقلّ منه وأيسر في مسألة العمريتين على أنَّنَّا نتَّبع فيها سُنَّة الخليفة الرَّاشد عمر رضي الله عنه.

يَبْقَى لَهَا فِي الْعُمَرِيَّتَيْنِ   مَعَ أَبٍ وَأَحَدِ الزَّوْجَيْنِ[683]

والله -جلَّ وعلا- قد تولَّى قسمة الفرائض بنفسه، وعِلْم الفرائض أقلُّ العلوم اختلافًا -كما سبق البيان لذلك-.

والفروض المقدَّرة في كتاب الله كما يقول البرهاني:

بِالْفَرْضِ وَالتَّعْصِيبِ: إِرْثٌ ثَبَتَا   فَالْفَرْضُ فِي الْكِتَابِ سِتَّةٌ أَتَى:
رُبْعٌ وَثُلْثٌ نِصْفُ كُلٍّ ضِعْفُهُ   وَلِاجْتِهَادٍ غَيْرُ ذِي مَصْرِفُهُ

إذا تقرَّر هذا فإنَّ طالب العلم في هذا الباب وفي غيره من الأبواب إذا أراد أن يخرج ويخلص من مسائل نظر إلى ما جمعه أهل العلم ونصُّوا بأنَّه إجماع أو لا خلاف فيه أو لا يعلمون فيه اختلافًا أو ممَّا اتَّفقت عليه الأُمَّة، وينظر بعد ذلك فيما وراء ذلك من المسائل.

683 "القلائد البرهانية في علم الفرائض".

وهذا الحديث قال فيه النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ)) وقلنا في الرِّواية الأُخرى: ((اقْسِمُوا الْمَالَ بَيْنَ أَهْلِ الْفَرَائِضِ)) ما المراد؟ أي: ابدؤوا بأهل الفرائض الَّذين فرض الله لهم فروضه في كتابه وهم الوارثون من الرِّجال والوارثون من النِّساء الَّذين تحقَّق فيهم السَّبب للإرث.

وَهْيَ ثَلَاثَةٌ: نِكَاحٌ وَنَسَبْ ... ثُمَّ وَلَاءٌ، لَيْسَ دُونَهَا سَبَبْ

_ فالمراد بـ: (النَّسب) أي القرابة وهم الرَّحم.
_ و(النِّكاح) أي عقد الزَّوجيَّة الصَّحيح.
_ و(الولاء) : العتق.

وأيضًا انتفت عنهم الموانع:

وَيَمْنَعُ الإِرْثَ عَلَى الْيَقِينِ: ... رِقٌّ وَقَتْلٌ وَاخْتِلَافُ دِينِ

فالنَّسب يجمعهم:
_ أصول؛ وهم الآباء.
_ وفروع؛ وهم الأبناء.
_ وحواش؛ وهم الكلالة.

- فالأصول: من لهم عليك ولادة، -وأبوابهم معروفة-.
- والفروع: من لك عليهم ولادة، -وأبوابهم أيضًا معروفة-.
- والحواشي: مَن عدا الأصول والفروع؛ فمنهم الأخوات من كلِّ جهة والإخوة من الأمِّ.

فإذا عرفت فرائض هؤلاء وأعطيت كلَّ واحد منهم فرضه وألحقت الفرائض بأهلها بقيت العصبة فيُعطون حقَّهم لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((أَلْحِقُوا)) أو ((اقْسِمُوا الْمَالَ بَيْنَ أَهْلِ الْفَرَائِضِ عَلَى كِتَابِ اللهِ، فَمَا تَرَكَت)) -يعني من الفرائض- ((فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ)).

* و ((ذَكَر)) هنا هل هو نعتٌ لِـ: ((رَجُل)) أو نعتٌ (لأَوْلَى)؟ خلافٌ بين أهل العلم؛ وفي مبحث أطال فيه السُّهيلي وأطال فيه الفاكهاني المالكي رجَّحا أنَّه نعت (لأَوْلى) وإن كان مرفُوعًا فإنَّ حقيقته أنَّه مرفوعٌ وإن كان ظاهره الجرّ.

وقد أطال السُّهيلي في الحقيقة في مثل هذه المسألة لأنَّهم استشكلوا أنَّ الذَّكر هو الرَّجل:﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[684] فلماذا وصفه بالذُّكورة؟ فأجابوا بمثل هذا الجواب واستشكلوا هذا وأطالوا في استشكاله -السُّهيلي رحمه الله وتبعه على ذلك الفاكهاني-، وقد استشكله غير واحدٍ من أهل العلم من هذه الجهة؛ فقالوا بأنَّ الذُّكورة هاهنا نعتٌ (للأوْلَى) من جهة المعنى ومن جهة المفهوم هذا واضح لأنَّهم يقسمون أصحاب العصبات إلى أقسام لها أحكام لكل باب منها حكم.

وهذا الحديث المراد بـ:((الْفَرَائِض)) فيه -كما قلتُ لك آنفًا-: الأنصبة المقدَّرة في كتاب الله تعالى.

وقوله هنا: ((بِأَهْلِهَا)) يعني الَّذين هم وارثون ومُبيَّنون في كتاب الله -تبارك وتعالى-، يعني من يستحقُّها بنصِّ القرآن.

وقوله: ((فَلِأَوْلَى)) أي لمن يكون أقرب في النَّسب إلى المورِّث.

والرَّجل الذَّكر هنا هو العاصب الَّذي يأخذ بقيَّة المال بعد أصحاب الفروض، وأنتم تعلمون أنَّ بعضهم لا يرث إلَّا فرضًا كالزَّوج والزَّوجة، ومنهم من يرث فرضًا وتعصيبًا كالأب في كثيرٍ من صُوَره، ومنهم من يرث تعصيبًا بلا فرض.

بِالْفَرْضِ وَالتَّعْصِيبِ: إرْثُ ثَبَتَا فَالْفَرْضُ فِي الْكِتَابِ سِتَّةٌ أَتَى

((فَلِأَوْلَى)) كما قلنا بأنَّه الأقرب.

[684] سورة النِّساء: 34

وممَّن استشكل ما ذكرته لكم آنفًا: الحافظ ابن رجب في شرحه -كما ذكرتُ ذلك؛ يعني تنبَّهتُ لذلك- فإنَّه استشكل أو ذكر استشكال كثير من النَّاس لأنَّ الرَّجل لا يكون إلَّا ذكرًا، قال الحافظ ابن رجب: (فَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ عَنْهُ: أَنَّهُ يُطْلَقُ الرَّجُلُ وَيُرَادُ بِهِ الشَّخْصُ، كَقَوْلِهِ: «**مَنْ وَجَدَ مَالَهُ عِنْدَ رَجُلٍ قَدْ أَفْلَسَ**» وَفَرَّقَ بَيْنَ أَنْ يَجِدَهُ عِنْدَ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ، فَتَقْيِيدُهُ بِالذَّكَرِ يَنْفِي هَذَا الِاحْتِمَالَ، وَيُخَلِّصُهُ لِلذَّكَرِ دُونَ الْأُنْثَى وَهُوَ الْمَقْصُودُ، وَكَذَلِكَ الِابْنُ: لَمَّا كَانَ قَدْ يُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهِ أَعَمُّ مِنَ الذَّكَرِ، كَقَوْلِهِ:﴿ابْنُ السَّبِيلِ﴾)[685] إلى آخر كلامه -رحمه الله-، وهذا -كما قلتُ لكم- ممَّا استشكله طوائف من أهل العلم.

هذا الحديث فيه فوائد؛ وفوائده كثيرة:

_ أوَّلها: أنَّ هذا الشَّرع كاملٌ تامٌّ؛ فقد بيَّن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام الحقوق، وكذلك تبيَّنت الحقوق في كتاب الله تعالى.

_ ومن فوائده: أنَّ المقدَّم في الإرث هم أصحاب الفروض.

_ ومن فوائده: أنَّ العصبة يَرثون؛ ولهذا يؤثِّر إرثهم في العاقلة يعني الرَّجل إذا قتل خطأ فكما أنَّهم يرثونه كذلك [...][686] معه إذا قتل خطأ.

_ ومنها: أنَّ العاصب إذا انفرد أخذ جميع المال لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضُ، فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ)) واستدلَّ به طائفةٌ من أهل العلم على مسألة العون عند نقص التَّركة وأنَّه يُحسب بينهم على حسب ما عالت به المسألة.

685 "جامع العلوم والحكم" ص863.
686 كلمة غير واضحة.

من أهل العلم من قال بأنَّ قوله: ((فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ)) لأجل الرَّد على أهل الجاهلية لأنَّهم كانوا لا يُورِّثون الصِّغار، فذكر الذَّكر لتأكيد الصِّغار.

۞ الحديث الرابع والأربعون ۞

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللهِ عَائِشَةَ رضي الله عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ».

خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وهذا الحديث أيضًا من الأحاديث الجامعة لأبواب الرَّضاع، وأبواب الرَّضاع من الأبواب المتعلِّقة بانتشار المحرمية في باب النِّكاح.

والمراد بالرَّضاع والرَّضاعة: الإرضاع؛ وهو شرب الرَّضيع لبن امرأة في الحولين على ما هو قول جمهور أهل العلم -لأنَّهم يشترطون أن يكون في الحولين-، فالرَّضاعة كما قلنا -بفتح الرَّاء-: يعني الإرضاع.

وقوله: ((مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ)) أي يُحرِّم الرَّضاع ما تُحرِّم الولادة، فكما أنَّ الولد يحرم من جهة النَّسب -يكون له المحرمية يعني- فكذلك من جهة الرَّضاعة.

وهذا الحكم في الجملة متَّفقٌ عليه بين الأُمَّة -أعني حكم الرَّضاع- هذا إجماع فيما يتعلَّق بتحريم النِّكاح وتوابعه وانتشار الحُرمة بين الرَّضيع وأولاد المرضعة وتنزيلهم منزلة الأقارب في جواز النَّظر والخلوة والمسافرة، ولكن لا يترتَّب عليه باقي أحكام الأمومة من التَّوارث ووجوب الإنفاق والعتق بالملك والشَّهادة والعقل وإسقاط القصاص كما أفاد ذلك النَّووي في "شرح مسلم" والحافظ ابن حجر في "فتح الباري".

فعرفنا أنَّ التَّحريم هاهنا في قوله: ((تُحَرِّمُ)) من جهة ما يُحرِّمه النَّسب في أبواب النِّكاح وانتشار المحرميَّة والَّتي منها: النَّظر -كما سبق- الخلوة، السَّفر، وعدم الزَّواج، فالرَّضاع ينشر الحرمة بين الرَّضيع والمرضعة وزوجها لأنَّه قال: ((الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ)) ولهذا من طرائف ما يُحكى في هذا الباب -يعني من طرائف العلم- ما يُحكى في هذا الباب أنَّ ابن عبَّاس رضي الله عنهما سُئل يومًا عن رجلٍ نكح امرأتين إحداهما أرضعت صبيًّا ثلاث رضعات والأخرى أرضعته رضعتين، فقال للأب -الزَّوج، صاحب اللَّبن- قال: (هُوَ ابْنُكَ، وَلَيْسَ ابْنًا لِهَذِهِ وَلَا لِهَذِهِ)[687] لماذا؟ لأنَّه صاحب الحليب، فالأبناء يكونون إخوة له من جهة الأب لا من جهة الأمِّ، فلا تكون هذه الأمُّ محرمًا له ولا هذه الأمُّ، أي هذه الزَّوجة للأب لا تكون أمًّا لهذا المرتضع ولا هذه أيضًا.

وقد كان عُروة رضي الله عنه يحكي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها تقول: (حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرم مِنَ النَّسَبِ)[688].

وهذا الحديث الَّذي ذكره المصنِّف فيه قصَّة؛ وهي قصَّة أفلح، وكان أخًا لأبي القُعَيس، لمَّا أراد أن يدخل على عائشة رضي الله عنها بعد أن فُرض الحجاب -كما جاء في الصَّحيحين- قالت رضي الله عنها: (اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ أَفْلَحُ أَخُو أَبِي الْقُعَيْسِ بَعْدَمَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَقُلْتُ: لَا آذَنُ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ فِيهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ أَخَاهُ أَبَا الْقُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي الْقُعَيْسِ، فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي الْقُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا مَنَعَكِ أَنْ تَأْذَنِي عَمُّكِ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي الْقُعَيْسِ، فَقَالَ: «**ائْذَنِي لَهُ فَإِنَّهُ عَمُّكِ تَرِبَتْ يَمِينُكِ**»)[689] هذا الحديث ظاهر في الدَّلالة على المراد بالمحرميَّة هاهنا.

---

687 (سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ رَجُلٍ لَهُ جَارِيَتَانِ، أَرْضَعَتْ إِحْدَاهُمَا جَارِيَةً وَالْأُخْرَى غُلَامًا أَيحِلُّ لِلْغُلَامِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْجَارِيَةَ؟ فَقَالَ: لَا، اللِّقَاحُ وَاحِدٌ) ["جامع العلوم والحكم" ص867] وَمَا ذَكَرَهُ شَيْخُنَا -حَفِظَهُ الله- وَقَفْتُ عَلَيْهِ بِلَفْظ: (إِذَا كَانَ لِرَجُلٍ امْرَأَتَانِ فَأَرْضَعَتْ إِحْدَاهُمَا بِلَبَنِه طِفْلًا وَالأُخْرَى طِفْلَةً صَارَا أَخَوَيْنِ، لِأَنَّ اللِّقَاحَ وَاحِدٌ، وَإِنْ أَرْضَعَتْ إِحْدَاهُمَا بِلَبَنِه طِفْلَةً ثَلَاثَ رَضَعَاتٍ ثُمَّ أَرْضَعَتْهَا الأُخْرَى رَضْعَتَيْنِ صَارَتْ بِنْتًا لَهُ دُونَهُمَا) ["عمدة الفقة" لابن قدامة المقدسي رحمه الله، ص94].

688 قَالَ عُرْوَةُ: (فَبِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: حَرِّمُوا مِنْ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ) اللفظ للبخاري.

689 متَّفقٌ عليه؛ واللفظ للبخاري.

❀ وقد ضبط الحافظ ابن رجب -رحمه الله- في قواعده -قواعد الأحكام- المحرَّمات من النَّسب فقال: (يَحْرُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أُصولُهُ وَفُرُوعُهُ، وَفُرُوعُ أَصْلِهِ الْأَدْنَى وَإِنْ سَفَلْنَ، وَفُرُوعُ أُصُولِهِ الْبَعِيدَةِ دُونَ بَنَاتِهِنَّ فَيَدْخُلُ فِي أُصُولِهِ: أُمُّهُ وَأُمُّ أُمِّهِ وَأُمُّ أَبِيهِ وَإِنْ عَلَوْنَ، وَدَخَلَ فِي فُرُوعِهِ: بِنْتُهُ وَبِنْتُ بِنْتِهِ وَبِنْتُ ابْنِهِ وَإِنْ نَزَلْنَ، وَدَخَلَ فِي فَرْعِ أَصْلِهِ الْأَدْنَى: أَخَوَاتُهُ مِنَ الْأَبَوَيْنِ أَوْ مِنْ أَحَدِهِمَا وَبَنَاتُهُنَّ وَبَنَاتُ الْإِخْوَةِ وَأَوْلَادُهُمْ وَإِنْ سَفَلْنَ، وَدَخَلَ فِي فُرُوعِ أُصُولِهِ الْبَعِيدَةِ: الْعَمَّاتُ وَالْخَالَاتُ وَعَمَّاتُ الْأَبَوَيْنِ وَخَالَاتُهُمَا وَإِنْ عَلَوْنَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْأَقَارِبِ حَلَالًا سِوَى أُصُولِ فُرُوعِهِ الْبَعِيدَةِ وَهُنَّ بَنَاتُ الْعَمِّ وَبَنَاتُ الْعَمَّاتِ وَبَنَاتُ الْخَالِ وَبَنَاتُ الْخَالَاتِ)[690] هذا معنى جامع لما يتعلَّق بهذا الحديث وما يتعلَّق بهذا الباب.

وأحكام الرَّضاع محلُّها كتب الفقه عند العلماء، والمراد هو الإشارة إلى القواعد العامَّة الَّتي تُستفاد في مثل هذا المتن -أي في مثل كتاب "الأربعين"-.

ابن القيِّم -رحمه الله- أشار إلى ما ذكرناه سابقًا من التَّحريم بلبن الفحل قال: (وَقَدْ دَلَّ التَّحْرِيمُ بِلَبَنِ الْفَحْلِ عَلَى تَحْرِيمِ الْمَخْلُوقَةِ مِنْ مَاءِ الزَّانِي دَلَالَةَ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا حَرُمَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْكِحَ مَنْ قَدْ تَغَذَّتْ بِلَبَنٍ ثَارَ بِوَطْئِهِ، فَكَيْفَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْكِحَ مَنْ قَدْ خُلِقَ مِنْ نَفْسِ مَائِهِ بِوَطْئِهِ؟ وَكَيْفَ يُحَرِّمُ الشَّارِعُ بِنْتَهُ مِنَ الرَّضَاعِ لِمَا فِيهَا مِنْ لَبَنٍ كَانَ وَطْءُ الرَّجُلِ سَبَبًا فِيهِ، ثُمَّ يُبِيحُ لَهُ نِكَاحَ مَنْ خُلِقَتْ بِنَفْسِ وَطْئِهِ وَمَائِهِ؟ هَذَا مِنَ الْمُسْتَحِيلِ؛ فَإِنَّ الْبَعْضِيَّةَ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَخْلُوقَةِ مِنْ مَائِهِ أَكْمَلُ وَأَتَمُّ مِنَ الْبَعْضِيَّةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ تَغَذَّتْ بِلَبَنِهِ، فَإِنَّ بِنْتَ الرَّضَاعِ فِيهَا جُزْءٌ مَا مِنَ الْبَعْضِيَّةِ، وَالْمَخْلُوقَةُ مِنْ مَائِهِ كَاسْمِهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَائِهِ، فَنِصْفُهَا أَوْ أَكْثَرُهَا بَعْضُهُ قَطْعًا، وَالشَّطْرُ الْآخَرُ لِلْأُمِّ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُعْرَفُ فِي الصَّحَابَةِ مَنْ أَبَاحَهَا، وَنَصَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى أَنَّ مَنْ تَزَوَّجَهَا، قُتِلَ بِالسَّيْفِ مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ)[691] انتهى كلام الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله-.

---

[690] "القواعد" لابن رجب رحمه الله، ص324.
[691] "زاد المعاد" ج5، ص506.

وينبغي أن يُعلم هاهنا أنَّه لم يثبت عن الإمام الشَّافعي -رحمه الله- أنَّه أجاز نكاح البنت من ماء الزِّنا كما يُتنذَّر بقول من قال:

وإنْ شَافِعِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأنَّني أُبِيحُ نِكَاحَ البِنْتِ وَالبِنْتُ تحرُم

وإنَّما غاية ما في ذلك أنَّه قال: (أَكْرَهُ)[692] وهذا المصطلح للشَّافعي ولغيره من أئمَّة السَّلف أنَّهم يستعملون في التَّحريم ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[693].

[692] "المهذب" للشيرازي رحمه الله، ص: 440.
[693] سورة الإسراء: 38

۞ الحديث الخامس والأربعون ۞

عَنْ جَابِرٍ رضي اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَقُولُ:

«**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ**».

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟

قَالَ: «**لَا، هُوَ حَرَامٌ**».

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمِ الشُّحُومَ، فَأَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**».

خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وهذا الحديث أيضًا من الأحاديث الجوامع في باب البيوع، وهو حديثٌ عظيمٌ جليلُ القدر في هذا الباب، يضبط أبواب البيوع ويضبط أحكامه، والعلماء -رحمهم الله- قد اعتنوا به -أي بهذا الحديث- وخصوصًا في ذِكرهم لأبواب البيوع.

وقوله هنا:[عَامَ الْفَتْحِ] يعني فتح مكَّة -كما هو معلومٌ-.

[وَهُوَ بِمَكَّةَ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ»]

_ والمَيْتَة -بفتح الميم-: هو مازالت عنه الحياة بغير ذكاة شرعيَّة، هذه هي المَيتة.

_ وأمَّا بكسر الميم: فهي الصِّفة والهيئة الَّتي يموت عليها الإنسان ومنه قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً))[694].

❀ وهذه اللَّفظة تُضبط بهذه الصُّورة، يعني أنَّ المراد هو (المَيْتة) من الذَّوات الَّتي لم تُذبح أو تُذكَّى على الطَّريقة الشَّرعيَّة، هذا هو المراد من هذا الحديث.

وقوله هنا: ((هُوَ حَرَامٌ)) المراد به مُختلفٌ بين أهل العلم فيه:
فالمذهب عند الشَّافعيَّة واختاره النَّووي منهم وهو اختيار شيخ الإسلام -رحمه الله- وابن القيِّم من الحنابلة، واختاره أيضًا ابن عثيمين -عليه رحمة الله- منهم، والصَّنعاني وغيرهم؛ أنَّ هذا عائدٌ على البيع، يعني أنَّ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((هُوَ حَرَامٌ)) هذا راجعٌ إلى البيع لا إلى الانتفاع.
وابن حجر -رحمه الله تعالى- يقول: (وَاسْتَدَلَّ الْخَطَّابِيُّ عَلَى جَوَازِ الِانْتِفَاعِ بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَتْ لَهُ دَابَّةٌ سَاغَ لَهُ إِطْعَامُهَا لِكِلَابِ الصَّيْدِ)[695] وقال الصَّنعاني -رحمه الله-: (وَقَدْ يَزِيدُهُ قُوَّةً قَوْلُهُ فِي ذَمِّ الْيَهُودِ: إِنَّهُمْ جَمِلُوا الشَّحْمَ ثُمَّ بَاعُوهُ، وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ)[696] وهذا ظاهر لأنَّ النَّهي متوجِّهٌ إلى البيع لا إلى الانتفاع.

فقوله هنا: ((فَأَجْمَلُوهُ)) يعني أذابوا الشَّحم.

❀ وهذا الحديث فيه جُملة من أحكام البيوع؛ منها: تحريم بيع الميتة، والخمر، والخنزير، وهذه كلُّها مجمعٌ على تحريم بيعها كما حكاه ابن المنذر وابن عبد البر والنَّووي وغيرهم من أهل العلم، وإن كان قد حصل في بعض صوَرها نوعٌ من الخلاف الخفيف.

---

694 متَّفقٌ عليه.
695 "فتح الباري" ج5، ص717.
696 "سبل السلام" للصنعاني رحمه الله، ج2، ص9.

ومنها أيضًا: أنَّ هذه الأمور كلّها الّتي نهى عنها النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام هنا مفسدتها ظاهرة وإفسادها للإنسان ظاهرٌ؛ كالمَيتة والخنزير هذه ضررها ظاهرٌ على البدن، وكذلك الخمر والأصنام ضررها ظاهرٌ على الأديان وهي أشدُّ وأعظم ففي بيعها وانتشارها ذهابٌ لطائفة من المقاصد الشَّرعيَّة.

وممَّا يتعلَّق بهذا الحديث أنَّ باب المنافع واسعٌ، والأصل فيه الحلُّ.

والأَصْلُ فِي عَادَاتِنَا الإِبَاحَهْ ... حَتَّى يَجِيءَ صَارِفُ الإِبَاحَهْ

وكما يقولون أيضًا: (الأَصْلُ فِي الأَعْيَانِ الطَّهَارَةُ).

✿ ومن فوائد هذا الحديث وأحكامه الجليلة:

_ أنَّه دليل على تحريم الحِيَل الموصلة إلى تحليل ما حرَّم الله -تبارك وتعالى- وهو أصلٌ في هذا الباب، وقد تكلَّم عليه الحافظ ابن رجب وقبله شيخه ابن القيِّم وقبله شيخه -يعني ابن تيمية رحمه الله- في كتابه "بيان الدَّليل على إبطال التَّحليل".

قد قال النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((قَاتِلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمِ الشُّحُومَ، فَأَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ)) وقال: ((لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ))[697].

فعلى كلِّ حال المَيتة ما مات بغير ذكاة شرعيَّة، أو ما مات حتف أنفه، فهؤلاء يُقرُّون بأنَّ الميتة حرام إلَّا أنَّهم يأخذون هذا الشَّحم ثمَّ يُجملوه ثمَّ يبيعونه.

---

[697] قال ابن تيمية رحمه الله: (وَقَدْ رَوَى ابْنُ بَطَّة بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...) اهـ -ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ- ["مجموع الفتاوى" ج29، ص29]

واستثنت الشَّريعة من الميتة الجراد والسَّمك، كما جاء ذلك في حديث ابن عمر وعليه جماهير أهل العلم.

وكذلك فيما يتعلَّق بتحريم الأصنام -كما قلتُ لكم- اختلف طوائف من أهل العلم في بيع كسره وبيعه إذا تغيَّرت صورته، إلى غير ذلك من الأحكام المطلوبة في كتب أهل الفقه.

❁ وممَّا ينبغي التَّنبيه عليه أنَّه حرَّم وسدَّ الذَّرائع الموصلة إلى الحيَل.

۞ الحديث السادس والأربعون ۞

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ -أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بِهَا، فَقَالَ: «**وَمَا هِيَ؟**»

قَالَ: الْبِتْعُ وَالْمِزْرُ.

فَقِيلَ لِأَبِي بُرْدَةَ: وَمَا الْبِتْعُ؟ قَالَ: نَبِيذُ الْعَسَلِ، وَالْمِزْرُ نَبِيذُ الشَّعِيرِ.

فَقَالَ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**».

خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ

هكذا اقتصر المصنِّف -رحمه الله تعالى- على تخريجه من البخاري، والحديث أخرجه الإمام مُسلم أيضًا من حديث أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه.

وكما ذكرنا أنَّ المصنِّف -رحمه الله- استدرك جُملة من الأحاديث الَّتي عليها مدار الفقه في أبوابها أو مدار الفتوى، فقد قال ابن رجب رحمه الله تعالى -وهو الَّذي تمَّم بهذه الأحاديث-: (فَهَذَا الْحَدِيثُ أَصلٌ فِي تَحْرِيمِ تَنَاوُلِ جَمِيعِ الْمُسْكِرَاتِ، الْمُغَطِّيَةِ لِلْعَقْلِ)[698]، (وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[699] هذا كلام الحافظ ابن رجب -رحمه الله-، وهو ظاهرٌ بأنَّ هذا الحديث من الأحاديث الَّتي عليها مدار أبواب الأشربة.

698 "جامع العلوم والحكم" ص881.
699 "جامع العلوم والحكم" ص883.

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعثه إلى اليمن، واليمن هي الإقليم المعروف، بلدٌ يُعرف بهذا الاسم من قديم الزَّمان، وقد قال بعض العلماء بأنَّ حدَّه الجغرافي ما أيمن الكعبة أو ما يامن الكعبة إلى منتهى شبة الجزيرة.

وقد أرسل النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم معاذًا أيضًا إلى اليمن وقد كان في أعلاها -كما في الصَّحيحين- وأرسل أبا موسى وكان في أسفلها -أي من جهة عدن-، حتَّى أنَّ معاذًا زار أبا موسى يومًا فوجد عنده رجلًا موثقًا فقال: (مَا هَذَا؟)[700] قال: (كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ)[701] فقال: (لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ)[702] فقال: (اجْلِسْ نَعَمْ)[703] قال: (لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ)[704] فقتله، -وهذا الحديث في الصَّحيحين-.

وقوله:[فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بِهَا] لأنَّ أبا موسى الأشعري من أهل اليمن، فهو سأل النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام بهذا السُّؤال لأنَّه يعلم بأنَّ النَّاس سيسألونه عن هذه الأشربة، وهذا فيه دليلٌ على أنَّ المقبِل على شيءٍ فإنَّه يسأل عنه ويتفقَّه فيه.

[فَقَالَ:«وَمَا هِيَ؟» قَالَ: الْبِتْعُ] هكذا ضَبَطهُ علماء اللُّغة وعلماء الحديث -بكسر الباء وسُكون التَّاء وبالعين المهملة-:[الْبِتْعُ] وقد فسَّره أبو بُردة رضي الله عنه بأنَّه نبيذ العسل، ونبيذ العسل يُطرح في الماء ويُنقع فيه حتَّى يشتدَّ؛ فإذا اشتدَّ صار مسكرًا، وهو الَّذي نُهي عنه، أمَّا مجرَّد الانتباذ بدون أن يشتدَّ -وقد قدَّره الجمهور بثلاثة أيَّام- فإنَّه جائزٌ شربه من العسل ومن غيره.

وقوله هنا:[وَالْمِزْرُ] قال:[نَبِيذُ الشَّعِيرِ] وهو كما تقدَّم أيضًا: الشَّعير يُطرح في الماء ويُنقع حتَّى يشتدَّ؛ فإذا اشتدَّ صار مُسكرًا، فإذًا صار مُسكرًا أو أسكر قليله فهو حرام، أمَّا مُجرَّد أن يُنقع الشَّعير ثمَّ يُشرب بيومٍ وليلة أو مازاد حتَّى إذا بلغ ثلاثة أيَّامٍ فإنَّه يجوز شُربه وتعاطيه.

---

700 متَّفقٌ عليه.

701 اللفظ للبخاري.

702 اللفظ لمسلم.

703 اللفظ لمسلم.

704 (...فَبَعَثَهُ عَلَى الْيَمَنِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ قَالَ: انْزِلْ، وَأَلْقَى لَهُ وِسَادَةً، وَإِذَا رَجُلٌ عِنْدَهُ مُوثَقٌ قَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ ثُمَّ رَاجَعَ دِينَهُ دِينَ السَّوْءِ فَتَهَوَّدَ، قَالَ: لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ: اجْلِسْ نَعَمْ، قَالَ: لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ) [متَّفقٌ عليه، واللفظ لمسلم]

وهذا الحديث قال فيه النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ)) وهذه اللَّفظة جعلها العلماء قاعدة أو ضابطًا في باب الأشربة؛ وهم الجمهور من المالكية والشَّافعية والحنابلة.

وخصَّ الحنفية الخمر بالعنب، ولم يرض قولهم عامَّةُ أهل العلم وردُّوا عليهم، وقد ذكر الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- هذا المعنى فقال: (وَخَالَفَ فِيهِ طَوَائِفُ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَقَالُوا: إِنَّ الْخَمْرَ إِنَّمَا هِيَ خَمْرُ الْعِنَبِ خَاصَّةً، وَمَا عَدَاهَا فَإِنَّمَا يَحْرُمُ مِنْهُ الْقَدْرُ الَّذِي يُسْكِرُ، وَلَا يَحْرُمُ مَا دُونَهُ، وَمَازَالَ عُلَمَاءُ الْأَمْصَارِ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ)[705].

وقد جاء عن ابن المبارك أنَّه قال: (مَا وَجَدْتُ فِي النَّبِيذِ رُخْصَةً عَنْ أَحَدٍ صَحِيحٍ إِلَّا عَنْ إِبْرَاهِيمَ -يَعْنِي النَّخَعِيَّ-، وَكَذَلِكَ أَنْكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ يَصِحُّ)[706] كما ذكر ذلك الحافظ ابن رجب -رحمه الله-.

❁ والمُسكر سُمِّي من الإسكار لأنَّه يُغطِّي العقل ويُذهبه، وقد قسمه الحافظ ابن رجب إلى قسمين -وكذلك طوائف من أهل العلم-؛ فقالوا: (مَا كَانَ فِيهِ لَذَّةٌ وَطَرَبٌ، فَهَذَا هُوَ الْخَمْرُ الْمُحَرَّمُ شُرْبُهُ...، قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا الْمُسْكِرُ جَامِدًا أَوْ مَائِعًا، وَسَوَاءٌ كَانَ مَطْعُومًا أَوْ مَشْرُوبًا، وَسَوَاءٌ كَانَ مِنْ حَبٍّ أَوْ تَمْرٍ أَوْ لَبَنٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ)[707] فهذا النَّوع الأوَّل: ما جمع بين اللَّذة والسُّكر.

_ والثَّاني: ما يُزيل العقل ويُسكر ولا لذَّة فيه ولا طرب كالبنج ونحوه، قال ابن رجب: (فَقَالَ أَصْحَابُنَا: إِنْ تَنَاوَلَهُ لِحَاجَةِ التَّدَاوِي بِهِ، وَكَانَ الْغَالِبُ مِنْهُ السَّلَامَةَ جَازَ...، وَإِنْ تَنَاوَلَ ذَلِكَ لِغَيْرِ حَاجَةِ التَّدَاوِي، فَقَالَ أَكْثَرُ أَصْحَابِنَا كَالْقَاضِي وَابْنِ عَقِيلٍ وَصَاحِبِ "الْمُغْنِي": إِنَّهُ مُحَرَّمٌ، لِأَنَّهُ تَسَبَّبَ إِلَى إِزَالَةِ الْعَقْلِ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، فَحَرُمَ كَشُرْبِ الْمُسْكِرِ...، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ ابْنُ عَقِيلٍ فِي "فُنُونِهِ": لَا يَحْرُمُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا لَذَّةَ فِيهِ، وَالْخَمْرُ إِنَّمَا حُرِّمَتْ لِمَا فِيهَا مِنَ الشِّدَّةِ الْمُطْرِبَةِ، وَلَا إِطْرَابَ فِي الْبَنْجِ وَنَحْوِهِ وَلَا شِدَّةَ...، وَأَمَّا الْحَدُّ، فَإِنَّمَا يَجِبُ بِتَنَاوُلِ مَا فِيهِ شِدَّةٌ وَطَرَبٌ مِنَ الْمُسْكِرَاتِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَدْعُو النُّفُوسُ إِلَيْهِ، فَجُعِلَ الْحَدُّ زَاجِرًا عَنْهُ، فَأَمَّا مَا فِيهِ سُكْرٌ بِغَيْرِ طَرَبٍ وَلَا لَذَّةٍ، فَلَيْسَ فِيهِ سِوَى التَّعْزِيرِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي النُّفُوسِ دَاعٍ إِلَيْهِ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى حَدٍّ

705 "جامع العلوم والحكم" ص884.
706 "جامع العلوم والحكم" ص884.
707 "جامع العلوم والحكم" ص887/888 [باختصار يسير].

مُقَدَّرٍ زَاجِرٍ عَنْهُ، فَهُوَ كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيـرِ، وَشُرْبِ الدَّمِ)[708] هكـذا قـال الحـافظ ابـن رجب -رحمه الله-، وبمثل هذا القول قال النَّووي من الشَّافعية على أنَّه ليس فيه حدّ ولكـن فيه التَّعزير، وهذه مسألة قد اختلف فيها أهل العلم.

والنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ)) فهذه المسكرات لاشكَّ في حرمتها، لكن العلماء اختلفوا -رحمهم الله- فيما إذا استُخدم هذا لغرضٍ طبيّ ليس للتَّداوي وإنَّما هو وسيلة للتَّداوي؛ كأن يُجعل في جسم الإنسان حتَّى يذهب عقله من أجل بتر عضوٍ من أعضائه مثلًا إذا كان يحتاج إلى بتره أو لإقامة عمليَّة -كما هو معروفٌ في هذا العصر- وقد قال طوائف من أهل العلم -كما ذكر الحافظ ابن رجب في شرحه للبخاري والنَّووي في شرحه لمسلم- وخرَّجوا ذلك على مذاهب العلماء على أنَّ استعماله جائزٌ والحالة هذه، وكذلك أفتت اللَّجنة الدَّائمة للإفتاء برئاسة مُفتي الأنام الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز -عليه رحمة الله-، وكذلك صدر قرارٌ من هيئة كبار العلماء بجواز استعماله، يعني الَّذي يُستعمل في المستشفيات من أجل التَّخذير الموضعي أو التَّخذير الكلِّيّ لأجل إقامة العمليَّة فإنَّ هذا جائزٌ أن يُستعمل إذا دعت الحاجة إلى استعماله لإقامة هذه العمليات.

* لكن هاهنا مسألة دقيقة وهي أنَّ بعض النَّاس سأل: هل يجوز استعمال المخدِّر عند إقامة الحدود؟ مثلًا: سرق رجل فحُكم عليه بقطع يده، قال بعضهم: (نُعطيه مخدِّرا حتَّى يتمَّ قطع اليد) فهل هذا جائز؟!

سُئل شيخنا العلَّامة الفوزان -حفظه الله- عن هذا فسمعته يقول: لا يجوز هذا، لأنَّ المقصود هو إقامة الحدِّ عليه وإيجاد الألم.
لكن لا مانع من حَسمها بعد ذلك -كما هو معلوم-، يعني أنَّها تُوضع في زيت أو ما أشبه ذلك حتَّى يقف الدَّم.

هذا ما يتعلَّق بهذا الحديث وهي من المسائل الكبرى الَّتي طال النِّزاع فيها بين أهل الكوفة وغيرهم، ولم يرض العلماء عن قولهم ولهذا شُهِروا بها، كما شُهر أهل مكَّة بالصَّرف، وكما

---
708 "جامع العلوم والحكم" ص888/889 [باختصار].

شُهر أهل المدينة بالغناء -يعني المتأخِّرين كما ذكر ابن القيِّم رحمه الله تعالى-، ولا يُتابعون على هذا إطلاقًا لأنَّه قد دلَّت الأدلَّة عليه.

۞ هذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

_ من أبرزها -كما ذكرتُ لك آنفًا-: سُؤال العالِم أو الرُّجوع إلى أهل العلم.

_ ومنها: أنَّ الإنسان إذا أراد أن يُقْدِم على أمرٍ أو أن يُواجه أمرًا في دعوته فإنَّه يسأل أهل العلم عنه.

_ ومن فوائده: السُّؤال عن ما أشكل على الإنسان؛ كما سأل الرَّاوي أبا بُردة عن البتع والمزر.

_ ومن فوائده: أنَّ المُسكرات يَحرم تناولها لما فيها من الأضرار والمفاسد، وأنَّها من كلِّ ما أسكر لعموم قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ)) كما هو قول جماهير أهل العلم.

ومن نفائس لاميَّة ابن الوردي -رحمه الله تعالى- في أبياته يقول:

وَاتْرُكِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى   كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ؟

_ ومن فوائده: أنَّ الحكم دائرٌ مع علَّته؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام لم يُحدِّد لهم شيئًا مُعيَّنًا، وإنَّما أعطاهم ضابطًا يرجعون إليه فقال: ((كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ)) فإذا دار الشُّرب مع الإسكار فإنَّه يكون حرامًا، فيَحرم كلُّ مسكر من أيِّ شيء كان.

_ ومن فوائده أيضًا: أنَّ ما أسكر كثيره فقليله حرام، كما هو معلومٌ -وقد تقدَّم الـكلام عليه-.

_ ومن فوائده أيضًا: أنَّه يَحرم تناول كلّ ما يُذهب العقل، بل بعض النَّاس ربَّما يستعمل -لا أدري ما تُسمُّونه في مُختلف بلادكم- ما يُسمَّى بـ: (البُستِك) أو (الغراء) الَّذي يُوضع على الأخشاب من أجل أن تتماسك مع بعضها البعض، هذا كلُّه حرام لا يجوز.

_ ومنها أيضًا: أنَّه دلَّ على مقصدٍ عظيم من مقاصـد الشَّريعـة المشـهورة الخمسـة وهي: حفظ العقل.

۞ الحديث السابع والأربعون ۞

عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لنفَسِهِ».

رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ

هذا كلام الحافظ ابن رجب -رحمه الله- وحكمه على الحديث.

• والحديث قد حسَّنه التِّرمذي -كما ذكر المصنِّف-، وحسَّنه البغوي، وحسَّنه أيضًا الحافظ المنذري في "التَّرغيب والتَّرهيب"، وحسَّنه أيضًا الحافظ ابن حجر -عليهم رحمة الله-.

• كما أنَّه قد صحَّحه ابن حبَّان والإشبيلي وابن مُفلح والشَّيخ الألباني -عليهم رحمة الله جميعًا-.

• وقد ضعَّفه بعض أهل العلم كشيخنا مقبل -عليه رحمة الله- في كتاب "أحاديث معلَّة ظاهرها الصِّحة".

❁ والحديث إذا نظرتَ إلى مُفرد أسانيده تجد أنَّ يحي بن جابر لم يسمع من المقداد بن معدي كرب، لكن الحديث له طُرق وشواهد يرتقي بكثرتها، ويُحكم بحُسنه على أقلِّ الأحوال.

وهذا الحديث معارضٌ لما جاء في صحيح الإمام البُخاري ومسلم، وبوَّب عليه البخاري -رحمه الله-: (بَابُ مَنْ أَكَلَ حَتَّى شَبِعَ)[709] ثمَّ ذكر حديث أبي هريرة: (لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا)[710] وهو موافق -يعني حديث الباب الذي نحن بصدده- لما جاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: ((**كُفَّ عنَّا جُشاءَكَ، فإنَّ أَكْثرَهُم شِبَعًا فِي الدُّنيا أطْولُهم جوعًا يوْمَ القِيَامَة**))[711] والحديث حسَّنه الألباني.

❋ والجمع بين هذا وهذا -والعلم عند الله تعالى-:
أنَّ هذا محمول على النَّاذر -أعني حديث أبي هُريرة رضي الله عنه وأرضاه-؛ وأنَّ فيه إظهارًا للكرامة لأبي هريرة وللمعجزة للنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه قال: (مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا)، فإذا أكل الإنسان حتَّى شبع أحيانًا فإنَّ هذا لا حرج فيه، ولا يكون غرضه التَّسمُّن أو غرضه الدُّنيا، وإنَّما يحتسب اللُّقيمات الَّتي يأكلها في طاعة الله -جلَّ جلاله-.

هنا يقول النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ)) وهذا اللَّفظ منه عليه الصَّلاة والسَّلام -أي التَّعبير بالوعاء- أراد به الظَّرف الَّذي يوضع فيه الشَّيء، فجعل بطن ابن آدم كالوعاء.

قال: ((بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ)) أي يكفيه، ((أُكلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ)) بمعنى يتقوَّى بهنَّ على طاعة الله والعمل برضاه.

((فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ)) أن يأكل ((فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ)) بمعنى أنَّه يأكل قدر الثُّلث، ((وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ)) بمعنى أنَّه يترك للشَّراب نحوه، ((وَثُلُثٌ لنفَسِهِ)).

وهذا الحديث تكلَّم عليه العصريون وأطالوا فيما يتعلَّق به من المعجز الطبِّي والمصالح والمنافع الَّتي يُحصِّلها العبد إذا مشى على هذه الطَّريقة، قال الحافظ ابن رجب: (وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ جَامِعٌ لِأُصُولِ الطِّبِّ كُلِّهَا، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ مَاسَوَيْهِ الطَّبِيبَ لَمَّا قَرَأَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي

---

709 صحيح البخاري.
710 رواه البخاري.
711 حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

كِتَابِ أَبِي خَيْثَمَةَ؛ قَالَ: لَوِ اسْتَعْمَلَ النَّاسُ هَـذِهِ الْكَلِمَـاتِ، سَـلِمُوا مِـنَ الْأَمْـرَاضِ وَالْأَسْـقَامِ، وَلَتَعَطَّلَتِ الْمَارِسْتَانَاتُ) يعني المستشفيات (وَدَكَاكِينُ الصَّيَادِلَةِ) يعني الصَّيدليات (وَإِنَّمَا قَـالَ هَذَا؛ لِأَنَّ أَصْلَ كُلِّ دَاءٍ التُّخَمُ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرَدَةُ)[712] -أو المعدة-، قـال ابـن حجر: (وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي "شَرْحِ الْأَسْمَاءِ": لَوْ سَمِعَ بُقْـرَاطُ بِهَـذِهِ الْقِسْـمَةِ لَعَجِـبَ مِـنْ هَـذِهِ الْحِكْمَةِ)[713]، وقال الغزَّالي قبله: (ذُكِرَ هَذَا الْحَدِيثُ لِبَعْضِ الْفَلَاسِفَةِ فَقَالَ: مَا سَمِعْتُ كَلَامًا فِي قِلَّةِ الْأَكْلِ أَحْكَمَ مِنْ هَذَا)[714]، وذكر الدّمياطي في شرحه قال: (رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا سَـأَلَ مَـالِكًا فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَقَالَ: أَوْصِنِي، فَقَالَ إِنْ شِئْتَ جَمَعْتُ لَكَ عِلْمَ الْعُلَمَاءِ وَحِكَمَ الْحُكَمَاءِ وَطِبَّ الْأَطِبَّاءِ فِي ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ، وَأَمَّا طِبُّ الْأَطِبَّاءِ: فَإِذَا أَكَلْتَ طَعَامًـا فَـلَا تَقُـمْ إِلَّا وَنَفْسُـكَ تَشْتَهِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُنِمُّ بِجَسَدِكَ غَيْرُ مَرَضِ الْمَوْتِ)[715] هذه من الحِكم العظيمـة -ونسـأل الله أن يُصلح أحوال المسلمين-.

✿ وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة مُتعلِّقة به:

_ من فوائده: أنَّ هذه الشَّريعة كاملة تامَّة علَّمت أتباعها وأصحابها جميع أنواع الآداب؛ ومنها الآداب المتعلِّقة بالأكل والشُّرب، وهي كثيرةٌ في الكتـاب وفي السُّـنَّة وفي آثـار السَّـلف وكتب الفقهاء.

_ ومنها: أنَّ الجسد له حقٌّ بعدم إرهاقه وإتخامه.

_ ومنها: أنَّه يتعطَّل عن سيره إلى ربِّه إذا أُفسد هذا الجسد، وممَّا يُحكى عـن الشَّـافعيِّ -رحمه الله- وهذه أبياتٌ له:

ثَـلَاثٌ هُـنَّ مُهْلِكَـةُ الأَنَـامِ

[712] "جامع العلوم والحكم" ص892.
[713] "فتح الباري" لابن حجر رحمه الله، ج12، ص299.
[714] "فتح الباري" لابن حجر رحمه الله، ج12، ص299.
[715] تعذّر الوقوف عليه، -وهذا لا يعني عدم وجوده-.

قـــــــال:

وإِدْخَالُ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ

_ ومنها: أنَّ الشَّريعة ندبت إلى اعتناء الإنسان بصحَّته، وقد حُكيَ عن الشَّافعي أنَّه قـال: (الطِّبُّ عِلْمٌ غَلَبَنَا عَلَيْهِ الْيَهُودُ)[716] -أو بهذا المعنى-، ومعلومٌ أنَّ المسلمين هـم السَّـبَّاقون إلى هذا النَّوع من العلم، قال الحافظ ابن القيِّم (وَمَرَاتِبُ الْغِذَاءِ ثَلَاثَةٌ:

_ أَحَدُهَا: مَرْتَبَةُ الْحَاجَةِ.

_ وَالثَّانِيَةُ: مَرْتَبَةُ الْكِفَايَةِ.

_ وَالثَّالِثَةُ: مَرْتَبَةُ الْفَضْلَةِ.

فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ أَنَّـهُ يَكْفِيـهِ لُقَيْمَـاتٌ يُقِمْـنَ صُـلْبَهُ، فَـلَا تَسْـقُطُ قُوَّتُـهُ، وَلَا تَضْعُفُ مَعَهَا، فَإِنْ تَجَاوَزَهَا فَلْيَأْكُلْ فِي ثُلُثِ بَطْنِهِ، وَيَـدَعِ الثُّلُـثَ الْآخَـرَ لِلْمَـاءِ، وَالثَّالِـثَ لِلنَّفَسِ، وَهَذَا مِنْ أَنْفَعِ مَا لِلْبَدَنِ وَالْقَلْـبِ...، هَـذَا إِذَا كَانَ دَائِمًـا أَوْ أَكْثَرِيًّـا، وَأَمَّـا إِذَا كَانَ فِي الْأَحْيَانِ فَلَا بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ شَرِبَ أَبُو هُرَيْرَةَ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ اللَّـبَنِ حَـتَّى قَالَ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا» وَأَكَلَ الصَّحَابَةُ بِحَضْرَتِهِ مِرَارًا حَتَّى شَبِعُوا)[717] هذا كلامهُ عليه -رحمة الله- من "زاد المعاد".

---

[716] قال الشَّافعي رحمه الله: (لَا أَعْلَمُ عِلْمًا بَعْدَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ أَنْبَلَ مِنَ الطِّبِّ، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ غَلَبُونَا عَلَيْهِ) ["سير أعلام النبلاء" ج10، ص57]

[717] "زاد المعاد" لابن القيم رحمه الله، ج4، ص17 [باختصار].

۞ الحديث الثامن والأربعون ۞

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، وَمَنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ».

خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة في استواء الظَّاهر والباطن؛ من الأحاديث الَّتي اختارها الحافظ ابن رجب في هذا المقام.

النِّفاق: مأخوذٌ من النَّفَقِ الَّتي يدخله اليربوع؛ وله مدخلان فيه أو مدخل ومخرج [...][718] هناك من المكان الآخر.

والنِّفاق -كما يقول الحافظ ابن حجر- اسم إسلاميٌّ، يعني أنَّه لم يكن معروفًا أو متداولًا عند العرب، وما ظهر النِّفاق إلَّا بعد الهجرة ولم يكن معروفًا.

[718] انقطاع يسير في الصَّوت.

✿ والنِّفاق قسمان -كما هو معلوم-:

_ نفاق اعتقاديٌّ؛ وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، كحال المنافقين الَّذين ذكرهم الله -تبارك وتعالى- في كتابه:﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[719].

_ والثَّاني: هو العمليُّ، وهو أن يرتكب الإنسان الصِّفات أو الخصال الَّتي ذكر النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّها خصال النِّفاق ويكون هذا هو ديدنه أو الغالب فيه -كما سيأتي معنا الكلام عليه-.

- فالأوَّل مخرجٌ من الملَّة، والثَّانِي لا يُخرج صاحبه من الملَّة.

وقد بوَّب البخاريّ -رحمه الله تعالى- في صحيحه: (بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ)[720] ثمَّ ذكر أثر ابن أبي مُليكة أنَّه قال: (أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ)[721] وذكر أثر الحسن أنَّه قال: (مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ)[722] وكان إبراهيم التَّيمي يقول: (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا)[723] أو قال: (مُكَذَّبًا).
وجاء أنَّ عمر رضي الله عنه سأل حذيفة بن اليمان لمَّا سمَّى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام المنافقين؛ فقال: (أَسَمَّانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ؟)[724] سُؤال عمر وخوف الصَّحابة الَّذين تقدَّم ذكرهم إنَّما هو في النِّفاق العملي؛ كما حكى على ذلك الإجماع الحافظ ابن رجب والحافظ ابن حجر، ولم يكونوا يخافون النِّفاق الاعتقادي وإنَّما النِّفاق الَّذي كانوا يخافونه النِّفاق العملي بمعنى أنَّه يطَّرد حاله في فعل هذه الأشياء.

---

719 سورة البقرة: 14
720 صحيح البخاري.
721 صحيح البخاري.
722 صحيح البخاري.
723 صحيح البخاري.
724 قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِحُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَا حُذَيْفَةُ، نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا) ["مدارج السالكين" ج1، ص365]

فقول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: ((أَرْبَعٌ)) هذا العدد كما هو معلومٌ لا مفهوم له لأنَّه جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة: ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ))[725] فأحيانًا يُذكر هذا لاشتهاره أو انتشاره وأحيانًا يُذكر هذا أو يكون المقام مُناسبًا للتَّحذير من هذا الشَّيء.

وقوله هنا: ((مُنَافِقًا)) أي النِّفاق العملي، وهذا إجماعٌ من أهل العلم.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَمَنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ)) المراد بالخصلة: الخُلَّة الَّتي تكون في الإنسان.

وقوله هنا عليه الصَّلاة والسَّلام: ((وَإِذَا وَعَدَ)) يعني أن يُنجز شيئًا ((أَخْلَفَ)) يعني لم يقم به ولم يَفِ.

وقوله: ((فَجَرَ)) أي مالَ في الخصومة عن الحقِّ، فلم يأخذ بالحقِّ الَّذي فيها مع خصمه وإنصافه والعدل معه.

قال: ((وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ)) بمعنى أنَّه نقض العهد الَّذي عاهده.

وكلُّ هذه الخصال إنَّما تكون في الإنسان إذا عزمها ابتداءً أمَّا إذا عرض له عارض كما قال العلماء بمعنى أنَّه وعد لكنَّه لم يستطع الوفاء فإنَّ هذا لا شيءَ عليه وليس داخلًا في هذا المعنى.

* وأمرٌ آخر هو أنَّ الحديث دلَّ بلفظه على الاِطِّراد والكثرة في هذا الأمر؛ من أين أخذنا هذا؟ أخذنا هذا من قوله عليه الصَّلاة والسَّلام، بتكرار هذا اللَّفظ: ((إِذَا حَدَّثَ))، ((وَإِذَا وَعَدَ))، ((وَإِذَا خَاصَمَ))، ((وَإِذَا عَاهَدَ))، فإنَّ (إذَا) هذه تُستعمل كما قال طوائف من أهل اللُّغة: تُستعمل لإرادة الدَّوام بمعنى (كُلَّما)، وهذا له شواهد ونظائر في كلام العرب -في شعرها

---

[725] متَّفق عليه، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

ونثرها-، بمعنى أنَّهم يقولون (إذَا) ويريدون بـ (إذا) أن يُقيموها مقام (كُلَّمَا) وعلى هذا فإنَّ قوله: (كُلَّمَا حدَّثَ كذَب)، (كُلَّمَا وَعَدَ أَخْلَفَ)، أمَّا أن يقع هذا الشَّيء منه أحيانًا ولا يكون مقصودًا من جهته فإنَّ هذا لا يُدخله في شُعب النِّفاق -والعلم عند الله- كما هو مُحصَّل كلام أهل العلم -رحمهم الله-.

✿ من فوائد هذا الحديث:

_ تحذير النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم الصَّحابة من النِّفاق وأنَّ المؤمن يخاف منه، -والمراد النِّفاق العملي-.

_ ومنها: أنَّ الخوف من النِّفاق من الأدلَّة على الإيمان (مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ)[726] فهذا دليلٌ على إيمان العبد، وأمَّا الإنسان الآمن على نفسه الَّذي لا يظنُّ أنَّه يأتيها سوء فهذا من المكورين بهم -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

_ ومنها: النَّهي عن مشابهة المنافقين أكان ذلك في خصلة من خصالهم أو في جميعها.

_ ومنها: أنَّ صفات النِّفاق كثيرة؛ ومن أحسن الكتب المصنَّف في هذا كتاب الإمام الفِرْيَابي "صفات النِّفاق" وهو مطبوع ومخدوم -ولله الحمد-، يتعرَّف عليه طالب العلم.

_ ومنها: أنَّ هذه الصِّفات الَّتي ذُكرت في هذا الحديث كلُّها محرَّمة بل من الكبائر بل قال بعض أهل العلم بأنَّها من خصال الكفر في القرآن وليست كُفرًا، هي من خصال الكُفر وشُعبه، وليس من فَعَلَها يكون كافرًا، فهذا دليلٌ على أنَّها محرَّمة تحريمًا عظيمًا وأنَّها من كبائر الذُّنوب؛ وهي الكذب وإخلاف الوعد والفجور في الخصومة والغدر بالعهود والخيانة.

726 صحيح البخاري [عن الحسن رحمهم الله]

_ ومن فوائد هذا الحديث: الحرص على أن يكون المسلم في أرفع درجات الأخلاق الَّتي أرادها الله تبارك وتعالى- منه.

_ ومنها: أنَّ هذه الأفعال كلّها قبيحة لا ينبغي للمسلم أن يكون من أهلها بل يعزم على أن يصدق إذا حدَّث وأن يفي إذا وعد وأن يعدل إذا خاصم، فإنَّ هذا هو الَّذي يأمره به دينه.

والحديث له كلامٌ طويل، أو فيه كلامٌ طويل.

_ وأنَّ المسلم لا يُعامل النَّاس بمعاملتهم؛ كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**))[727] وهو حديثٌ حسن حسَّنه الألباني -عليه رحمة الله- وغيره من أهل العلم.

_ ومن فوائد الحديث: أنَّه قد يجتمع في المؤمن خصال الإيمان وخصال النِّفاق -عياذًا بالله- ولا يُخرجه ذلك عن دائرة الإسلام، كما يجتمع فيه الإيمان والمعصية.

[727] صححه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ الحديث التاسع والأربعون ۞

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي اللهُ عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا».

رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي "صَحِيحِهِ"، وَالْحَاكِمُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

هؤلاء الأئمَّة الَّذين ذكرهم المصنِّف -رحمه الله- قد صحَّحوا هذا الحديث، فقد ذكر أنَّ ابن حبَّان رواه في "صحيحه"، والحاكم معلومٌ أنَّه اشترط الصِّحة فيما استدركه على الشَّيخين -وإن كان لم يفِ بهذا في كثيرٍ من الكتاب بل وقع له أحاديث موضوعة كما هو معلومٌ من كلام أهل العلم في "المستدرَك"-، وكذلك صحَّحه التِّرمذي كما حكى المصنِّف عنه، وقد صحَّحه أيضًا ابن خُزيمة فقد رواه أيضًا في "صحيحه" واشترط أن لا يُخرِّج إلَّا حديثًا صحيحًا، وكذلك صحَّحه الإمام عبد الحقّ الإشبيلي -رحمه الله تعالى- في كتابه "الأحكام الصُّغرى"، وصحَّحه العلَّامة الألباني -عليهم رحمة الله ومغفرته-، وكذلك الحافظ ابن رجب لإقراره بتصحيح هؤلاء الأئمَّة.

وقد حسَّنه طائفةٌ أخرى من أهل العلم كـ: البغوي وابن العربي، وقال ابن مُفلح: إسناده جيِّد.

وهذا الحديث قاعدةٌ عظيمةٌ في باب التَّوكُّل على الله والسَّير إليه، وهذا التَّوكُّل من أعظم أعمال القلوب وأجلِّها بل هو كما عبَّر عنه الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- بأنَّه مركب السَّائر إلى

الله، لأنَّ السَّائر إلى الله تعالى لا بدَّ له من مركبٍ يسير عليه إلى الغاية الَّتي يُريد أن يصل إليها.

_ وأعظم الغايات في الدُّنيا: عبادة الله -جلَّ وعلا-، فهي أعظم الغايات.

_ وأعظم غايات الآخرة: هي الوصول إلى جنَّة الله تعالى.

(فَالتَّوَكُّل مَرْكبُ السَّائِرِ الَّذِى لَا يَتَأَتَّى لَهُ السَّيْرُ إِلَّا بِهِ، وَمَتَى نَزَلَ عَنْهُ انْقَطَعَ لِوقتِهِ، وَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ الإِيمَان وَمُقْتَضَيَاتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[728] فَجَعَلَ التَّوَكُّلَ شَرْطًا فِي الإِيمَانِ، فَدَلَّ عَلَى انْتِفَاءِ الإِيمَانِ عِنْدَ انْتِفَاءِ التَّوَكُّلِ)[729] هذا كلام الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله- في كتابه "طريق الهجرتين وباب السَّعادين".

فإذا عُلم هذا فإنَّ هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لمعاني أعمال القلوب؛ فإنَّ أعمال القلوب جليلة جدًّا وعظيمة ولهذا يقول ابن القيِّم -رحمه الله-: (التَّوَكُّلُ نِصْفُ الدِّينِ، وَالنِّصْفُ الثَّانِي الإِنَابَة، فَإِنَّ الدِّينَ اسْتِعَانَةٌ وَعِبَادَةٌ، فَالتَّوَكُّلُ هُوَ الاسْتِعَانَة، وَالإِنَابَة هِي العِبَادَة)[730] إلى آخر كلامه -رحمه الله- في "المدارج".

فإذا عُلم هذا فإنَّ هذا الحديث مُحتاجٌ منَّا إلى أن نتأمَّل في حقيقته وما دلَّ عليه وما تضمَّنه من المعاني الجليلة.

والرَّاوي له: عمر الفاروق رضي الله عنه [عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ»] ومعلومٌ أنَّ أصلها: (تتوكَّلون).

((لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ)) التَّوكُّل في أصل اللُّغة: التَّفويض، وحقيقته: صِدقُ اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضارّ مع فعل الأسباب المأذون فيها؛ كما عرَّفه به العلَّامة الحكمي -رحمه الله- في "المعارج"، فإذا عُلم هذا فقد تضمَّن التَّوكُّل الصِّدق في الاعتماد -اعتماد القلب على الله- وأن يكون التَّوكُّل في جلب المصالح الَّتي يرُومها العبد وأن يكون في دفع المضار الَّتي يخشى العبد نزولها وهذا كلُّه لا بدَّ فيه من الأخذ بالأسباب، فالعبد لا بدَّ له من أخذٍ بالأسباب.

---

[728] سورة المائدة: 23

[729] "طريق الهجرتين"، ص:557

[730] "مدارج السالكين"، ج2، ص113.

وهذا الحديث -الَّذي نحن بصدده- أصلٌ عظيمٌ في الأخذ بالأسباب، فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمر بالتَّوكُّل وبيَّن حقيقته بفعل الأسباب وذلك بضرب المثال والتَّشبيه بحالة الطُّيور الَّتي تخرج من أوكارها طلبًا لأرزاقها ويكون مبدأ خروجها في الغداة -وهي الصَّباح- ورجوعها في الرَّواح -وهو آخر النَّهار-، فتخرج ليس لها أو عندها شيءٌ بل تعمد إلى طلب رزقها ورزق من تقوم عليه من أفراخها ثمَّ ترجع وقد امتلأت بطونها؛ والتَّوكُّل على الله هذه هي حقيقته، هذا الحديث دالٌّ على حقيقة التَّوكُّل، فمن ترك الأسباب بحجَّة أنَّه متوكِّل فقد كذب على الشَّريعة -كما سيأتي بيانه-، لماذا؟ لأنَّ التَّوكُّل لا يُنافي فعل الأسباب بل هو داعٍ إلى الأسباب، وكما هو معلومٌ المقالة المشهورة الَّتي قالها طوائف من أهل العلم على أنَّ الاعتماد على الأسباب شِرك وترك الأسباب قدحٌ في الشَّريعة ونقصٌ في العقل.

فالتَّوكُّل إذًا من أعظم الأسباب الَّتي يحصل بها المطلوب للعبد ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التَّوكُّل؛ ولكن من تمام توكُّل العبد وتوكُّل قلبه أنَّه لا يركن إلى هذه الأسباب بل يُعطيها حظَّها وحقَّها ولا يرفعها إلى مرتبةٍ فوق مرتبتها وهي كونها (سبب) هذا هو الَّذي قرَّره أهل العلم وأئمَّة الإسلام، فمن قعد عن أخذ الأسباب وبذلها لم يكن متوكِّلًا وإن زعم أنَّه متوكِّلٌ على الله؛ بل هو كاذبٌ في دعواه حتَّى يكون القلب معتمدًا على الله والأسبابُ مبذولةٌ في طلب المقصود الَّذي يُريد أن يصل إليه، هذه هي حقيقة التَّوكُّل.

والتَّوكُّل له ثمرات عظيمة، ثمراتٌ جليلة؛ يحتاجها كلُّ عبدٍ، لخَّصها الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في شرحه لهذا الحديث فقال: (وَاعْلَمْ أَنَّ ثَمَرَةَ التَّوَكُّلِ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ، فَمَنْ وَكَّلَ أُمُورَهُ إِلَى اللهِ وَرضي بِمَا يَقْضِيهِ لَهُ وَيَخْتَارُهُ، فَقَدْ حَقَّقَ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْحَسَنُ والفُضَيْلُ وَغَيْرُهُمَا يُفَسِّرُونَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ بِالرِّضَا)[731] فهذا ثمرة أو بعض ثمرات التَّوكُّل.

[731] "جامع العلوم والحِكَم"، ص: 925

۞ وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

_ منها: فضل التَّوكُّل -كما ذكرنا آنفًا-.

_ ومنها: أنَّ التَّوكُّل من أجلِّ أعمال القلوب لأنَّ فيه اعتماد القلب على الله -تبارك وتعالى-.

_ وأنَّ التَّوكُّل أيضًا من أعظم أسباب جلب الرِّزق، والنَّاس يسألون عن الأسباب الجالبة للرِّزق، فالتَّوكُّل من أعظمها وأجلِّها، على حقيقته ومُقتضاه، ليس المعنى أن يُعطِّل الأسباب والأخذ بها ثمَّ يزعم أنَّه متوكِّلٌ على الله -تبارك وتعالى-.

_ ومن فوائد هذا الحديث: التَّعليم بالمثال؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم علَّم أصحابه حقيقة التَّوكُّل بضرب المِثال لهم بهذه الطُّيور الَّتي تغدوا خماصًا وتروح وترجع إلى أكنانها وقد امتلأت بطونها، وهذه هي حقيقة التَّوكُّل على الله والرِّضا بقضاء الله -جلَّ جلاله- وقدره.

❀ وكما قُلنا سابقًا فإنَّ التَّوكُّل من أجلِّ أعمال القلوب ومن ثمَّة قال من قال كشيخ مشايخنا العلَّامة محمَّد بن إبراهيم آل الشّيخ -رحمه الله- في "الفتاوى" بأنَّه لا يجوز أن يقول العبد: (توكَّلت على الله ثُمَّ عليك) وهذا المعنى ظاهر إذا تأمَّله العبد.

واستدلَّ طوائف من أهل العلم بهذا الحديث -كالشَّيخ ابن عثيمين عليه رحمة الله- على أنَّ المخلوقات والطُّيور وغيرها يعلمون أو يعرفون الرَّبَّ -جلَّ وعلا-، وهذا المعنى قد يكون

ظاهرًا من الحديث، وإلَّا فإنَّ الله -جلَّ جلاله- قد قال في كتابه الكريم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[732].

[732] سورة الإسراء: 44

۞ الحديث الخمسون ۞

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ؟

قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-**».

خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا اللَّفْظِ

هذا لفظ الإمام أحمد كما قال المصنِّف -رحمه الله تعالى-.

- وقد صحَّحه ابن حبَّان في الصَّحيح -لأنَّه رواه أيضًا-، وكذلك الحاكم، وصحَّحه العلَّامة الألباني -عليه رحمة الله-.
- وحسَّنه جماعة من أهل العلم؛ منهم: التِّرمذي والبغوي والمنذري وابن حجر، وابن مُفلح في "الآداب الشَّرعية" قال بأنَّ إسناده جيِّد -قد جوَّد إسناده-.

❀ وهو حديث صحيح عند طوائف من أهل العلم.

وختم المصنِّف -رحمه الله تعالى- به هذا الكتاب، وهذه الطَّريقة استعملها طوائف من أهل العلم؛ فإنَّ البُخاري -رحمه الله تعالى- ختم كتابه بحديث أبي هريرة: ((**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ**

العَظِيمِ))[733]، وكذلك ختم الحافظ ابن حجر كتابه "بلوغ المرام" بهذا الحديث، وكذلك ختم الحافظ ابن حجر كتابه "فتح الباري" بحديث الذِّكر والدُّعاء الوارد في كفَّارة المجلس.

والعبد لابدَّ له في سيره إلى الله -تبارك وتعالى- والدَّار الآخرة ممَّا يقُوم به قلبه وتقوم به جوارحه ويقطع له عناء السَّفر ويردُّ عنه الشَّواغل والمكدِّرات والمنغِّصات، ولمَّا كان الطَّريق الموصل إلى الله -جلَّ وعلا- تنتابه سباعُ الجنِّ والإنس من قُطَّاع الطَّريق كان من أعظم الأسباب الَّتي تدفع هؤلاء القطَّاع: هو ذكر الله -جلَّ وعلا-.

* ومِن أحسن من تكلَّم عن الذِّكر وفوائده وأطال بنَفَس طويل: الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله- في كتابه "الوابل الصَّيب من الكلم الطَّيب"؛ فقد ذكر جملة عظيمة مباركة من فوائد الذِّكر وفضائله.

فالأذكار هي قوت القلوب وحياة الأرواح، ذِكر الله -جلَّ وعلا- بجميع أنواعه: المطلقة والمقيَّدة، والمشروعة في غيرها من العبادات؛ كالصَّلاة والحج والصِّيام، أو المشروعة مُنفردة بنفسها وبذاتها، فإنَّ سائر العبادات من أجلِّ أعمالها: ذكر الله تعالى، والصَّلاة فيها كثير من الأذكار، الحج فيه كثير من الأذكار، وكذلك سائر العبادات، والشَّريعة لم تترك العبد في أيِّ باب من أبواب حياته في متعلَّقات دنياه وآخرته إلَّا وربطته بذكر الله تعالى؛ في مدخله ومخرجه، في دخوله إلى المسجد وخروجه منه، في دخوله إلى المنزل وخروجه منه، وفي دخوله إلى الخلاء وخروجه منه، في نومه واستيقاظه منه، إلى غير ذلك ممَّا يفعله عند لُبسه وعند خلع ملابسه؛ ليظلَّ ذاكرًا لله -جلَّ وعلا-.

هذه العبادة كما ذكرنا من أجلِّ العبادات وأعظمها ولهذا قال -جلَّ وعلا-:﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[734] يقول شيخ الإسلام: (لَا رَيْبَ أَنَّ الْأَذْكَارَ وَالدَّعَوَاتِ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، وَالْعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى التَّوْقِيفِ وَالِاتِّبَاعِ لَا عَلَى الْهَوَى وَالِابْتِدَاعِ؛ فَالْأَدْعِيَةُ وَالْأَذْكَارُ النَّبَوِيَّةُ

[733] متَّفق عليه.
[734] سورة الجمعة: 9

هِيَ أَفْضَلُ مَا يَتَحَرَّاهُ الْمُتَحَرِّي مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَسَالِكُهَا عَلَى سَبِيلِ أَمَانٍ وَسَلَامَةٍ، وَالْفَوَائِدُ وَالنَّتَائِجُ الَّتِي تَحْصُلُ لَا يُعَبِّرُ عَنْهُ لِسَانٌ وَلَا يُحِيطُ بِهِ إِنْسَانٌ، وَمَا سِوَاهَا مِنَ الْأَذْكَارِ قَدْ يَكُونُ مُحَرَّمًا وَقَدْ يَكُونُ مَكْرُوهًا وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ شِرْكٌ مِمَّا لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ أَكْثَرُ النَّاسِ)[735] إلى أن قال: (فَفِي الْأَدْعِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَذْكَارِ الشَّرْعِيَّةِ غَايَةُ الْمَطَالِبِ الصَّحِيحَةِ وَنِهَايَةُ الْمَقَاصِدِ الْعَلِيَّةِ وَلَا يَعْدِلُ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَذْكَارِ الْمُحْدَثَةِ الْمُبْتَدَعَةِ إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُفَرِّطٌ أَوْ مُتَعَدٍّ)[736] هذا الكلام النَّفيس العظيم من شيخ الإسلام -رحمه الله- قاعدة في باب الأذكار، فينبغي معرفتها ورعايتها.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الأذكار توقيفيَّة ما جاء في الصَّحيحين من حديث البراء بن عازب لما علَّم النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أصحابه أذكار النَّوم؛ وقال: (فَرَدَّدْتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ) قال له النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**قُلْ: آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**))[737] وهذا دليلٌ ظاهرٌ واضحٌ على أنَّ الأذكار توقيفيَّة وأنَّه لا ينبغي للعبد أن يُحدث أذكارًا من عند نفسه فقد أحدث أقوامٌ أذكارًا فكانت وبالًا عليهم بسبب الجهل فدخلوا في البدع وفي غيرها من الأعمال الباطلة.

والذِّكر له تعلُّق بجميع جوارح العبد، فلا يكفي أن يكون العبد ذاكرًا لله تعالى بلسانه وقلبُه مُنصرفٌ مشغول عن الله تعالى وعن التَّفكُّر في نعمائه، وتأمَّل في أنَّ الله -جلَّ وعلا- ما أمرنا بذكره إلَّا قرن لنا أفعاله وذِكْر أفعاله، تأمَّل في مثل قوله:

_ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنَّ الله -جلَّ وعلا- أمر بالحمد وذكَّر بأنَّه هو الرَّب للعالمين.

_ قال -جلَّ وعلا-:﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾[738] فأمر بتسبيحه ونبَّه القلوب والجوارح إلى أنَّه -جلَّ جلاله- هو الخالق الَّذي سوَّى هذا الخلق والَّذي رزق هذا الخلق وأعطى هذا الخلق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديرًا -جلَّ جلاله-.

---

[735] "مجموع الفتاوى" ج22، ص511

[736] "مجموع الفتاوى" ج22، ص511

[737] عَنِ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ)) قَالَ: فَرَدَّدْتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: ((قُلْ: آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)) [متَّفقٌ عليه، واللفظ لمسلم]

[738] سورة الأعلى: 1-2

فالذِّكر تعلُّقه بالقلوب بأن تتفكَّر في عظمة هذا المذكور -جلَّ جلاله-، فالذِّكر يقع بالقلب ويقع باللِّسان، ويُؤجر الإنسان على قدر جمعه بين هَذين الأمرين، وكلَّما اجتمع له من صحيح ذكر القلب وتأمُّله وصحيح ذكر اللِّسان ونُطقه من الذِّكر اجتمع له من الأجر، وإن كان العبد يُؤجر على ذكره لله -تبارك وتعالى- بلسانه إذا استمرَّ عليه وداوم عليه لعلَّه أن يصل به إلى أن يستحضر قلبه؛ فلا يقول قائل: (أنا أذكر ولكنِّي لا استشعر أثر الذِّكر في قلبي) بل اذكُر الله -جلَّ وعلا- كما في هذا الحديث -الَّذي سيأتي الكلام عليه-، لابدَّ وأن تذكر الله -تبارك وتعالى- وأن تُجاهد نفسك على أن تستحضر قلبك عند الذِّكر: مَنْ هذا الَّذي تُسبِّحه؟ ما أفعاله؟ ما أوصافه؟ ما أسماؤه؟ ما صِفاته؟ كلُّ هذا ممَّا يُحدث لكَ التَّأمُّل في الذِّكر.

والذِّكر -كما ذكرتُ لكم- فوائده عظيمة جليلة: (قَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ لِلذِّكْرِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ فَائِدَةٍ، مِنْهَا: طَرْدُ الشَّيْطَانِ وَقَمْعُهُ، وَأَنَّهُ يُرضي الرَّحْمَنَ وَيُزِيلُ الْهَمَّ وَالْغَمَّ عَنْ الْقَلْبِ، وَيَجْلِبُ لَهُ الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ، وَيُقَوِّي الْبَدَنَ وَالْقَلْبَ، وَيَجْلِبُ الرِّزْقَ، وَيُكْسِي الذَّاكِرَ الْمَهَابَةَ وَالْحَلَاوَةَ وَالنُّضْرَةَ، وَيُورِثُهُ الْمَحَبَّةَ الَّتِي هِيَ رُوحُ الْإِسْلَامِ وَقُطْبُ رَحَى الدِّينِ وَمَدَارُ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، وَجَعَلَ سَبَبَ الْمَحَبَّةِ دَوَامَ الذِّكْرِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنَالَ مَحَبَّةَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَلْيَلْهَجْ بِذِكْرِهِ، فَإِنَّ الدَّرْسَ وَالْمُذَاكَرَةَ كَمَا أَنَّهُ بَابُ الْعِلْمِ، فَالذِّكْرُ بَابُ الْمَحَبَّةِ وَطَرِيقُهَا الْأَعْظَمُ، وَصِرَاطُهَا الْأَقْوَمُ، وَيُورِثُ الذِّكْرُ الذَّاكِرَ الْمُرَاقَبَةَ حَتَّى يُدْخِلَهُ فِي بَابِ الْإِحْسَانِ فَيَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَيُورِثُهُ الْإِنَابَةَ وَهِيَ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ وَالْقُرْبُ مِنْهُ، وَيَفْتَحُ لَهُ بَابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الْمَعْرِفَةِ، وَيُورِثُهُ الْهَيْبَةَ لِرَبِّهِ وَإِجْلَالَهُ لِشِدَّةِ اسْتِيلَائِهِ عَلَى قَلْبِهِ وَحُضُورِهِ مَعَ اللهِ بِخِلَافِ الْغَافِلِ، وَحَيَاةَ الْقَلْبِ)[739] وهذا مُجمل ما لخصَّه العلَّامة السَّفاريني -رحمه الله- من كلام ابن القيِّم -عليهم رحمة الله تعالى- في فوائد الذِّكر.

فالعبد لابدَّ أن تكون له أورادٌ يقوم بها، يذكر الله -جلَّ وعلا- فيها، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام جاءه هذا الرَّجل فقال له:[إنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا] يعني أنَّه تنوَّعت عليه الأوامر المشروعة من الفرائض والواجبات والمستحبَّات الَّتي شرعها الله -تبارك وتعالى-، وقد لا يقوى على فعل بعض هذه المستحبَّات وبعض هذه النَّوافل، فاسترشد النَّبيَّ عليه الصَّلاة

739 "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله، ج2، ص488.

والسَّلام إلى أن يدُلَّه على شيءٍ يتشبَّثُ به ويتمسَّك به، فطلب منه أن يدُلَّه على بابٍ يلجُ منه ويتمسَّك به يجمع له هذه الشَّرائع.

قال: ((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ)) وإنَّما أمره بالذِّكر لأنَّ من جعل قلبه ولسانه متعلِّقا بذِكر الله -كما قال مَن قال من أهل العلم-: (مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ)[740] وهذا أمرٌ معلوم؛ وأنتم تنظرون إلى الَّذين تتعلَّق قلوبهم بأمور الدُّنيا كيف يُكثرون من ذكرها، فمن أحبَّ الدُّنيا مُجملة مفصَّلة أكثر من ذكرها، من أحبَّ الغناء والفنَّ أكثر من ذِكره وذِكر أهله، من أحبَّ الرِّياضة أكثر من ذكرها وذِكر أهلها ورُموزها، وهكذا إذا أحبَّ طالبُ العلمِ العلمَ أكثر من ذكره وأكثر من ذكر أهله، وهكذا مَن نظر في أسماء الله -جلَّ وعلا-، ونظر في صفاته، ونظر في أفعاله، [...][741] فإنَّ ذلك يُحدث له من الرَّهبة والرَّغبة في ذكر الله -تبارك وتعالى-.

فالعبد مأمورٌ بذكر الله؛ كما قال -جلَّ وعلا-:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[742]، بل إنَّ الرَّب -جلَّ وعلا- قد أمرَ بأنواعٍ من العبادات الجليلة العظيمة الَّتي مُجملها من أركان الإسلام كهذه الصَّلاة الَّتي هي خير الأعمال كما جاء في حديث ثوبان[743] وأبي أُمامة رضي الله عنهما أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُم الصَّلَاة**))[744] -كما عند ابن ماجه وغيره بسند صحيح-، ((**وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُم الصَّلَاة**)) وإذا نظرتَ إلى الصَّلاة فإنَّها مفتتحة بالذِّكر ومختتمة بالذِّكر وبين فَتحها وختمها: أذكار، لا فعل من الأفعال إلَّا وله أذكار لها تعلُّق بهذه الصَّلاة، وإذا انتهى العبد من الصَّلاة وخرج منها بالتَّسليم -وهو ذكر لله تعالى- لم ينقطع عن ذكر الله بل أُمر بأن يستغفر

740 "طريق الهجرتين" لابن القيم رحمه الله، ص19.

741 انقطاع يسير في الصوت.

742 سورة الأحزاب: 41-42

743 من طريق ثوبان رضي الله عنه بلفظ: ((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)) ["سنن ابن ماجه" رقم:177، ج1، ص101] وصحَّحه الألباني رحمه الله.

744 ((اسْتَقِيمُوا، وَنِعِمَّا إِنِ اسْتَقَمْتُمْ،وَخَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاة، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)) ["سنن ابن ماجه" رقم:179، ج1، ص102] من طريق أبي أمامة رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني رحمه الله.

الله: (استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله)[745] ثمَّ يأتي بالتَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير والتَّهليل، ويأتي بالدُّعاء الَّذي منه -ومن أعظمه وأجلّه-: ((**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الجَلَالِ والإِكْرَام**))[746]، وفيه قوله: ((**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أعْطَيتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدّ مِنْكَ الْجَدُّ**))[747] إلى غيرها من الأذكار في التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير والتَّهليل.

كذلك الحج الَّذي يقطع فيه العبد عناء وتعب السَّفر ويأمره بأن يُلبي التَّلبية، يَظلُّ مُلبِّيًا حتَّى ينتهي من أفعاله في الحجِّ وفي العمرة، وإذا انقضى من الحج وخرج من يوم عرفة وقد قضى وقته في ذكر الله -تبارك وتعالى- ذاكرًا لله داعيًّا في ذلك الموقف العظيم الَّذي هو أجلّ المواقف؛ يأمره الله -تبارك وتعالى- بأن ينصرف راشدًا ذاكرًا مستغفرًا:﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[748].

يقومون من اللَّيالي في سوادها وظلامها يتقلَّبون في طاعة الله -تبارك وتعالى- وذِكره ودُعائه ثمَّ يأمرهم الله -جلَّ وعلا- ويُثني عليهم بالاستغفار في ذلك الوقت؛ فقال -جلَّ وعلا-:﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[749].

فهذا العمل وهذه العبادة مع يُسرها كم فيها من الأذكار؟ هذه الأذكار كم فيها من الفوائد؟ كم فيها من الفضائل الَّتي بيَّنها النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام؟ كثيرةٌ جدًّا مع أنَّها يسيرة ولكن ليس كلُّ أمرٍ يسير يكون يسيرًا على كلِّ النَّاس؛ ولهذا جاء في الحديث الَّذي مرَّ معنا -حديث معاذ رضي الله عنه- أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْه)) فليس كلُّ أمر يسير يكون يسيرًا على جميع النَّاس إنَّما التَّيسير من الله، والإعانة من الله.

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

---

[745] عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) رواه مسلم.

[746] رواه المسلم.

[747] رواه البخاري ومسلم.

[748] سورة البقرة: 199

[749] سورة آل عمران: 17.

فالواجب علينا جميعًا أن ننظر في أحوالنا وفي أقوالنا وفي أفعالنا.

❁ الأذكار كثيرة جدًّا، صنَّف فيها طوائف من أهل العلم الكُتب وأفردوها، -وكما ذكرتُ لكم- من أحسنها كتاب الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله-، وكذلك كتاب الحافظ النَّووي -رحمه الله تعالى- الَّذي صنَّفه في الأذكار وشَرَحَه كثيرٌ من أهل العلم.

فلابدَّ للعبد أن تَكون له من هذه الأعمال العظيمة الجليلة الَّتي يرفع الله بها الدَّرجات ويمحو الله -تبارك وتعالى- بها الخطايا ويزكو بها العبد عند ربِّه -تبارك وتعالى-.

وهنا النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال لهذا الرَّجل: ((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ)) لأنَّ هذه الأذكار تَرْطُب بها الألسن وتَلين بها القلوب، نعم تلينُ بها القلوب، إذا ذَكر العبد ربَّه كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث السَّبعة الَّذين يُظلُّهم الله في ظلِّه: ((**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه**))[750]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ**))[751] فأمرهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بذكر الله -تبارك وتعالى-؛ فالعبد في هذه الأفعال وفي هذه الأقوال لابدَّ وأن يستحضر عظمة الله -تبارك وتعالى- فيما يذكره وما يتكلَّم به.

((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ)) تأمَّل في هذا الحديث.

الذِّكر ليس مُجرد حركات يقوم بها العبد؛ بل تُؤثِّر عليه في أفعاله وفي أقواله وتمجيده للرَّب -تبارك وتعالى-، هذا ذكر الله -تبارك وتعالى- إذا فعله العبد فإنَّ الله -جلَّ وعلا- يرفع به الدَّرجات ويمحو الله -تبارك وتعالى- به الخطايا، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[752].

---

750 متَّفق عليه.

751 ((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" من طريق أبي الدرداء رضي الله عنه]

752 سورة آل عمران: 191

فالله الله جميعًا أن نحثَّ أنفسنا على ذِكر الله ولو على الأقل الذِّكر المقيَّد كالذِّكر عند النَّوم والذِّكر عند الانتباه والذِّكر عند دخول المسجد وعند الخروج منه مع التَّأمُّل فيها؛ تأمَّل مثلًا في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام في دخول المسجد: **((اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ))**[753] وفي خروجه: **((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))**[754]، استعمل في الدُّخول إلى الصَّلاة (الرَّحمة): **((افْتَح لِي أبْوَابَ رَحْمَتِكَ))** لأنَّ رحمة الله -جلَّ وعلا- أوسع وأجلّ وأعظم، واستعمل في الخروج: **((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))** تأمَّل في هذا فإنَّ الصَّلاة هي الرَّحمة والدُّنيا فضلٌ من الله -تبارك وتعالى-.

753 رواه مسلم.
754 رواه مسلم.

❀ خاتمة ❀

أسأل الله -جلَّ جلاله- في ختم هذا الكتاب أن يجعلني وإيَّاكم ممَّن إذا أُعطيَ شكر وإذا ابتُلي صبر وإذا أذنب استغفر، وأن يرزقنا ذِكره، فهو وليُّ ذلك والقادر عليه، ومن أحبَّ شيئًا أكثر من ذِكره؛ وفَّقني الله وإيَّاكم لما يُحبُّ ويرضى.

والحمد لله ربِّ العالمين

والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا مُحمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.